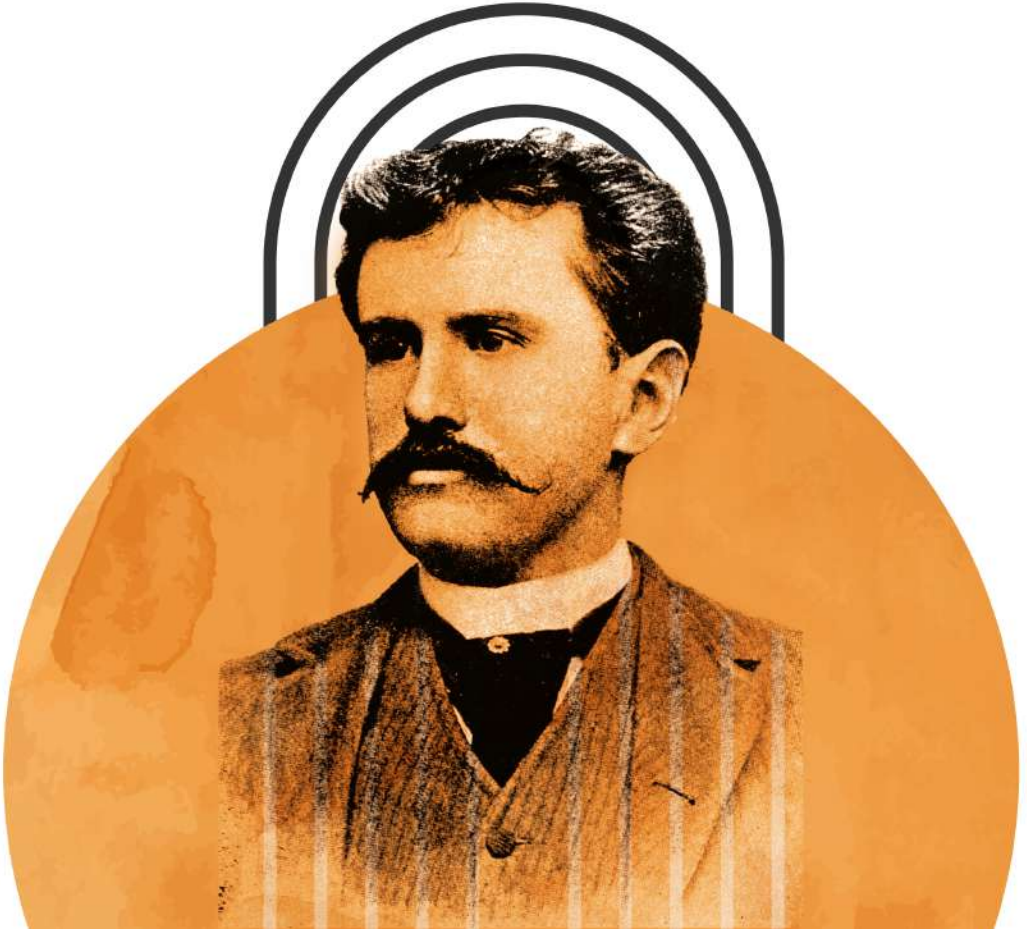


جائزة أو هنري

أفضل القصص لعام ٢٠٠٧

ترجمة عبد المقصود عبد الكريم



جائزة أو هنري

أفضل القصص لعام ٢٠٠٧

تحرير

لورا فيورمان

ترجمة

عبد المقصود عبد الكريم



الناشر مؤسسة هنداوي

المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شبيت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة

تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبرُ الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٢ ٣٦٩٠ ٢

صدر أصل هذا الكتاب باللغة الإنجليزية عام ٢٠٠٧.

صدرت هذه الترجمة عام ٢٠١١.

صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الدكتور عبد المقصود عبد الكريم.

المحتويات

٧	الغرفة
١٩	رائحة القرفة
٢٩	الملاك
٤٣	خليج جلفستون ١٨٢٦
٥٣	هدية السنوات
٧٣	كاتب اليوميات
٩٥	رفاق الحرب
١١٧	جميلة
١٣٥	في عين دب
١٤١	صيف مع توأم
١٥٧	لسانُ قاتل
١٦٩	الرفيق
١٨٩	منزل حجري
١٩٩	صحبة الرجال
٢١٥	زيارة مدينة
٢٢٩	دوقة ألبنى
٢٣٧	نوع جديد من الجاذبية
٢٥٧	الغرباء
٢٦٧	عين الماء
٢٨٥	المشهد من على صخرة القلعة

الغرفة

تأليف: وليم تريפור^١

سأل: «هل تعرفين لماذا تفعلين هذا؟» ترددت كاترين، ثم هزّت رأسها، مع أنها كانت تعرف.

شَفَتْ تسعُ سنوات البلوى تقريباً، يسَّر كل يوم مرَّ الأمر قليلاً، حتى أخذ بلسم العمل منها، وفي كسلها وإهمالها توقف الشفاء. كانت هنا لهذا السبب، لا يمكن أن تفكر في سبب آخر، لكنها لم تَقْ به.

«وأنت؟» سألت بدلاً من ذلك.

كان ذات يوم في متناول اليد. قال إنها جذبتة حين جلب الوحدة على نفسه بالشجار المتكرر مع زوجته التي أنجبت أطفاله وقدمت الرعاية له.

قال: «أسف بشأن الغرفة.»

كانت أشياءؤه ملفوفة، كُتِب وكراطين وحقائب مفتوحة، لم تُفكْ محتوياتها بعد. مُشَغَل وُرد لم يُوصَل، كابلاته مُلقاة على الأرض؛ ملابس على حمّالات مكوّمة خلف الباب؛ دراسة تشريحية لـفيل تُزين أحد الجدران، مع أسهم تُشير إلى مواضع أعضاء معينة تحت البشرة

^١ وليم تريפור William (١٩٢٨-٩): كاتب أيرلندي وكاتب مسرح. يقيم في إنجلترا منذ خمسينيات القرن العشرين. كتب عدة روايات ومئات القصص القصيرة. نال جائزة وتبيرد Whitbeard ثلاث مرات، ورُشح خمس مرات لجائزة البوكر. والعنوان الأصلي للقصة The Room.

الجلدية. لم تكن هذه الصورة الرمادية صورته، قال حين سألتُ كاترين؛ كانت في الغرفة التي عثر عليها في عجالة. كان هناك حوض في الزاوية نفسها بمثابة بانيو، وغلاية كهربية وحلقة غاز على رف، ستارة خضراء من البلاستيك غير مسدلة. قال وبدا كأنه يعني الغرفة: «إنها الآن أكثر خصوصية إلى حد ما عما كانت عليه حين كنت هنا.»

حين نهضت كاترين لترتدي ملابسها كانت تستطيع القول إنه لا يرغب في أن تغادر. لكن كان عليه هو، لا هي، أن يغادر؛ تستطيع البقاء بعد الظهيرة بطولها. لاحظتُ، وهي تُزرِّ كمُّ ثوبها، أنها على الأقل عرفت الآن الإحساس بالخداع. قالت: «كيف كان وقع ذلك على فيير.»

سحبت حافة الستارة إلى الخلف قليلاً ليسقط الضوء بشكل مباشر أكثر على المرأة الوحيدة في الغرفة. سرَّحتُ شعرها، ما زال أسمر، لم يظهر فيه شعر رمادي بعد. لم يشب شعر أمها على الإطلاق، ولم يشب شعر جدتها إلا وهي طاعنة في العمر، وهو شيء لا تتمناه كاترين لنفسها؛ كانت في السابعة والأربعين. حدَّقت عينها في انعكاس صورتها في المرأة، أحمر شفاهها مُلطخ، ثمة فراغ في ملامحها لا يتناسب مع الحاجة إلى إصلاح مكياجها. يضمحل جمالها، لكن ببطء، ولا يزال هناك بعض الجمال.

سأل: «هل كنتِ حريصة على ذلك؟» اكتمل لباسه. «الخداع؟»

«نعم، كنتُ حريصة.»

«وهل تكونين حريصة مرة أخرى؟»

لا تزال كاترين تُعدِّل اضطراب وجهها، لم تستطع الرد على الفور. ثم قالت: «إذا أردت.»

في الخارج كان جو بعد الظهيرة دافئاً، وبدا الشارع حيث الغرفة — فوق محل مراهنات — أكثر إشراقاً ولطفاً عما لاحظته كاترين وهي تقطعه سيراً من قبل. كان هناك هدوء بعد الظهيرة رغم المحلات والسيارات. كانت الطاولات خاوية خارج «الأمير والكلب»، سلال الباذنجان مُعلَّقة على جانبي صورته الفخمة، ويوغسلافي بقدم مرفوعة. وكان هناك مقهى كوستا بجوار بریت مانجر وكاترين تعبر إليه.^٢ «قهوة بالحليب»، أمرت الفتيات

^٢ بریت مانجر a Pret a Manger: سلسلة مطاعم للوجبات السريعة، مركزها ويستمنستر، لندن.

اللائي يُشغَلْنَ ماكينات الجاجيا والتقطن الفطيرة من صندوق زجاجي على الطاولة وهي تنتظرها.^٢

لم تعرف الرجل الذي نامت معه. رقص معها في حفلة ذهبت إليها بمفردها، ثم رقص معها مرة أخرى، وضمَّها أكثر، سألها عن اسمها وعرفها باسمه. لم يكن فيير يصطحبها إلى الحفلات في تلك الأيام، ولم تكن تذهب غالبًا. لكنها كانت تعرف ما عزمَتْ عليه، الذهاب إلى تلك الحفلة.

كانت الطاولات القليلة مشغولة كلها. وجدتْ مقعدًا على البار الذي يمتد بطول أحد الجدران. «محظور على المراهقين!» اعترض عنوان بارز في صحيفة مسائية مع شخص آخر، بنبرة انتقام، ولبضع لحظات تساءلت لماذا هذا كله، ولم تبال بعد ذلك.

كان فيير هادئًا على مكتبه في قميصه من دون جاكِت، القميص الأزرق المُخطَّط الذي كواه أول من أمس، شعره مُجَعَّد يُشبه الزنجبيل كما كان ذلك الصباح الذي غادرت المنزل فيه، ترحب ابتسامته المقبولة بكل من يقترب منه. رغم ما حدث منذ تسع سنوات، لم يصبح فيير زائدًا عن الحاجة، هذا التعبير المهذب يفيد أنه مطرود. كان الإبقاء عليه تقديرًا لنجاحه في الماضي، ولم يكن من المناسب، بالطبع، تدمير رجل ساءت به الحال. «ينبغي أن نرحل»، قالت وتذكرت أن تقول الآن، لكنه لا يرغب، لأن الرحيل لم يكن شيئًا لم يُفَعَلْ، رغم ذلك. ربما كان سيدعوه رحيلاً؛ في الحقيقة دعاه.

حكى لها، في هذه الأمسية، عن يومه، وحكَّتْ له عن يومها، وكان عليها أن تكذب. واستمعا وهي تجلب مختلف الأطباق إلى مائدة الطعام، وكان يصب نبيذًا لها. لم يصب نبيذًا لنفسه لأنه لم يعد يشرب إلا إذا ضغط أحد عليه، وفي هذه الحالة فقط حتى لا يبدو فظًا. «تحطم زواجي»، أفضى الرجل الذي مارس الحب معها في سَكْنِهِ المؤقت بدخيلة نفسه حين رقصا معًا مثل غريبين. سألها: «وزواجك؟» ترددت وقالت: لا، لم يتحطم. لم يدرْ حديث حول ذلك أبدًا. وحين رقصا في المرة الثانية، بعد أن شربا معًا، سألها بعد قليل إن كان لديها أطفال، وقالت ليس لديها أطفال. هذا ما لم تعرفه قبل الزواج وأصبح جزءًا منه، كما هو حال وظيفتها في معهد شرترهاوس، التي استمرت حتى قبل ستة أسابيع، حين قرر المعهد غلق أبوابه.

^٢ ماكينات الجاجيا Gaggia machines: ماكينات لصناعة القهوة، وجاجيا شركة إيطالية.

«الكسل مزعج»، قالت وهما يرقصان، وسألت عشيقها المستقبلي إن كان قد سمع عن شارون ريتشي. كثيرًا ما اعتقد الناس أنهم لم يسمعوها عنه ثم يتذكرون بعد ذلك. هزَّ رأسه والاسم لا يزال غريبًا عليه حين أخبرته بالسبب الذي ربما جعله يسمع عنه. «قُتِلَت شارون ريتشي»، قالت، وما كانت لتقول لو لم تشرب. «كان زوجي متهمًا».

نفخت على سطح قهوتها، وكانت لا تزال شديدة السخونة. سكبت السُّكَّر من ورقته على ملعقتها، وشاهدت السُّكَّر يَقم والقهوة تتشربه. أحببت مذاقه، مثلما أحببت مذاق كل شيء عصر ذلك اليوم. «أوه، حُخِنْتُ»، قالت حين سُئِلَتْ كيف ماتت مَنْ كانت تُدعى شارون ريتشي. «حُخِنْتُ بوسادة» كانت حياة شارون ريتشي حقيرة، كانت تعيش ببذخ في مكان رائع، يزورها كثير من الرجال.

جلست كاترين وقتًا طويلًا تُحدِّق في فتات فطيرتها، وقهوتها المشروبة. «نتعاش مع الظروف»، قالت حين غادرا الحفلة معًا، ليعود إلى زوجته التي لم يعد يواصل معها، وتعود إلى زوجها الذي انتهى خداعه لها بموت. مفتونة بذلك، منذ ساعة في الغرفة التي كانت سَكَنَهُ المؤقت، أراد عشيق بعد الظهيرة معرفة كل شيء.

في النفق، واصلت مشاهدة الغرفة: صورة الفيل، الحقائق، الكابلات المُلقاة، الملابس خلف الباب. صواتهما اللذان تردد صداهما، فضوله، مراوغاتها، ثم إضافة بضع كلمات لأنها، رغم كل شيء، كانت تدين له بشيء ما. دفع لها بشيك ذات يوم، أوه، منذ فترة طويلة. هكذا ورطوه في الأمور. وحين تحدثوا إلى العجوز التي في الشقة عبر منبسط درج شقة شارون ريتشي تعرَّفت عليه من صورة عرضوها عليها. «أوه، نعم، نتعاش معها».

لم تُشغَلْ تذكرُها بابَ الخروج وهي تحاول مغادرة محطة الأنفاق، وتذكرت أنها خمنت كم قيمة الأجرة، ولا بُدَّ أن هناك خطأ. كان الهندي الذي هناك للتعامل مع مثل هذه الأخطاء أقرب إلى الحدة. حاولت توضيح أن رحلتها كانت مختلفة من قبل؛ اختلطت عليها الأمور. «حسنًا، هذه أمور تحدث»، قال الهندي، وأدركت أن حدثه غير مقصودة. حين ابتسمت لم يلاحظ. اعتقدت أنها طريقته أيضًا.

اشتريت صدرى دجاجة طبيعية عضوية؛ وقَرَعًا صيفيًا وفاكهة. لم تعد قائمة كما اعتادت، وتساءلت إن كان ذلك يتلاءم مع عصر ذلك اليوم، واعتقدت أنه قد يتلاءم. حاولت أن تتذكر أي حبوب للفطور يجب استكمالها ولم تستطع. ثم تتذكر زُبْد نورماندي والطماطم. كانت الساعة قبل الخامسة تمامًا حين دخلت الشقة. كان التليفون يرن، وقال فيير إنه متأخر بعض الشيء، ليس كثيرًا، ربما عشرين دقيقة. جرت إلى الحمام.

خبطت أطراف أصابعها الذراع القريبة منه. قال إنه يعتقد أنه يحبها. هزت كاترين رأسها.

قال: «أخبريني.»

«أخبرك، مع ذلك.»

لم يلح. مكثا في صمت بعض الوقت.

ثم قالت كاترين، «أحبه أكثر، الآن أشعر بأسف شديد عليه، أيضًا. أشفق عليّ حين عرف أنني محرومة من الأطفال الذين كنا نرغب فيهم. يصنع الحب قدرًا كبيرًا من الشفقة، ألا تعتقد ذلك؟»

«بلى. أعتقد.»

حدّثته أكثر، وأدركت أنها ترغب في ذلك، وهو ما لم تعرفه من قبل. حين أتى الشرطيان في الصباح الباكر، لم تكن قد لبست ملابسها. كان فيير يُعدُّ القهوة. «فيير ألكسندر وربرتون»، قال أحدهما. سمعته من غرفة النوم، وماء الحمام الذي أخذته لا يزال يتساقط. اعتقدت أنهما أتيا ليكتب تقريرًا عن حالة وفاة، كما يفعل رجال الشرطة أحيانًا: أمها أو خالة فيير، قريبته. حين نزلت الدرج، كانوا يتحدثون عن موت شخص لا تعرف اسمه. «من؟» سألت، وقال الشرطي الأطول: «شارون ريتشي»، ولم يقل فيير شيئًا. «شرح زوجك»، قال الرجل الآخر، «لم تعرفي مس ريتشي». في ليلة الخميس، الثامن، منذ أسبوعين، قالا. في أي وقت — يمكن أن تتذكر — جاء زوجها؟

تلعثمت، تاهت وسط هذا كله. «لكن مَنْ هذا؟ لماذا أنتما هنا؟» وقال الشرطي الأطول إن هناك بضعة أهداف غير محددة. «اجلسي يا مدام»، تدخل زميله، وسُئلت مرة أخرى في أي وقت عاد زوجها. تأخر أسوأ من المعتاد في مترو الأنفاق، قال في تلك الليلة، الخميس قبل الماضي. انتظر وانصرف كما فعل الآخرون جميعًا. ولم يكن العثور على تاكسي سهلًا بسبب الأمطار. «هل تتذكرين يا مدام؟» ألح الشرطي الأطول، وجعلها شيء ما تقول إن فيير عاد في الوقت المعتاد. لم تستطع التفكير؛ لم تستطع لأنها تحاول أن تتذكر إذا كان فيير ذكر شارون ريتشي في وقت ما. «زار زوجك مس ريتشي»، قال الشرطي نفسه، ورن بيجر الرجل الآخر فأخذه إلى النافذة، وأدار لهم ظهره. «لا، نتحدث إليه الآن»، غمغم فيه، محافظًا على انخفاض صوته، لكنها استطاعت أن تسمع. «أوضح زوجك أن ذلك كان اليوم الذي قبله»، قال زميله. «وقبل ذلك — في وقت الغداء — كانت آخر زيارة قام بها إلى مس ريتشي.»

مُنْذَرَةً، أرادت كاترين أن تبقى هنا، في الغرفة. أرادت أن تنام، لتعرف الرجل الذي لم تعرفه جيداً بجوارها، لتجعله ينتظرها حين تستيقظ. بسبب موجة الحرارة التي بدأت منذ أسبوع، شغل مكيف الهواء، من طراز قديم في النافذة.

قال: «ينبغي أن أنصرف».

«لن أمكث طويلاً بالطبع».

تحتهما، سباق آخر للجياذ وصل إلى مرحلته المثيرة، وتعليق الراديو يصل إليها شاحباً وهما يرتديان ملابسهما. نزلا معاً سلالم ضيقة غير مفروشة، بعد الباب المفتوح لمحل المراهنات.

سأل: «هل تأتين مرة أخرى؟»

«نعم».

واتفقا على اللقاء عصرًا بعد عشرة أيام، لأنه لا يستطيع الخروج من المكتب الذي يعمل فيه.

قالت قبل أن يفترقا: «لا تتركني أحدث عن ذلك، لا تسأل، لا تتركني أحدث».

«إذا كنت لا ترغبين».

«هذا كل ما كان. وهو مُمل بالنسبة لك، أو سيكون مُملًا عن قريب».

بدأ يقول إنه لم يكن، كانت تلك هي المشكلة. عرفت أنه بدأ يقول ذلك لأنها تستطيع رؤيته على وجهه قبل أن يُغيّر رأيه. وكان بالطبع على حق؛ لم يكن أحرق. لا يمكن قمع الفضول بسهولة.

لم يتعانقا قبل أن يسرع مبتعدًا، لأنهما فعلا كل ذلك. حين رآته يمضي، بدا كأنها عادة بالفعل، وتساءلت وهي تعبر الشارع إلى كافيه كوستا إن كانت أوقات بعد الظهر هنا ستشهد، بالتكرار، بعض الاختلاف في النظام وأنماط العمل الذي افترضته كثيرًا.

«أوه، لا شيء إطلاقًا»، قالت حين سُئلت إن كانت هناك فرص لشيء آخر. وتساءلت آنذاك إذا كانت ستقوم مرة أخرى برحلاتها الصباحية عبر لندن، بمهارة في محطات الأنفاق المزدحمة، مكبوسة في القطارات المزدحمة أيضًا، وضعها المهم، والزملاء الكرام الذين عوّضوها عن الكآبة وأبعدوا عنها أشباحها. لم تعرف حتى قال فيير، ليس منذ زمن طويل، بدا ذلك الروتين، بالنسبة له، غالبًا مثل ترياق للعبة.

ما كان ينبغي أن تتحدث كثيرًا في عصر ذلك اليوم، قالت كاترين لنفسها، وهي تجلس في الموضع الذي كانت تجلس فيه من قبل. لم تخبر أبدًا أي شخص آخر بأي شيء على

الإطلاق، ولم تتحدث عمّا حدث لمن تعرفهم. إنني قلقة، اعتقدتُ، وفي الخارج هطل المطر فجأة، مع رعد بعيد، منهيًا الحرارة المرتفعة.

حين انتهت كاترين من تناول قهوتها، لم تغادر الكافية، لم يكن معها مظلة. كانت الأمطار تهطل في لندن في تلك الليلة أيضًا. هطل عليها المطر لأن العجوز في الشقة عبر بسطة السلم نظرت إلى الخارج حين هطلت الأمطار، وأخبار السادسة تبدأ في الراديو أيضًا. تذكرت المرأة ذلك قبل أن تعبر النافذة الواسعة المفتوحة شبه طائفة إلى السلم العمومي على الفور لتغلقها، لكن السجادة كانت مشبعة بالمياه مرة أخرى. وهي تفعل ذلك سمعت باب ردهة الدور السفلي تفتح ووقع خطوات تبدأ على السلم. حين وصلتُ إلى بابها، وصل الرجل إلى بسطة السلم. «لا، لم أعتقد أبدًا أن هناك شيئًا بهذا الشؤم»، قالت فيما بعد، صراحة. لا شيء بهذا الشؤم بشأن الفتاة التي شغلت الشقة التي في الناحية الأخرى من بسطة السلم، بشأن الرجال الذين اعتادوا زيارتها. قالت: «لم أصدق». التفتت وهي تصل إلى باب شقتها وألقت نظرة على الرجل الذي جاء في تلك الليلة. رأيته من قبل، طريقة وقوفه في انتظار أن تسمح الفتاة له بالدخول، ملابسه، شعره، حتى وقع أقدامه على السلم: لا شك في ذلك إطلاقًا.

امتلاً الكافية، ازدحم المدخل بأناس احتموا به، واصطف آخرون عند الطاولة. سمعت كاترين استدعاءً متقطعاً من تليفونها المحمول، وهو صوت تكرهه، مع أنها اختارته في الأصل بنفسها. صوت كأنه صوت طفل يقول شيئاً لا تفهمه، ثم تكرر، ثم انقطع الخط. كانت أصواتٌ كثيرة تُشبه صوت الطفل في تلك الأيام، على ما اعتقدتُ، وأعادت التليفون إلى حقيبة يدها. قال فيير: «موضة، صوت التليفون الذي يُشبه صوت الرضيع، غريب على ما يبدو.»

«لا شيء مرة أخرى؟» كان فيير يستفسر دائماً حين يدخل. اهتمّ بما فُرضَ عليها بشكل عشوائي غير متوقع، وأعاد مرة أو اثنتين الحديث عن الوظائف الشاغرة. وحتى في أشد حالات جزعه، ولطفه، اعتاد التفكير في الأمر. كان أمراً سيئاً وسيكون كذلك دائماً بالنسبة لفيير، ذلك الشروع في التفكير.

رَنَ تليفونها المحمول مرة أخرى، وقال صوته إنه في ساعة الغداء اشترى هليون^٤ لأنه لاحظته في الكشك، وكان يبدو جيداً ولم يكن غالياً. ذكرا الهليون أمس، وأدركا أنه موسمه؛

^٤ هليون asparagus: نبات من الفصيلة الزنبقية.

كانت ستشتري بعضًا منه لو لم يتصل. «في طريق الخروج من السينما»، قالت، قالت بالفعل إنها رأت للتو «الطريق»^٥ مرة أخرى. حاول الاتصال بها قبل ذلك بساعة، لكن تليفونها كان مغلقًا. قال: «حسنًا، نعم، بالطبع.»

كان عُمُرُ العلاقة الغرامية التي حدثت ستة شهور لأن شيئًا آخر كان خطأ، قال ذلك الرجل الذي قابلته في الأمسيات، وكان يعرف أكثر مما تعرف كاترين عن العلاقات الغرامية. وكأنه كان يدرك دائمًا أنه بعد مرور أكثر من ستة شهور بقليل سيعود إلى زوجته. ومنذ ذلك الوقت، أبقى على الغرفة حتى يستقر الالتئام من جديد — وربما إذا لم يحدث ذلك — لكن أشياءه لم تعد هناك. بالنسبة لكاترين بدت الغرفة أكبر، لكنها أكثر قذارة بدون أشياءه.

«لماذا تحبين زوجك يا كاترين؟ بعد هذا كله — المأزق الذي وضعك فيه؟»

«لا أحد يستطيع الرد على هذا السؤال.»

«أنت وهو، يختبئ كل منكما من الآخر.»

«نعم.»

«وهل أنت خائفة يا كاترين؟»

«نعم. إننا خائفان. نحلم بها، نراها ميتة. ونعرف في الصباح إن كان الآخر حلم.

نعرف ولا نقول.»

«لا ينبغي أن تخافي.»

لم يتجادلا أبدًا في الغرفة، ولا حتى باعتدال، لكنهما اختلفا ولم يتتبعًا خلافاتهما. أو فشلًا في الفهم وتركًا ذلك أيضًا. لم تسأل كاترين عن إمكانية التئام الزواج مع بقاء هذه الغرفة لهما لغرض من الأغراض. لم يدفعها عشيقها العابر للكشف عمّا لا تزال تحتفظ به.

قال: «لا أستطيع تخيله»، لكن كاترين لم تحاول وصف زوجها، علّقت فقط بأن اسمه الأول يناسبه. قالت إنه اسم عائلة.

«تعرفين أنك رائعة بمعنى الكلمة، لا زلتِ تحبينه بكل هذا العمق.»

«وأنا هنا مع ذلك.»

«ربما قصدتُ ذلك.»

^٥ الطريق La Strada: فيلم للمخرج الإيطالي فيليني (١٩٥٤م).

«لا يعرف الناس غالباً سبب ما يقومون به.»

«أحسبك على حديثك. هذا ما يجعلني أحبك.»

ذات مرة كان عليه أن ينصرف وبقية. كان متعجلاً في ذلك اليوم، ولم تكن جاهزة تماماً. قال: «أغلق الباب فقط.»

استمعتُ إلى خطواته تدب على الدرج وتذكَّرت العجوز التي تقول إنها تعرَّفت على خطوات فيير. كان على محامي فيير أن يسأل في المحكمة إن كانت متأكدة من ذلك، وتساءل كيف يمكن لها، حيث إنها لكي تسمعها في مناسبات سابقة ينبغي أن تكون على بسطة السلم في كل مرة، وهو أمر بعيد الاحتمال بالتأكيد. كان عليه أن يوحى بأنها على ما يبدو تقضي على البسطة المشتركة وقتاً أكثر مما تقضيه في شقتها. وتساءل إن كان لغريب عابر أن يترك وراءه انطباعاً جلياً بملامحه، حيث كل من واجهه هناك لم يواجهه لأكثر من برهة.

وحدها في الغرفة، لا تريد مغادرتها بعد، عادت كاترين إلى السرير الذي تركته منذ دقائق فقط. شددت الغطاء عليها رغم عدم برودة الجو. لم تُسحب ستائر النافذة وسرَّها ذلك. قال فيير بعد أن انصرف الشرطيان: «لم أعد أهتم بتلك الفتاة، لكنني كنت مغرمًا بها بشكل مختلف. عليَّ أن أقول ذلك يا كاترين، آسف.» أحضر إليها قهوتها وتركها تجلس حيث كانت. قال إن بعض الرجال على هذه الشاكلة. «تحدثنا فقط. أخبرتني ببعض الأمور.» قال إن فتاة مثله انتهزت الفرصة كلما ردت على جرس الباب؛ وحين بكى عرفت كاترين أن البكاء كان على البنت لا على نفسه. قالت: «أوه، نعم، أفهم. أفهم بالطبع.» فهمت أنها علاقة رخيصة مع عاهرة من طراز رفيع، كما فهم حين أخبرته بأنها لا تستطيع أن تنجب، حين قال لا يهم، رغم معرفتها بأهمية المسألة. «خاطرتُ بالعزيم»، همَّس زوجها وهو يشعر بالعار، واعترف بأن خداعه لها كان مثيراً أيضاً. وأدركت كاترين أن الخطر لَحِقَ بها؛ كان الخطر جزءاً من المسألة، سرِّية التكتّم، التسلل. وتبين أن الخطر حقيقي.

عاد الشرطيان بعد ذلك، سألًا: «هل أنت متأكدة من التفاصيل يا مدام؟» وفيما بعد، سألها من جديد مرات لا تُحصى، يكرران التاريخ ويستمعان إليها تكرر أن العاشرة إلا سبع دقائق كان الوقت المعتاد. لم يرغب فيير في أن يعرف — ولا يزال — لماذا ردت بما ردت به، لماذا واصلت التأكيد على أنه عاد قبل مواعده بتسعين دقيقة. لم تستطع إخبار أحد عن السبب، لكنها شعرت بما يشبه الغريزة، وعرفت فيير كما عرفت نفسها، وكان من المستحيل أن تتخيل أن يقضي على فتاة مهما كانت علاقته بها. كان هناك، بالطبع

— كانت ستقول إذا سُئِلَتْ — ألم تلك العلاقة، العلاقة بينه وبين الفتاة، حتى لو كانت لمجرد الحديث. «تشاجرتما يا سيدي؟» استفسر الشرطي الطويل. هل يمكن أن ترى إن كانت هناك مشاجرة، ألح، لا سبيل لأن تقول إنه لم يكن هناك خلاف خرج عن السيطرة. لكن فيير لم يكن من النوع الذي يتشاجر. هزَّ رأسه. في ردوده كلها لم يُفَنِّدْ إلا مسؤوليته عن الموت. لم ينكر تردده على شقتها. قدَّم تفاصيل زيارته كما تذكَّرها. وافق على أن بصماته كانت هناك، لكنها ليست دليلاً على شيء. «هل أنت متأكدة يا مدام؟» سألاً مرة أخرى، واشتدت غريزتها، تماست مع الفهم، حتى لو كان ما يتضمنه سخيلاً. نعم، كانت متأكدة. قالوا ما عندهما وقبضا عليه.

نامت كاترين واستيقظت وهي لا تعرف أين كانت. وبعد مرور بضعة دقائق فقط، أقل من عشر، استحمت في رُكْنٍ من الحوض وارتدت ملابسها. حين أخذ منها، في الحجز، حتى صدور حُكْم المحكمة، اقترحوا في المعهد أنهم يمكن أن يُسَيِّروا الأمور من دونها لبعض الوقت. أصرَّت: «لا، لا. سأأتي.» وفي الفجوة التي تلت ذلك — طويلة وصامتة — لم تعرف أن الشك بدأ ينتشر في الذاكرة الهشة للعجوز، التي ستُسْتَدعى في الوقت المناسب لمراجعة أقوالها بعد حلف اليمين. لم تعرف أن تحت ثقل الأهمية لم تعد العجوز متأكدة أن الرجل الذي رآته في الأمسية الممطرة — وكانت غائمة بالفعل — رآته من قبل. بالتدريب والتشجيع كان يمكن أن تستعيد ثققتها، اعتقدت ذلك من كانت شهادتها أساسية بالنسبة لهم: استندت حجة الادعاء على التعرف، وعلى أمر آخر ضئيل. لكن التأخير الطويل تسبَّب في عدة خسائر، انزعجت الشاهدة من الاستعداد، ولم تُخَفِ في المحكمة مخاوفها. والجلسة الصباحية الأولى من المحاكمة على وشك الانتهاء، هدأ القاضي غضبه ليعلم أنه لا يرى أن هناك دعوى يُرَدُّ عليها. بعد الظهيرة، رُفِضَ طلب هيئة المحلفين.

أزاحت كاترين الستائر، وعدَّلت مكياجها ورتبت السريير. كان اللوم في مكان ما — في خطأ الذاكرة، في عدم اكتراث رجال الشرطة، في الدليل الواهي الذي قدَّمه الادعاء — مع أن فحواه لم يكن مصدر رضا. جلبت الصدفة والظروف كابوساً، وتركته لقاضٍ استنكر تقديم دعوى هشة، في رفضها، كانت تعليقاته صارمة، ولم يكن ذلك كافياً ولا شفافيته التامة: تُرِكَ الكثير خلفها. لم يتهم رجل آخر أبداً، رغم وجود رجل آخر بالطبع.

أغلقت الباب خلفها بعنف، كما قيل لها. لم يودع أحدهما الآخر، لكن وهي تنزل السلم، سمعت مرة أخرى ثرثرة مكتومة لمُعلِّقِ الحلبة، وعرفت أنها آخر مرة. انتهى أمر الغرفة. بعد ظهيرة ذلك اليوم، شعرت بذلك، حتى لو لم يتفوَّه أحد به.

لم تتناول القهوة وسارت بجوار «الأمير والكلب» من دون أن تلاحظها. في مطبخها، عليها أن تطبخ ما اشترت من طعام، ثم يجلسان معًا ويتحدثان عن اليوم. عليها أن تنظر عبر الطاولة إلى زوجها الذي أحبته وترى ظلًا هناك. تكلمتا عن أمور بسيطة.

تجولت بلا هدف، تاركة الشارع الصاخب، وكان لطيفًا أيضًا، سائرة بجوار منازل مصطفة ونوافذ بستائر مزركشة. أصلح عشيق بعد الظهيرة أمور زواجه الذي فشل، جزءًا جزءًا يصلح ما فسد لأن ما فسد لم يكن دمارًا ولم يسعَ أحدٌ له. لم يكن الشجار غالبًا فظيعةً جدًّا؛ ولا الخيانة بلا حب. اتفقا على ذلك، على أن يتكفل وقت الود بالبقية، ولا يطلب الكثير. «وهي؟» ربما تتساءل زوجته ذات يوم، وقد يقول إن امرأته الأخرى كانت حاشيةً لما حدث في زواجهما. ربما يكون الأمر كذلك، لا أكثر.

وصلت كاترين إلى القناة حيث كانت هناك مقاعد على حافة الماء. تلك الأمسية، ستكذب، وربما يتحدثان مرة أخرى عن أمور بسيطة. لن تقول إنها خائفة، ولن يقول. لكن الخوف هناك، بالنسبة لها قلق الشك، يصيبه بطرق لم تعرف عنها شيئًا. واصلت السير وتجاوزت المقاعد، تجاوزت أطفالًا مع مربية. مرت بها سفينة مُحملة ببراميل، مقدمتها مدهونة بلون وردي.

أرض خراب، بدت الأرض حيث سارت، بدت خرابًا ليس لأنها خراب بل لأن مزاجها جعلها كذلك. شعرت أنها بلا اسم، منعزلة هنا في مكان لا تنتمي إليه، ورافق ذلك شيء لم تستطع تحديده. أوه، لكن الأمر انتهى، قالت لنفسها، كأنها ترد على هذا الارتباك البسيط، مرتبكة أكثر ومتسائلة كيف عرفت ما بدا أنها تعرفه. لم يكن التفكير طيبًا: مجرد مشاعر. وهكذا لم تفكر وهي تواصل السير.

شعرت، بلا سبب، بالقييد يتبدد. نعم، بالطبع، كان هناك قيد طوال تسع سنوات. لم يُطرح تساؤلٌ، لا تساؤل عن وعود بأن الحقيقة ما سمعت. لا تساؤل بشأن الفتاة، وعما كانت ترتدي، صوتها، وجهها، وما إن كانت تجلس هناك تتحدث فقط، ليس إلا. لا تساؤل عن يوم أسوأ من المعتاد في مترو الأنفاق، وانتظار تاكسي في المطر. لتسع سنوات كاملة صمت في التبادلات العادية، في الحديث، في ممارسة الحب، في جولات نهاية الأسبوع وفي رحلات الصيف خارج البلاد. لتسع سنوات كاملة الحب هناك، أكثر من مجرد سلوى، أقوى من ذلك. هل كان التسلسل لا يزال مثيرًا؟ لم يُطرح هذا السؤال، وكاترين تتوقف لتشاهد سفينة أخرى تقترب، عرفت أنه لن يكون الآن كذلك أبدًا. دُخلت الشقة، وشارون ريتشي مخنوقة على كنبها. هل كانت الضحية؟ وهذا أيضًا لم يتطرق إليه أحد.

جائزة أو هنري

التفتت كاترين لترجع من حيث أتت. لم تكن صدمة ولا حتى دهشة. لم يُتوقع منها أكثر مما أعطته، وكانت تختار اللحظة التي تقول فيها إنها لا بد أن تنصرف. فهِم، لم تكن تخبره. أفضل ما يقدمه الحب لم يكن كافياً، وكان يعرف ذلك أيضاً.

رائحة القرفة

تأليف: تشارلز لامبرت^١

عزيزتي مسز باين،

أعطاني اسمك الكاهن وير، ممثل الجالية الإنجليزية هنا. أنا رجل متبلد، وسأدخل في الموضوع مباشرة. يقول لي وير إنك فقدتِ زوجك مؤخرًا وإنك من دون مورد رزق. أوحى إليَّ بأنك قد تهتمين بالزواج من رجل يمكنه تقديم ما تحتاجين من الأمن والعاطفة. أشار بأنني قد أكون ذلك الرجل. لديَّ من الأسباب ما يجعلني أثق في حكم وير في هذه الأمور، بالإضافة إلى أنه عرفك وأنت فتاة غير متزوجة ويتحدث بتقدير عن تنشئتكَ واعتدالك وذكائك. بالنسبة لي، أنا رجل في السابعة والثلاثين من العمر، قضى منها تسعة عشر عامًا في الخارج. أملك مزرعة يمكن أن تشبه بشكل مريح الريف الإنجليزي. أنا سليم وبصحة جيدة، وشكلي، إذا كان لي أن أثق في وير بشأن هذه الأمور أيضًا، مقبول بما يكفي لأطلب يدك بشكل مناسب مع احتمال النجاح.

أرفق صورة فوتوغرافية. كلبي اسمه ياسبر.

أتطلع إلى استلام ردك.

المُخلص

جوزيف برودريك

^١ تشارلز لامبرت Lambert: ولد في إنجلترا ويعيش في إيطاليا منذ ١٩٧٦م، والعنوان الأصلي للقصة The Scent of Cinnamon.

اعتقد أنه مناسب. تطلّع إلى الصورة الفوتوغرافية لحظة ورأى رجلًا، وكلبًا مُرَقَّطًا، ومنزلًا، ثم طوى الورقة على الصورة ووضعها في ظرف. مريم باين، غمغم، وهو يكتب الكلمتين بخط يده المائل إلى الأمام بحروف صغيرة واضحة، وتحتهما عنوان في كرنول،^٢ بلد لم يره أبدًا. مريم باين، ردّد بصوت أقوى، ثم: مريم برودريك. نعم. إنه مناسب. وصل الرد موجزًا بعد ستة أسابيع.

عزيزي مستر برودريك،

شكرًا على رسالتك والصورة المرفقة، قدّمنا لي مادة دسمة للتفكير. أقول على الفور إنني مستعدة للنظر في عرضك. لكنني قبل ذلك، سأكون صريحة أيضًا. أريد إجابة على سؤال واحد، قد يبدو وقحًا لكنه، على ما أعتقد، على العكس تمامًا. عزيزي مستر برودريك، هل سبق أن أحببت؟ أرفق أيضًا صورة فوتوغرافية. كما ترى، ليس عندي كلب. لست متأكدة من حبي الكلاب، ولا من حب الكلاب لي.

المُخْلِصَة

مريم باين

المرأة التي في الصورة أصغر مما توقع جوزيف. كان شعرها طويلًا، مربوطًا على ناحية بمشبك من نوع ما ومفكوكًا على الناحية الأخرى ليتدلّى على كتفها. لم يستطع تحديد لونه لكنه تخيّل عميقًا وقاتمًا وكثيفًا، أحمر لامعًا. وكانت عيناها ورموشها قاتمة أيضًا. رغم عدم ابتسامها، أوحى وضع فمها بأنها تحاول الابتسام؛ كان يَنُمُّ حتى عن وقار، لصاحبتة غمازتان صغيرتان في الوجنتين. كانت ترتدي ثياب الحداد، مما صعب فك شفرة شكلها، لكن بدا أنها نحيلة ورائعة. كانت يداها على بعض في جِبرها، صغيرتين وقويتين. أغلق عينيه وكانت لا تزال هناك بشكل كافٍ لنقلها ووضعها بجواره، على الناحية الأخرى من ياسبر، أمام البيت الذي شيّده لنفسه وزوجة لم تكن هناك أبدًا. رأى أنهما معًا وشعر بقلبه يدق أسرع، كأنه كان يطارِد قطيعًا ضالًّا في حقل. رد في اليوم نفسه.

^٢ كرنول Cornwall: منطقة في أقصى جنوب غرب إنجلترا.

عزيتي مسز باين

شكراً على رسالتك والصورة الفوتوغرافية، أراحاني إلى حد بعيد. تملؤني بالأمل حقيقة استعدادك للنظر في عرضي واملؤني، إذا سلّمتُ بهذا الشعور، بالذعر. وبالنسبة لسؤالك، وهو أكثر من مجرد سؤال مرتبط بالموضوع، يمكن أن أُرِد بلا خجل: لم يواتني الحظ أبداً لأعرف الحب، واثق رغم ذلك أنني أملك الاستعداد له.

أُتطلع إلى ردك بقلق.

المُخلص

جوزيف برودريك

مرّت ستة أسابيع. بدأ برودريك يرى المنزل الذي شيده بيديه بعينين أخريين، بالعينين القاتمتين العميقتين للمرأة التي في الصورة. الأرضيات الترابية المدكوكة، ساطعة كأنها مكسوة بالشمع، الجدران الحجرية المطلية، النوافذ عارية بلا ستائر؛ لم يلاحظ ذلك من قبل أو ربما اعتقد أنه مناسب لحياة العزوبية التي يعيشها، مثل صعوبة ما يحيط به وخوائه، مما أزعجه وأربكه. صارت المقاعد ذات الأظهر المستقيمة غير مريحة، ناشفة. كيف لسيدة أن تجلس عليها؟ كيف لسيدة أن تعيش في منزل ذكري كالح جدّاً لا يزيّنه شيء؟

عليه أن يسأل امرأة أخرى عمّا يمكن عمله لجعل بيته مقبولا، لكن لم يكن بين الجيران امرأة متزوجة يثق في أن تتعامل معه بجدية. لم تكن هناك امرأة بالذوق المطلوب؛ النساء من حوله بلا تنشئة جيدة وبلا تعليم. إضافة إلى ذلك، قد يبدو مضحكاً إذا قررت مريم عدم الزواج منه، رجل أعزب في منتصف العمر، وحيد في منزل ممتلئ بالريش والخرق. يمكن أن يسأل الكاهن وير، وهو خبير بهذه الأمور، لكنه لم يفعل.

تساءل عمّا قد تجلبه معها، إذا قررت الحضور؛ ربما لوحات، زخارف، وسائد. آلة موسيقية. ربما يكون الاختيار الأكثر حكمة الانتظار في المنزل القفر حتى تأتي وتحوّله إلى مكان أكثر راحة بالنسبة لها، فيكون بالنسبة لها بيت الزوجية الجديد في عالم جديد. ثم تخيلها وقد كدست صناديقها بجوارها بعناية على رصيف الميناء، دسته صناديق مطوّقة بالحديد، ناءت عربتها بثقلها. رؤيته لها واضحة جدّاً أحياناً بحيث تبدو بجواره فيهمز رأسه حتى تبعد، ويشعر بالكآبة.

حين وصلت رسالتها الثانية، ارتجفت يده. نبج ياسبر وتشبَّث بخصره. قال برودريك:
«خير، يا غلام. خير.»
وقد كان.

في اليوم الذي تصل مريم باين فيه على مركب توابل، ربط جوزيف برودريك أفضل جياده بالعربة وانطلق قبل الفجر. يرتدي ياقة بيضاء منشأة وبدلة سمراء من الصوف، اشتراها لحضور جنازة صديقه الأول والوحيد، رجل من ويلز ساعده في حراسة المزرعة، ووضع سياج حولها، وإعدادها، قبل موته بالتهاب رئوي قبل اثنتي عشرة سنة. بعد ست سنوات سمَّى كلبه على اسم الرجل الميت، ياسبر، وكان يجلس بجواره والعربة تنطلق على طريق المزرعة باتجاه الطريق الذي يوصلهما إلى الميناء. بسبب البدلة، وكانت ضيقة جدًا على خصره، شعر بحر شديد؛ ازداد وزنه منذ الجنازة.

مع شروق الشمس تصبَّب عرقًا. في الصباح الباكر نزع ملابسه ولم يتبقَّ عليه إلا صُدرته وأربطته وفكَّ أزرار بنطلونه من على الخصر. واصل السير، وشعر بالحرق يجف على بشرته. خطر له الالتهاب الرئوي الذي قتل ياسبرز بريس بدأ على هذا النحو، ومال على جانب ليرتدي القميص والجاكت، والياقة البيضاء المنشأة وربطة العنق المربوطة بعناية. فكَّر والحرارة تخترق عظامه: نموت جميعًا بطريقة أو أخرى، بالنار أو الثلج. بالعاطفة أو الافتقار إليها.

حين انزلقت العجلة الخلفية للعربة في حفرة وأبت أن تتزحزح، أقسم في سره وقفز إلى الطريق الرمادي، وخلع الجاكت مرة أخرى وطبَّقه ووضعه على المقعد، وأزاح أربطته من على كتفيه. أخذ يشد العربة للخلف والأمام، ويصيح في الجواد ليتحرك. استغرق الأمر حوالي نصف ساعة تقريبًا قبل أن ينطلق على الطريق مرة أخرى. غلبه ضعف مفاجئ، جلس على حافة بجوار العربة. وبدأت ذراعه اليسرى تؤلمه، افترض أنه توتَّر في العضلات من شد العربة. بعد لحظة، ساء الألم، ارتفع ألم حاد يُشبه طعن السكين من رسغه حتى كتفه. شعر بضيق ينتقل إلى قلبه. امتدت يده إلى الياقة، ليفكها ويتنفس.

فتح عينيه ليرى ياسبر ابتعد عنه، ينبج على الناحية الأخرى من الطريق. كانت الشمس أعلى؛ لا بدَّ أن النوم غلبه. شعر بأن الراحة جعلته أفضل؛ شعر بأنه أقوى من قبل. شدَّ لجام الحصان وتبعه الكلب عن بُعد. صار الطريق أسهل مع الاقتراب من البلدة: ربما لن يتأخر كما اعتقد.

لكنها كانت تنتظر وحدها حين وصل إلى الميناء. حتى مركب التوابل الذي قطعت به آخر مرحلة من رحلتها وصل إلى الميناء التالي عبر الساحل. كانت تقف في فستان رمادي

وأبيض، بجوارها حقيبتان سمراوان كبيرتان من الجلد، وحين رآته رفعت يدها ولوّحت له. كان الظُّهر تقريباً. كانت وحدها تماماً على الشاطئ في ميناء خالٍ إلا منها. شَعْرُهَا أَكْثَرُ احمراراً مما تخيل. في وقت متأخر من الصباح بدا مثل لحم الخنزير المُقَدَّد. قفز نازلاً من العربة وجرى تقريباً باتجاهها، ونبح يأسر وراءه. مدّت يدها وهو يندفع، خَجَلًا بشكل غريب؛ ابتسمت وأومأت برأسها، إيماء قصيرة وحاسمة، وفَهِمَ أن عليه أن يومئ. أخذ يدها في يده ووقف هناك مثل أحرق، وهي تخطو قريبة جداً منه حتى شعر بحرارة جسمها على جسمه؛ قَبَّلَتْ خديه، خَدًا بعد خد، مثل امرأة فرنسية. «جوزيف برودريك»، قالت ورأسها يميل جانِبًا. رد: «مريم باين». قالت وهي تبتسم: «سأناديك جوزيف». «وسأناديك مريم». كان يرتجف، لم يعرف إن كان من الحُمَّى أم الخوف أم الإثارة، وهو يؤرّج الحقيبتين في العربة ويعطيها ذراعه، ارتعش من السهولة التي أخذتها بها، كأنها تعرفه طوال حياتها؛ كأنهما متزوجان. لا تضع قفازات؛ تأثير الشمس واضح على يديها. لاحظ ذلك وفكّر، سوف تحب المزرعة. إنها تنتمي إلى هنا.

بدا يأسر وحده مستاءً. ابتعد عنهما ياردة أو اثنتين وجلس فجأة على مؤخرته، ولسانه يتدلى على ناحية، ورأسه منتصب. «تعال هنا، تحرك»، صاح جوزيف في الكلب بمجرد أن جلس مع مريم، والحقائب في الفراغ خلفهما. وقف يأسر، مشى منحرفاً باتجاه العربة، وانتصب الشعر على نهاية فقراته، وتسَلَّق جانب العربة، والتف في حلقة ضيقة في الخلف، قبع في أبعد ركن، وأنفه تحت ذيله.

قال جوزيف، وهو شبه ملتفت إلى مريم: «ستحتاجين إلى قبعة، لم تعتادي على هذه الشمس في كرنول». لكن أزعجته، وهو يتكلم، فكرة تغطية رأسها. تخيل أنه يستطيع شم التوابل التي سافرت معها، رائحة القرفة والقرنفل، في ملابسها وشعرها. قالت: «أوه، لا، أحب الشمس. ولا أعتقد أن الشمس سوف تؤذيني.»

عرف حينذاك أنه كان مصيباً في عدم تزيين المنزل بالستائر والسجاجيد. قبلته على حاله، وقبلت الأرض العارية والجامدة.

وصلا وقت الأصيل إلى الحقل. توقّع أن يتحدثا، لكنها بدت قانعة بالجلوس جواره، ويدها تستريح أحياناً على ذراعه، واليد الأخرى تبعد شعرها عن وجهها حين يبعثره النسيم. لاحظ أنها لا تلبس مجوهرات، وكانت سعيدة. طلبت منه الماء مرة ومد يده خلفه إلى دورق المياه. وهي تشرب شاهد حنجرتها، والحياة فيها. حين أعادت إليه الدورق شرب منه بنهم دون أن يمسح عنقه، واندفعت الدماء في عروقه. تناولت الغطاء من يده؛ أغلقت الدورق بإيماء صارمة وخاطفة وأعادته إلى موضعه خلف المقعد كأنها تفعل ذلك طوال

حياتها. مريم برودريك، فكر. معًا، انطلقا على العربة في صمت، منتعشين، حتى بدا المنزل في الأفق.

رفع يده وأشار، قائلاً من دون أي إحساس بكسر الصمت، لأن ما قاله كان مطلوباً: «هنا أعيش».

«نعيش»، صحت له.

سمحت له بمساعدتها للنزول من العربة، واضعة يديها على يديه وهو يحيط بخصرها ويحملها وينزلها إلى الأرض. كم كانت خفيفة! اعتقد أنها ستنتظر بجواره حين خطا فوق العجلة ليأخذ حقيبتها، لكنها سارت إلى المنزل، ويدها ترفعان شعرها عن عنقها في موجتين هائلتين من اللون الأحمر، وتفتح الباب. بدا أنها تومض في الحر قرب حائط المنزل المطلي، كانت أقرب إلى لهب من شخص حي. رآها تتوقف ثانية، ثم دخلت إلى الظلام. وضع الحقيبتين جوار العربة وحلّ الحصان، وأوشك أن يقوده إلى الحوض ليشرب. فكَرّ: الحصان أولاً ثم نحن. لكن الحصان أجفل. قفز ياسبر من العربة واتجه إليه، على بطنه تقريباً، كأنه يخشى من العقاب. انحنى جوزيف وداعب رأس الكلب بيديه، وذهل حين كشف الكلب عن أسنانه وابتعد. عرف أنه يؤجل؛ يؤجل لحظة وجوده مع مريم وحدهما في المنزل. كان فزعاً من وجودهما معاً وما قد يفعلانه.

وكان من الخطأ أن يقلق. بمجرد أن دخل الغرفة، سارت وأخذت يديه في يديها وحدقت في عينيه.

قالت: «نحن رجل وزوجته من هذه اللحظة. نحن مريم وجوزيف».

«مريم»، ردّد بصوت بالغ الهدوء وتساءل كيف سمعت. قبلته من فمه.

قالت: «أنا هدية الرب لك. هذا معنى مريم، هل تعرف ذلك؟ هدية الرب».

قال: «لا أؤمن بالرب».

في صباح اليوم التالي، رحل ياسبر. ومريم ترتدي ملابسها خرج جوزيف ولفاً حول المنزل منادياً الكلب باسمه. لا ينبغي أن يقلق؛ كثيراً ما اختفى ياسبر يوماً أو يومين، وربما ثلاثة. لا ينبغي أن يبالى بشأن الكلب إطلاقاً، وذكرى بشرة مريم على بشرته، وشفتها على شفتيه؛ أكثر من مجرد ذكرى، حيث حمل رائحة المرأة في يديه وفي شعره، جديدة ومعروفة معاً بمعنى الكلمة، مألوفة له. عرف مذاقها، حلواً ولانعاً، في فمه مثل نكهة غريبة سمع عنها فقط، توابل محفوظة جنبته الموت. لكنه قلق بعد تصرف الكلب في اليوم السابق. لم يسترح للطريقة التي خنع بها الحيوان وزمجر، ولا لانتصاب شعر ذيله. نادى ونادى بلا طائل. في النهاية، عاد إلى المنزل. في المطبخ كانت مريم تُعدُّ المائدة للثنتين.

قال: «سيعود. يمكن أن تكون الكلاب غيورة.»

قالت: «قلتُ لك إن الكلاب لا تحبني.»

في ذلك الصباح فرَّجها جوزيف على المزرعة. أخذها من الحظيرة إلى حوض الغطس إلى موضع الجز في زهول عاطفة لم يتخيلها أبدًا، كأنه مات ثم بُعث في مكان يخلو من المشقة والعزلة، حيث صار عزيزًا على شخص آخر. كثيرًا ما أوقفت ثرثرته بوضع إصبع على فمه، ثم شفتيها. مالا على الجدار الخلفي لأحد الأبنية المُلحقة بالمزرعة ومارسا الحب، وقد رفعت تنورتها، وشعره في فمها، وأصابعها معقودة خلف رأسه، وأنيبها المنخفض في أذنه.

مرَّ أول يوم على هذا النحو، والثاني أيضًا، ولا دليل على وجود ياسبر. في نهاية الأسبوع حين لم يعد الكلب، قال جوزيف: «ينبغي أن أذهب إلى البلدة لأعرف الأخبار.» لم يذكر ياسبر. كانا يجلسان معًا خارج المنزل، تحت تعريشة من الخشب شيَّدها جوزيف، وغطَّتها مريم بملاءة رقيقة رفعها النسيم الدافئ وطواها.

قالت: «لا تقلق عليه.»

توقف جوزيف، قال: «أظن أن عليَّ التحدث إلى الكاهن وير أيضًا بشأن زواجنا.» قالت: «أوه، يمكن لهذه المسألة أن تنتظر.» مالت إلى الخلف في مقعدها ورفعت ذراعيها. كانت ترتدي جلبابًا واسعًا وقد سقط الكُمَان فرأى البشرة الشاحبة البضة لجانب ساعديها. ركع بجوارها ووارى وجهه في حجرها.

مضى شهر تقريبًا قبل أن يذهب جوزيف إلى البلدة. توسَّل إلى مريم أن تذهب معه فرفضت؛ كان وراءها مهام كثيرة في المنزل. لم ترغب في ذهابه إطلاقًا؛ ولم تكن هناك حاجة للذهاب، سوى إحساس بالضجر، بالقلق تقريبًا، بدأ ينتاب جوزيف. بدا له أن العمل في المزرعة لا يستغرق وقتًا على الإطلاق. كان عصر كل يوم دافئًا ومشمسًا مثل عصر اليوم الذي قبله، وكان الصباح باردًا ومنعشًا. كرَّس أيامه ولياليه لمريم، وكانا يتمشيان حول المنزل والمزارع القريبة، كما كانا يفعلان كل مساء، ولم يكن هناك دليل على الإهمال، لا سياج معطوب أو حيوان في حاجة إلى شيء. اعتقد جوزيف أن عليه أن ينهض ويعمل بدل النوم.

أخيرًا قالت ربما من الأفضل لهما أن يقضي بضع ساعات بعيدًا. كتبت قائمة بطلبات تحتاج إليها لخياطة الملابس وإصلاحها، خيط حريري وأزرار وشرائط من المطاط؛ عليه أن يذهب إلى محلات لم يدخلها من قبل أبدًا. قرر أن يُريهم القائمة بدل أن ينطق الكلمات،

وصدمه ذلك باعتباره شيئاً يبعث على الشعور بالخجل رغم عجزه عن معرفة السبب. وكان عليه أن يذهب إلى الكاهن، الذي قد يكون سمع عن وصول مريم ولا بُدَّ أنه كان يتساءل أين كانا.

لم يركب الحصان منذ وصول مريم. سهل وزمجر وهو يسير باتجاهه والصهوة في ذراعيه، كأنه لم يُركب من قبل. ولم يستطع وضع الصهوة على ظهره حتى صار في زاوية بجوار السياج.

كان على بُعد ثلاثة أميال أو أربعة حين رأى ياسبر، يبعث عند عجلة مكسورة في عربة مهجورة. لم يتعرف على الكلب للوهلة الأولى، لكن لا بُدَّ أنه عرفه لأنه ابتعد عن العربة باتجاه الكلب، حيث وقف يُحدِّق في جوزيف قبل أن يبتعد. كانت ضلوع الكلب ومؤخرته من تحت الجلد، وكان مُغطًى بالغبار والقشور، كأنه يرتدي زيّاً رمادياً غامقاً. وكانت إحدى أذنيه مقطوعة تنزف، والذباب يُغطّي الجرح. نَفَثَ الكلب من الحر، ولفَّ قليلاً وهو يسير في الطريق، في الاتجاه الذي يسير فيه الحصان. نادى جوزيف، لكن يبدو أن القلق حطَّم الصوت، وبدا أن الكلب لا يسمع. ولم يتفاعل ياسبر إلا بعد أن نزل جوزيف من على صهوة الحصان وكان لا يبعد عنه أكثر من ياردة. تمدد الكلب على بطنه ومدَّ طرفيه الأماميين وكشف عن أسنانه. وجوزيف يقترب منه أصدر دمدمة طويلة وبطيئة، زادت حدَّتها وصارت عواءً كثيفاً من أعماق الحنجرة. «ياسبر»، لطفه الرجل ومدَّ يده مرتجفاً. «ياسبر.» تراجع الكلب، متلويّاً من دون أن يرفع جسمه من تراب الطريق، وهو يجُرُّ بطنه، يُشبه عواء الحنجرة تحوُّلاً بطيئاً في سقطة. هزَّ رأسه ونهض سرب الذباب من جرح الأذن واستقر عليه مرة أخرى.

استقام جوزيف وهو يهز رأسه، ثم وقف ينظر والكلب يبتعد. انتظر حتى ابتعد الكلب عشر ياردات قبل أن يُنادي عليه مرة أخرى. في تلك المرة استدار الكلب وحَدَّق فيه، ونأى جوزيف بعينه، مرتبكاً. في النهاية، بقلب مثقل، ركب حصانه مرة أخرى، وابتعد عنه وهو يؤرِّج ساقه على صهوة الحصان. نظر إلى العربة المكسورة خلفه متروكة للصدأ والتعفن. فكر: لا بُدَّ أنه مكان قريب من الذي وقعت فيه عربته في الحفرة، ورفع يده إلى قلبه.

بدا ميناء البلدة خاوياً كما كان يوم وصول مريم. كان الهواء مفعماً برائحة الهيل والزنجبيل والقرفة والقرنفل؛ تطلَّع عبر المياه ليرى مركب التوابل، وجعلت صورة مريم رؤيته غير واضحة، لأنه لم يكن هناك شيء يراه سواها، أصابعها في شعره، يداها حول

خصره؛ كان الهواء مفعماً بها. وهو يتمشى باتجاه صف من المحلات التجارية، نشوان، لاحظ ملصقاً على جدار شد انتباهه وسار ليقراه. كان يتحدث عن تحطُّم سفينة في تلك المياه قبل شهر؛ لم ينجُ أحد. مرت عيناه بقائمة الموتى، بحكم العادة. قد يكون العالم كله ميتاً، فكَّر، ماذا يعني طالما هو ومريم على قيد الحياة. ثم رأى اسمها.

بعد لحظات وقف أمام الكاهن وير، يصيح ويطوِّح بذراعيه. كان الرجل يتحدث إلى مجموعة من المسنات عن الطقس، وكيف انقلب سيئاً في الأيام الأخيرة، تلك العاصفة المروعة التي تعرضوا لها. تشبَّث جوزيف بكُم الكاهن، لكن يده الباردة لم تمسك بشيء. ربما لا يوجد هو أيضاً. مرة واحدة فقط أدار الكاهن عينيه باتجاه جوزيف وأجفل، كأنه يرى شبحاً.

الملاك

تأليف: جوستين ديموند^١

حين سمعت الطَّبَّاخَةُ الدَّبَابَاتِ الأمريكيَّةَ والعربات الآلية تتقعر على الطريق الموحلة من الغرب، خرجتُ جرياً من المطبخ إلى الفناء، بجوار الحظيرة وأخذتُ تلوِّحَ بمريلتها، مستسلمة في بهجة.

هذا ما تُخبرنا به بتريس. في اللحظة التي تخبرنا فيها، نخشى من كشف أي قدر من الزهو، أولئك الأمريكيون، لا يختلف عنا أولئك الأمريكيون، باستثناء أن بيننا وبينهم حوالي خمسين عاماً.

نعتقد أن الأمريكيين أنقذوا هذا المنزل، منزل القديس إربيان، وهو قصر حقيقي، حيث الأسقف، والأروقة الطويلة المؤدية إلى الغرف، والشرفة الحجرية، وملاك راقص أعلاها. ينحدر شريط من العشب إلى بركة بعدها غابة. عربة. نعتقد أن الأمريكيين — نعم، الأمريكيين! — أنقذوا الجَدَّةَ والطَّبَّاخَةَ والخادمة، وهُنَّ من بقين أثناء الغزو الألماني، الجَدَّةُ^٢ التي رفضت مغادرة المنزل، حتى حين اتفق على إقامة كل الأطفال في نانسي^٣ — كانت بتريس في التاسعة حينذاك. والطَّبَّاخَةُ، مُرغمة على إعداد وجبات لأولئك الألمان السكارى —

^١ جوستين ديموند Dymond: كاتبة وشاعرة أمريكية ولدت في واشنطن. والعنوان الأصلي للقصة Cherubs.

^٢ الجدة: بالفرنسية في الأصل.

^٣ نانسي Nancy: مدينة شمال شرق فرنسا، تعرضت لقصف شديد في الحرب العالمية الثانية.

باستثناء الضابط النمساوي، وكان مهذبًا دائمًا، يحترم الأسرة^٤ دائمًا — تتخلص الطباخة الآن بشكل رائع من استعباد رجال لها، رجال لم يفهموا حتى النبيذ، أكلوا طبق الدجاج بالنبيذ الأحمر^٥ كأنهم حيوانات أُلقيت لهم لحوم نيئة، من دون تقدير لدقة صناعة الحساء، التوقيت الدقيق الذي يُبقي اللحم طريا.

نتردد في السخرية من هذا. نسخر على أية حال، نعرف أنهم ليسوا نحن، نحن بشكل شخصي لم ننقذ القديس إربيان من الألمان، لكن بتريس تتحدث وكأن الجنود الأمريكيين، الذين قطعوا الطريق مجهدين وجوعى وفزعين، أقاربنا.

تقول بتريس إن الطباخة جرت إلى الطريق، تُلَوِّحُ بمريلتها للجنود الأمريكيين. ترى، عرفت الأم^٦ أن الألمان رحلوا. كانت ليلة كاملة وفي الصباح التالي لا أصوات أهدية تدوس فوق الرءوس ولا أصوات صياح عند سلم القبو، أصوات الألمان وقد أثارت الارتجاف والدموع في الخادمة وهي تجثم مع الأم في القبو. كان الصمت كل ما يحتاجان إلى معرفته. نزح الألمان. وكان في الطريق شيء آخر.

حين جرت الطباخة إلى الطريق تُلَوِّحُ بعلمها المؤقت، علم الاستسلام، أطلق الأمريكيون النار عليها.

هذا ما خشيناه، حتى لو كان أصغر جزء من وعينا يقول: لا تذهب بعيدًا، الزهو الشوفيني يَهْزَمُ بسهولة.

تضحك بتريس عند هذه النقطة من قصتها. نضحك أيضًا، نوعًا مختلفًا من الضحك، نوعًا يُعَبِّرُ عن الارتباك والفرع والعار من إحساسنا — مهما يكن مترددًا — بالزهو القومي. أطلق الأمريكيون النار على الطباخة! ثم فجأة تُقَاطِعُ بتريس وهي تواصل قصتها، قاطعتها إحدى بنات عموميتها الوصيفات تذكّرها بشيء عاجل، شيء لا نعرفه حقًا، لكنه يرتبط بترتيب وليمة، موسيقيون يحتاجون شيئًا، وبتريس تتحرك، تتركنا نستوعب هذا التغير المذهل في الأحداث، المنقذون، الأمريكيون، الذين أطلقوا النار على الطباخة. نتساءل: «هل أصيبت؟»

^٤ الأسرة: بالفرنسية في الأصل.

^٥ طبق الدجاج بالنبيذ الأحمر: بالفرنسية في الأصل.

^٦ الأم: بالفرنسية في الأصل.

نتلفت حولنا، إلى أبناء العمومة والأعمام والعَمَّات يجرون حولنا، يُجهزون للعرس، وهو سبب اجتماع الجميع في نهاية الأسبوع، لزفاف كلودين وماكس. ونحن — في يأس من القصة التي لم تكتمل — هل نقف جوار العَمَّات اللاتي يندفعن؟ مَنْ هذه؟ أليست «بِت» ابنة عم كلودين؟ هل تعرف ما حدث للطبَّاخة؟

لا بد أن نعرف ما حدث للطبَّاخة، ليس فقط بدافع الفضول، وليس فقط لنعرف النهاية. إنها مسألة تتعلق بالزهو القومي؛ نقول ذلك مازحين بالطبع.

حسنًا، هناك الجدة، أم بتريس، جدة كلودين، وهي على قيد الحياة، وهي هنا في العرس، أم القديس إرييان. لم تمت، لم يطلق الأمريكيون النار عليها. هذه هي الحقيقة. علينا أن نتعزى بهذه الفكرة الآن، على الأقل حتى تعود بتريس أو نجد شخصًا آخر يُنهي القصة لنا.

يبدو الجميع مشغولين الآن. ترتب «بت» الزهور على طاولات خارج إحدى القاعات حيث سيكون هناك رقص بعد العشاء. القاعة الأخرى، عبر المدخل الرخام حيث استضافت الجدة الأمريكيين^٧ على قهوة قبل ذلك بعد الظهر. سألتنا أسئلة مهذبة. من أين كنا؟ هل أحببنا جبن الماعز المصنع في المنطقة المحلية؟ جلسنا على حافة مقاعد جميلة غير متقنة، مكسرة بعض الشيء، لكنها رغم ذلك تُعبّر عن طبقة أرستقراطية معينة. رشفنا القهوة الثقيلة خفية قدر المستطاع. ابتسمنا وحاولنا أن ننطق بشفاها الرخوة كلمات فرنسية واضحة، مُشمئزين في أعماقنا من الأصوات التي خرجت من أفواهنا.

في الليلة السابقة، فرَّجنا جان بول، والد كلودين، على موسوعة ديدرو^٨ الأصلية التي تمتلكها العائلة. وشاهدنا ببهجة وهو يتناول مجلدًا ضخمًا من خزانة الكتب في القاعة. ألا ينبغي حفظه في غرفة تُنظَّم فيها درجة الحرارة؟ اعتقدنا ذلك، مُقطين، ولم نجروْ على التَّفَوُّه بكلمة، متذكرين أن علينا إخفاء طرْقنا الأمريكية الخرقاء، انشغالنا المرْضي بالطريقة الصحيحة في تناول الأمور، بالضبط مثل انشغالنا المرْضي بالتبريد والإحصاء والحمامات.

فتح جان بول الموسوعة وأجفلنا من صوت تكسير العمود الفقري. لكننا أزعنا ذلك جانبًا وأعربنا عن دهشتنا من الخرائط المُبسطة لأفريقيا وأمريكا، مساحات واسعة من

^٧ الأمريكيين: بالفرنسية في الأصل.

^٨ ديدرو Diderot (١٧١٣-١٧٨٤م): فيلسوف وكاتب فرنسي، يتمثل إنجازُه الأساسي في «الموسوعة» (١٧٥١-١٧٧٢م).

الأرض اعتقد الأوروبيون أنها أراضٍ غير متمدنة، غير مأهولة، غير مستقرة. أعربنا عن إعجابنا بالأعمدة الفرنسية الدقيقة المكتوبة بحروف متصلة، تأليف المعرفة كأنها جمال هش، معرض اللصوص والكوارث الطبيعية. أردنا لمس الصفحات بأيدينا، لكننا قمعنا هذه الرغبة الملحة وأومأنا موافقين على كل ما قال جان بول، حتى حين لم نفهم.

أخذنا كل هذه المعرفة إلى السرير في الليل، دسناها في الفراش الضيق المتدلي، غرفتنا وغرفة^٩ الخادم العجوز فوق الحظيرة. بدا وكأن الغرفة لم يسكنها أحد منذ الحرب العالمية الثانية، لكن لا بأس، قلنا لبعضنا، كان رائعاً من عائلة كلودين ترتب هذه المجاملات. ربما هنا كانت تنام الطبّاخة! فوق الحظيرة، تخطط الوجبات للضباط الألمان، مكشرة من فكرة خسارة الدجاج والخنازير والماعز الثمينة على أشخاص جديرين بالازدراء. قالت بتريس إن الطبّاخة، مع أنها كانت تستطيع التحدث بالألمانية — كان والدها ألمانياً — رفضت التحدث بلغتهم لتعتمد على مساعد فرنسي صغير للقائد غير جدير بالثقة. لكنها كانت تفهم كل ما يقولون، وهي تُقلّب الحساء في المطبخ، تبصق وتُقلّب، مضيضة زيت كبد القد^{١٠} والطماطم الفاسدة. في الصباح التالي تطلّعت من نافذة غرفة الطعام، وهي تضع الخبز والزبد. جرى الضباط إلى أجمات الصنوبر التي تُظل المدخل. ثرثرت. لم تبال. فليقتلوها، بعد أن يفرغوا ما في أمعائهم. تسعد إذا ماتت لأنها سممت الألمان.

لكن الألمان لم يقتلوها. أطلق الأمريكيون النار على الطبّاخة!

نتمشى إلى الرواق، نطل من النافذة ومساعدو متعهد الحفلات يرصون المقاعد والطاولات في الحظيرة، حيث يُقام حفل الاستقبال. حول الطاولات مسرح مؤقت وزهور منثورة، وشموع ومفارش بيضاء. قبل ذلك في هذا الصباح ساعدنا في كنس الحظيرة والفناء، ونقل الأثاث وغسل النوافذ، وكانت تحتاج حقاً إلى طبقة جديدة من الطلاء. قمنا بدورنا. انضمامنا إليهم وقمنا بدور مفيد. الآن نتمشى بلا هدف أو غاية، سوى أن نسمع نهاية القصة. نتجه إلى السلم، نتردد لحظة، نأمل أن نلمح بتريس من باب المطبخ المفتوح. رأينا جيشاً من الناس يتزاحمون ويُقلّبون الطعام، لكن بتريس ليست هناك.

أسفل السلم باب يؤدي إلى غرف الجدة. قيل لنا إنها تستريح الآن، تدخر طاقتها لاحتفال الكنيسة. تسلقنا السلم، مُتعرّجاً ومُلتفّاً إلى الطابق الثاني، رواق واسع بناوذاً على

^٩ غرفة: بالفرنسية في الأصل.

^{١٠} القد Cod: نوع من الأسماك يعيش في شمال المحيط الأطلنطي.

جانب واحد، تطل على الفناء، وغرف على الجانب الآخر. نسمع لغط النشاط خلف باب العروس. نتمنى أن نكون هناك، لنكون ضمن «المختارين» لنقضي الساعات القليلة المتبقية قبل الاحتفال مع العروس والعريس، نساعد في تزيين الثياب ووضع أحمر الخدود، وحفظ باقات الزهور والقيام بأشياء لا تُحصى في الدقائق الأخيرة، أشياء مطلوبة دائماً.

لكننا ضيوف، إننا الأمريكيون. طُلب منا الاسترخاء والاستمتاع واستغلال هواء الريف في أوائل الصيف. بدلاً من ذلك، نلتفت إلى قمة السلم ونخترق الرواق الممتلئ بخزائن الكتب والتحف الصغيرة ونعبر الألواح الخشب إلى غرفتنا. قرّرنا أن نغفو. نرقد، وجهًا لوجه، أنفًا لأنف، على الفراش الضيق، نتوق للدفع — الجو شديد البرودة في أجنحة الخدم! — وابتسامة، عارفين أننا لن ننام، مستحيل أن ننام وكل هذا النشاط من حولنا، عارفين أن أناسًا كثيرًا يعملون تحتنا، والفراش متدلّ على هذا النحو، وغير مفرد، ونتململ خلال دقائق ونشعر بالآلم الظهر.

إننا مرفهون جدًا، معتادون جدًا على وسائل الراحة في العالم الجديد، مدللون جدًا. نسخر من هشاشتنا. كيف يفعلها الفرنسيون؟ كيف يمكنون ويركزون على الأمور مهما تكن — الحب والحياة والأفكار — حين يكون فراشهم مُتدلاً وغرفهم مُغبرة؟ إننا أضعف بوضوح، غير مرنين، عاجزون عن التكيف. لا نعترف بذلك، لكن يمكن أن نموت على الفور الآن بسبب السجاجيد التي تمتد من الحائط إلى الحائط والوسائد الكبيرة المنفوشة.

كيف بدت هذه الغرفة والطبّاخة تعيش هنا؟ نتخيل تسريحة صغيرة عليها صورة للعدراء، والطبّاخة تستيقظ مبكرًا قبل شروق الشمس، تشعل شمعة وتتلو دعاءً قصيرًا. وربما تنتعل حذاءً جامدًا من الجلد، حذاءً برباط، وربما لم يكن لديها إلا ثوبان. ربما استخدمت حوض المطبخ لتغسل وجهها ثم تعد القهوة. وكان عليها أن تُطعم الحيوانات بنفسها، وتهتم بكل الأعمال الرتيبة في الفناء حيث غادرت كل الأيدي العاملة الثابتة لتنضم إلى المقاومة.

نعم، المقاومة! تاقت الطبّاخة للانضمام إلى المقاومة، لكنها عرفت أن عليها البقاء لمساعدة الأسرة. بطريقة ما كانت جزءًا من المقاومة، فكرت مع نفسها. أعدت الوجبة الصغيرة^{١١} للمدام وخادمتها، أولاً. طرقت على باب القبو قبل أن تنزل السلم الضيق. حكّت للمدام ما كان الألمان يقولونه. قالت إنهم يبدون قلقين. كثيرًا ما يذكرون الأمريكيين.^{١٢} بدا

^{١١} الوجبة الصغيرة: بالفرنسية في الأصل.

^{١٢} الأمريكيون: بالألمانية في الأصل.

دائمًا أنهم يدرسون خرائط، يطوونها بسرعة حين تدخل القاعة بالخبز والقهوة (إضافة القليل من القذارة فقط).

نفكر في الجدة، ضئيلة الجسم وضعيفة جدًا الآن، في طرقها المهذبة، لنفكر في أنها رفضت مغادرة المنزل والألمان هنا. كانت شجاعة! شابة وشجاعة! ماذا فعلنا؟ ومع سبعة أطفال، أُخذوا في النهاية إلى نانسي، طبقًا لترتيب الضابط النمساوي، الشخص الذي كان يتصرف بشكل صحيح جدًا مع الأطفال، خشيت الطبّاخة أن تُسمم حساءه أيضًا. لكن ماذا تفعل؟

نشعر بالتوتر. نحتاج إلى معرفة ما حدث للطبّاخة. وأين الخادمة الآن؟ ورغم بقاء ساعتين على موعد الحفل، نقرر ارتداء ملابسنا. أخرجنا أشياءنا، ثوبًا، وجوربًا، وبنطلونًا سبق كيه، وتَجَدَّ الآن قليلًا نتيجة السفر، وقميصًا نظيفًا. نرتدي ملابسنا، ببغاء، بعناية، مستمتعين بالإحساس بالملابس النظيفة الرائعة، عملية ارتداء الملابس، كأن اليوم كله يعتمد عليها. نواصل القصة، مذكرين أنفسنا بما قالته بتريس للتو، محاولين أن نجد دليلًا في مكان على ما حدث بعد ذلك.

احتل الفرنسيون المنزل قبل أن يأتي الألمان. تصرفوا بشكل مناسب، مناسب جدًا، مع الأسرة. عسكر معظم الضابط الفرنسيين في خيام على العشب، مستيقظين مبكرًا ليسمعوا خوار الأبواق وقد احتقنت الضروع. اقتصر وجود الأسرة في المنزل على الغرف العلوية والمطبخ، واستخدم الضباط الأروقة مركزًا للقيادة. واتخذت الأسرة من ذلك لعبة، قائلين للأطفال إنهم في أمان لأن الجنود معهم.

حين جاءت أوامر الإخلاء، طلب القائد من والد بتريس المغادرة، والذهاب إلى باريس، أو حتى إلى نانسي. الألمان قادمون. ناشد الوالد الأم — الجدة الآن — فرفضت. منزل عائلتها رغم كل شيء، ولا تستطيع هجره. فكرت في الولائم والحفلات التي أقامها والداها، وهي فتاة صغيرة قبل الحرب العالمية الأولى. فكرت في خروجها ليلة الحرب، الطلقات التي سقطت في الحديقة، الجناح الشرقي لمعهد الموسيقى وقد فجّره الألمان بالقنابل ذات صباح. لم ترحل الأسرة حينذاك. نام أفراد الأسرة ومن بقي من الخدم في القبو. كيف ترحل الآن؟ انتظر أفراد الأسرة. رحل الفرنسيون، أخلوا المعسكر بدقة قدر المستطاع، ولم يتركوا وراءهم إلا أوتاد الخيام في الأرض العشبية. انتظر أفراد الأسرة. قاموا بأعمالهم المعتادة. وذات يوم عمّ صمت شديد في الريف. أرسل الأطفال إلى القبو، مكثوا مع الوالد، وجلست

الأم تنتظر في رواقها، هادئة جداً، صابرة جداً. زحفت الطَّبَّاحة على ركبتَيها ونظَّفت أرضية المطبخ. ومرة أخرى رغبت في عمل ذلك، لا تحتمل الانتظار. بكت الخادمة في غرفتها فوق الحظيرة.

جلست الأم، تستمع إلى صوت شعر الفرشاة على الأرضية الحجرية، ووراءه صمت. مع الظلام بدأت دمدمة للآلات.

وقفنا في الممر الضيق بين غرفتنا والردهة الرئيسية، نحكي لأنفسنا هذه القصة. على رف الكتب خليط من الأشياء، لوحة شطرنج وأدوات وآنية خزفية مُهشَّمة وخوذة. نَذْهَل. مررنا برفِّ الكتب عشر مرات على الأقل منذ الصباح. لماذا لم نَزها من قبل؟ ثقيلة، أصغر من أن نتخيل أنها خوذة، أقرب إلى قُبَّعة. يُذَكِّرُنَا اخضرارها بالطحالب، بحرب أخرى، بمستنقعات. في داخلها بحر أسود كثيف: جونسون. اسم أمريكي. نتخيل جندياً أمريكياً أسود، في أول مهمة له، أول مرة خارج الولايات المتحدة، جحيم! المرة الأولى خارج جورجيا.^{١٣} بطل.

وعلينا أن نتذكر أن الأمريكيين أطلقوا النار على الطَّبَّاحة. ثمة شخص يصعد السلم. نسمع وقع أقدام، وتدرجياً يظهر رأس بشعر قصير أسود ورمادي. لم نصدق حظنا! إنها بتريس.

وهي تصل إلى الطابق الثاني، ترانا نقف في الممر ومعنا الخوذة. نُلَمِّحُ إليها بالخوذة، نُلَوِّحُ بالخوذة. نقول، انظري، هنا دليل، هنا ما تُخَلِّفُهُ الحرب وراءها، ما تُخَلِّفُهُ القصص وراءها.

تومئ بتريس وتبتسم، وتُرِينَا ما في يديها، ثوب وصيفة من حرير أخضر خفيف. تنقله إلى الغرفة التي فيها العروس. تعدنا إيماءة بتريس بأنها عائدة.

أذهلنا التوقع. أخذنا نُقَلِّبُ الخوذة. نحاول وضعها على رءوسنا، ضَغْطُ ثقلها على الجمجمة مثل ذكرى. مثل تاريخ. نسخر من تفكيرنا بعمق. إننا أمريكيون رغم كل شيء. يُفْتَرَضُ أننا أضحوكة في أغلال التاريخ. يمكن أن نسلخ التاريخ كما يُغَيِّرُ الثعبان جلده، ونتركه للآخرين ليهتموا به.

لكنه هنا في أيدينا صلب وثقيل وأخضر.

^{١٣} جورجيا Georgia: ولاية في جنوب شرق الولايات المتحدة.

تأخذ بتريس الخوذة من أيدينا برقة، وتقلّبها، وتقول بصوت عالٍ، جونسون. تقول: أحببنا الجنود الأمريكيين. كان ذلك يعني العودة مع الوالد إلى البيت. كان يعني الشيكولاتة واللبان. لم نعرف اللبان من قبل أبدًا.

نفكر في اللبان كأنه فكرة جديدة. نتذكر مضغه ونحن أطفال، نبلع كتلاً لا تُحصى من اللبان وقد جمد نتيجة مضغ لا ينتهي، والخوف من ألا نهضمه. نقول: نعم، نعم، وماذا عن الطباخة؟ ماذا حدث لها؟

تضرب بتريس بيدها وتضحك. أوه، لا شيء. حين جاء والأمريكيون كانوا فزعين يطلقون النار على كل ما يتحرك. لكن بمجرد الاقتراب منها رأوا أنها مجرد سيدة بمريلة فكفوا عن إطلاق النار.

من المؤكد أننا نشعر بالراحة، لم يؤذ أولئك الجنود الأمريكيون الفزعون الطباخة. لكن فينا جزءاً صغيراً يبدو محبطاً، تحوّلت الدراما إلى كوميديا، إلى مهزلة. هل الأفضل أن يكون الجنود الأمريكيون فزعين لا مفترسين؟ لماذا تركوا هذه الخوذة وراءهم؟

تقول بتريس: لا أعرف. وتستدير لتهبط السلم. نضع الخوذة بسرعة ونتبعها، لا نريد أن تتركنا مرة أخرى وسط القصة. ماذا حدث للخادمة والجدة؟ هل بقيتا مع الأمريكيين؟ أوه، نعم. والأطفال، عُدنا جميعاً مع الوالد. وعلمنا الجنود الأمريكيون البيسبول. اعتقد أنهم كانوا ضجرين تماماً.

تنطلق بتريس إلى المطبخ، وتتركنا عند قاع السلم. نفكر في دخول المطبخ، لكننا، وقد ارتدينا ملابسنا، لا نريد المخاطرة بتعريضها للبقع أو انسكاب شيء عليها. نتحول إلى الجهة الأخرى ونمشي باتجاه الشرفة. يَنفُذُ ضوء الشمس إلى الممر الرخام ويندفع الأطفال فجأة من الأبواب وحول الأركان، يطاردهم أبناء عمومة أكبر أو أمهات منزعات بشدة. نبتسم مرتبكين، نود أن يوقفنا أحد ويتحدث إلينا؛ لم يقترب أحد ونحن نمر من الردهة والأبواب إلى الشرفة.

تمتد الشرفة عبر واجهة المنزل. في مركزها، حيث نقف الآن، سلام تؤدي لممر ممهد بالحصى ثم إلى العشب. بطول سورها تماثيل حجرية للمائكة، تماثيل ملتوية بشكل مبهج، متجمدة في وضع حركة. نلمس أوجهها، مقطّعة ومثقبة نتيجة الطقس والبل؛ جلودها الحجرية دافئة تحت الشمس.

يوم جميل لعرس، يقول كل منا للآخر ونشب فوق السلم نازلين، ممسكين بالأيدي، نشعر وكأننا صغرنا مرة أخرى، مثل أطفال هاربين من مهام الكبار وأغراضهم. نجري عبر الممر، يتطاير الحصى خلف أحذيتنا، وعبر العشب، أسفل أسفل إلى حافة البركة. وقد تقطعت أنفاسنا، نتوقف ونتلفت حولنا، نتطلع خلفنا إلى القصر، يمتد الآن مقابل السماء مثل مريض مخدّر... نعم، نعم، قد نكون في عهد سابق، حيث يشرب الناس الشمبانيا من الأحذية، ويندفع الأمريكيون أفواجاً إلى أوروبا. نقول: إذا حُرقت عينك اليمنى لتمحو السيارة التي بجوار المنزل، يكون الوضع بالضبط وكأننا في عهد سابق. نتخيل عربات خفيفة وعربات تجرّها الجياد تأتي عبر البوابات وعبر الممر، وتقف عند سلال الشرفة، لينزل منها المسافرون الأغنياء لتناول الشاي، لتناول العشاء، لحفلة.

من حيث نقف على العشب، تُظلل أيدينا عيوننا من الشمس، مثل تحية عسكرية، نشاهد نشاطاً في الحركة خلف نافذة الطابق الثاني. العروس ووصيفاتها. العريس ورفاقه. تستمر الاستعدادات ويستمر الزمن. نتطلع إلى الخلف، مُحدّقين في الشمس، لكن ماذا نرى، المبهم، القصة شبه المعروفة، رغبتنا، مثل الأطفال، عنيفة ومتقلّبة.

بعد الحفل، نركب عائدين مع ابن عم عطوف وزوجته. محشورين في المقعد الخلفي في السيارة، نستمتع إليهما يُعبران عن الإعجاب بالعرس ونشارك معهما قدر المستطاع. كانت كلودين رائعة، جميلة جداً وهادئة. ماكس — ماكس في بدلة رسمية! يا لها من نكتة! من كان يتوقع أن نرى هذا اليوم؟ والجدة، في المقعد الأمامي في الكنيسة — الكنيسة الضخمة الكالحة بأقواس حجرية تمتد بعيداً فوقنا حتى ضاعت الأصوات ولم ترجع من السماء الرحبة. الجدة ضئيلة جداً وفي موضعها الطبيعي. والأحفاد — في ملابسهم! صنعت ملابس خاصة بهم! — حين تمت دعوتهم إلى مذبح الكنيسة، ساروا مثل عرض للمهرجين والمازحين الفرحين. هذه الروعة الرسمية، هذه البهجة غير الموقرة في الوقت ذاته.

ونحن نقدم هذه الملاحظات ونستمتع إلى ابن العم وزوجته، تتحول السيارة إلى طريق خاص طويل، مُظلل بأشجار الحور، يؤدي إلى القديس أربيان. أمامنا مباشرة نرى البوابات الحجرية، لكننا لا نرى المنزل، الأخشاب سميقة جداً والطريق طويل جداً. بدا كأننا نقترّب منه للمرة الأولى. حين نمر عبر البوابات ويظهر القديس أربيان قريباً وكبيراً، نشعر ببرودة ظلال أشجار الحور، واضطراب في المعدة لا يوصف إلا بأنه حب. الجميع في السيارة صامتون، لا صوت إلا صوت حكّ إطارات السيارة في الحصى، ثم، ببطء، صوت أثري شاحب لبيانو يعزف من مكان ما في المنزل.

يجتمع الجميع على سَلَم الشرفة، مع صوت صب الشمبانيا وقطع من الطعام — بروسكيتا^{١٤} وفطير محشو. نقف ونمضغ، نلغظ بأشياء من قبيل يا له من يوم! كم كانا جميلين! هل تتذكر حين ...؟ ننتظر وصول العريس والعروس، وبعد حوالي ساعة، والشمس تتحرك أكثر إلى الغرب، قاطعة خطأً حادًا من الظلال عبر الممر، نسمع صوت ضحك وعجلات تأتي عبر البوابات.

جاءوا في عربة تجرّها الجياد، نتعجب كيف بدا الأمر تمامًا كما تخيلنا، كأننا في عصر آخر. أطفال صغار، أطفال أبناء العمومة، محمولين في العربة مع الزوجين. يرغب الكل في دورة، يرغبون في أن يكونوا كالعروس والعريس، في المركز، في بؤرة الانتباه، أو على الأقل في مجال رؤية هذه الأسرة الملكية.

يقدم شخص للعروس والعريس كأسين من الشمبانيا وهما في العربة. يقدم أفضل الرجال نخبًا. كان في كرسي بعجل يحتاج إلى الحمل على الدرجات الحجرية. يقول لنا بعد ذلك إنه أُصيب بشلل في ساقيه في حادث سيارة.

في صحتك، نرفع كئوسنا ونرشف النبيذ. من خلفنا، يأتي صوت مثل تَكْسُر موجة على شاطئ صخري، ثم ينفجر أبيض مرفرفًا حول رءوسنا. هناك في البداية صراخ، ثم ضَحْكٌ ولغظ، والحمام يطير فوقنا، يميل ويدور في سرب، ثم يلف حول المنزل خارج مجال أبصارنا.

ترحف الشمبانيا الآن في رءوسنا، وبعد إطلاق الحمام، نستعد لمشاهدة أي شيء. ماذا بعد؟ هل هناك أفيال وراقصو الحنفيات^{١٥} أكروبات؟ أكلة النيران؟ نتفق أننا نتأثر جدًا ببالي السيوف. نعم، أي شيء يتضمن ابتلاع نار أو أسلحة. هل يكون الأمر عظيمًا إذا كانت هناك أفراح أكثر تشبه السيرك؟ يأخذ العريس والعروس تدريجًا مكثفًا على أرجوحة البهلوان قبل إعلان الموافقة على الزواج على الملأ. الآن إنه تكريس، لا مجرد منظر.

تتبع الضيوف الآخرين وهم يتبعون الزوجين على سَلَم الشرفة وخلال المنزل إلى الفناء. ندخل لتناول العشاء. سيكون هناك المزيد من النبيذ. ستكون هناك طاولة بوفيه طويلة للطعام، لحوم جاهزة معروضة على شكل طاوس — نعم، طاوس! — وأنواع من الجبن

^{١٤} بروسكيتا bruschetta: طبق مشهيات إيطالي.

^{١٥} راقصو الحنفيات: رقصة الحنفية رقصة يصدر فيها الإيقاع بطرق الحنفيات على كعوب أحذية الراقصين.

والسلطات، وبالطبع عصى طويلة من الخبز، وباجوت^{١٦} ناشف نلتهمه كأننا لم نأكل من قبل قط. هناك حُطِب وملاحظات ساخرة وغناء ومزاح، ومزيد من الخطب، أصوات متلعثمة. ثم، ونحن نملاً كأساً أخرى من النبيذ — لا فائدة من العد، فقدنا القدرة على العد منذ بعض الوقت — نسمع أحياناً موسيقية مألوفة ويزحف في ظهورنا إحساس دافئ شائك، يعرف الجسم، قبل المخ، بأننا مراقبون. توقظنا ألفة الموسيقى من نَهْمنا قبل أن نعي النغمة، وحين نتطلع نكتشف أن الجميع يبتسمون لنا. يعزفون «راية النجمة المتلألئة»^{١٧}. ونشعر بخجل وارتباك، نرد الابتسامة ثم بعض التلويح، مثل ملكة جمال أمريكا على منصتها، مُعترفة بإخلاص للجماهير.

ليست راية متلألئة، بل راية متلألئة^{١٨}.

يتناقش الاثنان المجاوران بإنجليزية مخلوطة بنبرات فرنسية. ومع ذلك الارتباك يأتي إحساس بالراحة. تشحب الموسيقى ويُدعى الجميع إلى طاولة البوفيه لتناول الفاكهة ومزيد من الجبن والشيكولاتة.

خارج الحظيرة، الجو مظلم الآن. أَكَلْنَا وشربنا لساعات. نشعر حقاً بأننا من القرون الوسطى في تكريسنا للمتعة. يتحدث الضيوف ويضحكون بصوت مرتفع، وهم يعرجون خلال الفناء. بدأ شخص في عزف الموسيقى في المنزل؛ تضاء الشموع بطول الممر وفي المنزل. يبدو الهواء مُنْعِشاً بشكل عجيب ونحن نتسكع في الخارج، نتمايل بجانب الحظيرة. نسير إلى الطريق خلف الحظيرة، حيث جرت الطباخة، وهي تُلَوِّحُ بمريلتها البيضاء. هناك شجرة فقط، عَبْرَ الطريق، ضخمة إلى حد كبير، تخشخش أوراقها مثل تنورات تحتية لسيدة من العصر الفيكتوري. نتحول باتجاه الغرب. تومض يراعات^{١٩} في الظلام. نصل بالكاد إلى الطريق، نجاهد لنرى الأفق. ربما رأَت الطباخة الجنود يأتون، حشد من الرجال لا يمكن تمييزه، ثم، هنا — نُشير إلى الشجرة — ربما سقطت على الأرض عند إطلاق النار. هل صرخت؟ هل نادى، نحن الفرنسيون!^{٢٠} أم بقيت صامتة، تنتظر فقط، وقلبها

^{١٦} باجوت baguettes: نوع من الخبز الفرنسي، رقيق وصغير، يُستخدم غالباً لعمل السندوتشات.

^{١٧} راية النجمة المتلألئة The Star-Spangled Banner: النشيد القومي للولايات المتحدة.

^{١٨} متلألئة في الأصل spankled، وهو تحريف لكلمة متلألئة spangled.

^{١٩} يراعات fireflies: نوع من الخنافس الليلية، توجد مواد كيميائية مضيئة في نهاية بطنها ينبعث منها وميض.

^{٢٠} نحن الفرنسيون: بالفرنسية في الأصل.

يدق، حتى اقترب الجنود وشمّت عرقهم وسمعت صوت تنفسهم؟ ربما سمعت صوتاً أجش لجندي أمريكي يأمرها بالوقوف. وبمجرد أن وقفت على قدميها، ومريلتها المرمية منسية على الأرض، ربما ابتسمت وقبّلت أول جندي رآته. برشاشها الفرنسي، ربما وبختهم لأنهم أطلقوا النار عليها واستغرق الأمر وقتاً طويلاً لتعفو عنهم. ربما استرخى الجنود وأخرجوا السجائر وتمددوا على العشب بجوار الطريق، ممتنين من أجل لحظة من الراحة. ربما اندفع إلى الأمام ضابط درس الفرنسية في المدرسة الثانوية ليتحدث مع الطباخة، فاستمعت بجهد إلى أسئلته، اختلاط الكلمات على لسانه، خوفه الشديد وهو يسأل: أين نحن؟ فقط، مما أثار دهشة الطباخة يسألها: من نحن؟^{٢١} من نحن؟

ربما خبطته الطباخة على كتفه وضحكت قائلة، بالطبع، بالتأكيد، أنتم الأمريكيين!^{٢٢} ثمة صوت صغير حاد ثم فرقة. نشحب، ما هذا؟ انقطع الصوت لحظة، كأن الهواء تلاشى، ثم نشاهد نافورة خلف المنزل ينبعث منها ضوء ملون. نتجه عائدين عبر الطريق وخلال الفناء. يتحرك الآخرون جميعاً باتجاه المنزل. يُطلق المزيد من الألعاب النارية، تدور وتتلوّى مثل ثعبان، ثم تفرقع تفرقع تفرقع وهي تنفجر فوق المنزل.

يتزاحم الضيوف في الشرفة، والعروس والعريس أيضاً، يقفان وسط المجموعة مثل ملكة نحل تحيط بها الشغالات. نتطلع جميعاً، وأعناقنا مشرّبة إلى السماء، ستارتها الخلفية غير المحدودة. تعكس عيوننا في منمنمات تيارات باقات الألعاب النارية وومضاتها. إننا صامتون، مفعمون بالرهبة، خاضعون لهذا العرض الرائع للقوة.

تقول بتريس: إنه مثل الرابع من يوليو،^{٢٣} أليس كذلك؟ إنها بجوارنا تتطلع إلى السماء. مثله، نوافق، لكننا لا نريد أن يكون مثله. نريد بدلاً من ذلك أن يكون على هذا النحو، مثل عرس، مثل الشمبانيا والشيكلاتة، لحوم جاهزة على شكل طواويس، طبّاخة ترفض الحديث مع الألمان، أمهات يواجهن الاحتلال بشجاعة، وأوجه الجميع في ضوء السماء. تُشير لنا بتريس إلى الطرف البعيد من الشرفة. تضع يدها على رأس ملاك حجري، وإبهامها يتتبع تقعره.

نتحدث وندفع إليها، ونميل رءوسنا لنسمعها بشكل أفضل.

^{٢١} من نحن: يأتي السؤال مرتين، في الأولى بالفرنسية وفي الثانية بالإنجليزية.

^{٢٢} بالطبع، بالتأكيد، أنتم الأمريكيين: بالفرنسية في الأصل.

^{٢٣} الرابع من يوليو: عيد استقلال أمريكا عن بريطانيا العظمى، وقد أُعلن في ٤ يوليو ١٧٧٦م.

هل ترون؟^{٢٤} هل ترون هذه القِطْعَ المفقودة؟ تقول: كان الجنود الأمريكيون ضجرون للغاية. لم يكن هناك ما يفعلون سوى الانتظار والانتظار.
نُذْهَل. لا ننطق بكلمة. اندفاع للفرقة والصفير، تنفجر الألعاب النارية في ختام عظيم من الضوضاء والألوان. نتطلع أعلى وأعلى بصيحات الإعجاب.
حين ننظر إلى أسفل من جديد، نجد الضيوف يعودون إلى المنزل. موسيقى ورقص حتى الفجر، ويمضي العروس والعريس بهدوء إلى النوم، والجدة أيضًا وذكرياتهما. يتسكع وحدهم السكارى الذين ينكرون نهاية الأشياء، يتمسك كل منهم بالآخر، يبتسمون بسأم، يلتقطون الحاجز المدّمّر.
لن نرغب في الاستسلام. نتمشى بطول الممر الممهد بالحصى في الشروق الضبابي. بجوارنا، تبقى خدود الملائكة وأذرعهم وسيقانهم وقد امتلأت بالطلقات متجمدة في وضع الطيران، متحملة حتى أكثر من هذا.

^{٢٤} هل ترون: بالفرنسية في الأصل.

خليج جلفستون ١٨٢٦

تأليف: إدِّي شوكوليت^١

في يومهم الثاني، رأى جماعة أولد بول ذئبًا كثيرًا وقيوطًا^٢ عن بُعد، قابضة على الأرض، تُبادلهم نظرات خاطفة. بدت الحيوانات في العصر مثل سراب في شُبورة موجة حرارة انبعثت من الوادي وجعلت الأشياء تومض ولا تبدو على حقيقتها. وقف ذئب وقبع على مؤخرته ناظرًا خلفه. لعق شرائح اللحم التي أمامه، ثم نظر مباشرة إلى أولد بول قبل أن ينسل مبتعدًا. يحدث شيء استثنائي تمامًا، لكن أولد بول لم يضعه في الاعتبار. كانت هناك أيام كثيرة عليه أن يقضيها قبل الوصول إلى هذه البحيرة الكبرى التي سمع الكثير عنها. كان هناك أولد بول ورد مون وسندمان وويتشيلد. باستثناء شرائح لحم مجفف ملفوف في جلود، وجياد إضافية، كل منها في حبل جانبي، لم يحملوا أمتعة. كانت جيادهم عجفاء وقوية فُطِرَتْ على الجري. لكنهم لم يكونوا جماعة ذاهبة إلى حرب أو رحلة استكشاف. كانت جولة بسيطة وسهلة للمتعة، مغامرة، ومن يريد حمل أعباء في مغامرة؟ بشكل

^١ إدِّي شوكوليت Eddie Chuculate: كاتب من الهنود الكريك Creek والشيروكي Cherokee، من أوكلاهوما، من السكان الأصليين في أمريكا. والعنوان الأصلي للقصة Galveston Bay، ١٨٢٦ م. وخليج جلفستون: لسان في خليج المكسيك.

^٢ القيوط coyotes: حيوان صغير من أكلة اللحوم يشبه الذئب، موطنه الأصلي غرب أمريكا الشمالية، ويُعرف أيضًا بذئب المروج.

خاص، اعتقد أولد بول أن القصص كانت مُبالغاً فيها: أيام وأيام والماء في كل اتجاه؟ الطرف المُطلق للأرض؟ اعتقد أنه لو كان هذا صحيحاً، فهذا بالتأكيد هو الأصل الحقيقي لوجودهم.

كان الماء ضحلاً جداً في النهر الأحمر؛ تركوا الجياد تشرب بعد أن عبروا.^٢ قرب المساء جاء الظبي — منطقة سمراء مبقعة باللون الأبيض — الأول، ثم ثنائيات وثلاثيات. بسرعة، أحيطت جماعة أولد بول من الأمام والخلف بحيوانات مُتقلّبة جداً كالمعتاد. أوقفوا جيادهم ونظروا في كل اتجاه. أعجب أولد بول بالطريقة التي قفزت بها الظباء في أقواس طويلة رشيقة، واحداً بعد الآخر، كأنها تلعب لعب أطفال. لكن سندمان سحب سهماً وأطلقه في عنق أحدها مباشرة وهو في قمة قفزته. سقط على ساقيه الأماميتين ورقد مرتجفاً على العشب. نزل وانتزع سهمه، ثم قطع عنقه بحركة سريعة. فعل ذلك كله بهدوء. هز أولد بول رأسه. ضحك رد مون. ذلك سندمان الملعون.

بعد ذلك، سقط ويتشيلد تقريباً من فوق حصانه وهو يكاد يخطو على مجلجلة.^٤ سقط الحصان فجأة وشبّ، لكن ويتشيلد هدأه، هارثاً جانب عنقه. أخبره أولد بول أن من الأفضل أن ينتبه في المرة القادمة. أصابهم رذاذ عبر جدول صغير، وعلى قمة الارتفاع التالي اندفع جندب في وجه أولد بول. شعر بسيقانه الصغيرة المخريشة على خدّه وحاول ضربه، فقفز مبتعداً. أشار سندمان. تطلّع أولد بول ورأى أمواجاً من الحشرات تطير باتجاههم، وسمع صوت رفرقة أجنحتها؛ جراد وجنادب وصراصير الليل. غطى الركاب وجوههم بجوانب جيادهم وانطلقوا عبر غيمة من البق. بمجرد أن مضوا، ساروا ببطء استعداداً لقفزة. شمّت الجياد رائحة دخان، رافعة رءوسها وفاتحة أنوفها. عطس حصان أولد بول بشدة. ثم شمّها أولد بول نفسه. على قمة الهضبة، حيث يستطيعون أن يروا من حولهم على بُعد أميال، رأوا ناراً باتجاه الغرب. ارتفعت مثل اندارات وإدٍ أحمر، لهبها يلتف ويتقدم. فرّت الحيوانات والنار تزداد، احتشد أكبر عدد من الحيوانات في مرة واحدة بالإضافة إلى أولد بول. تلك الليلة، غفوا على فراشهم في أيقة الحور القطني،^٥ بقايا دهن

^٢ النهر الأحمر Red River: يوجد ثلاثة أنهار بهذا الاسم، الأول في الصين وليس هو المقصود بالطبع، واثنان في أمريكا أحدهما في الجنوب والآخر في شمال الولايات المتحدة ويُعرف بالنهر الأحمر الشمالي.

^٤ المُجلجلة rattlesnake: نوع من الحيات يُسمع لها صوت يشبه صوت الجرس حين تتحرك.

^٥ الحور القطني cottonwood: حور أمريكي على بذرته كتلة شعر قطنية.

ظبي يتناثر ويتوهج على جمرات. سقطت جديدة من شعر رد مون بين شفتيه. دخل وخرج وهو يغط في النوم. أتت نسيمات ومضت، مُحَرَّكَةً أوراق الشجر فانبعثت منها موسيقى. النار خلفهم الآن، غادروا عند الشروق. قادوا الجياد أحياناً ببطء في مسارات متعرجة، أخذين الأمر ببساطة، أو جنباً إلى جنب في قفز سهل. يبدأ حصان سندمان دائماً في العدو حين يشم ماءً، وعلى سندمان أن يكبحه. وصلوا بعد يومين إلى بلدة مرتفعة كثيرة الهضاب، وكان عليهم النزول من على صهوات الجياد وقيادتها حول جلاميد وصخور من الجرانيت وتحت كتل من الصنوبر والأناناس. ظهر هذا المشهد الطبيعي بصورة غير متوقعة، بارزاً بين الزهور البرية، ومرج عشبي ضيق يشبه سلسلة جبال صغيرة. أقاموا معسكرًا قرب القمة، يطل بشكل كبير على أودية الجنوب. رأى رد مون، مُتَسَلِّلاً، صفًا من ثلاث شاحنات أو أربع، تزحف مثل الحشرات في الغروب. مزح مع أولد بول قائلاً من الأفضل ألا يخبرا سندمان، ألا يخبراهما فعل.

بعد يومين، بدأت جيادهم تشم ماءً، ترفع رؤوسها وتخفضها، تنظر بتوحش، تُزجر، وتصعب السيطرة عليها. كانوا على منخفض موحل، وقد احتل عشب الملح^٦ والقصب الناعم مكان القطن البري والأشواك. دفعت عاصفة مفاجئة شعر أولد بول إلى الأمام، تتبّع الرياح أمامه، تياراتها واضحة وهي تدوم بين فروع عشب جونسون^٧ والصفصاف. على الفور ظهر ماء في كل مكان: بُحيرات ضحلة وجداول ومستنقعات. توقف الرجال ومسحوا المكان. في مكان قريب، غطى الإوز والغرائيق^٨ بركة ضحلة، وتساقط الكثير منها، يقع بأجنحة مفرودة وأقدام ممتدة، مستقرًا مع رذاذ خفيف. تمايلت الطيور على المياه، وذُكِرَ تسكعها وصوتها أولد بول بسرب من الديوك الرومي البرية لمحها ذات مرة تسير باتجاه الشمال. كان محبطاً بعض الشيء رغم ذلك. هناك مياه كثيرة، لكن لا يمكن أن تكون البحيرة الكبرى. هناك بحيرات كثيرة في الشمال تشبهها. قال ويتشيلد قد يكون عليهم العبور من هنا للسير أكثر باتجاه الجنوب لأن المياه ستصبح عميقة جدًا بعد قليل. بصيحة، ساط سندمان حصانه فجأة في المياه الراكدة، وبدأت صرخته النافذة، رذاذ الإوز وصيحات

^٦ عشب الملح salt grass: نوع من الأعشاب في أمريكا الشمالية، ينمو في المستنقعات المملحة والمناطق القلوية.

^٧ عشب جونسون Johnson: من أعشاب البحر المتوسط، يُعرَف أيضاً بحبة الدخن المصرية.

^٨ الغرائيق cranes: نوع من الطيور التي تعيش على سطح المياه، طويلة العنق والساقين والمنقار.

الفرع التي أطلقها، تملأ العالم. واحدة واحدة، ارتفعت مجموعة الإوز البري كلها وحلقت في السماء، وشعر أولد بول برياح أجنتها على جلده.

انطلقوا قبل الشروق، وهم على الجياد شحبت النجوم وتحولت السماء إلى اللون الأزرق الصافي العميق. توقف رد مون وأشار إلى الهندي. شخص، مُلَطَّخٌ تمامًا بالوحل، يركع على حافة بحيرة ضحلة سطحها قاتم وصافٍ مثل مرآة. نخس الرجال جيادهم وهمسوا لها لتبقى صامتة. نهض الهندي وحمل المياه فوق هضبة بعيدًا عن الأنظار. حلُّوا جيادهم الإضافية واطمأنوا عليها وتبعوه، والبحار يتصاعد من أنوف الجياد. حين اعتلوا قمة الهضبة، واجههم حوالي عشرة هنود وقد سحبوا أقواسهم. مدَّ سندمان يده إلى قوسه، فأمسك أولد بول بذراعه وبذراعه الأخرى لَوَّح للخلف والأمام بودّ. وطلب من الآخرين أن يفعلوا مثله. فعلوا، لكنَّ سهمًا طار بجوار أذن ويتشيلد وارتطم في ضفة النهر، ودُفِنَ حتى ريشته. انطلقوا إلى حيث كانت جيادهم الإضافية تنتظر خلف قائم من الحور القطني. حاول أولد بول مرة أخرى، حين ظهر الهنود على مكان مرتفع، أن يُلَوِّح ويُلمِّح. لا أسلحة. بودّ. أخرج سندمان وويتشيلد قوسيهما وكانا مُخْتَبِئين خلف الأشجار. حكَّ سندمان سكينه متأكدًا من وجودها. سار أولد بول أكثر إلى مكان مكشوف، رافعًا ذراعيه. حاول أن يُشير بأنهم أتوا من الشمال، ويحاولون السير في ذلك الطريق، إلى المياه الكبيرة، ولا يقصدون أي أدنى. فتح ذراعيه تمامًا. يستطيع ضربه في القلب. ظهر سندمان على حصانه، يتبعه رد مون وويتشيلد. طَوَّقوا أولد بول، ولم يُظهروا أي أسلحة. أتوا في سلام. أنزل الهنود أقواسهم وأخذوا يقتربون. قال أولد بول: تعالوا، قابِلُوهم في منتصف الطريق. اعتقد أولد بول أن الهنود غرباء، غرباء جدًّا، لا يشبهون أحدًا ممن رآهم. كانوا مُلَطَّخين بالشحم، دُهْن نصف وجه كل منهم بالأحمر والنصف الآخر بالأسود، وغُرِسَتْ في حلماهم قطع فضية من القصب. الأقواس التي يحملونها طولهم. حلَّ رد مون حصانه الإضافي، البلومينو،^٩ وذهب إلى الرجل الذي يحاول أولد بول التحدث إليه. افترض أنه رئيسهم وقَدَّم له الحصان. بدا أن حدة التوتر خَفَّت. بدأت المجموعة تصيح وتغني وتراجع. أشار الرئيس ليأتوا. وهم يفكون جيادهم الإضافية، قال أولد بول إن البحيرة الكبرى جديرة بهذا.

طوال الليل وحتى الفجر، رقص الهنود كثيرًا من أجلهم، أجن رقصه رآها أولد بول. هزت النساء شخاشيخ من قواقع السلحفاة النهاشة مربوطة بعصا عليها سيور من

^٩ البلومينو palomino: نوع من الجياد يُعتقد أنه ينتمي لسلالة من الخيول العربية.

الجلد، وعزف بعض الرجال على مزامير بسيطة مصنوعة من القصب. الأصوات التي تشبه أصوات الطيور جعلت رد مون يبتسم. كان هناك قارعو طبول ومغنون، يصدر بعضهم صوتاً حزيناً منخفضاً من قواقع قرنفلية. بالطبع، لم يكن لأي صوت منها معنى بالنسبة للشايين،^{١٠} لكن يبدو أنها أسعدت ضيوفهم. أحاط الراقصون بنار هائلة، مالوا للخلف أو لفوا في كل اتجاه، على ما يبدو من دون تصميم أو غاية، يثبون أحياناً في اللهب. ارتدى بعضهم جلداً غريباً يحمل ألوان قوس قزح وعقوداً من الأسنان. طارت الشرارات في شعر راقص فقفز وصرخ وأخذ يصفع رأسه وهو يواصل حول النار. افترض الشايين أن ذلك جزءاً من الرقصة. قُدمت للضيوف أطباق من شرائح اللحم المشوي والجمبري والمحار. أراهم الرئيس كيف يسلخون اللحم بأداة خشبية تشبه الملعقة ويغمسونه في ملح البحر المبلور في تجويف في لوح حجري. اعتقد سندمان أنه لم يتذوق أبداً شيئاً بهذا المذاق الرائع وأكل حتى انتفخت معدته. أتى الهندي الذي رأوه ينقل الماء في ذلك الصباح إلى سندمان وأشار إلى أنه هو الذي كان يشرب، وأنه رأى صورهم على سطح الماء. أخبر سندمان الآخرين، وضحكوا كثيراً أثناء الرقص وعزف الموسيقى.

في اليوم التالي، سحب الرئيس وثلاثة آخرون أربعة زوارق وشرعوا جميعاً: أولد بول والرئيس في زورق؛ سندمان ورد مون وويتشيلد ومرشدوهم في الزوارق الثلاثة الأخرى. انطلقوا في قناة إلى ممر ضيق، ثم إلى خليج واسع، قطعه. بمجرد الوصول إلى الشاطئ الآخر، أُرْجِح كل اثنين الزورق على رأسيهما وتبعوا جميعاً طريقاً متهرئاً عبر البلميط^{١١} ورأوا العشب. حين وصلوا إلى رافد متسع، استقلوا الزوارق مرة أخرى. وأولد بول يُجَدَّف، فكَّ الرئيس شبكة لدنة من نبات الكروم وفَرَدَهَا في المياه. حين وصلوا إلى الشاطئ المقابل وخرجوا، كان في الشبكة ثلاث سمكات كبيرة وعشرات من الجمبري السميك بشوارب طويلة. دفعوا القوارب إلى الشاطئ وقلَّبوها. والمضيفون يشرعون في إشعال النار وتقطيع السمك، انطلق الشايين عبر قصب السكر إلى منطقة خالية من الأشجار، حيث امتدت أمامهم قبة هائلة من الأزرق والأبيض، زئير الأمواج المتكسرة، ووميض الرمال. لم يظهر على وجه أولد بول أي تعبير، لكن قلبه قفز من مكانه. مشوا جميعاً على الشاطئ، رأوا نوارس تندفع وتغطس. التقط سندمان قوقعة ونفخ فيها بصوت مرتفع. جاء على الفور

^{١٠} الشايين Cheyennes: السكان الأصليون في أمريكا.

^{١١} البلميط palmetto: نوع من النخيل قصير سعفه على شكل مروحة.

أحد الهنود مهرولاً من بين الأجمة ليعرف ما حدث، ثم تراجع. مشى أولد بول إلى حافة المياه. أحبَّ الطريقة التي تبعت بها طيور الشاطئ صغيرة الأطراف المياه وهي تتدفق إلى البحر، ثم تسير على أطراف أصابعها بجنون عائدة والأمواج المتكسرة تعود مرة أخرى. هكذا تجري الأمور، مزح مخاطباً ويتشيلد. ألقى سندمان القوقعة، نزع لفافة الساقين،^{١٢} وأسرع فجأة إلى المحيط، يصرخ ويشتت الطيور. جرى حتى وصلت المياه إلى صدره، ثم اندفع في الموجة التالية. ظهر على السطح مُبعداً الشعر عن وجهه، وبصق ملء فمه مياهاً. صرخ: مالح. ضحكوا جميعاً. هناك حقاً، كما اعتقد أولد بول، مياه على مرمى البصر. الطرف المُطلق من الأرض. تغطس الشمس، كرة أرضية ضخمة وضعت سُلماً برتقالياً على الأمواج. وأولد بول يدخل المياه رأى عشب جونسون وأعشاباً شاطئية متراكمة، ورأها جيدة بالنسبة لهم. تَذَوَّق المياه في البداية على كَفِّه، ثم شرب كمية صغيرة. فكَر: قليل من الملح جيد بالنسبة لك. كان الماء دافئاً قُرْبَ الشاطئ وبارداً بعيداً عنه وشديد البرودة حين اندفع ولمس القاع الرملي. وهو يطلع إلى سطح المياه، رأى سندمان يفرّج رد مون وويتشيلد على خدعة. حين دوَّمت موجة، بيضاء بلون الكريم، طفا سندمان على ظهره وترك الموجة تحمله قرب الشاطئ. صاحوا جميعاً وقضوا وقتاً طيباً. تمايل أولد بول في الماء، متسائلاً من أي اتجاه جاء الرجال البيض وكم تبعوهم. كم تبلغ مساحة بلادهم، وكم تبعد؟ على أي أنواع من المراكب أبحروا؟ كم من الأيام استغرق الإبحار؟ فحص الأفق بدقة بحثاً عن قوارب ولم ير شيئاً، وأعشت هالة الشمس بصره مؤقتاً.

سلقوا الجمبري وشووا السلحفاة النهاشة حول نار على الرمل وناموا على حصائر من العشب فرشها مضيفوهم. جدَل سندمان شعره متطلعاً في مرآته الصغيرة أحياناً. انبهر الهنود بها، وتطلَّعوا فيها بالدور إلى أنفسهم، لكن سندمان لم يتخلَّ عنها. في الصباح، كانت الشمس أرجوانية منقطة، وقد زادت الرياح القوية شدة الأمواج المتكسرة. أخذوا جميعاً غطساً ليفوقوا ثم انطلقوا.

حين عادوا إلى المعسكر، اجتمع حشد حول ولدين اصطادا سمكة كبيرة. لم ير أولد بول أبداً كائناً بهذا الشكل؛ ببشرة تبدو ملساء بدلاً من القشور، سمكة أطول من الولدين؛ في ظهرها وبطنها قوس بارز. كانت عيناها مفتوحتين، ركع أحد الولدين على ركبتيه وباعد ما بين فكّيها. صاح رد مون: لها أسنان مثل دُب! اعتقد أولد بول أنها تبدو مفترسة

^{١٢} لفافة الساقين leggings: غطاء للساقين من الكاحلين حتى الركبتين، يصنع عادة من الجلد.

بعينها المائلتين وصفوف أسنانها المقوّسة. أشار أحد الولدين إلى أن السمكة تعيش عادة في المياه الكبيرة، لكنها جاءت عبر القناة ووقعت في الفخ. استطاعا رؤية زعنفتها تتحرك ببطء فوق المياه الضحلة، فأصاباها بالسهم.

أخبر أولد بول الرئيس بأنه وأصدقائه عليهم أن يرحلوا اليوم في رحلة تستغرق سبعة أيام، وأنهم يُقدِّرون كل شيء وسوف يكونون أخوتهم. ذهب أولد بول إلى حصانه وتناول سكيناً ثقیلاً بيد مُطعَمةٍ بخرز يلمع وأعطاها للرئيس، وخلع الرئيس عُقد الأسنان الذي يلبسه وأعطاه لأولد بول. أشار الرئيس إلى فمه، ثم إلى السمكة التي يَجُرُّها الولدان إلى القناة لتنظيفها. في التو، بدأ الرقص والغناء مرة أخرى، واعتلى الأطفال ظهور البلومينو حول محيط المعسكر. قال أولد بول لرد مون: لو لم نكن لنغادر الآن ما كنا لنبرح هذا المكان أبداً. يرقصون طوال الليل. يُغني الهنود ويرقصون حتى والمجموعة تنصرف، أربعة جنباً إلى جنب، وجيادهم الإضافية خلفهم. وقف الرئيس وبعض الآخرين على قمة هضبة صغيرة وشاهدوهم، ورفعوا أيديهم لتوديعهم.

بمرور الوقت شَحَبَ صوت طبول الهنود وامتزج بصوت رعد بعيد. هبَّت الرياح الشمالية جالبةً معها أمطاراً خفيفة انغمست في الرطوبة الضاغطة وتحولت إلى هواء بارد. أمطرت نقطٌ كثيفةٌ ظهر أولد بول. طارت أسراب إوز يصيح إلى الشمال في تشكيلات متهادية على شكل V. متطلّعا خلفهم، قال رد مون يبدو أن عاصفة قد تَهَبُّ في خلال ساعة. وجد الرجال ملاذاً في بستان سرو كثيف. مرَّ ويتشيلد بجاموسة جافة، لذيذة بعد أن تناولوا مؤخراً أطعمة بحرية. بعد ساعة اشتدت الأمطار ومالت قمم الأشجار إلى الشمال نتيجة استمرار العاصفة. تشبَّعت أجساد الرجال بالمياه ولم يكن أمامهم سوى الانتظار. حين حل الظلام، سحبوا جيادهم في دائرة وتكوّموا داخلها. أثار برق أزرق الجياد برهة؛ كانت رءوسها منخفضة وعيونها مغلقة، كأنها غارقة في النوم. ذكّرت الأمطار الأفقية، العصف الرهيب للرياح، أولد بول بإعصار حدث في شبابه، لكن في ذلك الوقت، مرّت الرياح والأمطار بسرعة، رغم شدتهما. استمرت هذه العاصفة وقتاً أطول. سمع أوراق الأشجار تُنزع من فروعها، ثم غصن كبير يسقط مع مرة^{١٣} شريرة! كأنها كانت على جديلة، قلَّ المطر وعادت الأشجار لشكلها الطبيعي. انقشعت السحب لتكشف عن دائرة زرقاء نقيّة تدوم فيها نوارس وخرشنتات.^{١٤} بعد جلبة العاصفة، جاءت صرخاتهم إلى أولد

^{١٣} مرة crake: طائر بحجم السمان، بمنقار قصير.

^{١٤} الخرشنّة أو خطاف البحر tern: طائر يشبه النورس.

بول ببطء، ثم بوضوح رهيب. تتساقط الأمطار بانتظام من على الغصون. فكُّوا جيادهم واعتلوا ظهورها من جديد، تَوَاقِن لتعويض ما فاتهم والوصول إلى أرض مرتفعة.

حولهم من ناحية برك من المياه، تشبه المرأة في الضوء الساطع. بدا لأولد بول أن الشمس حطمت كل نقطة من الرذاذ نثرها حصان رد مون وهو يندفع. خلف ظهورهم سحب كثيفة وطبقات من الأمطار تبتلع السماء الزرقاء. انطلقت المجموعة لتحتمي بمبنى طيني يرتفع مهجوراً قُرب حافة رافد، ذكَّر أولد بول بمنازل رآها في الغرب، على الناحية الأخرى من الجبال، وهو في رحلة تجارية منذ عدة سنوات. عاش فيها رجال بيض يرتدون أرواباً. دخلت المجموعة رواقاً، ودُهِل أولد بول لأنه لم يرَ سقفاً. سحب كثيفة منقطة تتسابق فوقهم في الشفق الأرجواني، قريبة جداً حتى إن أولد بول تمنى أن يُرَبِّط بواحدة ويطيّر إلى بيته. انهارت الحوائط الطينية على الأرض، ولم يتبقَّ سوى الواجهة؛ لكنها حمتهم من الرياح والأمطار، وقد تعرَّضوا لها مرة أخرى. اجتمع الضيوف في عواصف مستمرة، كانت الأمطار تتساقط مائلة إلى ناحية، هبط الظلام. ساعات والرياح والأمطار تعصف بالطوب الطيني. ببطء، بدأ يذوب من أعلى، وتساقطت جداول حمراء على الجوانب وتجمعت في أخاديد تحت أقدامهم. وقعت كتلة من الطين والقش على حصان ويتشيلد، فجأراً وقفز. أخذ يرفس بقوة بطرفيه الخلفيين، صافعاً البناية بقوة، فانهار الجانب الشرقي كله. مُرتبِكاً، لفَّ الحصان في دوائر بعصبية، بطرق متنوعة، حتى تحدث إليه ويتشيلد وحكَّ عنقه وهدَّاه. جثم الشاين وظهورهم إلى الحائط الغربي، وابتعدت جيادهم عن المطر وخفضت رءوسها. ثم انخفضت الرياح، وتوقفت الأمطار فجأة. تطلع الرجال إلى الجنوب. كانت السماء قرنفلية. أثارت هَبَّة من الهواء البارد رذاذاً قوياً من المطر الثلجي، وناظراً إلى القذائف البيضاء، رأى أولد بول أنها وصلت إلى كواحلهم في ماء البحيرة الضحلة المتدفقة. دوَّى البرق فوق رءوس الجياد فقفزت. فرس سندمان المرقط، وقد ارتعشت أذناه، سَمِعَ الصفارة أولاً، بعيدة لكنها تزداد قوة. مرة أخرى دوَّى البرق في الهواء فوقهم. ومرة أخرى قفزت الجياد. تحوَّلت الصفارة إلى زئير. نظروا حولهم في كل اتجاه، أعلى إلى سقف السماء المنخفضة، وإلى البحيرة الضحلة. أشاروا جميعاً في وقت واحد. سقطت حبال رفيعة راقصة، ثلاثة حبال، من السحب المخدوشة ترفرف على شجرة كبيرة. بدأت الشجرة تميل إلى الخلف ببطء، تنثني وكأنها تُسَحَّب مغناطيسياً. حين بدأت قَمَّتْها تفرش الأرض، تَمَدَّد الجذع وكتل بيضاء تماماً بحجم شجرة ضخمة مُشَقَّقة، اندفعت وأصاب الجدار الطيني. اركبوا! صاح رد مون.

قفزوا الجدار الجنوبية. تشابكت خلفهم الحبال الثلاثة في خرطوم سميك، أصدر دويًا وهو يسقط على الأرض. رش عليهم طينًا وصخورًا. ركل أولد بول حصانه وضربه بالسوط لينضم إلى الآخرين؛ أبحر غصن شجرة أعلى الرأس. اندفع رد مون وويتشيلد وسندمان إلى الخليج، بهدف عبوره عند البوغاز الضيق. كان عميقًا، ولم تعرف الجياد مواطئ أقدامها، ترنحت وحاولت السباحة. في الحال أظلمت الدنيا مرة أخرى، غُلف الأرض ظلًا. صاح أولد بول، ابتلعت الرياح صوته. شعر كأنه رُفِعَ عن حصانه، أو شعر بأنه يرتفع هو وحصانه. وفجأة، لم يكن هناك حصان وسندمان يحوم فوقه، وفمه مفتوح في صرخة صامتة، ووجهه قناع من الذهول. وصل كل منهما إلى الآخر لكنهما ارتدا. طفت ثلاثة أسهم تشير إلى أعلى بجوار أولد بول على مستوى العين، تبعها فأر مستنقعات يترنح وانقلب حصان رد مون رأسًا على عقب. شعر أولد بول أنه انقلب، دورة واحدة بطيئة وهو يضرب في الهواء، وغطس تحت الماء. فتح عينيه برهة، رأى منتصف الليل. غطس أعمق وأعمق حتى اصطدم ظهره بالقاع الطيني. توقف لحظة، صعق، قبل أن يدرك أنه لا يستطيع التنفس. في هلع فجائي قفز مبتعدًا عن أرضية الرافد، يركل بساقيه ويَطْوَح بذراعيه. ارتفع وارتفع، وحين اعتقد أنه لا يستطيع البقاء أكثر من ذلك من دون تنفس، شَقَّ سطح الماء، لاهتًا يتقيًا الماء، وذراعه تطوَّحان. كانت السماء مظلمة، لهبوط الليل. قبض على جذع شجرة يتراقص بجواره في التيار الثائر. في البداية طفا بسرعة بين ما بدا أنها انحدارات؛ ثم هدأ الماء، ثم توقف، ونزل إلى الشاطئ على أرضية وادٍ صغير. ترنَّح على قدميه، غاص في الوحل. كان الجو ساكنًا وهادئًا. ينبض رذاذ فضي من النجوم في سماء يميل لونها إلى الأبيض. بدأ يمشي، باتجاه الشمال على ما يأمل. صرخ مرة، هل هناك أحد؟ لكن تردد فقط صدى هذه الكلمات وعاد إليه: هناك، هناك، هناك ...

لم يَرِ سندمان أو رد مون أو ويتشيلد مرة أخرى، لكنه كثيرًا ما حلم بهم، حتى وهو عجوز. استغرق الأمر منه عشرة أيام ليصل البيت، راكبًا آخر ليلتين على حصان لاطفه من حافة معسكر في ظلمة الليل. حين تأكد أنه في مقاطعته، استرخى، وأخذ يهلوس تقريبًا، وتأرجح بين النوم واليقظة. على هذا النحو وجده أهله حين وصل: يعتلي ظهر الحصان مترهلًا عليه، ووجهه مدفون في عرف حصانه. بلا قميص أو حذاء، يرتدي عُقدًا غريبًا من الأسنان أصدر صوتًا منخفضًا حين سحبوه من فوق الحصان. في النهاية، تعافى على حساء الذرة ولحم الطباء. لم يتحدث عن الرحلة لبعض الوقت، وفي النهاية أخبر زوجته ورفاقه المقربين بكل ما حدث. كانت هناك رقصات من أجل سندمان ورد مون وويتشيلد كل مساء. تدريجيًا اكتسبت الرحلة خاصية تُشبه الحلم في عقله، وأحب الأبناء والأحفاد أن يسمعوا

جائزة أو هنري

قصص السمكة التي في لون الفيروز، والخنازير الصارخة ذات الأنياب، والطيور التي تكلمت وريشها الأصفر والأزرق ومناقيرها البرتقالية. كان يزخرف الأمور حين يتحدث إلى الأطفال، الذين يصيبهم الهلع حين يسمعون عن رجال بيض من مختلف العوالم، رجال يركبون السفن الكبيرة ذات الأشعة التي تلامس الأمواج ويرتدون أرواباً سمراء ويعيشون في منازل طينية، وعن سمك كبير بأسنان كبيرة حادة مثل أسنان الدب. احتفظ بعقده دليلاً.

حلم أولد بول بهذه الأشياء، ولم يكن هو نفسه غير مُقتنع على الإطلاق.

هدية السنوات

تأليف: فو تران^١

بدأ «نجوين لام»، وابنته في الثانية عشرة، يلاحظ فيها ميلًا غريبًا للعنف. حتى ذلك الوقت قدمت له سببًا واهيًا للقلق أو التفكير في أنها لا تتبّع التقاليد بقدر ما تتبّع أخواتها الثلاث الأكبر سنًا. وكثيرًا ما تصوّر أنها طبيعية لأنها ليست خرساء أو كئيبة أو مراوغة أو متمردة، ولا تتصرف كالأولاد في هذه الأمور. أصبحت بعد سنوات عديدة، زوجة وأرملة قبل أن يفهم كيف ضعف هذا المنطق؛ لأنه آنذاك يستطيع القول إن للأبوة حدودها. أبعدته عقدٌ في الحرب عن أسرته، وعند العودة إلى الوطن نهائيًا، أدرك ضالّة ما يعرف عن أبنائه الخمسة، وخصوصًا ابنته واسمها «نجوين ترام مي»، الصغرى، الأجل، التي يحبها أكثر. وهي في الثانية عشرة ضرب ولدان من الجيران أخاها ذات يوم. بدأ الشجار في الطريق من المدرسة إلى البيت، في ميدان مهجور خارج الكنيسة. حين وصل لام، وجدها تجلس على بقايا شجرة قديمة ويدها في جُرحها، ترسم دوائر مبهمّة في القذارة بإصبع قدمها وتُشاهد الولدين ينهالان ضربًا على جسد أخيها، وهو مُلقى على الأرض يتلوّى. طارد «لام» الولدين ولعنهما ونسي في ارتباكها وجود «مي» في شحوب ظلّ الكنيسة، ونسي بعد ذلك، والجيران يأخذونهما إلى المستشفى، أنه تركها وحدها في الميدان. فقط حين عاد ابنه إلى

^١ فو تران Vu Tran: وُلِدَ في سايجون عام ١٩٧٥م، ونشأ في أوكلاهوما. العنوان الأصلي للقصة The Gift of Years.

البيت ورقد في سريريه، وفي يده جبيرة وثلاث عشرة غرزة في وجهه، تذكّر «لام» أخيرًا أن ابنته كانت هناك وشاهدت كل شيء. لاحظ ذلك والجميع حول سرير الابن، ومي وحدها في الناحية الأخرى من المنزل، تلتف على الكنبه ويدها بين وركيها، نائمة بعمق.

بعد شهور، غزت صورتها على الكنبه عقله حين كان يحبها أكثر من غيرها. عظمتا الوجنتين الهادئتين، الفم مفتوح قليلاً، جبهة ملساء كالخزف: كان يعاوده تعبير لا مبالاة الطفولة السعيدة، ويرى أعمالها اللطيفة أكثر تعقيداً مما ينبغي؛ وهكذا حين تحضر له سجاجير من دون أن يطلب، أو تهوّي على أمها لتنام والجو حار بعد الظهرية، أو تُسكِت في يديها رضيعاً للجيران يتلوّى؛ انزعج لام — الذي قضى ثلاثة أيام على أرضية دغل ينتظر في هدوء وقع أقدام العدو — من مشاعر شك غامض.

عبر السنوات، ثمة لحظات أخرى من السلوك الغريب: نظرة، إيماءة، حَدَثٌ يُغرس بقوة في الذاكرة. ورغم ندرتها بما يكفي ليصدق أن تفاعله مبالغ فيه، رغم إيمانه بمقولة إن على الرجال ألا يُظهروا مخاوفهم بلا داعٍ، إلا أن حبه للفتاة جعله حذراً بشكل خاص. ارتاب نجوين فان لام، أكثر من كل من عرفهم، بشأن نسيان أمور مهمة. وهو صغير قال أبوه إن: «ما يُنسى بسرعة جدير بالتذكّر أكثر»، ورغم عدم تصديق «لام» أن هذا ينطبق على كل الأمور، تبقى رزانة صوت أبيه في عقله. بمجرد أن أصبح زوجاً وأباً، حامي أسرته، قرّر أن لكل شيء قدراً من الأهمية. احتفظ في ذاكرته بحالة الطقس في أيام ولادة أبنائه، والتواريخ الدقيقة لتعميدهم، وحقيقة أن زوجته تُصلي وعيناها مفتوحتان، وابنه يخشى الكلاب، وابنته الكبرى لم تنم قط من دون أن تستحم مرتين على الأقل. ساعده تذكّر التفاصيل على الانتباه إلى كلمات والده، ساعده على أن يعاني من الشكوك وعدم يقينية الأبوة.

لكن مع مي كان الأمر مختلفاً. في جنازة عمها وهي في الثانية، بكت أثناء المراسيم ولم تتوقف حتى وضع بريه الجيش على رأسها. حينذاك، وكأنها ذهلت بطيش غريب، بدأت تضحك وترقص عند قدميه والكاب الكبير متوازن على رأسها، نزل على عينيها، وظلّت تتصرف بطيش حتى جاء دور لام ليُلقي حفنة من التراب على تابوت عمها. منذ ذلك الوقت وهو يشتري لها قبعات في المناسبات الخاصة، في زيارته للبيت وهو في الحرب، حين تخرجت في المدرسة، حين خُطبت. ولم يساعده ارتباطه بذكرياتها على نسيان يوم جلوسها على بقايا الشجرة القديمة تشاهد الولدين يضربان أخاها حتى فقد الوعي تقريباً. إذا كان من شيء فقد امتزجت الذكريات، إحداها ظل غير متبلور للأخرى.

وهكذا، بعد عقود، حين وُجد زوج مي لعشر سنوات غريقاً في النهر صباح يوم صيفي، فزع لام لكنه لم يُصدَم. في الداخل، ربما من دون أن يعرف، انتظر هذه اللحظة سنوات.

وجدوه طافياً على بطنه. ظهرت جثته في الفجر على الضفة البعيدة للنهر الشرقي، تتحرك مع أمواج الصباح الباكر قُرب صف من البنجالو^٢ والأكواخ، وفردة صندل تلتصق بأصابع قدمه، وساقاه تلتفان في أوراق موز فاسد. كانت رؤيته صعبة في البداية مع كل النفائات وجوز الهند المكسر في الماء متناثر على الضفة، جزء في الماء، جزء في الوحل. قالوا كانت هناك زجاجة نصف فارغة من نبيذ الأرز تتراقص في المياه على بُعد عشرين ياردة منه والغطاء محكم عليها. قد تكون لأي شخص.

حين أبلغوها بالخبر لم تبكِ. حين أتوا بالجثة إلى المنزل، ربّعت ذراعيها، وحدّقت فيها لحظة، ثم انسحبت إلى غرفتها. في الجنازة، جلست ابنتها، واحدة في الثامنة والأخرى في التاسعة، على جانبيها في المقعد، جلسَتْ جامدة بوجه خالٍ من التعبير، مثل ملكة غير سعيدة ومُبجّلة بدرجة تجعلها لا تقبل المواساة. جاء الأصدقاء والأقارب احتراماً لها ولأسرتها، لكنهم كانوا غرباء تماماً، لم يجدوا سبيلاً لمعرفة الأرملة وإن كانت موجودة أم لا.

شاهد لام، وهو يجلس بجوار أبنائه، وجوهاً واجمة في الحشد وحاول بأقصى جهده أن يشاركهم تعاطفهم. رأى ما رأوا: زوجة رجل مات ميتة رهيبة، أرملة شابة ربما مصدومة بدرجة تجعلها لا تُفصح عن مشاعرها. اعتقد حتى، كما فعلوا، أن الحقيقة المحتملة والأكثر عمقاً، أنها لم تُعد تُحب زوجها الذي كان، آجلاً أم عاجلاً، سيقضي على نفسه وهو سكران بشكل أو آخر. وكان هو الشخص نفسه الذي تبول في الرواق بعد ليلة من الشراب، الشخص نفسه الذي نسي أسماء أبنائه حين سُئل، رجلاً لم يُر صباح الأحد لسنوات، شخصاً يعرفون أنه لم يوفر لها بالتأكيد حياة طيبة.

لكن لا حيلة له في شكوكه. تخيّل أنه غرق في نهر أسود من الوحل والوجوه، وصلواته مكرّسة لجثة زوج ابنته، المتضخمة الطافية. هل كان خطأً زوج مي يرقد شاحباً، ومن الصعب التعرف عليه في تابوت أمامها والآخرين ييكون وهي تجلس هادئة بوجه عليه قناعاً حزينة؟

^٢ البنجالو bungalows: نوع من البيوت التي تتكون غالباً من طابق واحد، وأحياناً من طابقين.

أغلق لام عينيه بقية الجنازة. تحركت شفتاه، وكانت صلواته زائفة، ورأى أنه يستحضر ذكريات ابنته الصغرى التي لا يعرفها أحد آخر. ثمة سبب آخر لعدم نسيانه سلوكها الغريب وهي طفلة. كانت مي تتصرف بتلك الطريقة فقط في وجوده، وبدا للام أنها توقظ هذه الشخصية الساكنة من أجله، ومن أجله فقط.

منذ يوم مولدها ارتبطت به دائماً. وهي رضيعة لم تتوقف عن البكاء إلا في ذراعيه وفي الليل تنام بجواره. وحين كبرت لم تعصه أبداً، تبعته أينما ذهب، وترنمت غالباً بأغانٍ سمعته يغنيها. تركها بسبب الحرب وهي في الثانية، ولعقد من الزمان لم يرها إلا مرتين أو ثلاثاً في السنة. في هذه الزيارات للبيت، أخبرته زوجته بمدى اختلاف تصرف مي في وجوده. تقول زوجته: «تتجادل أقل مع إخوتها وأخواتها وتنأى أفضل في الليل، وأنت هنا يبدو وكأنها تنسى الرد عليّ».

جاء لام عادة إلى البيت في تلك الأيام ليجد أبناءه هادئين وخائفين، كأن شخصاً غريباً وصل ليقيم في منزلهم، وقد يستغرق الأمر يوماً أو اثنين للانغماس في الحديث والضحك، والجدل معاً من جديد، وتناول الطعام على المائدة بلا قلق. باستثناء زوجته، كانت مي وحدها تبدو مستريحة لعودته إلى المنزل. سألته عن حياته بعيداً عن المدينة والبيت، لماذا، على سبيل المثال، حارب في الريف، ويمكن أن يقول فقط إن المدينة مشغولة جداً ومزدحمة بأمور القتال. جلست غالباً بجواره في الأمسيات وحكّت قصصاً افتقدها وهو بعيد: العائلة الجديدة التي تسكن في الناحية الأخرى من الشارع، الفتاة التي كان أخوها يحبها في المدرسة، حين أمطرت ثلاثة أيام متواصلة وأغرقت الغرفة الأمامية. تحدّث الأبناء الآخرون مع لام وربما مزحوا معه، لكن تبقى مي في صحبته من دون أن يطلب. ذات مرة، وهي في الثامنة، عاد لام بعد غيبة استمرت أربعة أشهر ليجدها مبقية على دور شطرنج منذ زيارته السابقة. رسمت موقفيهما على ورقة، وقبل أن يرحل في الأسبوع نفسه، واصلا الدور، وبذل جهده لتكسب.

وحين وصلت مي الخامسة عشرة (بعد سنوات قليلة من انفجار لغم مرق كاحل لام وأعادته إلى البيت للأبد)، اشتهر اسمها بين الجيران. نالت الكثير من شهادات التقدير والجوائز في المدرسة، ومما لا يثير الدهشة أن موهبتها كانت تُقدّر في البيت، موهبتها في الفوز في الشطرنج والمناقشات، والاحترام الحذر لأمها، وقد ورثت منها كراهية الخسارة. أحببتها أخواتها بالطبع، لكن لام رأى بعض الحسد في أعماقهن. تزوجت أختها الكبرى في تلك السنة، وفي العرس غنّت مي أغاني للجميع حتى فتنت القس فرقص معها في قاعة

الاستقبال. قال القس فيما بعد: «من ينوي الزواج منها، إذا كان غيورًا فلن يكف عن القلق، وإذا كان كسولًا، فسيندم». وافقه الضيوف الآخرون وكذلك لام. لاحظ أن مي حظيت باهتمام في ذلك اليوم أكثر من أختها. في نهاية الليلة، أدرك أنه لم يفقد فقط ابنته الكبرى بالزواج لكنه ربما يفقد الصغرى بأسرع مما اعتقد.

لكن لام كان يعتقد أن كل بناته منحوتات من الحجر ذاته، الكبيرة تُعلم الصغيرة ما تعلمته من أمها، ما ينبغي أن تعرفه النساء جميعًا. الكبرى خيَّاطة، تزوجت في العشرين من مدرس رياضيات غريب جدًّا، رغم كراهيتها الرياضيات دائمًا في المدرسة؛ الأصغر منها، في الثامنة عشرة، كاتبة في مستشفى، تنجذب لطبيب جديد كل شهر؛ والوسطى، في السابعة عشرة، حليلة وصريحة، تقضي أيامها منعزلة تكتب الشعر، وتساعد أمها في أعمال المنزل التي لم تعد أختها الأكبر منها تقوم بها. أكد لام لنفسه أن الاختلاف الوحيد بين الفتيات الثلاث وأختهن الصغرى أن مي الأكثر تألقًا والأكثر براعة أحيانًا (اعتادت الأم أن تقول: «مثل ابنتي اليابانية حقًّا»)، وأي شيء باستثناء ذلك مجرد اختلاف في الشخصية. لكن مي جعلته يغير رأيه من وقت لآخر.

عادت من المدرسة عصر أحد الأيام وسارت بهدوء إلى المطبخ من دون أن تحييه أو تنظر إليه. رأى وجهها بطرف عينه وتساءل، وهو يواصل قراءة الجريدة، إن كان ما رآه دمًا حقًّا. من الشائع في تلك الأيام أن يرى ابنه بهذه الطريقة، لكنه لم يرَ بناته بهذه الصورة أبدًا. بمجرد أن سمع صرخة زوجته من المطبخ، كان أول ما خطر بباله من فعلها. ردت وهي تنأى بعينيهما: «فعلتها فوس».

سألها: «لماذا؟» في شفتها العليا قطع طوله نصف بوصة، واحمرار شديد في وجنتها. صرخت زوجته: «ابنة أونج بنه؟ ماذا فعلت لك تلك الفتاة؟»

«كنا نتناقش خارج منزلها، وجُنْتُ ولعننتي وقالت إنني غبية وضعيفة. لذا دفعتها فتعثرْتُ ووقعْتُ، فخرج أونج بنه وصفعني.»

قال لام: «صفعك؟ بقوة جعلتك تنزفين؟» شعر بانقباض قبضته وبأظافره مغروسة في راحتيه. أوشكت مي على قول شيء آخر، لكنه لم يبقَ ليسمع.

حين وصل إلى المنزل على بُعد عدة صفوف، أسقطت زوجة «بنه» مقشيتها في الشرفة وبدأت تهز رأسها ويديها في وجهه. قالت: «لا يا أُنْه لام، من فضلك، لا داعي للشجار هنا!» تكلمت وكأنها مقطوعة النفس. «لا داعي للشجار مع زوجي!»

لم يكن لام ينظر إليها. كانت الأبواب الأمامية مفتوحة، وحيث كان يقف تحت سَلَم الشرفة، رأى شخصاً جاثماً في ظلمة المنزل. اتجه إلى الزوجة، جاءت كلماته هادرة: «قولي لهذا الولد أن يخرج هنا.» تبدلت الصورة في الظلال.

قالت زوجة بنه: «من فضلك عُد إلى بيتك أنه لام.» لاحظت مفصلة نحاسية في يده اليمنى: «من فضلك يا أنه لام.»

رفع لام صوته: «أخبريه بأنه إذا لم يخرج الآن، فسأدخل وأخرجه بنفسى.» ظهر بنه حينذاك عند المدخل وخطا بحذر شديد إلى الشرفة. وقف محنئاً كأن هناك حملاً ثقيلاً على ظهره.

تحرك لام كأنه سيعصده سَلَم الشرفة، فتراجع بنه وزوجته إلى الحائط، لكنه توقف، وصمت لحظة. أشار بإصبعه إلى بنه وتحدث بأهدأ ما يمكن: «إذا لمست ابنتي مرة أخرى في أي وقت، فسآتي وأضربك مثل طفل.»

كان بنه على وشك أن يتكلم، لكن زوجته طوحت يديها في وجهه لتسكته. احتشد بعض الناس، معظمهم أولاد صغار، قرب المنزل للفرجة. لم يبال لام. وهو يبتعد (كان من الصعب أن يلاحظ معظم الناس عرجه)، رمى المفصلة النحاسية في الشارع وسمع الأولاد يتسحبون خلفه ليخطفوها. سرح لحظة قبل أن يدرك أنه ضلَّ الطريق إلى بيته. عادت ثورته وندم لأنه تخلَّى عن قتال مستحق. يمكن بسهولة أن يقفز إلى الشرفة ويضرب «بنه» حيث يقف، ويُسقطه أرضاً بضربة واحدة. لكن ما أوقفه صورة واهية لابنة بنه خلفه في المدخل، كان وجهها واضحاً بما يكفي في ضوء العصر ليرى لام جرحاً عميقاً في حاجبها ويرى عينها السوداء المجروحة متورمة ومغلقة.

في تلك الليلة، حين نام الجميع وجلس لام يدخل في شرفته الأمامية، خرجت مي من المنزل وركعت بجواره. مالت أكثر، وفي قوس من ضوء باهت يُعطِّي نصف الشرفة، بدا وجهها مثل اللؤلؤة.

همست: «أبي، بعد أن وقعت رُكَلْتُها. لذا صفعني أُنَج بنه. من فضلك لا تخبر أحداً.» (كان هناك وقت آخر، قبل ذلك بكثير، وربما لم يفكر في الأمر حينذاك. ومي في الثامنة أو التاسعة كسرتُ صدفَةً تمثالَ القديس جوزيف، تمثال أمها، قدمته لها هدية جدتها المتوفاة وباركه القس في الكنيسة. كانا بمفرديهما في الغرفة الأمامية، تنظف الأرضية ويدخن على الكنبة، حين سمع صوت تَحَطُّم التمثال على الأرض. انتحبت فالتفت ليرى الدموع تملأ عينيها، ووجهها شاحبٌ ومشدودٌ. ناداها باسمها ثلاث مرات أو أربعاً، ولم

تسمع. تجمدت على ركبتيها حتى اقترب منها وأمسك كوعها. اعتقد أنها تبكي خوفاً الضرب الأكيد الذي ستتلقاه من أمها. لكن وهي ترقع على الأرض وتمسك بقطع الخزف في يديها الاثنتين، بدا أسى غامض يسيطر عليها، كأنها دمرت للتو شيئاً ثميناً لا مجرد شيء يساوي مادة أو عاطفة، دمرت القديس جوزيف نفسه، بجسد خزي، في لحظة تهشم جسمه الناعم المتألق، تهشيماً لا رجعة فيه. نظف لأم ما تبقى ووبخها بهدوء على بكائها. ووعدها أن يقول لأمها إنه هو الذي كسر التمثال.)

قالت الشرطة إن زوج مي كان سكران حقاً حين مات، سقط على الأرجح وهو سكران في النهر وغرق في المياه العميقة في الليل. بالنسبة للأسرة والجيران أكدت هذه الأخبار فقط ما كان مفترضاً طوال الوقت. قال شابان إنهما رأياه في كافيه يشرب مع أصدقائه في الليلة السابقة. قالت امرأة تملك فرقة بو تعمل في وقت متأخر من الليل المجاور للكافيه إنه تسكع وضايق بعض زبائنهما. وأقسم أيضاً طفلان لأبويهما إنهما سمعاه يغني بجوار نافذتهما. لم يكن لدى لام مبرر يجعله يشك فيما يقوله الناس، وفي الشهور التي تلت الجنازة، حين ذُكر بما اعتاد أن يقوله لأبنائه، وبما قاله له أبوه، بأن «لكل شيء موضعه»، شعر بالمليل إلى تصديق أن الموت كان صدفة وكان محتوماً.

لم يحب أبداً زوج ابنته. قدّم مباركته حينذاك لأن مي تحبه، وبكل الرومانسية العنيدة التي تميز كل الفتيات، لا تتخيل نفسها مع رجل آخر. كان الولد وسيماً ومعتدلاً، وقال البعض إنه فاتن، لكن بمرور السنوات صار نحيلاً وانغمس بلا رجعة في رذائله. ذُكر لام بجنود لم يكونوا في الحرب جبناءً أو شجعان، جعلتهم الحرب كسالى فقط، لأنهم بمجرد رجوعهم إلى بيوتهم لم يرَ أحد، ولا حتى أحبابهم، قيمة فيهم أو تهديداً؛ لم يكونوا رائعين بما يكفي ليكونوا محبوبين، أو أقوياء بما يكفي ليكونوا متنمرين. حكم عليهم اعتدالهم، ومثلهم كان زوج ابنة لام فاشلاً، أحرق غير مؤذٍ فشل في أن يكون أباً وزوجاً، نسي ذات مرة ابنته وهي في الخامسة في السوق، وأعطى زوجته ذات مرة زهوراً مسروقة ليعتذر لها عن ضياع راتب ثلاثة أشهر في الكوتشينة، وذهب ذات مرة للتناول الأول لابنته سكران وغلبه النوم على المقعد، في بدلة استعارها من صديق. لم يُحزن موته لام؛ بمجرد شحوب الصدمة انشغل فقط بما يترتب عليه.

قبل الغرق بشهور، ذهب لام لزيارة أحفاده عصر أحد الأيام، وهو يستدير إلى زقاق صغير يحيط بمنزلهم، رأى مي وزوجها يتجادلان بصوت عالٍ خارج المنزل. توقف مكانه متوارياً عن الأبصار، وشاهد المنظر خلف أكمة من أشجار الكستناء.

بدا زوجها يقظاً، كان صوته حاداً مفعماً بالحيوية، مثل إشارات يده، مطوّحاً يده في وجه مي. وقد بدا غضبان تحدثت إليه مي دون إجفال أو استسلام. ارتفع صوتاهما، وكان لام بعيداً جداً ولا يسمعهما. مرّ بهما بعض الجيران، نظروا إليهما، وساروا في طريقهم، على ما يبدو كانت مشاجرات مألوفة لهم. بدأت مي تقاطع زوجها وتصيح فيه حين مدّ يده فجأة وصفعها على الوجه، خادشاً وجنتها بغصن شجرة ... على الحافة صرخ باسميهما. رأى مي تطوح ذراعها وتضرب وجه زوجها بظهر يدها، فتراجع، من القوة أو الصدمة، بضع خطوات. لم يستطع، وقد استعاد توازنه، إلا التحديق فيها بما يبدو من بعيد أسى مذهلاً، كأن من لطمته طفلة لا زوجته. دخلت مي المنزل وتركته يقف ممسكاً بفكه. بعد دقيقة، ابتعد في الزقاق.

حاول لام أن يتبعه، لكنه فضّل بسرعة ترك الأمور على حالها. تعرف الأسرة منذ وقت طويل المشاكل الزوجية التي تعاني منها مي، ولم يكن الشخص الذي يتدخل في شئون الآخرين. ذات يوم قال لزوجته: «إذا أذاها فسأقتله، وباستثناء ذلك أمورهما تخصهما.» ولنفسه قال أيضاً: من الأفضل ألا تعرف شيئاً عن أمورهما والوسيلة الوحيدة أن يتجاهلها. كان لام يرى أن الآباء لا يوافقون على زواج بناتهم، لكنهم يتخلّون عنهن، وأن وظيفة الزوج بعد ذلك تقديم الدعم والحماية، ووظيفة الأب أن يحب فقط ويبقى بعيداً.

عاد لام إلى البيت ولم يفه بشيء مما حدث. تعرف زوجته جيداً ما يتعلق بزواج مي، ولم تكن الأخبار إلا لتزيد من قلقها. وفيما يتعلق بمي لا فائدة من مواجهتها، وفي هذه الحالة لم يستطع لام أن يقرر أهمية ما رأى، وما إن كان يستطيع مساعدتها إذا احتاجت إلى المساعدة.

عزم لام نفسه على العشاء في منزل مي تلك الليلة. لم يكن زوجها في البيت، ومع أنه انتظر أن تذكر اسمه، أن تحكي عن الشجار الذي حدث بعد الظهر، بقيت صامتة أثناء معظم وقت تناول الطعام. تواني في المنزل، يشاهد التلفزيون مع الأطفال حتى عاد أبوههم إلى البيت يتبختر، حيّاه بإيماءة وابتسامة حذرة، وذهب مباشرة إلى السرير. جلست مي وهي تربع ذراعها وتجاهلت علبة المشمش المجفف، التي تركها على الطاولة بجوارها. فقط في ذلك الوقت ودّعها لام وانصرف.

بعد ذلك ببضعة أيام، وهو يصلح الدرابزين الخشب في شرفته الأمامية، ظهرت مي من الطريق المغبر وببطء صعدت إلى الشرفة. بدون كلمة، ركعت بجواره وأمسكت بأحد أعمدة الدرابزين.

مرت دقائق صمت، تقطعها توجيهاته المقتضبة. السقف المعدني المتدلي أعلى الشرفة يقيهما الحرارة. عرف من تورد جبهتها أنها كانت تتمشى خارج البيت طوال اليوم. نطقت أخيراً، بصوت اعتادت التحدث به عن الطقس: «لا أعرف ماذا تفعل بشأنه يا أبي.»

بدأ لام دق عمود في إطار الدرابزين، انثنى المسمار الكبير وأبى الدخول بشكل صحيح. شدّه وأخرجه وقد انثنى ولم يعد صالحاً للاستخدام، حاول مرة أخرى بمسمارين آخرين، وفشل في المرتين. بصق بعيداً عن ابنته والمسمار الثالث التالف يسقط على الأرض ويصدر صوتاً معدنياً على الأسمنت. طلب منها أن تترك العمود. جلست بعد ذلك ويدها بين وركيها تشاهد الناس والسيارات تمر بها على الطريق الضيق الذي يحيط بالمنزل.

«لا يفعل شيئاً للأطفال أبداً»، واصلت كأنها تُحدث نفسها، ولم يتغير الصوت العادي لنشر الخشب. «لا يذل حتى جهداً لتوبيخهم حين يسيئون التصرف. ويشرب يومياً، يأتي إلى البيت ساعة ليأكل ويغفو، يقضي كل أمسياته في البارات وقاعات البلياردو.» التقطت المسامير المثنية واحتفظت بها في كفها. «في الليل، حين يأتي إلى البيت، لا أحتمل الرائحة التي تفوح منه، أزيحه من السرير ليأخذ حماماً. حتى لو سمعني فسيخرج وينام على الكنبه في ثياب يرتديها أحياناً لعدة أيام.»

«ألا زال يعمل؟» سألت لام أخيراً بهدوء ووجهه لا يزال ناحية الدرابزين. «نعم، في جراج أخيه، لكنني لا أرى نقوداً. ولا أريد تخيّل بعض الأمور التي يضيّعها عليها.»

ترك لام المطرقة لقياس بعض الأشياء. لا يصل العمود إلى الدرابزين تماماً. أخذت مي المطرقة، وضعت المسامير المثنية على الأرض، وبدأت تعديلها.

قالت: «منذ بضعة أسابيع، أتى إلى البيت متأخراً وقال إنه جائع فتجاهلته، فجلس على طاولة الطعام وبدأ يكشط الأرز الجاف في قعر الإناء. كشط وكشط بتلك الملعقة اللعينة، أغاظتني جداً أنا والأطفال.» ارتفع صوتها مع كل طرقة مطرقة. «رفضت الذهاب لرؤيته فذهب إلى سرير البنات وسكب ماءً على أقدامهن. ربما لم يفرعن لكنهن انزعجن جداً. إذا كان في البيت أثناء النهار، أذهب إلى بيت «لين»، أبتعد عنه.» توقفت. من بعيد، في الشارع، كان هناك أطفال يضحكون ويصيحون.

قالت: «يذل الأطفال يا أبي، يلاطفونه فقط. يذل نفسه أيضاً. ويذلني.»
مرر لام أصابعه على الدرابزين وأدرك أنه معوج. لعن بصوت مرتفع. حدّق في وجه مي المكتئب وهو يمسك عمود الدرابزين بيديه في صمت. من النادر أن يراها في تلك الأيام

تضع مكياجًا. اعتادت مشاركة أخواتها حب الملابس واعتادت ارتداء بلوزات زرقاء، وفي السنة الأخيرة تقريبًا، لم تهتم بملابس الأحد وهي ذاهبة إلى الكنيسة، وكانت تذهب وحدها عادة.

لاحظ أنها عدلت المسامير تمامًا. حتى بيديه القويتين لم يكن لديه القدرة أو الصبر للقيام بذلك. كَحَّ بصوت أجش وقال: «وأنا في عمره، كان لي ثلاثة أبناء لم أرهم أبدًا وزوجة أنجبت اثنين منهم في غيابي. كنتُ على بعد مئات الأميال، ولم يكن أحد منكم بدون طعام أو ملابس ولم يتصرف مثل هؤلاء الأطفال من حولنا. أتأكد من ذلك حين أعود إلى البيت، وتحافظ أمك على الوضع حين أرحل.» قبض على الدرابزين وحاول عدْلُهُ. «أخواتك، أشكر الرب، يتصرف أزواجهن كما ينبغي. حتى زوج «لين»، الذي يستسلم للمقامرة كعادته.»

«ليس بهذا السوء ...»

«من فضلك، كفاية كلام عن زوجك هذا.»

حنت مي رأسها كما كانت تفعل وهي طفلة حين تُوبَّخ. ترك لام الدرابزين، نادماً على حدة نبرته. هَشَّ ذبابة بعيداً عن شعرها وتمنَّى أن تكون تهدئة مشاكلها سهلة مثل أخذ زوجها جانباً وتوبيخه، صفعه عدة صفعات ليحس.

قال: «لماذا تخبريني بهذا كله. ليس لديَّ ما أقوله لأساعدك. تحدثي مع أمك أو أخواتك، لا أعرف شيئاً عن هذه الأمور.»

«لكن أُمِّي لن تقول لي إلا أنها لم ترغب في زواجي منه أصلاً. ولدى لين وهونج مشاكل خاصة، تعرفان عني ما يكفي. أردتُ فقط أن أخبرك ...»

تطلَّع إليها.

«عصر أمس، رأيته يتبول في الشارع، على مرأى من جميع أهل الحي ...» لهثت وكأن تنفَسها يتوقف. قالت وهي تُحدِّق في يديها: أحياناً أتمنَّى موته يا أبي، «أتمنَّى لو أخفيه من على وجه الأرض.»

وضعت المسامير الثلاثة المفرودة قرب قدميه ونزلت من الشرفة. شاهد لام تردُّدها في الشارع، وتطلَّع للسماء كأنه يقيس حرارة الشمس، كأنه يقرر إن كان التحدي كافياً ليتحمل أعباءها، شاهد الحذر التام في مشيتها وهي تعرج في الظهيرة بين زحام السائرين والدراجات المترنحة، ابتلعها الزحام بسرعة.

في السنوات التي قضاها لام في الجيش، كانت مي الطفلة الوحيدة التي سألتها صراحة عن قتلهم في الحرب. توجَّه السؤال بحذر تام يشبه حذر القس، وجاء أول مرة على النحو

التالي: «هل قتلت أبداً أي شخص يا أبي؟» وتطور إلى: «كم عدد من قتلت يا أبي؟» وبلغ ذروته في: «كيف قتلته يا أبي؟» في شكل أو آخر، كان السؤال المقتضب ينتهي عادة بالطريقة نفسها:

«أيتها الطفلة السخيفة، إننا مضطرون للقتل في الحرب. وماذا تريد فتاة صغيرة من معرفة كيف أقتل الناس؟»
«ألن تقول لي؟»

«لا أحد منكم يا أطفال في حاجة إلى أن يعرف. لا مني ولا من غيري.»
توقع أن يسكتها هذا الرد عن المزيد من الأسئلة، وتوقع أيضاً أن يعود اهتمامها في الزيارة التالية. كانت فتاة فضولية، رغم أن فضولها لم يبدُ أنه نابع من احتياج مُعين للفهم، كان اندفاعياً ببساطة، عفويًا مثل لازمة عصبية أو حلم مضحك. ربما سارا معاً في سوق مزدحم أو جلسا بمفرديهما في الشرفة، وربما سألته فجأة مثل هذه الأسئلة كأنها جزء من لعبة تلعبها هي ولام، تبادل أسرار تعويضاً عن الوقت الذي يقضيانه متباعدين. ربما كان غيابه هو الذي ألهمها فضولها، وانتاب لام شعور بأن من الغريب أنه، بدوره، لم يفكر أبداً فيها أو في أحد من أسرته وهو بعيد. في الخارج في الأجمة، يستهلكه الخوف من الموت والمرور الفارغ للوقت، لم يذهب عقله إلى زوجته أو أبنائه أو بيته. فُكر في أمور أقل تعقيداً، مثل التدخين في ليلة باردة ممطرة في سايجون، هذا الوحز أثناء التنفس. أو تناول صينية من الفو،^٣ يتصاعد منها بخار ساخن مع أوراق الريحان الطازج والليمون، واللحم البقري النيئ يُغمس في الحساء، وردي ملتف ثم رمادي. وكان تفكيره لا يتجه حتماً إلى أسرته بل إلى حيث كان: كتلة من الأرض المجعدة الحارة المغطاة بالأشجار والأجمات والكروم وعظام البشر، مكان نضر لا يُخفي العنف والهلع بل يخرسهما فقط. بدا أن هذا العالم المحفوف بالمخاطر ليس فيه مكان أو صبر لأفكار عن البيت، عالم منفصل تماماً عن عالم أسرته، وبطريقة غير مبررة، لم يؤمن قط بالعالمين في وقت واحد.

ذهل لام حين تبعته الحرب إلى بيته. حين يعود أحياناً من حيث كان لمدة ستة أشهر ويجدها تجلس على الشرفة الأمامية، يرى على وجهها تعبيراً ينم عن أنه لم يتغير منذ التقيا آخر مرة، تعبيراً بأنه أبوها ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً في السنة وقد عاد للتو من تمشية

^٣ الفو pho: نوع من الحساء باللحم والمكرونة.

قصيرة. وبعد يوم أو اثنين من عودته إلى البيت قد تسأله، في لحظة فضول فجائي، أو ربما قلق، سؤالاً من تلك الأسئلة.

في ذهنه، تتكرر اللحظة نفسها: هو وهي يسيران في الحي، في المدينة، ويدها في يده، يمرّان بسياج المباني التي تحيط بالشوارع، يمرّان بالمنازل المفتوحة لأي شخص ليأتي ويأكل أو يشتري منها أو ربما ينزل فيها لتناول بعض الشاي والتحدث، يمرّان عبر ضجيج السيارات والمشاة والمحلات والباعة الجائلين، يمرّان بالكنيسة والجبانة حيث المقابر الملونة لأسرته وأصدقائه، وحينها تطرح السؤال بدون سبب، وتعاوده ذكرى من هذا النوع.

في أحد الأيام وقد وصلت قواته قرية محترقة في منطقة منزوعة الأشجار في أجمة، حيث يتصاعد الدخان في هواء مخلوط بالنابالم مثل أوشحة وكانوا جميعاً يزحفون في أماكن داخلية مهجورة في القرية، سائرين فوق الأجساد، لحم تفحّم بعضه، وعلى البعض طبقة كثيفة من الدماء الجافة، والبعض موتى في هدوء كأنهم نيام. جرى جندي شاب، عند سماع أصوات مفاجئة أو صرخات، إلى كوخ أمسكت به النيران للتو. بكى هذا الجندي نفسه قبل أيام فقط من أجل أمه. تذكر لام بنيتها الضعيفة، كان عنقه من الخلف يشبه عنق امرأة، صوته جبان، وكان يرفض وجباته، وتذكّر عينيه البليدين وهو يبكي بهدوء ويطبق بقبضتيه على صدره. حدّقت عيناه في المدخل المؤدي إلى الكوخ المبني من القش وقد التهمه لهب هائل. ترهّل كتفاه، وبندقيته تخترق الهواء أمامه، ابتعد الجندي الصغير عن اللهب المتقافز وركّز عينيه على مدخل الكوخ. دوت صرخة وحشية كأنها صوت يسقط من السماء، ثم من عمود الدخان الأسود المتصاعد من المدخل، تجسّد حيوان تضطرم فيه النيران. تراجع الولد بضع خطوات والحيوان يتلوّى ويرفس بأطرافه، وتنطلق منه سلسلة صرخات مدوية. كان كلباً، يصل إلى خصر الولد تقريباً، لونه غير واضح نتيجة موجة النيران الأعوانية التي تتقافز بطول ظهره وأطرافه. بدا الولد لحظة في حالة ذهول رهيب من المنظر، لم يكن فزعاً بقدر ما كان مبتهجاً. قفز الكلب عليه فجأة بشكل يشع فركله في رأسه، فارتبك وعاد إلى المدخل يتلوّى بجنون وينبح بما يشبه صرخات خنزير. ركله الولد مرة أخرى، وربما بشكل أقوى في هذه المرة كأنه أيضاً يطفئ اللهب الذي يحرق لحمه، لكن الركلة أرسلت الكلب متسحباً إلى الكوخ. ظهر الكلب مرة أخرى في الحال، ومرة أخرى ركله الولد في الصدر، فشبّ مثل الحصان وتراجع في الدخان. كلما خرج الكلب من الكوخ ركله الولد بشكل أعنف، مغطياً فمه حتى لا يختنق من الدخان، حانياً رأسه ليتجنب اللهب. صرخ الكلب كلما ركله الولد في ضلوعه أو رأسه، بصوت عالٍ في البداية وأضعف تدريجياً،

حتى صار في النهاية لا يصدر صوتًا على الإطلاق، مرهقًا مع كل شحنة من المدخل قبل أن يختفي أخيرًا داخل الكوخ الأسود مع نباح طويل باك. تراجع الولد مبتعدًا عن الكوخ وأحد الجدران ينهار ويرسل دفعة من الدخان الأسود والنيران متشابكة باتجاه السماء، وشرارات من القش المشتعل تتناثر في الهواء. كان لام يشاهد برباطة جأش، غير متأكد مما إذا كان الألم الذي في صدره نتيجة الجوع أم الحرارة الشديدة أم ما شاهده للتو. شعر برغبة شديدة في أن يقول شيئًا للولد، يواسيه، يهينه. لكن قبل أن يتقدم، رأى الولد يسير مرة أخرى إلى الكوخ المنهار، وربما لأسباب محيرة حتى بالنسبة له، بدأ الولد يُطلق نيران بندقيته مباشرة إلى الكوخ، يُطلق النيران في الدخان ولهب المدخل المتداعي حتى فرغ ولم يستطع أحد، حتى لام، أن يتطلع إليه، «لا»، قال لام لها دائمًا، لابنته، وقد شحبت هذه الذكرى، «لن أقول لك كم من الرجال قُتلوا وماتوا في الحرب.»

ولم يقل لها قط. بمجرد استبعاده من الحرب، تلاشى فضول مي ورأى أنه كان بالضرورة نزوة طفولة، فتاة صغيرة تقفز قفزة خيالية إلى عالم الكبار، وقد فعل ذلك وهو ولد. لا شيء مزعج. تذكر أسئلتها مرة أخرى، بعد أن غرق زوجها بعد ذلك بعقود، وأدرك مدى صعوبة أن يسألها عما سألته عنه ذات يوم.

حاول. طرح السؤال في ذهنه مرات كثيرة، بطرق عديدة، محتفظًا به ربما للنهاية في انتظار محادثة طويلة قد تدور بينهما في ركن معتم من خياله، وحين اقترب منها أخيرًا، لم تبد الكلمات صحيحة، لا يمكن أبدًا أن تبدو صحيحة، هكذا تصرف مرة أخرى كما لو لم يكن هناك خطأ، وكأن هذه الشكوك في عقله الطبيعية بالنسبة لأب في لحظات الزهو والهيام.

مر عام بعد الغرق. التقى أفراد العائلة يوميًا، وتناولوا الطعام معًا، وواصلوا القيام بما كانت تقوم به العائلة قبل الموت، ولم يذكروا زوج مي إلا نادرًا. بدا للام أحيانًا أن صمت ابنته قمع لنوع من الأسى ربما كانت تعاني منه؛ في أحيان أخرى بدا النسيان وسيلة للحفاظ على حرمة الميت، عدم ذكر البؤس الذي كان يسببه لها زوجها. انتقلت مي إلى منزل لام مع أبنائها لأنهم لم يكن لديهم ما يكفي من المال ليعيشوا وحدهم. ببيع منزلها، بدا أن كل آثار زوجها تركت أيضًا. لم يبق سوى معرفة مقموعة لما حدث.

قد يبحث لام من وقت لآخر، حين ينتابه الشك، عن دليل على شيء خفي، ثغرة في لا مبالاة مي. سأل زوجته وأبنائه إن كانوا رأوها في أي وقت تبكي أو سمعوها تتحدث عن زوجها، لكنهم لم يروها ولم يهتموا بذلك. قد تقول زوجته: «تبكي على من، ذلك الأحق

الحقير؟» ربما سأل لام حتى حفيداته إن كُنَّ قد شعرن بأن أمهن بدت على حالها معهن، إن كانت قد بدت في أية لحظة في السنة الأخيرة سعيدة أو غاضبة أو حزينة أكثر من المعتاد. لكنهن هززن رءوسهن الصغيرة فقط بشكل غامض، وبدأ أنهن أيضاً تقبلن الموت الملائم لأبيهن. بحث لام في وجوههن وتذكّر المرة التي صفعت فيها مي إحدى الفتيات بعنف لسبب تافه ثم ضممتها وبكت: أم وابنتها في عناق أخرق، تبكي واحدة من الألم، والأخرى من الألم الذي تسببت فيه. قالت زوجة لام: «لن تبكي ابنتك على ذلك الرجل، ولا تتوقع منها ذلك. إذا كُنْتَ مثله ما بكيتُ عليك أيضاً.»

ذكر لام أحياناً زوج مي ليرى إذا كان ذكره يؤدي إلى رد فعل. ربما يقول أثناء العشاء: «لم يأكل زوجك أبداً لحوماً بشكل كافٍ»؛ وقد يسأل وهي تكوي له قمصانه: «ألا يشبه هذا القميص القميص الذي اعتاد زوجك أن يرتديه؟» لكنَّ مي في كل مرة تقول لا أو نعم وتواصل بثبات ما تفعله.

قرر في مسألة معينة إذا كان ما يفكر فيه صحيحاً فسوف يسامحها، قد يبقى سرّاً بينهما. قرر أن يستريح من الفضول الذي يشغله وعزم على أن يسألها مباشرة حين يقترب منها.

وبعد ذلك سيطر عليه كسل معين، لأنه من حينها تصوّر الكلمات الصحيحة، لكنه لا يستطيع النطق بها؛ أدرك، قلّقاً وحذراً في وقت واحد، أن ما يود الارتياح منه لم يكن الفضول، بل عدم يقينية خيبة أمله. كان الكسل مجرد عرض من أعراض الخوف، ومع ذلك ذكّر نفسه بأن يجرب تهديد الإجابة، ونهاية رائعة في حتميتها، وكان عدم اليقين وإنكار الذات يسببان ألماً فضّل احتماله، مع أن البديل لا يمكن أن يسبب له قدراً أكبر من الأذى، وكان هذا هو السبب الذي يحول دون طرح السؤال، وما كان له أن يُطرح. وتذكّر كل تلك اللحظات في حياتها حين كانت تكشف له، وله وحده، عن طبيعتها الغريبة، تلك الانحرافات الشخصية التي اتسمت بها دائماً، ودّ لو يصدق، كانت موجودة دائماً: الرقص مع القس وهي في الخامسة عشرة من عمرها، شراء سجائر له وهي في الثامنة، وضعت على رأسها بريهاً كبيراً جداً في جنازة، وأخذت تضحك وترقص عند قدميه. تذكّر هذه الصور، احتفظ بها بقوة في صدره، ثم آمن هو نفسه بأن المعنى والارتباطات التي تصورها في الذاكرة جسور واهية، وأن إفساد ذكرى طيبة يعني إفساد الذكريات كلها. وهكذا، بشكل أناني، ليس بسبب شكوكه ربما كان على خطأ، ولأنها قد تسلّم بالحقيقة، لم يسألها أبداً. مرّت السنوات العشر التالية في تتابع هادئ. بدا أن لام، بالتغاضي عن الفترة التي قضاها بعيداً عن بيته، عاش ثلاث حيوات مع أسرته — حياة طفولة أبنائه، حياة زواج

أبنائه، ثم حياة أبناء أبنائه — وكانت حياته الأخيرة الأقل روعة والأسهل. كان له اثنا عشر حفيداً، كانوا جميعاً أصحاء وسعداء، وفيهم، فيما يبدو من حيوات الصغار، استعداد لمواجهة نهايته الحتمية. كثيراً ما اتهمته زوجته بالكسل، بأنه «يجلس في القارب ويتفَرَّج على الآخرين يسبحون»، ولم يقل إلا إنه عجوز جدًّا، لا يحتمل البلل، والمشهد من القارب جميل. أحياناً، انبهر حتى بسمكة تحت الماء، غافلاً عما فوق السطح وما بدا ضخماً في الأعماق؛ ورغم أنه لم يتجاهل الماضي أو ما ينتظره قط، تعلَّم أن يرضى بالحاضر طالما كان الآخرون حوله آمنين وقانعين. وبهذا الموقف واجه أموراً شاقة حين اعتلَّ ذات صيف. رقد في السرير معظم اليوم وعلى ساقيه بطانية رقيقة وبجواره مروحة كهربائية. كانت زوجته تنظر إليه كلما كحَّ، ويتوقف أبنائُه كل ساعة لأسباب تافهة ليكونوا بجواره. صحيح أن المرض لم يصبه بهذه الصورة من قبل، لكنه عرف وأكد للجميع أنه سوف يتحسن خلال أسبوع أو اثنين على الأكثر. ربما أكثر من أي شيء آخر كان دائماً متأكداً مما يتعلق بصحته، تعرَّض لمخاطر كثيرة في حياته بشكل يجعله لا يشك في ذلك الآن، حتى في سن متقدمة.

كانت مي تأتي لزيارته يومياً. وكانت تعيش مع أختها الثانية وأسرتها. في بهو منزلهم، الذي يمتد إلى الشرفة، تقوم الأختان ببيع ملابس يشتريانها رخيصة من مراكز التسوق في سايجون. تذهب مي إلى سايجون مرتين أسبوعياً وتشتري ما تستطيع من الأقمشة والملابس أثناء تجولها. وتقضي بقية الأسبوع، كل يوم ما عدا الأحد، تباع الأحذية وفُرش الأسنان والصابون، وكل ما تستطيع الأختان عرضه في المكان المحدود. وتساعد أيضاً في شئون المنزل وترعى بنت أختها وأبنائها. تزوجت بناتها وتركنها لأسرتها الجديدة، وتزوجت الصغرى منذ أيام فقط. لم تتزوج مي نفسها مرة أخرى أبداً، رغم العروض من رجال مختلفين على مدار السنوات. كان لام سيسعد إذا تزوجت، وكان في داخله إحساس معين من السلام لأنه يعرف أنها لن تفعل أبداً. ربما كانت هذه هي العلامة الوحيدة على حداها الشخصي.

في اليوم العاشر من مرضه، جاءت إليه بصور زفاف ابنتها. كان لام شبه نائم في السرير، لكنه سمع مي تتحدث إلى زوجته في الغرفة المجاورة. كان الشخص الوحيد في العائلة الذي لم يحضر الزفاف، وشعر أنه يتذكر ذلك بقوة وهو يستمع إلى حديثهما. قالت مي بإعجاب: «بدت الصورة مذهشة، لكن هذا المصور تقاضى ضعف ما تقاضى في صور زفاف هونج! وهو يفعل ذلك على سبيل الهواية.»

«بالمناسبة»، قالت زوجة لام. اقترب وقع خطوات من الغرفة. رأى لام زوجته تدخل الغرفة وتمد يدها إلى الدرج العلوي في التسريحة حيث تحتفظ بكيستها. وقفت الأم والابنة في المدخل، تتهامسان، ولا تدركان أن لام يرقد ويشاهدتهما. «خذي»، قالت زوجة لام وأعطت مي بعض النقود.

«لم أقصد أن تدفعي ثمن الصور يا أمي.»

«حسنًا، كنت أنوي أن أعطيك النقود على أية حال. أنفقت الكثير على الزفاف.» وزوجته تعود إلى الغرفة الأمامية، رأى لام مي تعيد النقود إلى الدرج العلوي. تبعته أمها وصار صوتاهما صاحبين مرة أخرى في الغرفة المجاورة، تبدو الأم والابنة أكثر تشابهًا مع مر السنين.

«لم أخبرك بما حدث أمس»، قالت مي مقهقهة. «تقترب تلك المرأة الضئيلة المجنونة، منا وتنقي أفضل أحذيتنا وكأنها تنقي فاكهة ما يقرب من عشر دقائق، وتسألني إن كان لديّ المزيد في المنزل. أتركها وأذهب لألقي نظرة وحين عدتُ رأيتها تجري إلى الشارع بحذاء تضمه إلى صدرها.»

«سرقته؟»

«رأيتها «شي لوان» تجري به وصاحت في ابنها ليطارد المرأة، لكن الولد قال إنها تاهت وسط الزحام. لم يعرفها أحد من الجيران. والمضحك أنني ذهبتُ إلى السوق بعد الظهر فوجدتها هناك تسير باتجاهي وهي تنتعل ذلك الحذاء.»

ضحكت زوجة لام: «هي حقًا؟»

«المرأة ذاتها! والحذاء حذاؤنا بالتأكيد. سرتُ أمامها فتجمدت حين عرفتني. اعتقدتُ أنها ستجري مرة أخرى، لكنها وقفت دون حراك، في هلع تام. أخبرتها بأنني عرفتُ ما فعلت وألححتُ على دفع ثمنه لي فورًا. سألتني عن المبلغ وحين أخبرتها، قالت ليس معها ما يكفي. أخذتُ ما كان معها بالإضافة إلى حزمة من خبز فرنسي كانت تحت ذراعها، وانصرفتُ.» قهقهت مي. «لم أرَ أبدًا أحدًا يخاف مني إلى هذا الحد، عجزت المرأة عن الكلام.»

قالت زوجة لام: «احذري الآن، لن يكن أبدًا بهذا الضعف والغباء.» سمع لام صوت صندل زوجته على الأرضية القرميد. «أخرج لأشتري قهوة وأنت هنا. انهبي وفرّجي أباك على الصور.»

«هل هو نائم؟»

«لا أعتقد ذلك..»

«هل يبدو أفضل؟»

لم يسمع لام رد زوجته. وخرجت من المنزل.

ظهر رأس مي في مدخل غرفته، وحين رآته مستيقظًا، ابتسمت واقتربت من السرير. «معني صور الزفاف يا أبي»، قالت هامسةً تقريبًا. سحبت كرسياً بجوار سريرها وجلست في مستواه. لاحظ في رأسها شعراً رمادياً بأكثر مما يتذكر. لكن لم يبدُ على وجهها التقدم في العمر إلا قليلاً، لا تزال بشرتها العاجية خالية من العيوب. ببطء وضعت صورة بعد أخرى على صدره.

كانت الأولى لحفידته وعريسها يقفان خارج سيارة مع بعض ضيوف الفرح. ترتدي أوبي أحمر وتقف ورأسها مائل، صورة من أمها في شبابها. الصورة الثانية يجلسان في السيارة وسعف نخيل يهوي في النافذة الخلفية. كان العريس يبتسم بشكل أخرق، والأوبي الذي ترتديه حفيدة لام، متألق على المقاعد الجلدية البيضاء، وكانت تتطلع بحزن في الكاميرا كأنها تبكي.

تفحص لام كل الصور وتخيل الروائح والأصوات في ذلك اليوم، ما كانت عليه الشمس فوق أكتاف الناس، الأفكار التي وراء ابتساماتهم. حين وصل إلى الصورة التي يقف فيها العريس والعروس مع آبائهما وأجدادهما، سقطت يدها.

«هل وجدت مصوراً جيداً كما قلت لك؟»

«ابن «بالو» التقط الصور. المصور المحترف يطلب الكثير كما تعرف.»

«لكن هذه الصور، بعضها ساطع جداً، وهذه ليست واضحة.»

«إنها جميلة يا أبي.»

قال: «لكنني قلتُ لك ...» وتوقف حين أدرك كم يبدو مزعجاً. لاحظت ولم تنطق بكلمة أخرى.

تفرج على الصور مرة أخرى، وشعر أنها تُحدِّق فيه، كأنها تتطلع إلى تشوهات في وجهه. صارت لحظات صمتها وتفحصها ملحوظة في النهاية ومربكة. كانت المرة الثالثة في ذلك الأسبوع التي تأتي فيها وحدها بجوار سريرها بهذه الطريقة الهادئة، قريبة بشكل مزعج من شخص استعد للطقوس الأخيرة.

سعل وشعر بألم في صدره؛ سعل مرة أخرى، وكما بدا دائماً تأتي كل سعلة أكثر عنفاً. أمسك بمجموعة الصور إلى صدره الذي يخفق.

قالت مي: «يا أبي.» بلع ريقه لئیسلك حنجرته وتوقع منها أن تُلَقَّ اعتذارًا له. «يجب أن أقول لك شيئًا اعترفتُ به للكاهن منذ سنوات، لكنني أشعر الآن أنه ينبغي علي أن أعترف به لك أيضًا.»

في وجهها رأى لام فجأة عِلته. مرت سنوات كثيرة منذ آخر مرة حمل صوتها هذه النبرة الجادة، وجعلته لحظة تعرف، لا تفسير لها، على ما كانت على وشك أن تقوله، يكتُم أنفاسه. كم مضى عليه منذ عبرت هذه الأفكار عقله؟ لم يستطع أن يقرر إن كان ينبغي أن يرفض أن يسمع أم يذعن للكلمات طردها منذ فترة طويلة من عقله. قالت: «منذ سنوات»، وكان صوتها بليدًا مثل دعاء محفوظ. «أود أن أقول لك كيف مات باو. أريد أن أخبرك بهذا»، وتطلَّعت إليه كأنها تطلب الموافقة على الاستمرار. أومأ صامتًا.

بدأت: «خرجتُ إلى الكافيه لأبحث عنه في تلك الليلة»، ثم توقفت. تحدَّق في مجموعة الصور على صدره. بدا تردها احتياجيًا للإفصاح، احتياجيًا إلى قول ما كانت على وشك قوله بطريقة ربما تصورتها بشكل مختلف. واصلتُ ببطء: «لم يكن هناك سبب مُعين في تلك الليلة لذلك، باستثناء شعور انتابني يفوق ما شعرتُ به في معظم الليالي. أخبرني أحد أصحاب الكافيه بأنه رأى «باو» يسير باتجاه أحواض السفن، فاتجهتُ إلى هناك. وجدته في النهاية، يقف على رصيف خاوٍ ممتد في البحر عند نهاية رصيف الميناء وفي إحدى يديه قارورة يحدِّق في المياه. يا إلهي، في تلك اللحظة، وددتُ أن أجري وأدفعه إلى الحافة، لأُريه مدى بشاعته.» كان وجه مي هادئًا رغم انقباض يديها بشدة على سرير لام. «وأنا أقترُب منه، التفتَ وتطلَّع إليّ ولم يتكلم، كأنه لم يتعرف عليّ، وبدأ يتراجع بشكل أخرق، فتعثَّر وسقط في الماء. جريتُ إلى الحافة ونظرتُ إليه وهو يمسك بدعامة من دعامات أحواض السفن ويبصق الماء وينتفض كأنه لا يعرف أين كان. لم يقل شيئًا، ولم يصرخ، ولم أعرف إن كان يستطيع أم لا. تطلَّعتُ حولي في هلع بحثًا عن وسيلة لإخراجه. كنتُ أعرف أنني لا أستطيع القفز في الماء وإنقاذه، فكرتُ في الصراخ على أي شخص، أي أحد يأتي ويساعدني. وحينذاك أفلتت يده من على ساق حوض السفن وبدأت المياه تجرفه. غطس ثم عاد يشهق على المياه. للحظة بدا كأنه تذكَّر فجأة كيف يسبح وبدأ يضرب في المياه بشكل أخرق، لكنه غطس مرة أخرى وحين طفا أصدر صرخة رهيبة، وصرختُ باسمه. لكنني وقفتُ فقط وشاهدته، لم أستطع طلب المساعدة. كان يتحرك أبطأ، وكنتُ أسمعُه يسعل ويشهق، وعويله القصير ...»

خفضت مي رأسها إلى ركبتها، ثم اعتدلت مرة أخرى. لم تكن تبكي، كان وجهها لا يزال هادئاً. أخذت نفساً عميقاً، وتحول صوتها إلى همس. «لم أتزعج، أتذكر أنني حبست أنفاسي واستمعت إليه يصارع في المياه، ثم ابتعد عن الحافة ولم أعد أراه. لكنني تطلعت مرة أخرى، والمياه تجرفه بعيداً عن حوض السفن، وللحظة اعتقدت أنه ينظر إليّ مباشرة. اختفى في الظلام، فاستدرت جرياً إلى البيت. لم أنم تلك الليلة. لم أتكم إطلاقاً في اليوم التالي، وكان من حظي أن يجدوا الجثة في الصباح، بذلك كان لديّ ما يُبقيني صامتة ولا يسأل الناس عن السبب.»

توقفت. كانت تتطلع إلى لام كأنها تجادله. لم يعرف تمامًا ما تجادل بشأنه، لكنه شعر فجأة ببرد وصمت مريح. فجأة شعر بالسنوات العشر الأخيرة من حياته وكأنها وهم، وكأنها مُصطنعة. تساءل كيف للحقيقة أن تُغير الأمور، وما إن كان الجهل أفاد أسرته أو أفاده. يمكن أن يشك في قصة مي، لكن لم تعد الإرادة المطلوبة لذلك موجودة. ازدهرت صورة وحيدة في عقله: صورته منذ زمن بعيد وهو يدفع ابنه وهو في العاشرة ليغوص في حوض ليتعلم السباحة. سوف أنقذك إذا ... وقفز في الماء ليفعل مثله، خشي الولد فيما بعد أن تصاب عيناه، وبعد سنوات تخيل لام، كما تذكر آنذاك، الماء البارد يبتلع الولد، وضُغِطت كل مخاوفه في لحظة ثم انفجر على الفور ليس غضباً من والده — وإن كان هناك — لكن في صمت.

«أبي.»

«نعم؟»

«ماذا تعتقد في هذا؟»

«همهم: «ماذا أعتقد؟»

«لم أخبر أحداً. أعرف، ما فعلته مُروّع. لا يُعْتَفَر. لكنني أعتقد أيضاً ... أعتقد أيضاً أن تلك الليلة مثل شيء وهبني الرب إيّاه. مثل هدية.» تحدّث ببطء، كأنها تنتظر مقاطعته. قالت: «هل ذلك خطأ؟ هل أنا مخطئة حين أعتقد ذلك؟»

رد بصورة مبهمّة: «لا.»

سمع صوت زوجته في الخارج ترد على جارة وتضحك.

نظر مرة أخرى إلى صور الفرح وهمهم: «كان ينبغي أن تأتي بمصور أفضل كما قلت لك.»

أحنت مي رأسها، انزلقت بعض الصور عن صدره فالتقطتها ببطء واحدة بعد الأخرى، ووضعتها مُرتبةً على السرير.

دخلتُ زوجة لام الغرفة. قالتُ مخاطبة مي: «كنتُ أتحدث إلى شي لوان، وقد أخبرتني أمس بكل شيء.»

قالت مي دون أن تتطلع إليها: «أجل.»

«قالتُ إن ابنها جرى بأقصى ما يستطيع لكن تلك المرأة سبقتُه.» ضحكتُ زوجة لام من قلبها: «أظن أن من المناسب أن يكون للصوص سيقان سريعة.» دخلت إلى المطبخ وهي لا تزال تضحك.

مالت مي مقتربة من لام وقالت: «أسفة، كنتُ نادمة لأنني لم أخبرك.» هز رأسه بوهن، ثم سعل مرتين قبل أن تتحدث مي مرة أخرى، كأنها تتوسل استجابة أفضل: «أبي؟» «هل تعرفين»، بدأ وفي اللحظة ذاتها لمعت في ذهنه صورة أخرى، واضحة تمامًا بعد أن نُسيَتْ سنوات: بريهه القديم، أسمر غامق ومناسب، مزين برأس نمر مهدّد وأنيابه مبالغ فيها. فكر كيف صار؟ هل ضاع؟ هل أحرقتَه زوجته حين سقطتُ سايجون؟ ربما دفننّه؟

قال مرة أخرى: «هل تعرفين أنك في جنازة عمك منذ سنوات وسنوات، وعمرك عامان فقط، وضعتُ بريهي على رأسك وضحكتُ ورقصتُ رقصة سخيّة أثناء المراسيم؟ رفضتُ خلعه بقية اليوم. تعرفين أن هذا ما جعلني أشتري لك كل تلك القبعات وأنت صغيرة.» ضحكتُ مي فجأة، بأسى إلى حد ما، ثم توقفت. «لكن يا أبي»، قالت كأنها غير متأكدة من أنها في حاجة إلى تفسير، كأن المسألة مجرد نسيان من جانبها: «مات العم فونج قبل أن أولد. لا بدّ أنك تتذكر ليين أو هونج وليس أنا.»

كاتب اليوميات

تأليف: ريتشارد مَّكان^١

هنا أتذكر شيئاً واحداً، من كل ما لم أدوِّنه قط في دفتر يوميات عن صيف العام الذي بلغت فيه الحادية عشرة، الصيف السابق على موت أبي: كنتُ أقف عند نافذة المطبخ أشاهد أخي دافس يساعد أبانا في تحميل عربتنا بأشياء نحتاج إليها — صنانير وصناديق أدوات وأطعمة معلبة وأوانٍ للطبخ، شبكات للفرشات وبنادق بي بي^٢ — حين انطلقنا في صباح اليوم التالي إلى لمبر رن في بنسلفانيا، القطاع ٢٣١. قال أبي إن لمبر رن جنة.

في الحقيقة، رغم أن لمبر رن كانت ذات يوم بلدة مزدهرة، حين كانت تُقدِّمُ الخدمة لقطارات نقل الأخشاب التي كانت تمر بها ذات يوم، من وليمز بورت إلى ولسبورو،^٣ لكنها آنذاك لم تعد إلا طريقاً فرعية للطريق ١٤٤، لا يميزها إلا مخزن عام، كوخ كونست^٤

^١ ريتشارد مَّكان Richard McCann: نشأ في سيلفر سبرنج في ميريلاند، وتنتقل على مر السنوات بين بلاد كثيرة منها ألمانيا وإسبانيا والسويد. والعنوان الأصلي للقصة The Diarist.

^٢ بنادق بي بي BB rifles: بنادق صغيرة تُطلق أعيرة بي بي قطرها ٤ مم تقريباً.

^٣ وليمز بورت Williamsport: مدينة وسط بنسلفانيا كانت مركزاً لتجارة الأخشاب في القرن التاسع عشر. ولسبورو Wellsboro: منطقة تبعد ٥٢ ميلاً شمال غرب وليمز بورت.

^٤ كوخ كونست Quonset: نوع من الأكواخ الجاهزة المحمولة.

مهجور، وحانة قذرة اسمها واجن ويل. لأسبوعين في أغسطس من كل عام، كان أبي يؤجر لنا مكاناً هناك، منزلاً قديماً في مزرعة، كان من قبل ملكاً لزميل في الجيش، يقع بين قضبان السكة الحديد وضياف خليج باين،^٥ حيث كنا نذهب لصيد السمك. قال إن لمبر رن تذكره ببايشوب، بلدة بها مناجم فحم، وقد نشأ فيها، قبل أن يُقتل أبوه وكان محولجياً في حادث اصطدام في ساحة التحويل خارج ألتونا.

عرفت أنه ينبغي أن أساعد أبي مثل دافس وهو يحزم أمتعتنا في المكان المخصص لها، وقد وفرناه بطي المقعد الأوسط في العربة، بحيث يضع كل الأشياء معاً بدقة. وعرفتُ هذا: لم أرغب في الذهاب إلى لمبر رن، ليس في تلك المرة، وقد عرفتُ أن أُمي لن تأتي معنا، كما اعتادت. غادرتُ صباح اليوم السابق على قطار من سيلفر سبرنج،^٦ ميريلاند، حيث نعيش، إلى مدينة نيويورك، وذهبت لزيارة أختها، وكانت تعيش في منزل العائلة المبني بالحجر الأسمر في بروكلين. وكانت رحلة اعتادت القيام بها مرة شهرياً على الأقل في السنة التي ماتت فيها أمها.

كنتُ أخشى سفر أُمي، في عصر أيام الجمع أعود إلى البيت من المدرسة لأجدها في غرفة نومها تحزم حقيبة القطار المكتوب عليها اسمها ... قالت: «أحب أن أسافر خفيفة». أجلس على حافة سريرها وهي تحزم حقيبتها، وأشاهد انعكاسات صورتها في المرآة الصغيرة المثبتة في البطانة المساء لغطاء حقيبة القطار؛ معاً، بدا أننا أداة واحدة، أنا والمرآة، نمسك بتألق رفرفة ثياب أُمي وهي تقطع غرفة النوم ذهاباً وإياباً، من تسريحتها إلى خزانتها إلى حليها.

لكنها في تلك المرة أعدت سمسونايت اشترتها من وودورد ولوثروب^٧ قبل بضعة أسابيع، من مال ميراثها كما قالت. من حيث كنتُ أقف في مدخل غرفتها، رأيت أنها لن تسافر خفيفة. طلبتُ مني وضع صندوق قبعاتها عند الباب الأمامي حتى لا تنساها حين يأتي التاكسي ليأخذها إلى المحطة.

قلتُ لها: «أريد أن آتي معك».

واصلتُ إعداد حقيبتها كأنها لم تسمعني.

^٥ خليج باين Pine Creek: رافد لأحد الأنهار في بنسلفانيا. ألتونا Altoona: مدينة وسط بنسلفانيا.

^٦ سيلفر سبرنج Silver Spring: حي وسط غرب ميريلاند. بروكلين Brooklyn: منطقة في نيويورك.

^٧ وودورد ولوثروب Lothrop & Woodward: سلسلة محلات، مركزها الرئيسي واشنطن.

أُلهت: «ذهبُ معك من قبل.» وكان ذلك صحيحًا. ذات مرة أخذتني معها في عطلة نهاية الأسبوع. رأينا روكتس في قاعة موسيقى راديو المدينة،^٨ وبعد ذلك أكلنا في شرفت. «نريد دجاج بالشيري».^٩ طلبت من النادلة دون حتى أن تطلع على قائمة الطعام وهذا يثبت أنها عاشت من قبل في مدينة نيويورك. نظرت لحظة إلى أعلى. قالت: «لا، ينبغي أن تذهب مع أبيك. ناقشت ذلك معه.» واصلت ما تقوم به، طبقت بلوزاتها في حقيبة، وفصلت كل طبقة بطبقة من المناديل الورق البيضاء.

عند أي نقطة بدأت الكذب على أبي، إجابات عصبية متلثمة على أي سؤال يوجهه إلي؟ «ماذا تفعل؟» سأل حين دخل بعد تحميل العربة ليجدني ما زلت أقف في المطبخ. قلت: «أعمل سندوتشا.» وأنا أتكلم، تساءلت إن كان يصدقني، حيث إنه كان يستطيع بنفسه أن يرى أنني لم أفعل شيئًا، على الأقل حتى ذلك الوقت ... لم أخرج حتى الخبز من الثلاجة. كانت أُمي تعد لنا السندوتشات دائمًا في الرحلات التي نقطعها بالسيارة؛ تحب أن تقطعها أرباعًا قبل أن تلفها في ورق مشمع. قال لي: «اذهب إلى ويتون بلازا مع دافس.»^{١٠} قال إنه سيعطي لكل منا دولارًا إضافيًا، وهكذا يمكننا أن نشترى حلوى لرحلة السيارة. كان دافس ينتظرني في الشرفة الأمامية، يمسك بمحفظة فيها نصيبه. اتجهنا إلى بلازا عبر خميلة خلف المدرسة الابتدائية وعبر الطريق السريع المقسم. في الطريق أخبرني دافس أن أبانا وعده بالجلوس في المقعد الأمامي وقطع الطريق كله إلى لمبر رن. قلت: «لا أصدقك.» رد دافس: «صحيح.»

حين وصلنا إلى ويتون بلازا، قررنا الانفصال، كما نفعل عادة. ذهب إلى محل لعب كاهان للفرجة على نماذج العربات؛ ذهب إلى كرسيج^{١١} لتصفّح صناديق السلع المخفضة،

^٨ روكتس Rockettes: فرقة رقص أمريكية. قاعة موسيقى راديو المدينة Radio City Music Hall: قاعة في نيويورك. شرفتس Schrafft's: شركة للحلوى والشيكولاتة.

^٩ دجاج بالشيري: في الأصل chicken à la king، وهو طعام يتكون من الدجاج مع حساء دسم وشيري sherry يُقدّم مع الخبز أو المكرونة، والشيري نوع من النبيذ الإسباني الحلو.

^{١٠} ويتون بلازا Wheaton Plaza: مركز تجاري في ويتون، ميريلاند.

^{١١} كرسيج S. S. Kresge: كانت شركة أمريكية، تحمل اسم مؤسسها.

حيث أعثر أحياناً على بعض الأشياء، مثل أملاح الحمامات المعطرة أو أقراط الأقحوان المتشابكة، التي أهدبها لأمي.

بالقرب من صناديق السلع المخفضة، لاحظتُ دفتر اليوميات لأول مرة. كان وردياً ساطعاً وجميلاً.

رفعته من الرف لفحصه. على الغلاف فتاة في سن المراهقة بذيل حصان يتدلّى على ظهرها، وساقاها مرفوعتان كأنها معجبة بطريقة تشابك كاحليها، وتحدث في تليفون الأميرة الأزرق. ترتدي بنطلون كابري. ولأن الصورة لا تضم السرير الذي يُفترض أنها تتمدد عليه ولا الحائط الذي يُفترض أن تسند عليه قدميها، بدت الفتاة وكأنها تُحلّق في الفضاء في تحدٍّ للجاذبية.

«إنه دفتر يوميات فتاة»، قال دافس حين انضم إليّ على طاولة الغداء في كرسيج، حيث اتفقنا على تناول الطعام، وقد طلبنا كوباً من الماء المثلج، وجلستُ أمسح بمنديل ورقي مُبلل البقعة اللزجة التي تركتها ورقة السعر على غلاف دفتر اليوميات، المُغطّى بالبلاستيك. واستغرقتُ عشر دقائق متردداً في شرائه، حاملاً دفتر اليوميات عرضاً من رف العرض قائلاً بصوت عالٍ من دون توجيه الكلام لشخص معين: «أراهن أن أختي سوف تحب هذا»، ثم أبرزته للصراف وسألته ما إن كان يمكن لفة بغلاف الهدايا، كنتُ لا أزال منطلقاً خلال أيونوسفير قلقي، دائخاً من نقص الأكسجين في الهواء.

حين جلس دافس، شعرتُ بشيء ثقيل ثابت يستقر بجواري. أسقطتُ دفتر اليوميات في الحقيبة الورق وسمعته يسقط على الأرض بصوت ثقيل، وكأن فتاة الغلاف سقطت من مدارها.

قلتُ له: «إنه النوع الوحيد لديهم.»

لم أستطع أن أعرف إن كان دافس قد عرف أنني أكذب. بدأتُ أضيف أن مسز توكر، مدرستي في الصف السادس، نصحتُ فصلنا ذات يوم بأهمية الاحتفاظ بدفتر يوميات، وخصوصاً أننا سندخل المرحلة الإعدادية، حتى يمكن أن نتطلع ذات يوم إلى كل الأشياء المهمة التي حدثت في حياتنا. لكنني ندمتُ بمجرد أن بدأتُ هذا الكلام متذكّراً أن أبي قال ذات يوم إن من السهل معرفة الكذاب؛ لأن الكذاب يقول دائماً أكثر مما يحتاج إليه.

قال دافس: «بالتأكيد، لو كان لديك ما تكتب عنه.»

لم أعرف ما أقوله. صحيح أنني لا تتنابني رغبة مُلحة في تدوين أشياء إلا إذا كنتُ غضبان. ذات مرة كتبت على عجل «أنا أكره دافس» على نوتة تحتفظ بها أمي بجوار

تليفون المطبخ، وبمجرد أن أدركتُ أن أبي وأمي قد يريانها قطعتُ الصفحة الأولى ومزقتها قطعاً صغيرة، ولم يتبقَّ إلا الصفحة البيضاء التي تحتها، وآثار كلماتي السرية لا تزال عليها بشكل خفي تقريباً.

ونحن عائدان من ويتون بلازا، فكَرْتُ في طريقة أجعل بها دافس يقدّم لي وعداً بعدم الكلام عن دفتر اليوميات؛ فكرت في أن أقول له إن والدينا أسراً إليّ بأنهما قلقان من الدرجات الضعيفة الذي يحصل عليها في المدرسة، ربما يجعله ذلك يغلق فمه. لكن حين وصلنا إلى ساحتنا، أدركتُ أنه ينبغي أن أقلق ربما أكثر بشأن ما أقوله لأبي إذا طلب أن يرى ما في الكيس الورق الذي أحمله. في كل صيف يخبرني بالحاجة للتوقف عن اللعب كثيراً مع بنات الجيران، وذات مرة حين سمعني أُنثر في التليفون الإضافي مع أفضل أصدقائي، داني، حذّرني قائلاً: «لا يجب أن تكون شاتي كاشي».^{١٢}

كنتُ محظوظاً. ونحن نقرب من منزلنا رأيت أبي يقف في الفناء الخلفي، يتحدث مع جار في البيت المجاور. ذهبتُ إلى غرفتي وخبأتُ دفتر اليوميات في حقيبتي الصوف، حشرتُ بين شورتاتي وتي شيرتاتي. في الليل، فكرتُ فيه، أمناً في مخبئه المظلم، وأنا أستلقي مستيقظاً، أحاول تخيل ما أكتبه بعد قليل في صفحاته المُسطّرة. حاولتُ وقتاً طويلاً؛ لكنني واصلتُ التفكير بدلاً من ذلك في دفتر اليوميات الذي كانت تحتفظ به أُمي وهي في المدرسة الثانوية، اليوميات التي كانت تشركني فيها أحياناً عصر الأيام الممطرة، تحمله بحذر من الدرج السفلي في تسريحتها، كتاب صغير مغلف بجلد مزخرف باللون الأحمر، وعلى الغلاف كلمة «يوميات» منقوشة باللون الذهبي. أخبرتني بأنه صُنِعَ في المغرب.

«اقرئي لي»، أطلب منها وهي تتصفّحه، صفحات هشة من ورق بصلي، متوقفة أحياناً لتقرأ فقرة بصوت مرتفع. في إحدى تلك الفقرات حكّت عن موعد مع ولد من بروكلين الإعدادية عرفت معه رغبتهما، مع نورما شيرر؛ في أخرى وصفتُ أمسياتها في حفل الزمرد في قاعة الرقص الكبرى في الولدورف أستوريا،^{١٣} استضافتها أسقفية بروكلين. لم تكن حتى قد وصلت إلى لوبي الولدورف، كما لاحظتُ، قبل أن تملأ نصف دسّة من طلاب يدها بطاقة الرقص معها. كانت ترتدي ثوباً من الساتان، أصفر باهتاً، بخصر إمبراطوري.

^{١٢} شاتي كاشي Chatty Cathy: دمية ظهرت في الأسواق الأمريكية سنة ١٩٥٩م.

^{١٣} الولدورف أستوريا Waldorf-Astoria: فندق فخم شهير في نيويورك.

في اليوم التالي، تبادلْتُ أنا ودافس دور الملاح، واحد يجلس في المقعد الأمامي بجوار أبنينا ويجلس الآخر في الخلف. جلست في المقعد الأمامي أولاً، قاطعاً الطريق من البيت إلى هاريسبرج،^{١٤} حيث عبرنا السوسكيهنا. طوال الطريق كله، ظلَّ أبي يبتكر ألعاباً نلعبها أنا وهو، مثل لعبة نحاول فيها أن نقول مَنْ مِنْ رُكَّاب السيارات من الكاثوليك، مثلنا، بفحص إن كان لديهم سَبَّحٌ معلقٌ على المرايا الداخلية أم لا، أو إن كانت هناك صور من البلاستيك للعدراء على التابلوه مثلنا. حين مررنا بياضات بورما شيف الموضوعة على الطريق السريع قرأناها معاً بصوت عالٍ: لا سيدة تحب/ أن ترقص أو تتعشَّى/ مصحوب ب/ نيص/ بورما شيف/ بورما شيف.^{١٥} عرفتُ حتى حينذاك، على ما أفترض، أنني أنتمي لأمي، بالضبط كما ينتمي دافس لأبنينا، لكن في ذلك الصباح، وأنا في السيارة بجواره، استطعتُ أن أتذكر أنني انتميتُ في بعض الأوقات لأبي أيضاً، جالساً معه في البانيو وأنا طفل صغير، يشطف ظهري بماء دافئ وصابون، أو أميل عليه في الكنبه في ليالي الأحد، ونحن نشاهد المسلسل التليفزيوني.^{١٦}

بعد الغداء، بدَّلنا الأماكن أنا ودافس. جلستُ في المقعد الخلفي، أستمع إلى أبي يلعب مع دافس الألعاب التي لعبها معي قبل قليل. بعد برهة، أغلقتُ عيني وحاولتُ تخيُّل ما تفعله أُمِّي، ربما تجلس إلى طاولة المطبخ في بروكلين في تلك اللحظة ذاتها، على ما أعتقد، تشرب قهوة بالسكر مع أختها. بمجرد أن صوَّرتُ ذلك، بدا شيئاً أود وضعه في دفتر يومياتي، أن أكتبه من منظور جلوسي على الطاولة معهما.

حين فتحتُ عيني، رأيتُ أنني أمر عبر سنهوري،^{١٧} حيث توقفنا الصيف السابق، بناءً على إلحاحي، لنزور مزرعة ثعابين رأيتُ إعلانات عنها على بُعد أميال على لوحات ملوَّنة. وبمجرد أن فرَّجنا المرشد على أول قفص من السلك تحتشد فيه مخشخشات الخشب^{١٨}

^{١٤} هاريسبرج Harrisburg: عاصمة بنسلفانيا. السوسكيهنا Susquehanna: نهر في شمال شرق الولايات المتحدة ينبع من وسط نيويورك ويسير باتجاه الجنوب خلال شرق بنسلفانيا وشمال شرق مارييلاند ليصب في خليج شيسابيك Chesapeake.

^{١٥} بورما شيف: كريم حلقة أمريكي. نيص porcupine: نوع من القوارض.

^{١٦} المسلسل التليفزيوني: في الأصل Have Gun-Will Travel، مسلسل تليفزيوني أمريكي عُرضَ بين عام ١٩٥٩م وعام ١٩٦٣م.

^{١٧} سنهوري Sunbury: مدينة في بنسلفانيا.

^{١٨} مخشخشات الخشب timber rattlers: نوع من الثعابين السامة في الولايات المتحدة.

بشكل رهيب، أُصِبتُ بالهلع واضطرتُّ للانتظار مع أمي في محل الهدايا، متطلِّعًا إلى أكواب الشاي التذكارية الصغيرة، وأكمل دافس الجولة مع أبنينا.

بعد سنبروري، ضاق الطريق وصغرت البلدات. جلستُ على المقعد الخلفي، أتطلَّع من النافذة الخلفية وأرى أسماء البلدات بعد عبورها، شاهدتُ يافطات الترحيب بوصول المسافرين، ديورت ودوبويستاون ولاريفيل وأفيس.^{١٩} بعد الظهر، انطلقنا أكثر وأكثر إلى عالم أبنينا خلال تابلوه سريع من نساء ذوات خصور سمكية يُطَبَّقْنَ ملابس الغسيل على قضبان الأروقة، ومراقبين يحتشدون على جوانب الطريق، يقذفون الصخور على كابلات التليفون. ذهبْتُ إلى أماكن مثلها، المَرَّات التي أخذنا فيها أبي إلى بايشوب، حيث كانت أخته تعيش مع زوجها في مزرعة للخضار على حافة البلدة، بعد مناجم الفحم. للذهاب إلى هناك كان علينا الانطلاق بالسيارة على نفايات عظمية، تلال عديمة القيمة من إردواز وفحم سيئ، نفايات تخلَّصت منها شركات التعدين. قال الناس إن النفايات العظمية خطيرة؛ يمكن أن تحترق من الضغط. أخبرتني عمتي ذات يوم بأنه إذا اشتعلت نيران خفية في التلال العظمية فقد تنفجر كلها بلا سابق إنذار.

وصلنا إلى لمبر رن بعد حلول الظلام. وجَّه أبنونا الكشافات الأمامية إلى المنزل ليرى طريقه عبر الرواق الأمامي ويفتح قفل الباب. وجررتُ أنا ودافس حقائبنا من العربة إلى غرفتين. قال لنا أبنونا: «أسخن بعض علب الرفيولي».^{٢٠}

كانت غرفتي أصغر غرف المنزل، خلف المطبخ. اخترتُها أول مرة أتينا فيها إلى لمبر رن لأن أمي أخبرتني بأنها تذكَّرها بمخزن كبير الخدم حيث كانت تلعب بالدمى وهي فتاة صغيرة في منزل عائلتها في بروكلين، وأضافت لا يحتاج هذا المنزل الصغير إلى كبير للخدم. أحببتُ غرفتي دائمًا، على الأقل حتى ذلك الوقت، بأثاثها البسيط وصرامتها المسرحية؛ أحببتُ الاستلقاء على السرير الضيق في أوقات الأصيل والباب مغلق، أتفحص التسريحة المكسرة المصنوعة من رقائق ليفية والنافذة الصغيرة الوحيدة التي كان ظل ورقها الأخضر يظهر سريعًا بعنف حين تلمس. أظهار أحيانًا بأنني أمكث في غرفة في مأوى حَرِبَ أو فندق قدر، مثل الفنادق التي رأيتها في أفلام الغرب. لكنني حينذاك أقف وألنقط قطعًا من جص تساقط من السقف على فرش السرير طوال الشتاء؛ بدت الغرفة كالحكة. لا تُشبه

^{١٩} ديورت Dewart، دوبويستاون Duboistown، لاريفيل Larryville، أفيس Avis: مناطق في بنسلفانيا.

^{٢٠} الرفيولي ravioli: طبق من المكرونة باللحم أو الجبن.

غرفتي في البيت، الغرفة التي اعتدتُ أن أُجدد ديكوراتها كل شهر تقريباً، واضحاً لمبة كيروسين على مكتبي لأشيع جواً استعماريّاً، أو أجراًساً خشبية مُعلّقة تهتز مع الهواء، من نور السقف لتبدو كأنها غرفة يابانية. هذه الغرفة لا تحتمل أي تغيير؛ كانت غرفة الهدف منها تغييرِي.

فتحتُ حقيبتي وجذبتُ دفتر اليوميات من تحت شورتاتي وتي شيرتاتي؛ جلستُ على السرير وأنا أضعه في حجري. لبرهة أهدق فيه فقط، وكأنني أتوقع أن يتحدث بشكل ما، رغم أن ذلك كان نوعاً من الغباء، كنتُ أعرف ذلك. كان دفتر يومياتي؛ يُفترض أن أُحدثه. لكنني أشعر بخرس يستقر في حنجرتي، كأن شيئاً كاوياً محشور فيها، وكلما تفحصتُ دفتر اليوميات أكثر رأيتُ كم يبدو رخيصاً حقاً، على الأقل تحت ضوء لمبة السقف العارية المزعجة. للمرة الأولى رأيتُ بضع صفحات مفكوكة من الملزمة، وبدأ التجعيد يُشوّه الغلاف البلاستيكي الرقيق. حتى فتاة الغلاف بدتُ حزينة نوعاً ما، ورأيتُ أن اللون الأصفر في ذيل حسانها طُبع بشكل غير متسق إلى حد ما. ليستُ غلطتي، أردتُ فجأة أن أوضح لشخص ما ... غلطة الغرفة، أو غلطة أبي، أو غلطة أُمي، لأنها لم تأتِ معنا. كرهتُ، بعد ذلك مباشرة، دفتر اليوميات، أردتُ أن أُلقي به إلى الأرض وأدوس عليه.

سمعتُ أبي ينادي: «حان وقت العشاء!»

حين ذهبْتُ إلى المطبخ، رأيتُ أنه يبدو سعيداً، الرفيولي الرائعة في أطباق ورقية. يدندن أغنية تذاق في الراديو الترانزستور الموضوع على حافة النافذة. سألني: «جائع بما يكفي لتأكل حصاناً؟»

ثم جاء دافس وانضم إلينا. ونحن نأكل حكى لنا أبونا كيف أنه اصطاد لعشائنا بسرعة قدرًا كبيراً من التروت الأزرق.^{٢١} قال له دافس: «ولي أيضاً.»

كنتُ صامتاً. شعرتُ بأنني لستُ على ما يرام وأنا أجلس بجوار المقعد الخالي المخصص لأُمي. تساءلتُ إن كانت تتناول عشاءها أيضاً أم ذهبْتُ إلى مكان ما، إلى سينما مثلاً مع أختها. وأنا أتخيلها بدأتُ أشعر بقلق لأنني أردتُ إتلاف دفتر يومياتي.

بمجرد انتهاء أبي من تناول طعامه، حمل طبقه الورقي عبر المطبخ وألقى به في الزبالة. «دعونا نبتهج»، قال لي ولدافس.

^{٢١} التروت trout: نوع من سمك المياه العذبة جسمه مُرَقَط بقشور صغيرة.

«مثل ماذا؟» سأله دافس.

تطلعتُ إلى أبي. اعتقدتُ أنه ربما يُريد أن يأخذنا إلى واجن ويل، هو وأُمنا أحيوا غالباً الذهاب إلى هناك في الليل لتناول البيرة، وكان الاثنان يجلسان على مقعدين عند بار عليه ألواح من خشب الصنوبر وأنا ودافس نضع قطع النيكل في صندوق موسيقي يواصل عزف «الرياح المعاكسة»^{٢٢} لأن أُمنا قالت إنها تحب هذه المقطوعة. أو ربما أراد أن يُخرجنا لنمارس التصويب على العلب الصفيح ببنادقنا الديزي بي بي، كما علّمنا في رحلة من رحلات نهاية الأسبوع في معسكر قبل ذلك ببضعة أشهر. اشترى لنا البنادق بمناسبة الكريسماس.

قال: «أظن أن علينا أن نتجه إلى مسارات السكة الحديد.»

أحببتُ السير إلى مسارات القطارات مع أبي. قال لي ولدافس أكثر من مرة إن المسارات تجعله يفكر في أبيه، الذي لا بُدَّ أنه مر بلمبر رن بضع مرات على الأقل، أو هكذا تخيل، على قطارات شحن الفحم.

ذهبتُ أنا ودافس لنتنعل أحذيتنا الخفيفة، ثم لحقنا بأبينا في الفناء الخلفي، حين كان ينتظر بكشافه. تبعناه عبر العشب المقطوع وصف صغير من الأشجار، باتجاه كوخ المراقب، حيث خزنت أطقم الطريق السريع الملح لطرق الشتاء، ولم تعد تلك القطارات تتوقف هناك.

«بهذوء»، قال ونحن نعبر تقاطع السكة الحديد. انحنى باتجاه المسارات، كما يفعل كلما ذهب بنا إلى هناك، متظاهراً بأنه يستمع إلى صوت قادم من بعيد لقطار من قطارات الشحن كان أبوه يركب فيها منذ زمن طويل.

سأل: «هل يمكن أن تسمعه؟»

اكتفينَا أنا ودافس بالوقوف في صمت نتفرج. لا شيء قادم. للحظة حاولتُ تخيل أبي كما كان بالضرورة وهو ولد يكبر في بايشوب، رغم صعوبة ذلك، لأنه لم يتكلم عن طفولته، باستثناء أنه قال إنه ذهب للعمل في العاشرة، ينظف عربات السكة الحديد، وفي الثانية عشرة حجز في مصحة شباب الولاية للسل. وذات مرة أخبرنا بأن أباه اعتاد أن يناديه وهو ولد صغير بكلمة «عسل».

^{٢٢} الرياح المعاكسة The Wayward Wind: أغنية غناها عدد من المطربين وحققت أعلى المبيعات في أمريكا وإنجلترا سنة ١٩٥٦م. قطع النيكل nickels: عملة معدنية في الولايات المتحدة، قيمة القطعة خمسة سنتات، مصنوعة من سبيكة من النيكل والنحاس.

خطا إلى قاع السكة الحديد، انزلق تقريباً على الحصى المشحم. تحركت أنا ودافس باتجاهه. لم أصدق ظلمة المكان، رغم أنني حين نظرتُ إلى أعلى رأيت الشعري اليمانية يتألق فوقى تماماً. «اسمه الشعري اليمانية»، أخبرتني أمي ذات يوم ونحن نجلس معاً في الفناء الخلفي لبيتنا في ليلة صيف قبل سنوات.

«هنا تذهبان»، قال أبونا حين مد يده في جيب بنطلونه. سحب قبضة عملات معدنية، أخرج منها قطع العملة. وضعتُ أنا ودافس قطع العملة على القضبان، بنساً بنساً، ونحن نعرف أننا حين نعود في صباح اليوم التالي، سنجدها مفلطحة متناثرة بين الأعشاب الطويلة بفعل قطارات الليل التي لن نراها أو نسمعها ونحن نيام.

في صباح اليوم التالي شاهدتُ رأس أبي منخفضة في المسار الضيق إلى خليج باين، وعصا صنارته وصندوق أدواته في يده، وسلته معلقة على كتفه، تضرب في ظهره وهو يمشي. كنتُ أجلس على السلم الأمامي أكل طعامي.

سأل وهو يغادر: «ألا تريد أن تأتي؟»

قلتُ له: «ليس الآن». قلتُ سأحاول الصيد فيما بعد، بعد تناول الطعام. رأيته يمشي مبتعداً حتى اختفى خلف قائم من الأعشاب المائية؛ حملتُ إنائي عائداً إلى المنزل. شعرتُ بارتياح لأنني لم أذهب معه إلى خليج باين، حيث يلقي عليّ مرة أخرى تعليمات عن أفضل طريقة لوضع الطُعم في صنارتي. أكره لمس الديدان بأجسامها المشحمة المرتجفة، وأنا أدفعها من إناء الطُعم، وأكره غرسها في الخطافات الشائكة، متأكداً من أنني وضعتُ كل دودة في الخطاف في موضعين على الأقل، بحيث لا تسقط سريعاً في المياه.

ساد البيت الصمت وأنا أدخله. غادره دافس مبكراً في ذلك الصباح؛ لم أعرف إلى أين ذهب. وكان ذلك رائئاً. أحب أن أكون وحيداً ولا أحد حولي يراني. في العام السابق كله، بدأتُ أدعي المرض أيام الدراسة لأبقى بمفردي في البيت. بمجرد أن يغادر أبي وأمي إلى العمل، أجلس ساعات على كنية الطابق السفلي، ببطء ألتهم كعك القهوة التي أصنعها لنفسني من البسكويك والسكر الأسمر والسمن حتى أشعر أنني تحللتُ في النهاية — بلا اسم، مخدر، بلا قيود — في الصخب والضحك التافه في ألعاب استعراضية أشاهدها في التليفزيون.

لكن آنذاك كان على القيام بشيء مهم. ذهبْتُ إلى غرفتي وتناولتُ دفتر اليوميات من درج خبأته فيه الليلة السابقة. كنتُ سعيداً لأنه بدا أفضل كثيراً في ضوء النهار؛ حتى فتاة الغلاف بدت أكثر تألقاً وابتهاجاً. حملتهُ إلى أريكة الرواق الأمامي مع قلم رصاص وجدته في درج المطبخ. تصورتُ أنه إذا رآه أحد فسأدسه بسرعة تحت وسادة.

وحين جلستُ وفتحتُ دفتر اليوميات — كنتُ على استعداد لكتابة موضوعي الأول — صدمني خواء صفحاته البيضاء المسطرة. ماذا يفترض أن أكتب فيه؟ الشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه هو الغياب الغريب المؤلم لأمي، وكيف جلستُ في الصيف السابق بجوارها على الأريكة نفسها، نقرأ الكتاب المكثف «خلاصة القارئ» وقد وجدته في العلية، وهي تقلب أعداداً قديمة من مجلات الموضة، وتتوقف أحياناً لتعلق على زوج من الأحذية أو فستان شبه رسمي كانت معجبة به إعجاباً خاصاً. وكان ذلك موضوعاً لا أستطيع وضعه في دفتر يومياتي. ماذا في ذلك؟ موضوع غبي ... حالة منتهية.

فكرت في أنني ربما لو تناولت بعض الطعام فقد أشعر بسكينة. دخلتُ لآتي بقطعة خبز من رغيف رأيته على طاولة المطبخ. أكلتُ الخبز بسرعة وأنا أقف هناك؛ ثم أكلتُ شريحة أخرى، وأخرى، ثم شريحة أخرى. رأيتُ أنني أكلتُ كثيراً من الخبز وقلقتُ لأن أبي قد ينزعج لأنني أكلتُ كثيراً، لكن ذلك لم يجعلني أتوقف ... وضعتُ شريحة على الطاولة وأخذتُ ألفها حتى تحولت إلى عجين من جديد، ثم أكلتها أيضاً لأنها كانت أحلى بهذا الشكل، أقرب إلى الحلوى.

بمرور الوقت عدتُ إلى أريكة الرواق وشعرتُ بتبلد. قلتُ لنفسني يجب أن أتمدّد، لأنني شعرتُ بإرهاق شديد إلى درجة لا أستطيع معها أن أكتب، حتى لو شعرتُ بشيء صعب وملح يتصارع في أعماقي، ويقول لي إنه ينبغي عليّ أن أدوّن على الأقل شيئاً على الورق، حتى لو كان شيئاً ابتدعته حيث إنني لستُ متأكّداً من قدرتي على التفكير في شيء حقيقي يمكن قوله. فتحتُ الدفتر لأحاول مرة أخرى، وشعرتُ أنني أسوأ بمجرد الإمساك به. ربما رميتُ نقودي بشرائه. ربما ارتكبتُ خطأ شنيعاً. ماذا إذا احتجتُ النقود لشيء آخر؟

عند ذلك سمعتُ دافس يعود إلى المنزل من الباب الخلفي، يضحك ويتحدث مع شخص لم أتعرف صوته. دسستُ دفتر اليوميات تحت إحدى وسائد الأريكة بصعوبة ودخلتُ إلى المنزل.

«بابا ينتظرك»، قال دافس حين دخلتُ المطبخ حيث يقف مع صديقه فرانك، ولد من أهل المكان قابله أثناء صيد السمك في الصيف السابق. بعد اللقاء الأول بينهما كانا يخرجان للتنزه عصر كل يوم تقريباً، وكميات كبيرة من الطعام مربوطة في أحزمة عسكرية متبقية لديهما، وأذهب إلى المزارات الريفية في السيارة مع أمي، التي تحاول أن تضيف إلى مجموعتهما من الزجاج المقطوع.

أدركتُ أن فرانك لم يكن يحبني كثيراً، أو ربما كان مجرد ولد خجول، كما سمعتُ ذات مرة دافس يخبر أبانا. على أية حال، لم يكد فرانك ينظر في اتجاهي ودافس يحكي لي

عن الصباح الذي قضياها معاً، كيف ذهبا إلى القصبان لجمع قطع العملة المفلطحة كما خططنا أن نفعل أنا وهو، وكيف ذهبا إلى بقايا ورشة النشارة القديمة ببنادق البي البي ليصوبا على حيات سوداء^{٢٣} قال أخو فرانك إنها توجد هناك. وكانا يُعِدَّان حقيبة الغداء، كما قال دافس، ليذهبا إلى أبينا.

«أراك على خير»، همهم فرانك في اتجاهي وهما يغادران المكان.
كنتُ وحدي من جديد، ولم أكن متأكداً مما أفعله مع نفسي. لا أريد العودة إلى دفتر يومياتي. لا أرغب في قراءة كتاب. وليس في المنزل شيء طيب للأكل سوى رغيف، أكلتُ منه كثيراً بالفعل. أسفتُ لحظة لأنهما لم يطلببا مني الذهاب معهما.
وحينذاك قرَّرت أن أتبعهما في الطريق المتجه إلى خليج باين. في البداية لم أسمعهما أمامي ولا حتى حين توقفت في أول منطقة منزوعة الأشجار وسط الأعشاب المائية، حيث يتخلص الناس أحياناً من إطاراتهم القديمة. وحين وصلتُ إلى المنطقة الثانية منزوعة الأشجار — ولاحظتُ أن شخصاً ترك سيارته القديمة فيها، عربة مُحطَّمة عتباتها صدئة تقريباً — سمعتهما يضحكان. خطوت إلى الأعشاب المائية. ورأيتهما يجلسان متجاورين على حافة خليج باين يتبادلان الحديث وهما يخلعان حذاءيهما وجواربهما ويطويان أرجل البنطلونين الجينز الأزرق. سارا في الماء — لا يبدو أن برودته صدمتهما — وبدأ يخوضان باتجاه صخرة يجلس أبي عليها ليصطاد.

ثم رأيتُ دافس وقد بدأ ينزل على القاع الحجري الطحلي للخليج، رأيتُ دوامات صغيرة من الماء الأبيض تضرب عند كاحليه، ونظرة هلع تبرز على وجهه. تساءلتُ إن كان فرانك يرى الهلع أيضاً.

فكرتُ لحظة أن أنادي لأحذر أخي، فجأة متذكراً المرات التي لعبنا فيها هذه اللعبة معاً، مشيدين سدوداً صغيرة من أفرع الأشجار والغصون الصغيرة ونعود فيما بعد لندمرها.

لكنني ظللتُ صامتاً.

انزلق دافس؛ أمسك به فرانك. ضحك فرانك ورشَّه دافس بالماء. ثم بدأ يخوضان باتجاه أبينا، يمسك دافس كيس الغداء على رأسه بالطريقة التي يحمل بها الجندي بندقيته في المياه العميقة.

^{٢٣} الحيات السوداء blacksnares: نوع من الثعابين غير السامة غالباً، توجد في أمريكا الشمالية.

ابتعدتُ عن حافة الأعشاب المائية. وحين خرجتُ إلى الفضاء رأيتُ أبي يشاهدني. لَوْح. لوحٌ، يدي نشطة فقد أثار البعوض تيارًا هوائيًا مفاجئًا من بين الأعشاب المائية. ولم أذهب أبعد. لم أعرف إن كنتُ أَلَوْحُ بيدي محيياً أم مودِّعًا. ماذا يمكن أن أكتب عن أبي في دفتر يومياتي، هل أستطيع كتابة أي شيء؟ شعرتُ بالخوف حين أطلال النظر إليَّ أو تمنع في؟ أم أن الأشياء التي كان يحذرني باستمرار من التوقف عن عملها مثل تقطيع دُمى الويني وينكل^{٢٤} من رسوم الأحد الهزلية أو تصميم ملابس رقص مُتَقَنَّة لنجوم السينما المفضلين عندي، كانت في الحقيقة الأشياء ذاتها التي أتت أكثر طبيعية، غير مطلوبة، من يدي؟ إذا أزعجتُك يُمنالك فاقطعها. أو ربما كنتُ سأكتب ببساطة أنني أحبه وأفتقده وأني أردتُ أن يناديني بـ «عسل» أيضًا كما كان أبوه يناديه. على أية حال، لم أستطع كتابة كلمة. ولا كلمة واحدة طوال الوقت.

كل صباح على مدى الأيام الثلاثة التالية، بمجرد أن أكون وحدي في المنزل، أعود إلى موضعي على أريكة الرواق، وقلمي الرصاص في وضع استعداد ودفتر يومياتي مفتوح في ججري، في انتظار كلمات ترتطم به. خطر لي ذات يوم أنني أستطيع توجيه اليوميات كُلِّها لأمي، وأجعلها رقمًا قياسيًا في كل ما قمتُ به منذ رأيتها آخر مرة، رغم أنني أعرف من قلبي أنني لم أفعل شيئًا جديرًا بالكتابة. في مرة أخرى، قررتُ ادخار دفتر اليوميات لأستخدمه فيما بعد، بعد أن أبدأ ما أتمنى أن يصبح يومًا حياتي الحقيقية، حياة مثل التي وصفتها أُمِّي نفسها حين استقلتُ ذات يوم التاكسي إلى ملهى استورك لتناول كوكتيل قبل أن تتناول عشاءً أخيرًا في لوتشو أو توتس شور.^{٢٥}

لكن في معظم الأوقات كنتُ أجلس حتى ينتابني شعور شديد بالوحدة لا أحمله. ثم أتجول إلى المخزن العام لأشتري عرق سوس أحمر وقطْعًا من البسكويت، وأنا أعدُّ قطع العملة التي معي وأعيد عدها، قلقًا من أن تنفد مدخراتي بسرعة كبيرة؛ أو أمشي إلى قضبان السكة الحديد عبر المنصة الخشبية القديمة، مُحَدِّقًا في أعماق أستطيع رؤيتها من خلال فجوات التقاطعات. حملتُ الدفتر معي، وقد طويته في نطاق البنطلون وغطيته بقميص المعسكرات الذي أردتبه. لكن الدفتر يُغيظني أحيانًا وأنا أمشي، وحين يحدث ذلك تسيطر عليَّ رغبة مفاجئة في إلقاءه على القضبان، رغم أنها الرغبة تملؤني على الفور

^{٢٤} الويني وينكل Winnie Winkle: سلسلة رسوم هزلية أمريكية (١٩٢٠-١٩٩٦م).

^{٢٥} لوتشو Luchow's، توتس شور Toots Shor's: مطعمان في نيويورك.

بالشعور بالخزي، وكأنني ضببْتُ نفسي أريد قتل شيء صغير لا حول له ولا قوة. ذات مرة وأنا عائد إلى البيت من تمشية جريئة إلى مسز بورفيس، أرملة قابلتها أنا وأمي في مزاد علني في الصيف السابق. دعّنتني إلى منزلها حيث جلسنا في الرواق، نشرب شايًا بالسكر وتفرجني على سجل قديم ممتلئ بصور لها ولزوجها الراحل. حين وقفتُ لأنصرف قررتُ أن أفزجها على دفتر اليوميات، لكنني أخبرتها بأنني وجدته للتو على قارعة الطريق. قالتُ وهي تتفحصه: «لا أعرف، يبدو جديدًا وفخمًا».

وبالنسبة لأبي: عرفتُ أنه منزعج مني. في كل أصيل حين يعود إلى البيت من الصيد، يأتي إلى غرفتي ويقف في المدخل، كأن هناك ما يود قوله. لكنني أوصل القراءة، ممددًا على سريري، وبطانية من الصوف الخشن مطوية بإحكام تحت إبطي كما علّمني. وبعد أن يستدير وينصرف أغلق الكتاب وأستمع له وهو يعبر المطبخ إلى الحوض. كنتُ أسمعه يفتح الحنفية وأسمع المياه تندفع وهو يبدأ تقطيع التروت الذي اصطاده في ذلك اليوم وتنظيفه.

وانتابه الغضب في عصر اليوم الرابع.

حين عدتُ إلى البيت من تمشية عند قضبان السكة الحديد وجدته في الفناء الخلفي يروي العُشب بخرطوم الحديقة، كما يفعل أحيانًا، ليعود بعد ذلك ويفتش عن الزواحف الليلية التي تظهر والتربة مُبللة.

قال بمجرد أن رأيته: «أخبرني بما يحدث».

«ماذا تعني؟» سألتُ منزعجًا من أن يكون قد وجد دفتر اليوميات بطريقة ما، حتى رغم شعوري بثقة أنه كان معي، مطويًا في نطاق بنطلوني. وكان عليّ أن أقاوم الرغبة الملحة في أن ألمسه لأطمئن نفسي.

قال وهو ينظر إليّ مباشرة: «لم تأتِ لتصطاد كما طلبتُ منك».

قلتُ له: «لكنني ذاهب».

قال: «بالتأكيد، متى؟»

«سوف أذهب».

قال: «هذا ما تقوله».

كنتُ أقف فقط، أُبدّل بين قدميّ. لو كان مثل أمي فربما صرفتُ انتباهه بأن أطلب منه أن يحكي لي قصصًا عن نفسه، لكن ذلك لا يُجدي معه نفعًا.

فيما بعد، على العشاء، بدأ دافس الحديث عن معسكر قوافل الرعاية المدنية المهجور الذي مرَّ به وهو يندفع على أثر حريق مع فرانك؛ رأيا بقايا بضع ثكنات وشجرة تنمو

خلال ما اعتقدنا أنه كان ذات يوم أرضية قاعة الميس. قال أبي على البلاد كلها أن تظل تفكر في روزفلت من أجل قوافل الرعاية المدنية والصفقة الجديدة؛^{٢٦} لأنه بدون ذلك ما استطاع أحد الحصول حتى على دولار شريف مقابل يوم عمل شريف.

بمجرد انتهائي من تناول الطعام استأذنتُ. لم أتوقف عن التفكير في الدفتر. حتى رغم أنني أعرف أنني أعدته إلى الدرج في الثانية التي عدتُ فيها إلى المنزل، أريد التأكد من أنه هناك، بالطريقة نفسها التي كان على أمي أحياناً أن تلف بها بالسيارة وتعود إلى البيت، قلقة من أن تكون تركتُ سيجارة مشتعلة وقد وقعتُ على السجادة.

لكنني كنتُ متوتراً أيضاً بشأن العودة إلى غرفتي لأنني لا أرغب في القيام بشيء قد يلفت الانتباه إليّ. وهكذا خرجتُ لأصطاد يراعات كالاعتاد.^{٢٧} بعد دقائق خرج دافس من باب المطبخ واستقر في مقعد تحت نور الرواق الخلفي يتطلع إلى نسخة من «حياة الولد» أخذها من فرانك. كان هو وفرانك يحبان قراءة «حياة الولد» معاً، مسحورين بقصص الفتيان الذين أثبتوا أنهم يتمتعون بسرعة بديهة وسط الكوارث، يقطعون مكان ثقب لدغة ثعبان في ذراع طفل لشفط السم أو يشكلون سلسلة بشرية لإنقاذ متزلج سقط خلال طبقة رقيقة من الثلج.

كنتُ أحب صيد اليراعات؛ أحب جمعها في برطمانات بأغطية أزودها بثقوب لدخول الهواء. في الليل تصنع البرطمانات مجرّات صغيرة مُشعة قد تموت في الصباح.

ذهبتُ إلى شجيرات زهر العسل في الفناء الجانبي، حيث ترفرف اليراعات بين الزهور البيضاء والصفراء العطرة؛ مددتُ يدي وانتزعتُ واحدة تحوم وتومض في الجو. ثم تذكرتُ حيلة أخبرتني بها فتاة في المدرسة. قالت إذا أخرجتُ بطن اليراعة وألصقتها بإصبعك فيمكنك أن تصنع منها دبلة، لأن اليراعة حين تموت يستمر بطنها يومض.

لم أكن متأكداً من قدرتي على القيام بذلك، لكنني أوليته كل انتباهي، في البداية نزع الأجنحة من جسد اليراعة ثم وضعتُ بطنها، لا يزال يومض، في بنصري الأيسر. وحين نظرتُ بطرف عيني أدركتُ أن البطن المتألق لليراعة يبدو تقريباً مثل سوليتير أصفر من الماس ورثته أمي بعد موت أمها. تساءلتُ: لكن من يرث السوليتير بعد موت أمي؟ لا يمكن أن يذهب إلى ولد أبداً.

^{٢٦} الصفقة الجديدة New Deal: برامج وضعها الرئيس روزفلت لإنعاش الاقتصاد الأمريكي.

^{٢٧} يراعات lightning bugs: حشرات ليلية في آخر بطنها مادة كيميائية برّاقة تشع وميضاً.

تطلعتُ ورأيتُ دافس لا يزال يقرأ تحت ضوء الرواق. سرتُ عبر الفناء باتجاهه
محتفظًا بيدي اليمنى ثابتة قدر المستطاع.
«انظر»، قلتُ وأنا أفُرجه على ما صنعتُ.

رفع عينيه عن مجلته لبرهة وحدّق في إصبعي. قال: «ذلك غباء.»
قلتُ: «لا. إنه جميل.»

ثم سمعتُ باب الحاجز يُغلق بقوة وحين تطلعتُ، رأيتُ أبي يخرج من المطبخ إلى
الرواق. بسرعة أدّرتُ يدي، وسقط بطن اليراعة في العشب. للحظة رأيتُهُ ينطفئ مثل وهج
عُقبِ سيجارة.

سأل أبي: «ماذا تفعل؟»

«أقدم لليراعات شيئًا تأكله»، قلتُ له. لأثبت له، انحنيتُ وانتزعتُ حفنة من العشب
لأضعها في أحد البرطمانات.

قال: «اعتقدتُ أيها الأولاد أنكم تحكون قصص أشباح. ذلك ما اعتدتُ أن أفعله أنا
وأخي بعد حلول الظلام. هل سمعتم في أي وقت «كفّ القرد»؟ أحببنا «كفّ القرد» دائمًا.»
قلتُ له: «رأيناه في التلفزيون.»

قال: «أوه.» ثم تقدم من الرواق إلى الظلام. قال لنا: «أريد منكم أيها الأولاد أن
تساعدوني في البحث عن زواحف الليل.»

طلب من دافس الذهاب إلى الرواق الأمامي ليأتي بكشافات وعلبة قهوة مليئة
بالبقاذورات يحتفظ فيها بالطعم الحي. حين انصرف دافس، التفتُ إليّ، وقال: «ربما
لا تهتم بالمساعدة في هذا، حيث لا يبدو أنك تجد رغبة في نفسك لتأتي وتصطاد السمك،
أقصد.»

«أريد أن أساعد»، أخبرته، رغم أن ذلك لم يكن صحيحًا. أكره البحث عن زواحف
الليل. أكره أن أضعها في قبضتي، رطبة وملساء، أول ما تظهر من الأرض، وأكره الطريقة
التي تُمزقُ بها إربًا إذا تعصبتُ واندفعتُ إليها بقوة شديدة أو بسرعة كبيرة.

عاد دافس من جانب المنزل حاملًا علبة الطعم وكشافين، يضعها في جيوب بنطلونه.
وأضاء كشافًا ثالثًا كان يضعه تحت ذقنه وهو يمشي، بحيث بدا وجهه المضاء هزيلًا يشبه
وجه الشبح. «أوووه»، يئن مثل شبح وهو يأتي باتجاهنا: «حصلتُ على ثلاث أُمْنِيات في
كفّ القرد...»

قال أبي: «حسنًا، كفى. لنعمل.»

اللحظة وقفتُ بلا حراك، كأن كلمات دافس أَلقت بروعة جعلتني ساكنًا. أعرف أمنيّتي إذا مُنحتُ لي أمنية واحدة: من فضلك أريد أن أبدو، حتى ولو لهذه الساعة، ابن أبي. عرفتُ أن الوقت أزف. عرفتُ أن عليّ أن أرجوه.

وسمعتُ صوتي يتحدث، صوتًا مكتومًا، كأنه يأتي من بعيد. «سأبحث في السباح.» رأيتُ دهشة أبي مما قلتُ قدر دهشتي بالضبط. يعرف أنني أخاف من كوم السباح. كان في أكثر أجزاء الفناء عتمةً وُجُءًا، قرب مجموعة أشجار تفصل منزلنا عن موقف الواجن ويل. قال دافس وفرانك لي ذات يوم إن الفئران تذهب لتأكل هناك وقد جذبتها نتانة التحلل؛ وقالوا إن الثعابين السمراء تحب أن تعشش هناك بحثًا عن الدفء المنبعث من التحلل. لكن الزواحف الليلية أيضًا توجد هناك بكثرة. أعرف ذلك.

سأل أبي: «هل أنت متأكد؟»

قال دافس مشتكيًا: «ليس عدلًا. قال أبي إنه يريد أن نعمل هذا معًا.»

قلتُ لأبي: «نعم أنا متأكد.»

قال: «حسنًا.»

أعطاني كشافًا وبدأتُ أبتعد.

قال: «انتظر.» خلع كاب الصيد، الكاب الذي أضاف إليه السنة بخياطة اليد، ووضعه

على رأسي. قال لي: «امشِ بهدوء. فتح عينك.»

عبرتُ الفناء وأنا أمشي بهدوء. فتَّحتُ عيني.

حين وصلتُ إلى السباح تجاوزتُ سياجًا سلكيًا يحيط به، وغطستُ قدمي حتى الكاحلين في أرضية طرية. وجَّهتُ ضوء الكشاف ذهابًا وجيئةً عبر السطح. أينما سقط الضوء رأيتُ حركات صغيرة فجائية: عنكبوتًا من عناكب الخشب يكافح في زلال لزج يصقل قشرة بيضة؛ ديدانًا شاحبة تلتهم أوراقًا رطبة. ثم سمعتُ موسيقى، صوتًا واهيًا لأغنية تعزف في صندوق الموسيقى في الواجن ويل. الصعب ألا أفكر في أمي، ألا أتخيلها تجلس على البار بثوب صيفي أبيض تأكل إسباكتي وتمسك كأسًا من البيرة محلقة. «أقدم زوجتي الجميلة»، يقول أبي دائمًا حين يقدمها لأصدقائه صيادي السمك: «أقدم زوجتي، ماريا الجميلة.»

تطلعتُ، على الناحية الأخرى من الفناء، أبي يمسك بكشاف لينير لدافس، وكان يجثو في محيط واسع من شعاعه. ينزل دافس يده باتجاه الأرض ويجذب أحد الزواحف الليلية.

أردتُ أن يراني أبي. جثوت في السباخ ومددت يدي لأجد فجأة زواحف ليلية كثيرة تظهر في وقت واحد من جحورها الهوائية، كأن خروجها استجابة لأمر واحد. وأنا على وشك أن ألس واحدًا، مستعدًا لالتقاطه من جحره، سقط شيء ما باتجاهي فجأة — ورقة شجرة؟ — سقطت على كتفي.

التفتُ لأتطلع: ضربتُ أجنحته وجهي. التصق، مهما يكن، بنسيج قميصي، محاولاً أن يخلّص نفسه. انتفضتُ ونهضتُ برهة لأراه مرة أخرى على ياقتي. شعرتُ بعنف حركاته وهله على حلقي يضرب ويضرب.

صرختُ: «ابعد عني!»

أتى أبي يجري وشعاع كشافه يلف بجنون في الظلام، كما في حالات الطوارئ.

توسلتُ إليه: «أبعده عني. أبعده!»

وجّه الكشاف على ياقتي، حيث يكافح الكائن، وأجنحته الخضراء الشاحبة تضرب بعنف.

من خلال أشعة الكشاف رأيتُ أبي يتفحصني؛ رأيتُ كيف أبدو في عينيه.

قال: «عثة القمر.» مد يده إلى ياقتي والتقطها بأطراف أصابعه. فجأة بدت صغيرة وتافهة. ارتفعت وطارت مبتعدة.

قال: «ظننتُ أن ثعباناً لدغك.»

قلتُ: «وأنا أيضًا. هذا ما اعتقدته أيضًا.» عرفنا نحن الاثنين أنني أكذب.

همهم: «ادخل.»

أطفأتُ كشافي وسرتُ عائداً عبر الفناء. وأنا أمرُّ بدافس، همسَ بشكل درامي: «أووووه، إنها لعنة كف القرد.»

لم أرد بكلمة. حين وصلتُ إلى الرواق لم ألتفت لأتطلع إلى أبي.

فتحتُ ببساطة الباب الخلفي ودخلتُ المطبخ، أجفلتُ من السطوع المفاجئ لنور السقف. حين تكيفت عيناى رأيتَه. رأيتَه هناك على طاولة المطبخ. دفتر يومياتي. وجده شخص ما وأخذه من خزانتي، وكان يستلقي هناك، يستلقي هناك ليس إلا، في الهواء الطلق، بجوار زجاجات الملح والفلفل.

في تلك الليلة، لم أظهر أن الدفتر يخصني بإعادته إلى غرفتي؛ لم أرغب حتى في لمسه. نهبْتُ إلى السرير مباشرة وبقيتُ حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، حين سمعتُ أبي

يبتعد بالعربة متجهاً إلى سليت رن،^{٢٨} حيث كان يخطط لمحاولة أن يجرب يده في الصيد بالذباب^{٢٩} مع بعض الرجال الذين قابلهم في الواجن ويل.

حين ذهبْتُ لتناول فطوري كان دفتر اليوميات لا يزال وسط الطاولة. جلستُ هناك فقط أتطلع إليه وأنا أتناول طعامي، متخيلاً الأشياء التي قد أدونها حين أذهب إلى نيويورك مع أمي. ربما نتناول العشاء في مطعم مايكل، المطعم الذي تفضله أمي في بارك سلوب، أو ربما نذهب مبكراً لمشاهدة فيلم في سينما ريالتو. ربما أسعد ببساطة بالجلوس في غرفة فيكتورية كانت جدتي تسميها «مخدعها»، متذكراً الوقت الذي تدعوني فيه لتطرح عليَّ أسئلة لاختبار الشخصية أعدتها على أوراق قانونية خصوصاً من أجلي. سألتني: «من تفضل، جين منسفيلد أم مارلين مونرو؟ من تعتبرها الممثلة الفضلى بيت دافس أم جريتا جاربو؟^{٣٠} ماذا تفضل، قطعة الهيرشي^{٣١} السادة أم الهيرشي باللوز؟»

جلستُ إلى طاولة المطبخ معظم وقت الصباح، كما لو كنتُ أودعُ الدفتر. ولم أستطع الجلوس هناك إلى ما لا نهاية. هناك ما أفعله، شيء تخيلته في الليلة السابقة وأنا أستلقي يقظاً في غرفتي.

انتظرتُ حتى انتهيتُ من تناول الغداء. ثم كدّست أطباقي في الحوض وذهبتُ إلى غرفة التخزين حيث يضع أبي بنادقنا الديرزي بي بي بعيداً عن متناول أيدينا مباشرة. أخذتُ بندقيتي وحملتُها إلى أريكة في الرواق الأمامي. وبدأتُ تنظيفها، بالضبط كما علّمني أبي، في البداية بقطعة تنظيف ببضع قطرات من الزيت الثقيل، ثم غرس القطعة مباشرة في الفوهة على الماسورة الطويلة لتنظيف الفتحة. حين قمتُ بذلك، فتحتُ أسطوانة صغيرة من الورق من طلاقات بي بي وسكبتها في كفي؛ وضعتُ الطلاقات ببطء في أنبوبة التعمير الضيقة المثبتة في قاعدة ماسورة البندقية.

حملتُ البندقية المشحونة إلى الممر باتجاه خليج باين، بعد المنطقة الأولى منزوعة الأشجار وخلال الأعشاب المائية. عند المنطقة الثانية منزوعة الأشجار توقفتُ. دفعتُ بقوة على رافعة التصويب ورفعتُ البندقية في وضع مستقيم، مصوباً على العربة القديمة الخربة.

^{٢٨} سليت رن Slate Run: مكان لصيد السمك في بنسلفانيا.

^{٢٩} الصيد بالذباب fly-fishing: فن صيد السمك بالصنارة باستخدام طُعم في شكل ذباب اصطناعي.

^{٣٠} جين منسفيلد Mansfield (١٩٣٣-١٩٦٧م). مارلين مونرو Monroe (١٩٢٦-١٩٦٢م). بيت دافس Davis (١٩٠٨-١٩٨٩م). جريتا جاربو Garbo (١٩٠٥-١٩٩٠م): ممثلات أمريكيات.

^{٣١} الهيرشي hershey: نوع من الشيكولاتة.

أطلقت النار. أصابت الطلقة الأولى الزجاج الأمامي للعربة. ضغطت الزناد مرة أخرى وأصابت الطلقة الثانية الزجاج، وحين رأيت أن هدفي كان صائبًا ورائعًا، شددت الزناد مرة بعد أخرى، حتى تحطم الزجاج الأمامي إلى شبكة فضية وتهشم نائراً أجزاء صغيرة من الزجاج على لوحة العدادات. أحببت الطريقة التي بدا عليها. سرت ناحية باب القيادة وأطلقت الرصاص على النوافذ أيضاً، ثم أطلقت الرصاص على اللوح الجانبي حتى تشقق وتحطم، وسرت إلى الجانب الآخر وكررت كل ما قمت به من جديد. في النهاية، صوبت على حلية مُجنحة على الكبوت الصديء. لكن لم أصبها تماماً.

ركنت البندقية وعدت إلى المنزل بيدين خاويتين. بمجرد وصولي إليه تناولت الدفتر من فوق طاولة المطبخ وعدت به إلى المنطقة منزوعة الأشجار. فتحت أحد أبواب العربة ووضعت في المقعد الأمامي، ثم تراجعته حتى وضعت فتاة الغلاف في مرمى البندقية. أطلقت النار عليها أيضاً مرة بعد أخرى حتى انطمس دفتر اليوميات وانفصل الغلاف البلاستيك عن الدعامة الكرتون، وتمزقت الصفحات البيضاء.

فيما بعد، تناولت العشاء مع دافس. سخناً علماً أخرى من الرفيولي حيث نبهنا أبونا إلى أنه سيأتي متأخراً، سيتوقف في الواجن ويل لتناول البيرة مع رفاقه. بعد العشاء، ذهبت إلى الغرفة الأمامية لأنتظر على الكنبه البالية. كنت شغوفاً بأن أحكي لأبي كيف مارسْتُ مهارة التصوير كما شجعني.

سمعت في الرواق قبل أن يدخل. من الطريقة التي قبض بها على باب الحاجز عرفت أنه غضبان. «أين أنت؟» نادى وهو يدخل المنزل. نادى باسمي.

انتابني الهلع. كانت الغرفة مظلمة، والوقت متأخراً. قلت أخيراً: «أنا هنا.» فجأة كان أبي يقف في المدخل. «ماذا بحق الجحيم اعتقدت أنك تفعل؟» ألح. «ماذا بحق الجحيم جعلك تعتقد أنك تستطيع تدمير شيء ليس ملكك؟»

كنت أعرف ما كنت أعتقد أنني أفعله: كنت أحاول أن أرضيه. حتى الآن، وأنا أتطلع للماضي، أعتقد ذلك بصدق. لكن ماذا يمكن قوله حينذاك؟ كنت أمل أن أتحوّل إلى ابن قد يحظى بحبه؟

زاد صمتي من غضبه. جأ: «العربة اللعينة ليست ملكك!» قال إن العربة ملك شخص من عمّال الحانة في الواجن ويل. ليست عربة خردة. كانت تسير بشكل رائع. قال إنه كان يتناول البيرة ويعالج مهامه اللعينة حين جاء رجل لم يره من قبل وأخبره بما فعلت، كيف كنت عند الخليج أطلق الرصاص على العربة حتى دمرتها. سأل: «وبحق الجحيم بم ترد؟»

رأيت أنه يحاول أن يهدأ حتى رغم احتياجه. استمعتُ فقط إلى صراخه. بعد برهة، أنهك نفسه ووقف في النهاية صامتًا. حتى ذلك الوقت لم يكن قد لاحظ أن الغرفة التي يقف فيها مظلمة. مد يده وأشعل لمبة الطاولة.

سأل: «هل هناك ما يمكن أن تقوله لنفسك؟»

قلتُ: «لا.»

قال: «أريد منك أن تذهب مباشرة إلى السرير. وسأذهب وأفحص بنفسي.»
عرفتُ ما كان يقصده: كل ليلة في لمبر رن قبل أن نذهب أنا ودافس للنوم، نقف أمامه ليتفحص جسمينا بحثًا عن حشرات قد لا نلاحظها نحن.

كان يفك غطاء لمبة الطاولة بجوار الكنبه ويحني رأسي في قوس النور، ويفرق شعري بأصابعه ويتفحص فروة رأسي.

قال: «قف.»

وقفتُ. بدأتُ أخلع ملابسي كما أفعل كل ليلة: في البداية حذائي وجوربي، ثم بنطلوني، ثم قميصي، إلى أن أقف عاريًا. رفع لمبة الطاولة وحركها إلى الخلف وإلى الأمام عبر جسمي متفحصًا الصدر والظهر والساقين والفخذين. شعرتُ بأنني على ما يرام وكأن ليس هناك شيء يتعلق بي لم يكن مرئيًا له. شعرتُ بحرارة المصباح على جلدي.
فكرتُ: أكرهك. أكرهك، أكرهك.

بالرجوع إلى الوراء، لستُ متأكدًا من كنتُ أكره أكثر حينذاك، وأنا أقف هناك؛ أبي أم أمي أم نفسي. في تلك الليلة لم أعرف أن أبي سيموت فجأة بعد وقت قصير من فشل في الكبد، أو أن دافس سيوضح لي أنه لم يكن هو بل مسز بورفيس التي أخبرت أبي أنها رأت دفتر اليوميات معي، أو أبدأ حتى بشق الأنفس ما يصبح أسرار حياتي.

عرفتُ فقط حرارة اللمبة وهي تمر على جسدي العاري. فكرتُ: أكرهك. أكرهك، أكرهك. لم يعد لديّ دفتر يوميات. لكن للمرة الأولى شعرتُ وكأنني أحتاج دفترًا بالفعل، احتياجًا حادًا وغير مألوف في الوقت ذاته. لم أكن أحتاج أن أتكلم إلى أمي في غيابها؛ لم يكن الأمر أنني أردتُ فعل شيء. للمرة الأولى، أردتُ أن أدون شيئًا، شيئًا حقيقيًا، حتى لو لم تكن لديّ فكرة عن الكلمات التي أستخدمها ذات يوم في القيام بذلك.

رفاق الحرب

تأليف: جوان سيلبر^١

أحببتُ دائماً الخسارة في المشاريع؛ أحببتُ تحمّل مسؤولية عملي. كنتُ ابناً لأب يعمل في البحرية، في طفولتي انتقلتُ من موقع إلى موقع، واعتدتُ الانشغال بدون صحبة، بدرجة مدهشة من القناعة. كان إرنست الشخص الوحيد الذي قابلته في حياتي وكان أفضل مني في ذلك؛ كنتُ هاوي وحدة مقارنةً به.

ربما أصبحتُ أكثر شبهاً بإرنست. كانت حياتي فاتنة وأنا أجتهد لأكون مثله. أُعجبتُ به، وكان لأسباب كثيرة شخصاً يثير الإعجاب. بعد أن استقر بي المقام في بانكوك، اعتدتُ الكتابة إلى إرنست كل عام في الكريسماس. كتبتُ إليه ملخصات عما أفعله في العمل، ما يشغل زوجتي وأطفالي. لم يكتب إرنست قط إليّ، لم يكتب قط إلى أحد. لماذا يثرثر على الورق من بعد آلاف الأميال شخص نادراً ما يتكلم؟ من الصعب أن أتخيّله يفعل شيئاً من هذا القبيل، لكنني أردتُ ذلك حتى لو عرفتُ الأفضل.

كنا في العشرينيات من العمر حين التقينا أول مرة. كانت بايدكس أول مكان أعمل فيه بعد تخرّجي مباشرة في مدرسة الهندسة، بدأ إرنست قبلي بوضع سنوات. قال الفتى الذي استخدمني إنه سيضعني في مشروع مع الشركة، عبقرى بالنسبة لشخص غير اجتماعي،

^١ جوان سيلبر Joan Silber: كاتبة أمريكية تعيش في مدينة نيويورك. والعنوان الأصلي للقصة War Buddies.

هل وافقت؟ حين دخلتُ مكتبنا المشترك، رفع إرنست حاجبه وأوماً وبدا أنه ينظر من فوق كتفه. هزَّ يديه وعاد إلى ما كان يكتبه، وكانت نهاية اللقاء الأول بيننا.

لكنه كان يعيش العمل. بمجرد أن قِيمَني، أخذني عبر القاعة لأقابل الفني الذي يصمم الإلكترونيات لجهاز قياس الأبعاد بالليزر، جهاز يقيس المسافة من الطائرة إلى الأرض لقذف القنابل بدقة. اعتقد أنني لن أرى إلا جماله، وقد رأيتُ.

كل من في الشركة متزوجون تقريباً باستثناءنا. كنا في أواخر الستينيات، في قاعدة أمامية هادئة في تلك الفترة، في فينيكس،^٢ وكانت بلدة مُعَبَّرة وسط المجهول. لم نعرف أنا وإرنست ماذا نفعل معاً. لعبنا بنج بونج في الأدوار السفلى المؤتثة عند أصدقائنا المتزوجين، لعبنا بنبول في نزل على الطريق السريع، قطعنا أميالاً بالسيارة وليس معنا سوى السكون وبوبي درين^٣ في الراديو، ذهبنا إلى ساحة للرماية وقتلنا نماذج على شكل البط. لم يكن في مشروعنا نساء يعملن — كنا نقوم باختبارات ابتكار أنظمة إرشاد في طائرة حربية — أو في أي مكان خارج غرف السكرتارية. كنتُ أشعر بوحدة شديدة فكنتُ أتصل في الظهيرة تليفونياً بصديقتي في المدرسة الثانوية، وكان لديها زوج وطفل.

استدعيت أنا وإرنست ذات يوم إلى مكتب داخلي كبير بستاير مُوحشة بشعة، وأخبرنا مدير المشروع بما يعرفه الجميع، أنظمة باديكس تجعل الطائرات تخرج عن مسارها في فيتنام، مكان لا تريدان بالتأكيد أن تضل فوقه. وسألنا أنا وإرنست عن رغبتنا في رؤية العالم. بعد وضع المعدات في مكانها، هل يجب وجود ممثلين فنيين للشركة؟ قال المدير: «لا نستطيع إرسال أشخاص متوسطين في مثل هذه المهام. نريد تقديم أفضل ما لدينا وهي مهمتكم». عرفتُ أنه يتملقنا لنصدق أنها مكافأة لنا أن نُحَلَّق في منطقة حرب، لكنني تملَّقتُ تماماً على أي حال. أmaal رأسه وابتسم ابتسامة صغيرة ملتوية وهمهم، لماذا لا؟ لم تكن مسألة زهو، فيها رضى شخصي بأن المواقف تسير بشكل سيئ كما توقع عموماً. سايجون ليست منطقة قتال، هذا ما قلته لأفراد أسرتي، برغم أنهم يستطيعون رؤية عصبيتي. مدينة قرب قاع بلد في حرب، المعارك الأرضية غالباً في الريف (لم أسمع بعد أي

^٢ فينيكس Phoenix: عاصمة ولاية أريزونا الأمريكية.

^٣ بوبي درين Darin (١٩٣٦-١٩٧٣م): مطرب وممثل أمريكي.

شخص يقول في البلد) ^٤ حول قرى في أقصى الشمال أو الدلتا. كان صحيحاً أن الفيتكونج غزوا سايجون أثناء التيت بشكل بشع قبل ذلك بنحو ستة أشهر، لكنهم لم يسيطروا عليها طويلاً.

لا أعرف ماذا قال إرنست لأسرته. كانت له أخت (تخرج في مسيرات تندد بالحرب، وقال إنها سخيصة دائماً)، وأب وأم. كان أبوه يملك مؤسسة للتنظيف الجاف. ذلك كل ما عرفت. لم يكن يتصرف وكأنه في حاجة إلى أسرة أو يفهم سبب احتياج شخص إلى أسرة. ونحن نغَيِّرُ الطائرة في أنكوراج ^٦ اتصلتُ بأقاربي من المطار، وإرنست يقرأ لغز نيرو ولف. ^٧ على الغلاف صورة جثة تنزف على سجادة. انزعجت أُمي بشدة فعرفتُ أن اتصالي خطأ. حسدتُ إرنست وقد استغرق في كتابه. كانت رحلاتنا على طائرات تجارية مليئة بالجنود، وفي الطريق الوسطى الطويلة إلى اليابان خلفنا مجموعة من المارينز، يحكون نكات قذرة وغريبة. نام إرنست مثل طفل. وكان تنفسه عالياً بسبب الجيوب الأنفية، هذه الألفة الجديدة لم تسعدني.

اكتظت قاعدة تان سون نوت ^٨ للقوات الجوية بالجنود. بدوا صغاراً جداً، حتى لي، تحت قبعاتهم وخوذاتهم. بمجرد هبوطنا إلى الأرض، تطلعت إلى جرحى على نقالات، أو مجموعة محاربة مرهقة مغطاة بالوحل، لم أكن متعطشاً للهلح لكنني كنتُ مستعداً لهذه المناظر والطريقة التي حاولتُ أن أتعلم بها بضع كلمات من اللغة. كام أون. أشكرك. فونج تام أوه دو؟ أين الحمام؟ ثم رأيتُ رجالاً يحملون أقمشة غليظة ثقيلة على طائرة، يتحركون بروية وتركيز حتى فهمتُ أنها أكياس الجثث، وتوقفتُ مكاني. كان إرنست خلفي. قال: «امش.»

كانت سايجون صاخبة بالمرور، تفوح منها رائحة العوادم والأسفلت الساخن وشيء واهٍ ولطيف. لم أعرف كيف يشق السائق طريقه خلال التدفق المتهور للدرّاجات والسيارات.

^٤ في البلد in-country: مصطلح يعني «في فيتنام» أثناء العمليات العسكرية الأمريكية هناك.

^٥ فيتكونج Vietcong: الفيتناميون الذين ينتمون لجبهة التحرير الوطني لما كان يُعرف بفيتنام الجنوبية أو يدعمونها. التيت Tet: بداية العام القمري الجديد في فيتنام.

^٦ أنكوراج Anchorage: مدينة جنوب ألاسكا.

^٧ نيرو ولف: قصص بوليسية من تأليف الكاتب الأمريكي ركس ستوت (Stout ١٨٨٦-١٩٧٥م).

^٨ قاعدة تان سون نوت Tan Son Nhut: قاعدة جوية قرب سايجون استخدمتها القوات الأمريكية في حرب فيتنام.

لم أفهم أنها مدينة حقيقية، فيها طرق واسعة ومبانٍ حديثة ضخمة وقصور استعمارية فرنسية وردية، وهي في الوقت ذاته بازار ممتد يزخر بأناس في قُبَعَات مخروطة من القش يحملون أكياس الأرز على الأكتاف ويبيعون علب السجائر وثمارًا قرمزية. تحركت سيارتنا ببطء، وكانت تشبه الفرن. ولأن أبي كان في البحرية، فقد عشتُ في مواضع حارة في الولايات المتحدة، سان ديغو وكوربوس كريستي وكي ويست.^٩ وكانت سايجون بالتأكيد أكثر رطوبة من أي منها. تدفق العرق على وجه إرنست كأن مسامه تبكي.

«يبدو أنهم يشعرون بالبرد»، قال إرنست وهو يتطلع من النافذة. ترتدي كل النساء في الشارع بلوزاتٍ وقمصانًا بأكمام طويلة (من أجل الاحتشام، قال السائق) ولم يبدُ أنهم يعرقن أكثر، يقفن على أكوام من الآلات والموز وآنية من الحساء يتصاعد منها البخار. كل عناصر العالمين الأول والثالث معروضة على الرصيف للبيع، ولاعات بك، زجاجات البيرة، قصب السكر. وسط فوضى المشاريع، كانت أوجه الباعة بعيدة ومغلقة. لم أعرف إن كانوا مستسلمين، أم مغتاظين، أم منهكين ليس إلا. جرى الأمر بسرعة كبيرة فلم أستطع حتى أن أخمن. بعض النساء جميلات جدًا. بدا الرجال هزيلين بنظرة شرسة. لم أعرف ما حلَّ بالرجال.

وفرت لنا الحكومة مبيتًا في فندق قديم شاحب، ضخم مُرتب، في الخارج جندي يحرسه. في البهو مجموعة أرائك خشبية دقيقة مطلية بالأسود ومُطعمة باللالئ، جلسنا عليها وانتظرنا مع أمتعتنا وكان شخص يتفحصنا. عبر الأرض الرخام، كان يزحف رجل طوى رجل بنطلونه وكانت ساقه مقطوعة من الورك، يتوسل من كل من تصادف وجوده هناك. حين نقر على ركبتَي أخرجتُ ربع دولار من جيبي لأعطيهِ له. كانت إحدى عينيه لبنية وفارغة. حتى إرنست أعطاه عشرة سنتات.

لم تكن غرفتنا سيئتين جدًا، بلوحات من الخيزران الهندي ونوافذ عليها شرائط على شكل حرف إكس لحفظها من الكسر. على سريري قطعة من الخشب لمواطن يُجدّف في قارب تحت شجرة صفصاف. أين كانت تلك المملكة؟ استغرق الأمر حوالي عشر دقائق حتى

^٩ سان ديغو San Diego: مدينة جنوب كاليفورنيا. كوربوس كريستي Corpus Christi: مدينة جنوب تكساس. كي ويست Key West: مدينة جنوب فلوريدا.

لاحظتُ عدم وجود وسيلة للتبريد في الغرفة، لا توجد مروحة سقف، ولا ستائر مُسدلة، ولا كئوس تلج في البار.

بداية من صباح اليوم الأول، عملنا في القاعدة الجوية ساعات طويلة جدًّا، وحين نعود إلى الفندق بعد حلول الظلام، أصدد وأستلقي على سريري وأستمع إلى ضجيج الشارع. كان بعضه ضجيجنا — قوات عسكرية ترافقنا وشاحنات وأصوات أمريكية صاخبة — وبعضه ضجيجهم، مقاطع حادة وعميقة. طرقتُ على باب إرنست لأرى إن كان يرغب في الخروج. قال من خلف الباب: «تقصد الآن؟» لم يكن شغوفًا بالخروج لكنه خرج على الفور. في البيت كان على هذا الوضع أيضًا.

بمجرد خروجنا إلى الأرصفة لم يكف الناس عن النداء علينا. قالت أصوات الرجال بإنجليزية ابتلعوا نصفها: «إلى أين تذهبان؟ أستطيع أن آخذكما بمقابل زهيد. المشي غير آمن. تحبان الفتيات الصغيرات، كم عمرهن؟ يمكن أن آخذكما الآن بمقابل زهيد.» لم يتوقفوا بصرف النظر عمَّا قلنا أو لم نقل. تتبعوننا عبر الطريق وحول الميدان. «رأيتكما من قبل، أعرفكما»، قالت فتاة في الرابعة عشرة من عمرها تقريبًا. «هل تنظران إليّ؟» هكذا أخذنا تروسيكل — جسدانا الغريبان الضخمان في عربة يجرها عجوز هزيل على دراجة — إلى البار الذي حدَّثنا عنه عرَّيف كان سائقًا لنا. دخلنا إلى بدروم مظلم، مضاء بأنوار أرجوانية، يحتشد بجنود وفتيات فيتناميات يراهنون على طاولة في الوسط، وميك ياجر^{١٠} يغني «تحت إبهامي» في الخلفية. لم يستغرق الأمر ثانية لأعرف أننا في مكان غير مناسب بتيابنا القطنية المخططة، ولم يُرحَّب أحدٌ بوجودنا أيضًا.

عدنا بعد ذلك إلى بار الفندق، حيث تناولنا كئوسًا من البيرة مع بعض المدنيين الأمريكيين، كانوا أكبر وأغنى وتركانهم يتفاخرون أماننا بما عرفوا. «المبدأ الأول: لا تثق في أحد. احفظه عن ظهر قلب.» نطق بهذا الدرس المُبتذل كيميائي سيشغل مصانع الآيس كريم للقوات. «لكن المطاعم الفرنسية جيدة، أقول لكم أية مطاعم.» يحاول مهندس معماري له في البلاد وقت طويل، يتوق إلى مرافئ جديدة، يحاول أن يُحدِّثنا عن موتوسيكل ضخم اشتراه مقابل أغنية. وصف كل جزء في الموتوسيكل الهائل، من الأشياء القليلة التي ربما تشد اهتمام إرنست. أحسستُ ببعض البهجة من البيرة والحديث، وظلَّ إرنست صامتًا،

^{١٠} ميك ياجر Mick Jagger (١٩٤٣-؟): مطرب وممثل إنجليزي.

متجمداً (أدركتُ فيما بعد) ازدراءً. في المصعد سألتُهُ إن كان قد قضى وقتاً طيباً، فقال: «لا بالطبع. لستُ مغرماً بالانتهازيين».

مسحتُ، كما اعتادت أُمي أن تقول، الابتسامة عن وجهي. آنذاك رأيتُ ما رآه، كيف بدا الرجال جميعاً تافهين ومُنحِلين، منتفخين ومتبجحين.

كانت هناك بارات كثيرة في الفنادق الأخرى، قضينا ليلينا الأولى في التنقل من بار إلى آخر. عثرت علينا النساء، وكانت وظيفة عليهن القيام بها. سألتنا مراهقتان جميلتان إن كانت المقاعد التي على طاولتنا محجوزة. «هل أنتم دائماً بكل هذا الطول؟» قالت إحدهما لإرنست. كانت رقيقة، خصرها طويل وصوتها أجش. التقطتني الأكثر رقة وبساطة. كانت فتاتي لا تعرف إلا القليل من الإنجليزية، ولم يزعجني في تلك الليلة أن تضع قدميها الصغيرتين المرتنتين على كتفي وعطرها يحاصرني من كل ناحية، ولم أستطع تتبع إلا القليل من كلماتها. ماذا تقول، هل قالت شيئاً؟ ولم أحب حتى، ليس حقاً، بهجة اللذة التي وصلت إليها في غمرة ذلك، ولم أعد أرغب في البقاء بعد ذلك.

وأيّن كان إرنست؟ رأيته أخيراً وفتاته تقوده إلى غرفة أخرى. على وجهه بسمة صغيرة بشعة. فُكِّرتُ، رجل مثل بقية الرجال.

كان ينتظرني على السلم الداخلي في البناية حيث وفروا لنا الإقامة. سألتُ: «هل أنت على ما يرام؟»

قال: «أسرعُ. الوقت متأخر».

قلتُ: «كيف كانت؟ هل أعجبتك؟»

لم يبال بالرد.

أخبرني شخص في وقت سابق من تلك الليلة، رجل كان بالغ السكر، بأنه يعرف أن إرنست في وكالة الاستخبارات المركزية. قال: «له تلك السحنة المروّعة؛ تلك السحنة غير المعبّرة. أعرفها في أي مكان».

من المؤكد أنه لم يكن هناك أفضل من إرنست في الاحتفاظ بالأشياء لنفسه. قبل أن نغادر الولايات، كان لبعض من نعمل معهم الرأي نفسه تقريباً. لكن ماذا تفعل وكالة الاستخبارات المركزية؟ تجمع معلومات، أليس كذلك؟ إذا تَصَمَّنَ ذلك طرح أسئلة على شخص فإنست ليس الرجل الذي تقصده. كان بشكل لافت لا يبالي بالآخرين ولم تكن له القدرة على انتزاع جملة. وعَمَلُ وكالة الاستخبارات المركزية يتطلب الكذب والتنكر. وإرنست يكره حتى الكذب الأبيض البسيط في معظم العلاقات الاجتماعية («يا لها من

وظيفة رائعة» أو «منزلك جميل») واشتهر بأنه لم ينطقها أبدًا. لم يكن لديه أي احتمال للزيف. كان «المزيّفون» كما يصفهم (مثل هولدن كولفيلد)،^{١١} يجعلونه يرتجف اشمئزًا. كانت العادة التي يمارسها الناس على نطاق واسع، عادة مسايرة كل منهم للآخر السبب الرئيسي لوحده.

قضينا وقتًا طويلًا في المطار. تعرّض سَمْعُ إرنست للأذى في الوطن نتيجة زئير المحركات، وكنتُ أضع واقيات للأذن مما أثار سخريته. رأى الجنود أيضًا أنني مُضحك. كنا نراقب الطائرات وهي تقلع ونركب مع الطيارين في الاختبارات. كل ما فحصناه يعمل بشكل جيد. قضينا وقتًا طويلًا في إعادة الفحص. كان إرنست منهجيًا.

لم أشعر أبدًا براحة حقيقية في الصعود إلى تلك الطائرات. انتابني إحساس قوي بكتمان هذا الشعور. استقر الخوف في أعماقي بمجرد وصولنا. بعد وصولنا بأسبوع، انفجرت قنبلة في ملهى ليلي في البلدة في الجزء الذي نقيم فيه، مكان ذهبْتُ إليه، كانت حوائطه من المرايا وصارت أكوامًا من النفاية الفضية. بدأت صديقتي في المدرسة الثانوية، بيتي، الكتابة إليّ. قالت: «من فضلك حافظ على نفسك جيدًا يا توبي، كلنا في الوطن نفكر فيك.» وكنتُ أفكر في نفسي أيضًا.

كرهنا طيارو القوات الجوية. كانوا مغرمين بحكي قصص مروّعة قدر ما يستطيعون — عن جنود مشوّهين لا يكفون عن الصراخ طوال رحلة العودة، وثعابين البامبو القاتلة في ركن الطائرة، وأطفال على دراجات يلقون حقائب مدرسية مشحونة في شاحنات أمريكية — وقالوا إننا ينبغي أن نتحدث إلى رجال المشاة إذا كنا نريد حقًا سماع الكثير. قوات خاصة بقلادات الأذن، فتيات في الثامنة من العمر يغوين رجالاً ويوقعن بهم في كمائن، هل سمعنا عنهن؟ قلتُ: «يا يسوع. أيها المسيح المقدس.» اعتقدتُ أنهم يبالغون في الأمر من أجلي (لما يكن ذلك من أكليشيّيات الحرب بعد) لكن إرنست لم يجفل.

قال الطيار: «تعود الطائرات إلى هناك طلعة كل صباح، مبكرًا، في الوقت الذي تشتري فيه كرواسون لتتناول فطورك.»

قال مساعد الطيار: «لكننا نعشق طائراتنا. هل تعشق هذه الطائرة؟»

قال إرنست: «أعشقها حقًا.»

^{١١} هولدن كولفيلد Holden Caulfield: شخصية خيالية في رواية «الصيد في الراي» للكاتب الأمريكي ساليانجر Salinger (١٩١٩-٢٠١٠م).

نظر الطياران، كل منهما إلى الآخر، ونحن ننقُصُ على مقدمة الطائرة أولاً. حفظنا حزاما مقعدينا فقط، مغروسين في بطنينا، من أن نُلْقَى في ركن الطائرة. حتى إرنست صرخ: «اللعة! أوه، اللعة!»

كنا نرتفع بسرعة كبيرة، وتطوّح رأسانا إلى الخلف، قامت الطائرة بدورة مرتجة تثير الغثيان واندفعت من جديد، لم تكف عن الانطلاق. صَحْتُ: «كُفَّ عن هذا، الآن فوراً!» ويحتمل أن ذلك كان بتحريضهم عليّ. اعتقدتُ أنهما في سبيلهما إلى قتلنا جميعاً، لماذا يفعلون ذلك؟ حاولتُ أن أَكُفَّ عن الصراخ «كُفَّ عن هذا». بدوتُ مثل مدرّس للصف الأول. لكن لماذا لا يتوقفان؟

«هل استمتعتما بذلك؟» قال الطيار حين عُدنا إلى الاستواء مرة أخرى. «ألم يعملها أحد منكما على نفسه؟»

لم نفعلها. كان إرنست شاحباً يتصبّب عرقاً. قال: «رائع، رائع جداً.» حسدته. على الجميع في فيتنام أن يَمروا بعملية تقوية؛ حتى المدنيين الذين يعملون لدى المقاولين الأمريكيين تحدّثوا عن مدى ضعفهم في البداية. لكن إرنست وصل بغلافه الخاص.

«هذان الرجلان مجنونان»، قال حين عدنا إلى الأرض، ونحن نتناول القهوة (كان يعتقد أنه مشروب يُهدئ) في أحد مطاعم القاعدة الجوية.

قلتُ: «لماذا أتينا إلى هنا؟ لم يكن ينبغي أن نأتي.»

اعتقدتُ أنه سيتكلم عن حرب دائرة. كنا نعمل في صناعة دفاعية، استمرّت ولم نَبْج بأننا نؤمن بضرورة الحروب عموماً. يمكنك ألا تسمح لأناس معينين بالابتعاد عن أمور مُعينة. اعتقد إرنست أن العالم يتكون عموماً من هؤلاء الناس، لكنه كان يكره الشيوعيين خاصة. لم يكن هناك من يقول له إن لديهم أفكاراً صحيحة. قال: «إنها أخبار سيئة.»

قال: «أردتُ أن أسافر. حين استخدمتني بادلز، قالوا إنني سأسافر.»

«هذا السفر؟»

قال: «لترى الناس.»

تسافر؟ أي ناس؟ تجوّل حقاً بالكاميرا، رقم خيالي معقد بعدسات إضافية، واستخدم مقياساً للضوء. التقط غالباً صوراً لمبانٍ، بقدر ما رأيتُ، مكتب البريد، دار الأوبرا، السفارة الأمريكية بالطوق الهائل من آنية الزهور. صمم مكتب البريد الرجل الذي صمم برج إيفل وكان سقفه مقوَّساً بالغ الروعة. ثم ماذا؟

وكم فيتنامياً تحدثتُ إليهم؟ كم محادثة أجريتها؟ كانت دائرة معارف ضيقة بصورة لافتة. بقدر ما تحدثتُ إلى مومس تدعو نفسها مس مي، وعامل الفندق، ومتسول معوق يأتي يومياً إلى الفندق، بعينه الوحيدة المطموسة وتلعثمه.

وسط تلك الأيام الطويلة، تُقْتُ إلى «بيتي»، وكنتُ أرتجف حين تكتب إليّ، أحبطتني رسائلها. رسائل لا تُدْكرني فقط بزواجها بل بما لم أحبه فيها في البداية أيضاً. كانت رائعة لكنها سطحية وأحياناً حمقاء بمعنى الكلمة. كذبتُ على نفسي حين كنا معاً — مقررًا أنها تتمتع بذلك خاص أو أنها أكثر حدة مما تكشف عنه لغتها — وأذهلني أن هذا هو الكذب الذي كان إرنست متحرراً منه. بدت حياته في نظري حرة جداً ونظيفة جداً.

عرف إرنست تفاصيل كثيرة عن الحرب بالنسبة لرجل ليس في وكالة الاستخبارات المركزية، أين قُتل بالضبط رئيس الوزراء ديم^{١٢} على أيدي جنرالاته، طول المنطقة منزوعة السلاح بالضبط، وما تريده حقاً مدام نهو^{١٣} قال إنه يتذكر فقط ما قرأه في الصحف. ألم أعرف ما رأيته في التلفزيون على الأقل؟ ذاكرته رائعة بشكل لافت. اشتهر في العمل بقدرته على استعادة الأرقام في أي مشروع من دون أن ينظر.

يستطيع وصف كل المحلات في صف من المحلات سار خلاله للتو. في الليل، ونحن عائدان إلى الفندق، يمنعني من دخول الطريق الخطأ والتوهان في شبكة من الشوارع المتشابهة. يعرف دائماً اتجاه النهر أو المسافة بيننا وبين بناية كاتدرائية نوتردام. كان هنا أكثر مني، على ما اعتقدتُ.

لكنني أحببتُ البلاد أكثر منه. بدأتُ أتحدث أكثر مع «كان»، عامل ودية الليل في الفندق؛ كان يعرف القليل من الإنجليزية وبعض الفرنسية. عرض أن يشتري لنا عقاقير، كما عرضت الغسالة وكل سائق تروسيكل قابلناه، وبمجرد الانتهاء من ذلك الموضوع، كان يسمح لي بسؤاله عن أسماء كل النباتات في الريف. بالطبع، كان يعرف أسماءها بالفيتنامية فقط، وكانت محاولاتي لتكرار النبرات تُقلّصها إلى شكل مبجل جداً من التسلية الرفيعة؛

^{١٢} ديم Diem (١٩٠١-١٩٦٣م): قائد سياسي فيتنامي، صار رئيساً لفيتنام الجنوبية عام ١٩٥٤م،

اغتيال في انقلاب عسكري.

^{١٣} مدام نهو Nhu: السيدة الأولى في فيتنام الجنوبية ١٩٥٥-١٩٦٣م.

امتدح بدون أن يصدر صوتاً. حاولتُ وصف فلوريدا، وفناء أُمِّي الذي يحتوي القطن واليكة والألامندا.^{١٤} ربما لم يكن مهتماً بشيء سوى تكرار الكلمات. كان مهذباً للغاية. لديه ثلاثة أطفال، ولد وبنتان. سألتُه عن حبه للمدرسة. «يحبون المدرسة حين تكون هناك مدرسة.» قلّدتُ في صمت الطلبة الشغوفين يرفعون أيديهم، لكنه لم يفهمني في البداية. يبدو أن أطفاله ممتازون، لم يندفعوا أبداً في الإجابة، «لا يريدون الوقوع في خطأ، ولا يريدون أيضاً التباهي.» أبهجتني هذه الفكرة عن التصرف وذكرتها لإرنست. جعلتني أفكر في نفسي. كنتُ جباناً ومتواضعاً بالنسبة لولد أمريكي، وكان ذلك يسبب الكثير من الفزع لأسرتي.

غاب «كان» عن الفندق بضعة أيام، فسألتُ رئيسه إن كان مريضاً. قال مدير وردية الصباح: «رحل.»
«هل هو بخير؟»
قال: «رحل.»

إرنست هو الذي أخبرني أنه سمع أنه ممن زرعوا قنبلة في تاكسي رينو عادي ملون بالأزرق والأصفر، انفجرتُ أمام فندق آخر ودمرت اللوبي وجزءاً من المخبز المجاور. قال إرنست: «كانت فوضى دموية هائلة. كان في اللوبي أناس كثير.»
عرفتُ ذلك اللوبي بأرضيته الفسيفساء. كان أجمل من فندقنا، يمكث فيه الزائرون من كبار الضباط أحياناً. ذهبتُ إلى هناك للشرب. ربما قتلني «كان»، أراد أن يقتل رجلاً من أمثالي. «كان» الذي عرفته.

قال إرنست: «استيقظ يا دورثي.»
كانت قصة قديمة لكنها جديدة بالنسبة لي. لم تكن لديّ فكرة بالطبع عمّا يؤمن به «كان» أو مدى إيمانه أو أن لديه قدرة على التضحية. بدا معتدلاً جداً ومَدنيّاً يستمتع بالعالم بسخرية. أفشى سر مجموعة «كان» شخص آخر (لم يكن هناك ما يدفع إلى أن هذه الخيانة تمت بالإكراه)، هكذا عرف إرنست القصة.
قال إرنست: «رحل «كان»، كأنه ميت.»

^{١٤} اليكة yucca: نبات دائم الخضرة ينمو في المناطق الدافئة في أمريكا الشمالية. الألامندا allamanda: نبات أمريكي استوائي دائم الخضرة، يُزرع من أجل زهوره الرائعة.

كانت لإرنست تعبيراته الخاصة، تختلف عن تعبيرات جندي. لم تكن كوميدية شنيعة (لا شيء عن الأشخاص الهشّين)، أو باردة أو مدهنة. ولم يكن على وشك أن يريحي. أردتُ أن أكون مثل إرنست. كتبتُ إلى «بيتي» وأمي في الوطن: «أخذنا الطيارون في جولة مفاجئة، قمنا بجولات صباح أمس. أمر رائع جدًّا. يمكن أن أقول لك!» اعتمدتُ على إرنست، ربما أكثر مما اعتمدتُ عليه في الوطن. كان لأمسية مع أي شخص آخر — فئات تقنية أخرى أو مقاولين من القطط السمان الذين استرخوا في البارات — قسوتها دائمًا. في البداية اعتقدتُ أنني في سبيلي إلى التحول في ذلك الاتجاه؛ أردتُ الحيوية مثل أي شخص. لكنني لستُ سكيرًا حقيقيًّا — بعض الناس ليسوا سكريين — وبمرور الوقت لم أعد أرغب في الخروج كل ليلة، مع كل ما كنا نقوم به. كانت لي طموحاتي، كنتُ رغم ذلك كتلة غير متشكّلة. اخترتُ أن أكون مهندسًا، بمسطرة حاسبة، من ناحية لأنني لا أحب عالم التجارة، حيث التباهي جزء من مبادئ السلوك. اهتممتُ نوعًا ما بأن أكون عبقرية (رغم معرفتي بأنني حسان أسود بالنسبة لهذه الفئة)، ليحترمني الناس ويتركوني لمناهجي الخاصة. أردتُ أن أكون مثل إرنست؛ أردتُ الثناء وركنًا خاصًا بي، الاثنان معًا.

عملنا بكل جهدنا في تلك الأسابيع. استمرَّ تدفُّق المعلومات الجديدة، بيانات متناقضة، جلسنا إلى مكاتبنا نحاول حلها. سعدتُ بوجودي في الداخل، رغم انهاري بالشوارع. امرأة ذات أسنان مجوفة تبيع مشروبًا أمريكيًّا مسروقًا ومعجون أسنان على قائم، ولد يُلْمَعُ الأحذية يتوسل بنبذة أنفية لعب، عجوز يسير بدراجة محمّلة بحقائب من الحبال بها بطيخ، يصيحون عليّ لأشتري منهم، لأعطيههم نقودًا. لماذا كنتُ هناك إذا كنتُ أذهب فقط للتمشية في سمرة أجنبية شاهقة، طولي المتخّم الغافل؟ هل عرفتُ أنهم هناك، هل عرفتُ أين أنا، أين نقودي؟ خفتُ من هذا كله. وكان عندي المبرر لذلك.

ما السبب في أن الطائرات لا تعمل بصورة صحيحة؟ ونحن هناك أسقطتُ أربع طائرات حَلَقَتْ من دا نانج^{١٥} وسقطت على داك تو^{١٦}، حيث لا يُفترض أن تكون. قال الضابط الذي أخبرنا: «لا يمكن لهذا أن يستمر. لا يمكن.» وكنا المتسكعين المتسببين في سقوط الطيارين؛ يموتون، أو يقعون في الأسر، وهو أمر ليس من المريح التفكير فيه. لماذا

^{١٥} دا نانج Da Nang: مدينة وسط فيتنام على بحر الصين الجنوبي، كانت مركزًا لقاعدة عسكرية أمريكية مهمة في حرب فيتنام.

^{١٦} داك تو Dak To: قرية في المرتفعات الوسطى في فيتنام، كانت منطقة استراتيجية في حرب فيتنام.

كنا بكل هذا البطاء، ما مشكلتنا؟ تطلعتُ إلى إرنست حين استدعونا. هُزَّ رأسه، وكان ذلك يعني: ليس خيرًا، ليس خيرًا.

بقينا في المكتب طوال الليل، نحاول فهم مقاييس وجداول وخرائط وكل ما لدينا من سجلات اللاسلكي. في لحظة اعتقدتُ أنني على وشك التوصل إلى إجابة، وبعد ثانية تَهتُ من جديد، دُخْتُ ولم أعد أفهم الأرقام. نخر إرنست، كما يفعل حين يركز. أصدر أصوات ليئة يصدرها الناس وهم نيام. كان أصفى المهندسين، الذين قابلتهم في حياتي، ذهناً وينبغي أن يكون قادرًا على التوصل إلى هذا الخلل الدفين، إلى إبرة في كوم من القش، إذا كان هناك من يستطيع ذلك. كان خطأ بشريًا، لا بدُّ أن يكون قابلاً للحل بيد إنسان.

سمعنا في اليوم التالي أنهم سيرسلوننا إلى القاعدة الجوية في دا نانج لفحص المزيد من الطائرات. أرسلتُ إلى أمي رسالة طويلة مليئة بثرثرة غبية؛ حتى هي، ولم تكن تعرف الكثير، تعرف أن دا نانج منطقة منزوعة السلاح تقريبًا، وهو اسم تردد في التليفزيون وفي تقارير المعارك الثقيلة والخسائر الثقيلة.

قال إرنست: «سننتقل إلى منطقة مزعجة.»

قلتُ: «أليست مجرد مهمة مكتبية. لم يذكروا رحلات إضافية في بادكس.» لم نستطع أن نشكو للجنود من حولنا، حيث كنا القطط المدللة في الحرب.

«إلى اللقاء سايجون»، قلتُ ونحن في المطار.

«أراك فيما بعد يا تمساح»، قال إرنست مخاطبًا المدينة.

كانت دا نانج مدينة كبيرة أيضًا، كما تبين، لكننا لم نكن فيها حقًا. بيتنا الجديد في القاعدة الجوية، بعيدًا في طريق قدر قرب مطار ممتلئ بالغبار الأصفر، وعن بُعد سلسلة منخفضة وطويلة من الجبال. وفروا لنا الإقامة فيما يبدو أنها قرية من البنجالو الساحلية، أكواخ مكونة من طابقين مصفوفة على الطريق من الجانبين، مجموعة مبانٍ قليلة التكاليف. جاء إرنست بحقيقة ونحن لا نزال نحمل أمتعتنا إلى غرفتين. قال: «هذا المطار في دا

نانج، إذا استطعتُ إحصاء كل شيء، به حركة مرور أكثر مما في أي مطار في العالم.»

قلتُ: «بقعة كبيرة خاوية، شعبية جدًا.» على صفيحة زباله قرب كوخنا شخص ما

كان يبيض بالرش «ليس بيتي، أمُرُّ به فقط.»

لكن الجنود هنا أحبُّونا بشكل أفضل. كنا مستشارين للمارينز، مجموعة غير معروفين بسلوكهم الطيب، لكنهم كانوا مهذبين معنا في المكتب الذي نعمل فيه. كانت لديهم نكتة دائمة عن إصلاح إرنست بمرضعة مصابة بهوس جنسي، شخصية رغباتها في الممارسات

الغريبة تزداد مع كل دعوة، وأحبوا السخرية من خزانة ثيابي، هل اختارتها أُمي وهل يستطيعون أن يُقَسِّمُوا قمصاني بينهم إذا أصابتني طلقة؟ أطلقوا علينا المهووسين. وكان ذلك مصدر فخر لنا إلى حد بعيد. استلمنا سترات المدفعية والخوذات، لم نكن مجرد بهلوانين معلقين يرشفان المارتيني^{١٧} حول بركة فندق.

لم نكن بالطبع في هذا الخراء معهم. كانت لدينا فكرة غامضة عن ذلك الخراء. حسنًا، يعرف العالم كله الآن، أليس كذلك، ما جعلنا الجنود يقومون به. لا لم أر قط قرية من هذه القرى. حولنا مشهد طبيعي تفحّم من القذف، وبذلتُ قصارى جهدي لأساعد طائراتنا على أن تُفَحِّمَه، كان ذلك الجزء على ما يرام معي. صرْتُ أكره رؤية الرجال يخرجون من القاعدة. يمكن دائمًا سماع المروحيات الطبية، فوق الرءوس، ترجع بالجرحى والموتى. أرسلناهم واقتلعناهم.

كنتُ أنا وإرنست نعمل ثماني عشرة ساعة يوميًا. إذا لم نجد شيئًا لا يعمل بشكل صحيح في أنظمة التوجيه، فقد يكون الخلل في أنظمة الملاحة أو حتى أنظمة التحكم في الطائرات. من النادر أن يترك إرنست المكتب، كان شخصًا لا يستسلم أمام مشكلة أبدًا، حتى لتناول الطعام، وكان نهما. وجدت شخصًا يوصلني إلى مستعمرة أكواخ شيدّها الفيتناميون، غرب القاعدة على الطريق إلى الشاطئ. لم يكن إرنست ذواقًا لكنه أحب حساء لحم البقر بالمكرونة الذي صنّعه امرأة، مع الأعشاب الخضراء وعصير الليمون الذي تضعه فيه وأنت تأكل. كانت بلدة الأكواخ هادئة إلى حد ما، بمزيج من ألواح وأسطح مُرممة، ومختالين متبجحين. أطلق عليها شخص ما اسم دوجباتش^{١٨}، على اسم بلدة جبلية في ليل أبّرن بشكل هزلي. كان للمرأة التي صنّعت الحساء أخت تغسل أحيانًا قمصاني الشهيرة. شاهدتُ إرنست يلتهم المكرونة على مكتبه، سعدت لأنني معه أعطني به. وربما سعد أيضًا بطريقته. قال: «شكرًا على التغذية»، وكان تعبيرًا حماسيًا بالنسبة له. شاركني في قطعة شيكولاتة حكومية للتحلية. لنا سلوانا، أوقات مرحنا. اشترى كاسيت من بي إكس (كانت الكاسيتات جديدة تمامًا في السوق)، استمعنا إلى شريط لإيلا فيتزجيراد^{١٩} تغني ونحن نعمل. كان الصوت رقيقًا وأجشّ وفاتنًا.

^{١٧} المارتيني martinis: كوكتيل من الجن أو الفودكا والنيبيذ المجفف.

^{١٨} دوجباتش: مكان خيالي ابتكره آل كاب Al cap (١٩٠٩-١٩٧٩م)، في المسلسل الكرتوني ليل أبّرن Li'l Abner.

^{١٩} إيلا فيتزجيراد Fitzgerald (١٩١٨-١٩٩٦م): مطربة أمريكية.

في السادسة من صباح اليوم التالي ونحن ذاهبان إلى مكتبنا، كان ينتظرنا في الخارج مُقدم في السطوع الضبابي. قال: «تطور جديد. قد يكون هناك سبب يجعل اثنين بارعين مثلكما يعثران على شيء». وُجد عامل فيتنامي في المطار حيث لا يُفترض أن يكون. كان نائمًا تحت إحدى طائرتنا. ربما كان التخريب هو الإجابة هنا على اللغز الكبير. ربما كان شغل القروء مستمرًا طوال الوقت.

غمرني إحساس بالارتياح — كانت الاستجابة الأولى لي — ليست غلطتي، ليست غلطتي قط. لم يسقط الطيارون لأنني غبي. قال المقدم نستمر في العمل أيضًا، سيستجوبون هذا الشخص ويخبروننا بما يتوصلون إليه من معلومات.

ومرَّ أسبوع ولم يقل أحد شيئًا. واصل إرنست العمل وكأن هذه المعلومة الجديدة لم تُكتشف. اعتقدت أنه يريد فقط أن يشغل نفسه. سمعنا من عدد من الرجال المجندين حول المكتب أن الرجل الذي اعتقلوه اسمه شو نام، واسمه يعني العم الخامس. كان يُفترض أنه عم السيدة التي أعدت الحساء. ربما كانوا جميعًا أقارب، لم نعرف.

اختفت أيضًا، ولم نستطع لومها لأنها توارت. كان أسبوعًا مملًا للغاية. حين عدتُ أنا وإرنست من المكتب في الليل، كنت أقفز من أي صخب، وكان الليل صاخبًا. إذا كان هذا الرجل نجح في الوصول إلى المطار، فمن الممكن أن يتتبعنا أي شخص. قال إرنست: «يستطيعون دائمًا». احتقر قفزي. قال: «اهدأ». فكرت، ليس للمرة الأولى، أن بادكس اختارت إرسالنا لأننا الشخصان غير المتزوجين. كنت وحيدًا جدًّا. لم أعرف أنني وحيدٌ إلى هذه الدرجة.

بحلول يوم الاثنين، رغم أننا لم نسمع شيئًا رسميًا، أعطتنا الإشاعة بقدر ما احتجنا. لم يكن السجين متعاونًا. المقدم، الذي بعث بطياريه الممتازين في تلك الطائرات، لم يستطع أن يجعل السجين يُجيب وألقوا بالرجل من مروحية. رجل المارينز الذي حكى لنا القصة قدّم النكته السخيفة التي قدمها المارينز، «حصل على توصيلة مجانية إلى قريته، بسرعة». بدأتُ أسعل حين سمعتُ هذا، خنقني الهلع، لم أعرف ماذا أفعل أمام الآخرين. صارت عينا إرنست خاويتين، افترضتُ أن الخبر سقط في بئر الظلام الذي كان في أعماق إرنست دائمًا. لماذا صدمتنا هذه البشاعة؟ ألا نعرف أي حرب كانت هذه الحرب؟ عرفنا الآن. غضبتُ لأن رجل المارينز أخبرنا. سمعتُ دائمًا أن أشياء معينة تبقى سرية. جئتُ مستشارًا، لا لأكون في الحرب. ثُرتُ على رجل المارينز وأنا أسعل.

واصلنا العمل. فضّل إرنست الاستغراق في العمل، وأردتُ التحصن في تلك الأجمة معه. نصح بحسابات جديدة، واصلنا العمل فيها معًا وكانت تقترح حلًّا جديدًا ميكانيكيًا تمامًا.

أراد إرنست النظر داخل الطائرة مرة أخرى. استغرق الأمر يومين لأجعل أحد الرجال يفك له نظام التوجيه الثابت؛ كل من كان يستطيع أن يفعل ذلك مشغول بإصلاح طائرة معطلة، ليس متسكعًا يُلبّي لنا نزواتنا. حين وافق في النهاية رجل مرهق بالعمل عاري الصدر، يرتدي شورطًا، تبعه إرنست إلى ركن الطائرة ووقفت في الخارج. كنت في وضع استعداد لأرفع صوتي بالاقتراحات، وكان الجو حارًا رغم أنني كنت في حظيرة الطائرات. كنت على وشك العودة إلى المكتب حين خرج الاثنان.

«وجدتها»، قال إرنست بصوت خالٍ من التعبير وربما يحمل مرارة. بين أصابعه مسمار قلاووظ شبه صدئ كان في جمبل^{٢٠} جيروسكوب، كان على وشك أن يشقه ويُلقى بكل نظام الملاحه. الأمر بسيط على هذا النحو. مدّه إليّ باشمئزاز. قال: «يا لها من نفاية رخيصة. قدّم شخص ما أقل عرض. كل الجميلات بها هذه المسامير القلاووظ العرجاء.» كنا بطلين في تلك الليلة، وخاصة إرنست، رغم أنني حظيت ببعض الأبهة، رغم إنكاري. افترضت أنني ساعدته قليلًا. أخذنا المقدم وضابطان آخران للاحتفال في مطعم يُقدّم وجبات بحرية على النهر وسط مدينة دا نانج. كان من الصعب قبل ذلك أن نغادر القاعدة وبقينا نقول كم بدت النادلة أجمل من رءوس الجرار^{٢١} الذين قدّموا لنا الطعام عادة. كانت المياه الداكنة في نهر هان^{٢٢} تومض خارج النوافذ. قدّمت لنا زجاجات من البيرة وجرى حديث حول أن لا أحد قط اعتقد أن شخصين مثلنا يمكن أن يتوصّلا إلى شيء. كان الشكر صادقًا. «بقعة ساطعة لعينة من أجل التغيير»، قال أصغر ضابط. سمعت نفسي أقول: «نؤدي عملنا فقط». كنا نحن الاثنان جامدين وبعيدين كما كنا دائمًا.

قلتُ: «الحقيقة اللعينة أن إرنست يتمتع بذكاء رهيب يفوق ذكاء أي شخص يعرف. إذا كان لدى المارينز إحساس لمنحوه مكافأة ضخمة، ضخمة على العمل الذي قام به.»

^{٢٠} جمبل gimbal: جهاز يتكون من حلقتين على محورين متعامدين لتبقى البوصلة معلقة في مستوى أفقي بينهما بصرف النظر عن أي حركة. جيروسكوب gyroscope: جهاز يتكون من كتلة تلف، عادة عجلة، مركبة على قاعدة بحيث يتحرك محورها بحرية في اتجاه أو أكثر ليحافظ على اتجاهه بصرف النظر عن حركة القاعدة.

^{٢١} رأس الجرة jarheads: كلمة عامية يوصف بها رجال المارينز.

^{٢٢} نهر هان Han River: نهر يبلغ طوله حوالي ١١٢٦ كم، ينبع من شرق وسط الصين ويتدفق باتجاه الجنوب الشرقي إلى نهر شانج يانج.

قال الرقيب: «تموت لتحصل على مكافأة». لم يكن يضحك.
إرنست، الذي لم يأكل طعام البحر، التقط لحم البقر المشوي الموضوع أمامه ولم ينظر. تساءل في غيظ كيف أن شخصاً ما اقتطع من الأركان ليوفر ثمن مسامير قلاووظ، كيف تجلّت حقارة الجنس البشري مرة أخرى بسبب الزيف والرياء والكذب. كره كل الخدمات العسكرية لهذا السبب، كره كل من كانوا على الطاولة.

كان المُقدّم يناقش جسد نادرة. ما مقدار الحساء الذي تحتاج إليه ليكبر ثدياها؟ فكرتُ في أننا إذا كنا توصّلنا إلى العُطل قبل ذلك، فربما كان العم الخامس لا يزال على قيد الحياة. ماذا استغرق منا كل هذا الوقت؟ لم أتخلص من هذه الأفكار. لا أعرف أنها يمكن أن تتناوبني.

«سوف يرسلوننا إلى الوطن الآن»، قلتُ لإرنست في نهاية المساء، ونحن نسير إلى صف الأكواخ التي نقيم في أحدها، وكان كل منا قد تناول قدرًا كبيرًا من البيرة.
«يرسلوننا ماذا؟» قال. لم يكن سمعه سليمًا قط.

قلت: «تذكّرك عودة من بلاد العجائب هنا.»
لكن صوتي غرق في هيبة رعدية. قلتُ: «سُتَمطر الآن. أكره هذه البلاد.»
كانت هناك هبات أقوى، واحدة بعد الأخرى، ومضات من ضوء برتقالي، وحزمة ضوضاء تكسير وصفير — أي غبي كنتُ — أصوات صواريخ. لم تكن عاصفة. كنا في هجمة صاروخية لعينة. هبطت خطوط من اللهب في مكان ما خلفنا. نظرتُ خلفي إلى الأشجار المحترقة وجريتُ.

لم يجر إرنست معي. حين التفتُ برأسي وجدته يقف ثابتًا تمامًا، شبح مدني أخرس في الظلام. إرنست! صحتُ فيه منادياً، ثم عدتُ في الليل الممتلئ بالدخان وقبضتُ على ذراعه وجذبتُه معي، تحرك! أمامنا رجال آخرون يصيحون. كان أثقل من أن أجره، أضخم مني بكثير. أردتُ أن أتركه، لم أرغب في أن أموت وأنا أساعده. ثم بدأ يجري، يبدو أنه تذكّر فجأة.

اعتقدتُ أننا أصبحنا في مأمن بمجرد دخول البناية، وكانت محاطة بأكياس الرمل من جانب واحد. عرف إرنست على الأقل أن يرتدي سترته الواقية وخوذته على الفور. وجهه مشدود وخالٍ من التعبير. يفترض أن نذهب إلى خندق لكن بدا أن فكرة البقاء في مكاننا أفضل. نظرتُ حولي بحثاً عن غطاء وسحبُ الملاءات فوقنا. فاحت رائحتنا معاً تحت ذلك الغطاء.

واصلتُ القول: «هل أنت بخير؟ هل أنت بخير؟»

قال: «أنا بخير.»

تساءلتُ إن كانت ألياف الملاءات سريعة الاشتعال. كل أعضائي تنبض، تضرب تحت الجلد. والآخر، الجسد الساكن الذي معي — جسد إرنست — يعلو ويهبط ليتنفس. بدا إرنست، في شحوبه وعرقه، مثل حيوان يُحدَّق، مثل دب ينتظر انتهاء هلعهِ متجهماً. أفزعني أن أراه بهذه الصورة. لم أعتقد قط من قبل أنه جدير بالشفقة، مثل الآخرين. لم أحتمل ذلك.

«هل أنت مستريح؟» قلتُ. أحاول أن أمزح.

قال: «أنا بخير.»

كان الناس يموتون طوال الوقت من حولنا، لا أعرف لماذا اعتقدتُ أننا أكثر أماناً. بدوتُ أحمق، أكثر الناس سذاجة في البلاد. أحمق في حفرة مع دب. قلتُ: «إذا بقينا هنا وقتاً كافياً، فسنكون هنا في الكريسماس حين يأتي بوب هوب^{٢٣} للزيارة.»

لم يبتسم إرنست.

«ربما تأتي إيلا. هل تعتقد أنها ستأتي؟»

لم أكن سعيداً بطرح هذه الأسئلة. لماذا لم يسألني إرنست؟ مَنْ في العالم كله فعل ما يمكن أن أعتد عليه؟ قتل الجنود بعضهم البعض في حرب، ولم أمتعض. هرَّ رأسه. دفعت خوذته الملاءات.

«هل لها آراء بشأن الحرب؟ هل تعرف شيئاً عن آرائها؟»

لم أبال إطلاقاً بسياسات إيلا، إن كانت لها سياسات، ومنظمات الخدمة المتحدة^{٢٤} كان لها استعراضات بنائية على أي حال، ليس المطربون السود ذوو النظارات في منتصف العمر.

«هل هناك خلافات في عقدها مع فيرف^{٢٥}؟ اعتقد أن مديرها يمتلكها. لماذا تركتهم؟» توقف الضجيج في الخارج. جلسنا في انتظار المزيد. قلتُ: «بعد عشر سنوات مع شركة تسجيلات واحدة.»

^{٢٣} بوب هوب Bob Hope (١٩٠٣-٢٠٠٣م): مغنٍ وممثل أمريكي من أصل بريطاني.

^{٢٤} منظمات الخدمة المتحدة: في الأصل USO، اختصار United Service Organizations.

^{٢٥} فيرف Verve: فرقة روك إنجليزية.

كنتُ أحدث إلى نفسي. ماذا توقعتُ؟ لم أكن الشخص الذي يعرف أن يتوقع أن يكون إرنست شخصًا مختلفًا.

قلتُ: «أكره الكابيتول.^{٢٦} لماذا عليها أن تأتي إلى الكابيتول؟»
كم كان هادئًا؟ لم أثق بالهدوء.

قال: «النقود.»

شعرتُ بانتصار صغير حين سمعتُ صوته. مدربًا انتباهي على إرنست، محاولًا نُقْب نُقْبٍ في جدار صمته، أخرجني من نفسي قليلًا، وشعرتُ ببعض الارتياح. أظن أن إرنست لم يعرف هذا النوع من الارتياح قط. ولن يعرفه.

كان ضجيج إطلاق النار أسوأ في الشرق، في الناحية الأخرى من المطار. قلتُ: «هل تعرف أن إيلا كانت في العشرين من عمرها فقط حين سجلتُ «تيسكت، تاسكت»؟^{٢٧}»
أزحتُ الملاءات عنا، كنا سنختنق إذا لم ننفجر.

قلتُ: «صغيرة في العشرين.» فَرَدَّ إرنست نفسه ووقف في خوذته وصدرته، وأخذ يسير باتجاه غرفته.

قلتُ: «تغادر بهذه السرعة؟ تتركني في موضعي هنا؟»

همهم: «طابت ليلتك»، واستدار. لم أتوقع أن يكون مختلفًا. وغضبتُ لأنه لم يكن أكثر إنسانية. فقط مرة، هذه المرة الوحيدة، ألا يستطيع أن يحاول؟

مبكّرًا في صباح اليوم التالي، وأول شعاع من الضوء ينفذ من النافذة، سمعتُ كلام إرنست، خلال الحائط. سواء كان يتحدث إلى نفسه أم يُصَلِّي. كان أي شيء ممكنًا. «... أنا بخير»، قال. كان هناك طنين خلفه. «سخونة رائعة وموسم المطر يبدأ، وهو لا يبرد الأشياء حقًا.» كان يُسجِّل شريطًا. «الطعام ليس بالغ السوء. لا أكتب وقررتُ إرسال شريط. ربما كان عند سوزان كاسيت أو يمكنك شراء واحد لسماعه. يمكن أن نرسل شرائط ونرد بشرائط. في الليلة الماضية أخرجنا أشياءنا لأن صاروخًا سقط في منطقتنا. لديك العنوان. غني الآن. باي.»

ربما لم يكتب إلى عائلته منذ سنوات. من الحقائق القليلة المعروفة عنه أن لديه مشكلة في الكتابة، كان يخطئ بشكل فظيع في الهجاء وكانت جُمْلُهُ قصيرة دائمًا وتتسم

^{٢٦} الكابيتول Capitol: مبنى في واشنطن يجتمع فيه كونجرس الولايات المتحدة.

^{٢٧} تيسكت، تاسكت: ترنيمة أمريكية، عُرفت في أواخر القرن التاسع عشر وسجلتها إيلا في ١٩٣٨م.

بالطفولة. لا بُدَّ أنه ارتجف حتى العظام ليرسل شريطاً ... ليذكرهم، ليحتلوا موقعاً في ذاكرته كجمهور. ستسعد عائلته بالشريط وتفزع.

لم أعتقد أننا سنقضي هناك وقتاً كافياً لأي شخص ليرد عليه، لكنهم أبقونا في دا نانج ثلاثة أسابيع أخرى. صارت طرق القاعدة موحلة حين سقطت الأمطار، وانزلقت في حفرة نتجت عن صاروخ وأصيبت ساقي، القشة الأخيرة، على ما اعتقدتُ. تجادلنا أنا وإرنست كل ليلة، حين نكون وحدنا، عن الحرب. لم أكف حقاً عن الخوف من الشيوعية — لا، كنتُ أكثر خوفاً، كنتُ أفزع حقاً من كل شيء تقريباً — لكنني توقفتُ عن رؤية القضية، اعتقدتُ أن القضية ضاعت. بتكلفة باهظة، باهظة. قلتُ إننا كنا ننشر الشر ولا نحتويه. «ماذا يعني ذلك؟» قال إرنست. تحدثتُ عن الصين الحمراء والروس السوفيت، هل عرفتُ عدد من قتلهم ستالين في المعتقلات؟ اختفى سبعة ملايين في أربع سنوات من التطهير. قلتُ: «ما علاقة ذلك بالأمر؟» تجولنا وتجوّلنا. التزم (كما عرفتُ) بمبادئه. لم أقل شيئاً عن العم الخامس يهدئه. قال إنني عاطفي جداً. من الصعب أن أجادل مع شخص استبعد المشاعر. لا بُدَّ أنه اعتقد أنه كسب في كل مرة.

حين وصل مظروف إلى إرنست من والديه، انتظر حتى الليل ليُشغّل الشريط، واستلقيتُ في سريرتي واستمعتُ إلى أصوات تأتي من الحائط. قالتُ أمه: «يا لها من مفاجأة مدهشة أن نسمع صوتك». قال أبوه: «يسعدني كثيراً أنك تستمتع بعملك». قالتُ أخته: «صار الكلب بديناً جداً». يمكن أن ترى أنهم مهتمون به جداً. كلما سألتُ إرنست إن كان قد ردَّ عليهم، يهزُّ رأسه، لكنه شغّل الشريط ليلة بعد أخرى. من خلال الحائط الرقيق، تعرّفتُ على تتابع أصواتهم، طبقات الصوت المختلفة بالترتيب.

قبل العودة إلى الولايات، طرنا إلى بانكوك أسبوعين للراحة والاستجمام. لم نعرف صاحب الفكرة، لكننا هبطنا في تايلاند في حالة ذهول. كم بدت المدينة لنا مزدهرة ورائعة. الشوارع حارة وكرهية الرائحة مثل شوارع فيتنام تماماً، ربما أكثر حرارة، لكن رقة الناس مُدهشة والجو مشمس. لم يكن هناك من يكرهنا بقدر ما عرفنا. لم تغلب على هذا الشعور. شعرتُ بالخفة والجنون فقط وأخذتُ أتجول.

كان لفندقنا حديقة صغيرة في الفناء، وكان إرنست يحب الجلوس في الخارج وشرب قهوة التايلاندية المسكرة التي يصنعونها بلبن مركّز. يقضي بضع ساعات يقرأ في «بانكوك

بوست» و«هيرالد تريبيون». لم يكن مستعداً لتصوير أي معبد من المعابد المذهبة أو أطفال المدارس في زيهيم، قال: «ليست هناك معطيات جديدة، لكنني كنت متوتراً، أريد أن أنجول». كان ذلك كله يُشبه الحلم إلى حد بعيد. تَهْتُ في الشوارع، ركبتُ معدية في النهر، أكلتُ وجبات خفيفة من الموز المشوي والمكرونة الجافة. في اليوم الثالث بدأت ساقِي التي جُرِحتُ حين سقطتُ في الحفرة الناتجة عن الصاروخ تؤلني وتتورم، وانتابني شعور بغيض بأن فيتنام ما زالت تطلبني. هل أصابتني حُمى خفيفة؟ ربما. جلستُ على أريكة في منتزه لومبيني^{٢٨} ورفعتُ رجل بنطلوني. على جلدي ضمادة قديمة من الشاش، حين رفعتها من جانب، كان الجلد يَنْزُ وتَفُوح منه رائحة كريهة. لماذا اعتقدتُ أنني أستطيع نسيان المكان بتلك السرعة؟

بالغتُ في الاهتمام بجُرْحي البسيط المقزز فلم أرَ شائتين تايلانديتين قدمتا باتجاه أريكتي حتى قالتا: «هل أنت بخير؟ لا نعتقد أنك بخير». ارتبكتُ لأنني ضُبطتُ وأنا أُعري ساقِي الغربية المشعرة؛ كان سلوكي أسوأ هنا. قالت إحدى المرأتين: «أنت مصاب؟» لم يبدو أنهما عاهرتان، كانتا ترتديان ملابس تشبه ملابس عاملتين في مكتب، بلوزتين بسيطتين مجعدتين وتنورتين ضيقتين.

قالت إحدهما: «نحن مرضتان. هل توافق أن نُلقي نظرة؟ لن نُؤذيك». رفعتا الضمادة وظهر عليهما الامتعاض وهممتا، يا له من مَازق. كانتا واثقتين تماماً بأن عليهما أن تعودا بي إلى المستشفى التي تركتاها للتو. قالتا: «لن تزعجنا. لا بأس. ركبتُ تَكْتُكُ بجوار بشرتهما الرقيقة وابتسامتهما. إحداهما اسمها بوا، فتاة جاءت من الشمال لتدرس هنا، والأخرى اسمها تون، تعيش في ثانون ويسوت كاسات مع أسرتهما وأصبحت زوجتي بعد ذلك.»

في الطريق إلى المستشفى، حين أَلقيت نظرة أفضل إلى تون، فَكَّرْتُ في روعة اليوم الذي أعيشه. اعتقدتُ أن المرأتين ستوصلانني فقط إلى المستشفى، لكن على الأقل كان لديَّ انطباع تركته تون، مثل أمنية طيبة لعلاقتي المستقبلية في الولايات. رغم أنني لم أرها إلا وهي تمرُّ بي، أحبها حتى الموت. غنينا ذلك في المدرسة. كانت لديَّ فكرة مسافر بأن شيئاً زائلاً يباركني.

^{٢٨} لومبيني Lumpini: حي في بانكوك.

جعلني ذلك أكثر تعقيدًا. اعتقد أفراد أسرتي أنني مجنون حين أعود إلى أمريكا لأتخلّى عن وظيفتي وأستدير لأعود إلى بانكوك. اعتقدوا أن الحرب فعلتُ فيّ شيئًا، وقد فعلتُ. ألم تحاول صديقتي الرائعة بيتي أن تجعلني أستاذ، لكنني كنتُ «السيد بارد جدًّا»، «السيد لا تأسرنِي»؟ لكنني كنتُ أريد أن أوى إلى عشّ.

كان صحيحًا أن فيتنام حرّكتني باتجاه تون. يمكن أن يجعلك الخوف المستمر ترى العيوب الحقيقية للاستمرار وحيّدًا في الحياة. رغم أنني لن أنصح إرنست بشكل خاص بأن يأخذ عني هذا الدرس. قال: «إذا كان ذلك ما تريد»، حين حدثته عن الخطوبة، وكان رأيّه حسنًا في تون أيضًا.

لم يكن زوجي وحياتي في قارة أخرى أنشودة رعوية بالطبع. كان فيها هضابها ووديانها. وتَرْتَنّا مشاكل وظيفتي وكانت لنا مشاكل مع ابننا. في فترة من أسوأ فترات حياتي، كنتُ أتردد على مُعالِج، فتّى رائع من شيكاغو، وتصادف أن قال إنني شخص انعزالي بشكل غير عادي، مما جعلني أتساءل إن كنتُ مثل إرنست رغم كل شيء. استغرقتُ بعض الوقت في شرح شخصية إرنست للمعالج (على حسابي) وقال لي إن إرنست، بقدر ما يستطيع أن يقول لي، يبدو مثل شخص مُصاب بمتلازمة اسبرجر. اختلال عصبي بيولوجي، مثل الإصابة بداء التوحد. لعل شعبي عانى منه. قلتُ: «حسنًا، هناك أنواع كثيرة من الطرق نعبّر بها عن إنسانيتنا، أليس كذلك؟» تساءلتُ كيف يشعر إرنست إذا عرف أن لشخصيته سببًا ماديًا، ربما سيتحدى، رغم تفضيله العالم القابل للقياس.

هناك من يقولون إن أينشتاين كان مصابًا بمتلازمة اسبرجر. لستُ متأكدًا من أنني ما زلتُ أؤمن بالعابرة، بالأنواع الأعلى من عمالقة العقل، لكنني أعتقد أن إرنست ربما كان نابغة. في أيامنا الأخيرة في فيتنام، كتبنا تقارير عن المسامير القلاووظ موضع الخلل (يعرف الرب ما آلت إليه هذه التقارير)، وكتب إرنست بضعة أسطر من التقرير بحروف كبيرة ضد احتيال المُصنّعين: رُخْصٌ مميت، طمع يقتل. بادكس التي اشترت المسامير القلاووظ لرُخصها لا يجب أن تُمَدَح. يا لها من حياة يعيشها إرنست، حياة نقية لا تشوبها شائبة، بطريقته.

أقمتُ عرسًا رائعًا جدًّا في بانكوك، لم يكن كبيرًا لكنه كان أنيقًا وجميلًا، بعثتُ بمجموعة من الصور إلى إرنست، الذي عاد إلى بادكس في فينكس. لا أعرف إن كان قد استلمها، لأنه لم يرد بكلمة، اخترتُ صورًا بدت فيها تون مدهشة بشكل خاص، ولم أبدو فيها بشكل مضحك جدًّا. لم يكن ليحسدني، عرفتُ ذلك، لكنني أردتُ أن يرى.

«انظر إلى الأمريكي الطائش»، كتبتُ. ماذا يفعل هذا الرضيع؟ ربما فكر في ذلك إرنست وهو يتطلع إلى الصور، يتطلع إليَّ مُحاطًا بغرباء مبتسمين كانوا أقاربي بالزواج، بالحركة غير المسموعة والجميع يتحدثون. تخيلته يهز رأسه على الفوضى الملوثة لمستقبل كنتُ أصرُّ على أنني أريده. كم كان عنيدًا. دائمًا حين أفكر فيه يسيطر على نوع من الحسد. رغم كل شيء، هذا ما حدث.

جميلة

تأليف: توني دي سوزا^١

بعد موت خديجة بقليل، أحضر لي مامادو كيسًا من اليوسفي من بستان أبيه. لم أكن في حالة مزاجية تمكّني من أن أكون مع الورودوجو بعد ما حدث، وكل صباح والعائلات تشرع في الذهاب إلى حقولهم، تحييني زوجة أو زوج وأنا أجلس على مقعدي. يسألون: «ألن تذهب معنا اليوم إلى الحقل يا أداما؟» فالوَح لهم بيدي، وأبقى مكاني، وأقول: «جكواديو»، ملاريا.

كثيرًا ما كنتُ في حالة مزاجية سيئة مع الملاريا، وكان ذلك حال كل من في القرية من وقت لآخر، لكن في هذه المرة كانت المسألة أكثر خطورة، علّة في القلب. في شهوري الأولى هناك، أحببتُ الورودوجو^٢ بشكل رومانسي، رأيتهم أفضل مما كانوا. لكنني الآن فهمتُ أن لديهم عيوبًا مثل الآخرين.

كان رائعًا أن أكون وحدي في القرية في تلك الأيام، ذهب الجميع إلى الحقول لكن بضع عجائز متفرقات يملن إلى مواقد العائلات. أكل اليوسفي وأشاهد السحب تنطلق عبر السماء.

^١ توني دي سوزا Tony D'Souza: ولد في شيكاغو، عمل مثقفًا (٢٠٠٠-٢٠٠٣م) لمرض الإيدز في الريف في غرب أفريقيا مع قوات حفظ السلام. يعيش في فلوريدا. والعنوان الأصلي للقصة «جميلة Djamilla»، بالعربي في الأصل.

^٢ الورودوجو Worodougou: قبيلة في ساحل العاج، في منطقة تحمل اسمها.

في صباح أحد الأيام، والقرية خاوية وهادئة، جاءت فتاة من البيول^٣ في دثار رائع وخلخال فضي، وقرعة واسعة من اللبن على رأسها، تبيع مغارف منها مقابل اليوم من كوخ إلى كوخ. كان البيول رعاة ماشية رُحَّلًا من مايي، تسكن أسرة منهم في الطرف الغربي البعيد من القرية، حيث يضعون قطيع الماشية في زرائب بالقرب من هناك في الليل. بعيدًا عن بيع اللبن، لم يبالوا بالورودوجو، ولم يبال الورودوجو بهم. كان البيول يعتبرون أنفسهم عزَّزًا أسمى لأنهم لم يعملوا في التربة، واعتقد الورودوجو أنهم جديرون بالازدراء للسبب نفسه. رغم ذلك، اكتسبت فتيات البيول سُمعة بأنهن مرغوبات في المنطقة أكثر من غيرهن. ربما كان لذلك علاقة بجذورهن الصحراوية الغامضة، وأبهة عربتهن الطويلة، وخبجلهن، ولغتهن الغريبة وثقافتهن. وربما أيضًا لجمالهن الخيالي.

توقفت الفتاة في طريقها، واندeshت لرؤيتي. لم أكن من قبل وحيدًا في القرية بهذه الطريقة: في النهار، حين لا يكون في القرية إلا النساء. طويلة ونحيلة، وقطع عملة استعمارية قديمة في عقد معلق على ترقوتها وخيوط من خرز الكهرمان تتدلى من أذنيها الطويلتين. حول شفثيها وشم بالحبر الأسود، وشعرها على شكل ضفائر محكمة، مصفوف فيها قطع من العملة. عرفتُها بالطبع: جميلة، ابنة غير متزوجة لأب من البيول. تُعتبر جميلة أينما حلت.

تطلعتُ جميلة إليَّ بطريقة جريئة، واضحة يديها على وركيها. ربما لا تُحب أن تبدو مندهشة؛ ربما مرة أخرى لأنها اعتادت أن ينادي رجال القرية عليها بشعارات فاسقة يسمعونها الجميع. كانت بعيدة وعليَّ أن أتحدث بصوت عالٍ إذا أردتُ أن أتكلم. بدلًا من ذلك، كأنني كنتُ مدفوعًا بقوة غير قوتي، دحرجتُ يوسفِي إليها. زحفتُ على التراب وكأن الزمن نفسه أبطأ، واستقرتُ بين قدميها الحافيتين. كانت عيناها مخططتين بالكُحل^٤ فبدتُ خطيرة. القرعة الثقيلة على رأسها جعلتها تبدو أطول مما كانت في الحقيقة. تساءلتُ ماذا تفعل، لماذا دحرجتُ الثمرة إليها أساسًا، لماذا أبديتُ اهتمامًا. ثم، مثل طائر يتقدم بصعوبة، انحنتُ والتقطت اليوسفي.

قلتُ لها: «أعرف اسمك..»

^٣ البيول Peul: قبائل تتمركز في غرب أفريقيا ووسطها، ويُعرفون أيضًا باسم الفولا Fula. اليوم yams:

نوع من البطاطا.

^٤ الكُحل: بالعربي في الأصل.

«لا أتحدث الوردودجو أيها الرجل الأبيض»، ردَّت عليَّ بسلاسة بتلك اللغة.
 «ج-ميل-لا»، قلتُ، تدرجت المقاطع على لساني مثل أغنية.
 «مَنْ أنت لتتنطق باسمي، أنت فلاحٌ قذر من الوردودجو. أليست أظافر أصابعك
 مُغطَّاةً بالتربة والروث؟ ألا تعرف أنني من البيول؟»
 «لستُ من الوردودجو»، قلتُ لها فابتسمت ابتسامة عريضة، «واسمك معروف في
 القرية كلها، رائع كالقمر والنجوم.»
 «سأخبر أبي!»
 «سأخبره بنفسي.»
 «أخبره إذن، ولن يهمني شيء.»
 «سأتي الليلة.»
 «سأختبئ في كوشي.»
 «ستسمعين صوتي.»
 «سأسد أذني بالقطن.»
 «ستعرفين بقلبك أنني أتيتُ.»
 «سأمزق قلبي، وأقدِّمه طعامًا للكلاب.»
 «سأدلل تلك الكلاب لأنها أكلتُ قلبك.»
 «ستعضك تلك الكلاب، لأن قلبي في أعماقها.»
 «جميلة، أنزلي لَبَنَك. تعالي إلى كوشي. أريد أن أريك صورًا من بلادي. أريد أن أريك
 صورة أُمي.»
 «هل لديك صور تعرضها عليها؟ اعرضها على أبي. سوف ترى ما يقول. ولن تدرج
 اليوسفي إليَّ مثل قرد من الوردودجو.»
 «ومن ثم لن تلتقطيها.»
 تطلعتُ جميلة إلى الثمرة في يدها، كأنها تفهم ما تعنيه. على سبيل المثال، اعتقدتُ أنها
 ستُلقي بها إليَّ، لكن بدلًا من ذلك وارثها في دثارها. قالتُ، وهي تستدير وتنصرف: «يحب
 أبي أكلها، ثم ماذا؟»
 تناثر في الهواء الذعر الذي انتابني. وقفتُ وهي تتراجع، وقفت في دثار الصباح،
 مكشوف الصدر، وشعرتُ بحيوية مفاجئة. اقتربت عجوز محنية — أُم الطبيب الساحر
 — تهش بطة عن المُجمِّع الذي تُقيم فيه بقطعة قماش زرقاء مربوطة في عصا، وهو ما

اعتادت العجوز أن تهش به البط، رأتني، وجميلة المنصرفة، فهمت شيئاً، واعتدلت. «أداما! ادخل كوخك»، وكزنتني في ضلوعي بالعصا. «كونك أبيض أمر سيئ بما فيه الكفاية. لكنك مُشعر أيضاً! غط! إذا رأْتُ جميلة بشاعتك فقد لا تتزوجك.»

كنتُ أجلس بعد العشاء عادة مع مامادو تحت شجرة مانجو تمتلكها أمه، حيث أكلنا، وتحدثنا عن الحياة إلى وقت متأخر من الليل. كابن ثالث، لم يكن لمامادو أي خيارات أخرى إلا البقاء في القرية ومساعدة أبيه في العمل في الحقول. لكن أحلامه كانت عريضة: يريد الذهاب إلى أبيدجان للعمل في المجال الذي يعمل فيه أخواه. يريد أن يمتلك فائلة نادي أياكس لكرة القدم وحذاءً جدياً وتليفوناً محمولاً، وعربة في يوم من الأيام. حاولتُ مدحَ متع الحياة التقليدية الشريفة في قريته، فلم يسمع. تناديه أضواء أبيدجان، ثم فرنسا وأمريكا. «سأعمل في مصنع ملابس مثل أخي، سأعتني بحقل كبير لرجل غني. أبعث ببعض النقود إلى أبي هنا، وأدخر الباقي، أفتح كشكاً وأبيع أولميت ونسكافيه. أشتري سترىو ليسمع زبائني الموسيقى. تزورني، وأزورك في شيكاغو، في أمريكا. نكون حينذاك رجالاً كباراً. أخذك في سيارتي، ستروين ...»

لم يكن هناك ما يمكن القيام به في الليل سوى الكلام. يتحدث الناس في مئات من بيوت القرية. أصوات تدندن بهذه الطريقة، ابتهاج عتيق وبسيط للمطر، للحب، للمال. وقفتُ، مسحتُ المقعد بردائي،[°] ومامادو سارح في أحلام يقظته. قال: «هاي؟ أين تذهب في هذا الوقت المتأخر؟»

«أتمشى. أحيي بعض الناس»، قلتُ بصورة مُبهمة ولوحت في الظلام.

«سأتي معك ...»

«ابق هنا. اقضِ بعض الوقت مع أسفارك. ألم تُرزق في هذا الوقت بطفل آخر على أي

حال؟»

«أداما، أين تذهب؟ لماذا تذهب؟ أداما، هل تشعر بأنك على غير ما يرام؟»

«على غير ما يرام؟»

«تتصرف بشكل غريب. وحين تتصرف بشكل غريب فذلك يعني أنك معتل. سأعاني

من مشاكل مع الرئيس. أخبرني إلى أين تذهب في مثل هذا الوقت المتأخر. إذا لم تخبرني فسأتبعك.»

[°] ردائي: في الأصل البوبو boubou وهو رداء روب فضفاض يرتديه الرجال في غرب أفريقيا.

«زاهب لأُحيي بوكاري.»

«بوكاري؟ البيول؟» قال وهزَّ رأسه. «الوقت الوحيد الذي نحيي فيه البيول حين نشترى اللبن أو اللحم. هل تريد أن تأكل لحمًا يا أداما؟ سأطلب من أبي أن يبعث إليهم ببعض الأيام ونأكل لحمًا في الغد.»

«أريد لبنًا ولحمًا يا مامادو»، قلتُ بصوت منخفض.

«سنبعث في طلب الاثنين.»

«لا يمكن شراء هذا اللبن وهذا اللحم باليَّام.»

«لبن ولحم لا يمكن شراؤهما باليَّام؟ أداما، لماذا تتكلم بالألغاز؟ القمر ليس مكتملاً.

لماذا تتصرف بهذه الطريقة المحيرة؟»

«أستمع إليك كل ليلة أيها الأخ الصغير. ألم يخطر ببالك أبدًا أنني قد تكون لديّ

بضعة أحلام خاصة بي؟»

«أحلام يا أداما؟»

«رغبات. إنني زاهب لرؤية جميلة.»

رفع مامادو حاجبيه، ثم ابتسم ابتسامة عريضة وحكَّ ركبتيه. «اعتقدتُ أنك معتل أيها الرجل الأبيض. لكنك لستَ معتلاً. أنت كبش. يتحول كثير من الرجال إلى كباش حين يرون جميلة. اذهب وجربْ حظك. بسرعة ستكون صديقي مرة أخرى.»

لم يكن بوكاري في أرجوحته، مثلما توقعت أن يكون رجل عجوز، لكنه يُرْبِع على حصيرته، يرشف شايًا بالنعناع تحت النجوم. له لَحِيَة عربية طويلة مخططة بالرمادي، ويرتدي رداءً فضفاضًا أزرق جعله يبدو غريبًا كما كان في الحقيقة. كانت النيران تشتعل قليلًا في دائرة من الحجارة خلفه، ولم يكن هناك أحد آخر. كان لديه كأس أخرى تنتظر على صينية صغيرة من الصلب كأنه يعرف أنني قادم. «أوه أداما، تعالَ واجلس»، قال بخفة فولانية،^٦ ضاربًا على الحصيرة بجواره. «مضى وقت طويل جدًّا ولم تأتِ لتُحييني. لنشرب الشاي. أريد أن أعرف كل شيء عن الحياة في أمريكا.»

جلستُ مع بوكاري وقتًا طويلًا والهلal يشق طريقه عبر السماء. تحدّثتُ عن شيكاغو، عن الجليد؛ طلب أن يعرف كيفية تربية الماشية هناك. من الكوخ المعتم خلفنا، سمعتُ

^٦ فولاني Fulani: شعب من الرعاة معظمهم من المسلمين، يقطنون غرب أفريقيا من شمال نيجيريا إلى مالي وساحل الأطلسي.

قهقهة من حين لآخر. ذات مرة سمعتُ صفعَةً وصوت طفل يصرخ معترضًا. وعاد الهدوء مرة أخرى.

«ما معنى «الكاوبوي»؟» سألني بوكاري. شرحتُ له بأفضل ما أستطيع. مال بوكاري على كوعه وقال: لكن ما حاجة المرء إلى الحصان؟ لتعرف الماشية عليك أن تسير معها. لا تبدو لي ببولتك قوية جدًا يا أداما. نأخذ ماشيتنا على الأقدام من باماكو إلى سان بدرو.^٧ ننام في العشب، نحركها ببطء حتى لا تهزل. تستغرق الرحلة شهرًا طويلة، ونكون وحدنا في الأجمة مع قطعاننا والله. هكذا نحن البيول. قلتُ له: «أود أن أعرف الماشية كما أعرف الزراعة. إذا دعوتني، فسأتي وأزور قطعانكم.»

«أوه يا أداما، هذا شيء طيب. لكن ماذا عن الورودوجو الذين تعيش بينهم؟ ألن يشعروا بالغيرة لأن رجلهم الأبيض يشرب شايًا مع أحد البيول؟»
«حصلتُ على الكثير من الورودوجو. الكثير جدًا من الجن. حفُر كثيرٌ جدًا في التربة مثل الخُلد.»

«آه يا أداما، شيء طيب. تعالَ غداً قبل شروق الشمس لنأخذ الماشية للرعي.»
مد بوكاري يده إليّ متمنيًا ليلةً طيبة، فصافحتُها وانحنيتُ بطريقتهم. شعرتُ بمالي تنادينني من بعيد — أرض الماشية والإسلام الحقيقي، أرض الساحل^٨ والنجوم، كما تجسدتُ في ذلك العجوز الهادئ — وكان آخر شيء وأنا أخطو في الظلام، جلجلة ضحك الفتيات وهن يخرجن من الكوخ حيث اجتمعن طوال زيارتي.

بدأ أول شيء في الصباح. وأنا أسير عبر القرية في ندى الصباح بدأ على الفور، نساء وضعن أيادي الهاون الطويلة على أكتافهن، وربطن أرديتهن في خصورهن، ونادين عليّ ضاحكات، «أنيسوجوما فلا شي، أو أي بي أي موسو شولا؟»^٩ صباح الخير مستر بيول! هل أنت خارج لتُسلم على زوجتك؟

في مجمع بوكاري، كانت جميلة تطحن الحبوب وأخواتها الأصغر يُشعلن النيران. احمرَّ وجهها خجلًا حين رأته، وسقطت يد الهاون في القذارة، أسرعَت إلى داخل الكوخ،

^٧ باماكو Bamako: عاصمة مالي. سان بدرو San Pedro: ثاني أكبر الموانئ في ساحل العاج.

^٨ الساحل Sahel: بالعربي في الأصل، منطقة شبه قاحلة شمال وسط أفريقيا، جنوب الصحراء.

^٩ أنيسوجوما فلا شي، أو أي بي أي موسو شولا: باللغة المحلية.

وأغلقت الباب. جلست أخواتها على مقاعدهن ووارين وجوههن بأيديهن. اهتزت أكتافهن وهُنَّ يقاومن الضحك، شهقن وأُصْبِنَ بغصة، ورنّت قِطْعَ العُمْلَةِ في شعورهن مثل مجموعة أجراس. بوكاري على حصيرته يُصَلِّي. البيول مسلمون حقًا، بينما الورودوجو يؤمنون به. يُصَلِّي بوكاري بالعربية.

حين انتهى من صلاته، جلس لحظة يتطلع إلى سماء الصباح، ثم نهض مبتسمًا وأخذ يدي في يديه. وجهه صافٍ ومُنْشَرَحٌ خلف لحيته، كان في طولي، لكنه أكثر نحافة. قال: «أداما، جئْتُ مبكرًا جدًا. مثل ابن. في هذا الوقت يأتي الأبناء إلى آبائهم في مالي.»

عند الزريبة، وثَّب بوكاري على الحاجز في رِداءه، وقفزت. الماشية^{١٠} المُحْدَبَة بالقرون الطويلة تضرب بأقدامها وتخور مثل مخلوقات ما قبل التاريخ، وكانت تبدو في ندى الصباح أكبر من الحقيقة. كان الجو دافئًا بينها، والذباب وأكوام الروث في كل مكان. هشتتُ الذباب عن وجهي وبوكاري يفك العجول من طاولتها. صاحت العجول وخارت الأبقار، ولم يتحرك أي بهيم من هذه البهائم باتجاهه. ربط مجموعة عجول إلى أغصان مكومة بمثابة سياج، والأبقار مشدودة بالحبال مثلما تُشَدُّ الكلاب بالسلاسل، حلبها بوكاري في قَرعة كبيرة واحدة بعد الأخرى. ضحك ليهدهدها بلغة قديمة بين الرجل والأبقار، ورغم قدرتها على أن تضرب بسهولة بحافر أو قرن، ربت على أطرافها ولم تفعل. كان فنًا رقيقًا ورقيقًا. رفع بوكاري القرعة على سارية البوابة إلى رأس إحدى بناته الصغيرات اللائي أتين، وانحنى تحت ثقلها، وقفت على قدميها واعتدلت وبدأت تختفي في طريقها إلى القرية. ثم رفع بوكاري الساري، وخرجت الأبقار في صفٍ طويل ومُعَبَّرٍ باتجاه المرعى وأوراقها تهتز مثل أوراق النساء.

تبعنا الأبقار لأميال إلى حيث تتحول الغابة إلى سافانا كثيفة، وجلسنا وتحدثنا من وقت لآخر على العشب والقطيع يركى، ونمنا أحيانًا، فقط لنستيقظ على مئات من الرعوس تخور بهدوء عن بُعد مثل الجاموس الوحشي مستريحة في هذا العالم. حدثني بوكاري عن الله، عن أن كل نعم حياته — أبقاره وبناته — جاءت من الرب، وطلبتُ منه أن يقول لي بعض الكلمات البيولية، دَوْنَتْهَا صوتيًا بحروف رومانية في المفكرة التي أحضرتها. بالنسبة للغداء، تسلَّقتُ شجرة جوافة برية وجعل رداءه على شكل سلة لالتقاط الثمار

^{١٠} الماشية: في الأصل البراهمة Brahmins، وهي سلالة من الماشية لها حذبة بين الكتفين ولُغْدٌ متدِّلٌ، توجد أيضًا في جنوب الولايات المتحدة.

التي أسقطها إليه، وبعد ذلك ثنى بوكاري أوراق زنبق الماء من بركة إلى أكواب واسعة وحلب البقر فيها، وشربنا السائل الساخن، السميك مثل الكريم، مثل الأمراء. حين عبرت الماشية جدولاً، خضنا معها. حين وصلت إلى حقل أرز للورودوجو، جرى بوكاري إلى الأمام وأبعدها عن المحصول الذهبي بالصفيير والطقطقة. لم يضربها أو يؤذيها إطلاقاً. أطفاله، ويعرف أسماءها جميعاً. كان يوماً طويلاً ومرهقاً، لذيذاً في المشي، وحين بدأت الشمس تغرب، استدارت الماشية كأنها تستدير بالغريزة. بحلول المساء، كانت الغابة جداراً مظلماً أمامنا مرة أخرى في الوادي، وكنتُ أصفّر لها وأطقطق أيضاً، وأربت على مؤخراتها العالية كأنها أصدقاء قدامى. امتلأت مفكرتي بكلمات من لغة البيول: شمس وقمر وعُشب وماء ونجوم. دخلت الماشية الزريبة، تخور كأنها سعيدة بالعودة إلى البيت، وحين فك بوكاري العجول، اندفعت إلى أمهاتها، وجدت حلماتها، وبدأت ترضع بنهم.

«الآن نصلي لله يا أداما»، قال بوكاري، ونظف جزءاً في الزريبة بأداة مثل أداة مسح الأسمنت المبلول. أخذ يدي وجعلني أركع على ركبتني. «هكذا يا أداما. اتبعني»، قال، وانحنى خشوعاً باتجاه الأرض، ولمستها جبهته. نطق بكلمات عربية، عرفتها أيضاً لأنني سمعت الورودوجو ينطقونها يومياً. مع الورودوجو، كانت الكلمات مُلتفة ومُبهمة. وكان بوكاري يعرف الكلمات بنطقها الصحيح.

«أنت الآن يا أداما»، قال بوكاري، وهو يجلس على كعبيه ويبتسم لي. خفضتُ جبهتي إلى القذارة، هدأتني برودتها وليونتها. كانت اللغة العربية كالغناء. شعرتُ بالسعادة حين نهضتُ مرة أخرى.

أمسك بوكاري يدي في طريق العودة إلى مجمعه، وشعرتُ بأنني قريب منه. كان العشاء الذي أعدته النساء في الانتظار — توه الحبوب وحساء الفول السوداني — جميلة تجلس على مقعد قريب وتبتسم في الليل. كان شيء ما يحدث. ضغط بوكاري على يدي وقال: «طوال اليوم معي. مثل ابن.»

جاء مامادو ووجدني خارج كوكي في تلك الليلة. جلسنا على مقعدين ودخنا سجائر واستمتعنا بالنجوم، آخر جزء من القمر. قال: «إيه، أداما؟ كيف كان يومك مع البيول؟»

«كان يومي رائعاً.»

«آه، هذا طيب. وهل حققت تقدماً مع جميلة؟»

«ربما»، قلتُ وهزئتُ كتفي.

كان هادئاً بعض الوقت، يُفكر. كان مساءً بارداً وعند مدفأة الدكتور الساحر، تجمّع أبناؤه حول النار يقاومون الإحساس بالبرودة، والنيران تنتصب بين أشباحهم. ثم قال مامادو، وكأنه يستسلم: «وهكذا أنت فلا شي الآن. ذلك على ما سوف يكون. هذا كما يقول الأسلاف: «حيث يكثر الطعام يتجول الكلب. وحين يشعر بألم الجوع يزحف إلى النار خافضاً ذيله.»»

«تغار من البيول.»

«أغار؟ لا يا أداما. إنه مجرد مَثَل. جميل أن تستخدم الأمثال. جميل أن تتحدث وتجعل قلوبنا تعرف. أداما، ما يزعجك في هذه الأيام الأخيرة؟»

لم أرغب في قول شيء، لأواصل كما كنا جميعاً وكأن شيئاً لم يحدث. لكن شيئاً ما حدث، وكنتُ مرهقاً من حملة. «لا أحب ما حدث لزوجة بيبي.»

«لم يحب أحد هنا ذلك.»

«لماذا لم تتركها القرية تعود إلى أمها؟»

تطلع مامادو إلى يديه. قال: «خديجة قتلت طفلها. هل نملك شيئاً نفيساً سوى الأطفال؟ انتهت حياتها حين اختفى طفلها. حتى أمها قد تسممها. أداما، هل يمكن أن أحكي لك قصة؟ قصتين.»

حكى مامادو لي مئات القصص في السنة الأخيرة، وعشرات الأمثال.

في موسم من مواسم الجفاف ووالد أبي شاب، ذهب ثلاثة أولاد إلى الغابة ووجدوا خلية نحل في جذع شجرة. فكروا لحظة في العودة إلى القرية وإخبار جامع العسل، لكنهم قرروا غرس عصي في الخلية. جرى الولدان الأول والثاني إلى الأمام ووضعوا عصويهما في جذع الشجرة، وتراجعا سريعاً إلى الطريق. وكان دور الولد الثالث. أفقده صوت النحل شجاعته، لكن الاثنين الآخرين ضايقاه، فجرى إلى الأمام بعصاه ووضعها في الخلية فانطلق النحل في سرب أسود غاضب.

«جروا خلال الغابة. إذا كانوا ينتعلون صنادل فقد فقدوها. جروا بسرعة ربما جعلت حتى ملابسهم تسقط من على أجسامهم. انطلق النحل خلفهم بصوت يُمُّ عن الغضب. حين وصلوا إلى منطقة منزوعة الأشجار قبل القرية، صرخ الأولاد: «النحل قادم! الغضب قادم وراءنا!»

«جرى كل شيء بحثاً عن ملاذ؛ الأغنام والبط بحثاً عن العشب الطويل، العجائز إلى أكواخهن. اندفع الأولاد إلى أكواخ أمهاتهم، وأغلقوا الأبواب. خلال القرية كلها التفّ النحل

الغضبان كالدخان. عند مدفأة، أم عادت إلى البيت بعد العمل في الحقل لتستريح، وأطفالها الصغار معها. جرت إلى الأمام وإلى الخلف، والنقطت من أطفالها ما استطاعت، أخذتهم داخل الكوخ. وصل النحل. لم يكن أمامها ما تفعله سوى غلق الباب. نظرت من خلال شقِّ والنحل يهبط ويلسع ابنتها الرضيعة حتى الموت. ترى يا أداما؟»

ثم حكى لي مامادو هذه القصة: كان لدى عمه مصطفى كلبة وكانت مقتفية جيدة. كلبة رائعة حتى إن عم مامادو قدّم لها اللحم من حين لآخر. أحبت الكلبة العمّ، وإذا اقترب أحد من الرجل العجوز، ترفع الكلبة عجزيها وتعوي.

«لماذا لا تقتل تلك الكلبة اللعينة قبل أن تعض أحداً؟» ربما جادله الناس في كوخه. وكان العجوز يقول: «إنها صيادة رائعة. الأفضل في القرية. أحب أساليبيها الغريبة.» وقع العجوز مريضاً ورقد في الفراش. بدأت الكلبة تتجول في غيابه، حملت. تطلع الناس من كل ناحية إلى كوخ العجوز بحثاً عن علامات الشفاء. كان يعمل بجِدٍّ طوال حياته؛ مع أرباح القطن اشترى ما يرغب الناس في شرائه: راديو صغيراً، رداءً هولندياً مرناً، عدداً من القرعات يمكن استخدامها في أغراض كثيرة. حين مات، حرس الكلبة بيت كوخه بغضب يجعل أي شخص لا يجرؤ على الاقتراب منها والاستيلاء على أشياءه في الليل. ثم أتى ابنه من القرية المجاورة، سومينا، جمّع ما يخصه ودفن أباه.

خلا الكوخ ولم يبال أحد بإطعام الكلبة. إذا تجرأ أحد واقترب من الكوخ، تنهض وتنبج. انتشرت موجة سعار بين كلاب القرية وسيطرت عليها أيضاً. حين مضى الدكتور الساحر في القرية لقتل الكلاب بمنجله وجد كلبة العجوز أنجبت ستة جِراء. فطمتهم بشكل ما. تتبع كثير من أهل القرية، بدافع الفضول، الدكتور الساحر وهو يمزق الكلاب المريضة إرباً. تبعوه إلى كوخ العجوز، أتت الكلبة من مكانها بين الأغصان تنبج وترغي وتزبد من فمها. بضربة سريعة في عنقها قتلها الدكتور الساحر. توارت الجِراء بين الأغصان وعاد الدكتور الساحر إلى بيته.

بعد بضعة أيام، خرجت الجِراء من جديد. نبحت وعوت مثل الكلاب الكبيرة، وانتصب شعرها. أُصيبت هي الأخرى بالسعار. مضى الدكتور الساحر ليقتلها، لكن الجميع قالوا: «لا، ماذا يمكن أن تفعل؟ إنها صغيرة.»

لأسبوع يذهب الناس إلى كوخ العجوز والجِراء المسعورة تخرج من بين الأغصان على أرجلها القصيرة، تنبج وترغي وتزبد كالكلاب الكبيرة المسعورة. تخيل، هذه الكائنات الصغيرة تتصرف كأنها أكبر مما هي عليه؟ لم يرَ أحد مثل هذه الكلاب الصغيرة الغضبي. ضحك الجميع. ثم أُصيبت الكلاب بالهزال وماتت وحدها.

«ترى يا أداما؟» سألني مامادو وهو يُنهي قصته. وقف وفَرَكَ البوبو الذي يرتديه وكأن حكي القصة أخذ شيئاً ما منه. «لست غيوراً من البيول. أعرف أن حياتك هنا صعبة. لكن عليك أن تعرف أن حياتنا صعبة أيضاً. تجوّل الآن. لكن لا تلف مثل النحل إذا كنت لا تنوي أن تلتصق. لا ترغ ولا تزبد من فمك إذا لم تكن لك أسنان تعضُّ بها. ليلة طيبة يا أداما. نم واحلم بجميلة. تقدّم. سأكون سعيداً حين تعود.»

لم يجعل الورودوجو الأمر سهلاً بالنسبة لي. أينما سرتُ في الأيام التالية، لم أسمع إلا «صباح الخير أيها السيد بيول»، كيف حال زوجتك البيولية الجميلة؟» ذهبتُ إلى بوكاري ورعينا الماشية. بدا أن جميلة تُقربُ مقعدها منا أكثر في كل ليلة.

لا أستطيع القول إن جميلة دخلت أحلامي كما ينبغي أن يحدث في حب حقيقي، لكنها كانت جميلة واستمتعتُ بالتوتر. استمتعتُ أيضاً بوجودي مع البيول. الطعام الذي يأكلونه، النبرة اللينة في لغتهم، حتى الصلاة لله مع بوكاري في الزريبة كانت تشبه الهروب من عالم الورودوجو الذي أعيش فيه.

كل ليلة وجميلة تجلس أقرب إلينا، يبدو أن توترها يقل. هل أتزوجها فعلاً وأبقى معها في أفريقيا زوجة لي؟ هل أصطحبها إلى أمريكا، وأعود معها ومع أطفالنا إلى القرية في عربة طويلة، حاملاً الهدايا للجميع؟ كانت مصارعة العجول وتتبع القطيع عملاً شاقاً، مطلوباً كأني عمل آخر. ذات صباح توسلتُ قائلاً لبوكاري إنني في حاجة إلى راحة بصوت مُرتفع يكفي لأن تسمع حيث تقف تصحن الحبوب. تمنيتُ ألا تغلق أذنيها عما أقول كما وعدت ذات يوم.

جلستُ على مقعدي خارج كوكي في القرية الخاوية، أنتظر جميلة. أتت على الفور. إذا اعتقدتُ أنها ستندفع بين ذراعي من وراء ظهر أبيها فأنا مخطئ. وقفتُ عبر الفناء كما وقفتُ من قبل، والقرعة الواسعة على رأسها، ويداها في خصرها. دحرجت ثمرة يوسفيا إليها فالتقطتها. قشّرتها، أكلتها، وبصقت البذور. ثم قالت: «لماذا أنت في كوخنا دائماً أيها الرجل الأبيض؟»

قلتُ بالبيولية: «القمر والنجوم». تورّد خذاها خجلاً رغم إرادتها. للحظة بدت العينان المخططتان بالكحل لا تشبهان عيني طائر جارح بقدر ما تشبهان عيني غزالة. «أمي تعيش في مانكونو.^{١١} نبقى هنا فقط حين يتوفر العشب للماشية.»

^{١١} مانكونو Mankono: مقاطعة في ساحل العاج.

«هل هناك قمر ونجوم حيث تعيش أمك؟»
«أداما، كفاية. ألا تفهم؟ معنا، يجب إخبار الأم بعد الكلام مع الأب.»
«مانكونو بعيدة. لا أعرف حتى أين توجد مانكونو.»
«إيه؟ لماذا إذن فعلتَ هذا كله. انسَ أيها الرجل الأبيض. يجب أن أبيع اللبن الذي معي.»

تركتها تبدأ في الابتعاد عني ثم ناديت وراءها: «القمر والنجوم، سوف أهبُّ حتى إلى باماكو إذا كانت أمك تعيش هناك.» دحرجتُ ثمرة يوسفى أخرى بين قدميها. تطلعت إليها وتطلعت إليَّ وضيقتُ عينيها.

«لماذا تضايقني؟»

قلتُ: «ج-ميل-لة.»

«توقف! إن ذلك يزعج أذني.»

«جميلة، تعالي إلى هنا. أريد أن أريك شيئاً ما. صورة لأمي. إذا كان عليَّ الذهاب لرؤية أمك فعليك أن تأتي وتتطلعي إلى أمي.» دخلتُ إلى ظلمة كوكبي، انتظرتُ وبدأ قلبي يدق بقوة. بسرعة جاءت مرة أخرى وثمررة اليوسفي في يدها. أنزلت القرعة من فوق رأسها إلى الأرض، ورأيت الذباب يمتص نداوة قماشها الرقيق، الذي تغطّي به اللبن مثل جواهر سوداء. حدّقتُ من تحت سقف مدخلي وقالت: «فرّجني هنا.»

«ليس هناك»، قلتُ من ظلال كوكبي، «هنا. هذه لك لتريتها وحدك. أريد أن أريها لك

هنا.»

حدّقتُ في الفناء الخالي، عضّنت شففتها، وحننت رأسها تحت السقف ودخلت. قدمْتُ لها مقعداً فجلستُ عليه. كانت قدمها مغبرتين وبدت أصغر إلى حد ما بالقرب مني. حدّقتُ في كل ما حولها بدون أن تلتفت بوجهها، ورأيت كوكبي من خلال عينيها: حصيرة بالية من السعف، ناموسية مُعلّقة عليها من السقف، صندوقي حيث أحتفظ بأشياءى الغربية: تي شيرتاتي والبنطلونات الجينز، وزجاجات من أقراص الملاريا، ومفكرات؛ ثم منجلي وفأسي ذات اليد القصيرة، ملابس الحقل، إنائي الخزفي الذي أضع فيه الماء، بندقيتي والطلقات، الدلو الذي أستخدمه للاستحمام. إذا كانت تأمل في رؤية شيء ما هناك يكشف لها عن روعي فقد أُصيبَتْ بخيبة أمل. كان لديّ أقل مما لدى معظم الورودوجو. نَقَبْتُ في الصندوق المعدني وأُتِيَتْ لها برزمة صغيرة من الصور. نظرتُ إليَّ بحذر، وركعتُ وقَدَّمْتُ لها الصور.

أخذت الصورة الأولى بعناية، وكأنها تخشى أن تصيبها بأذى. صورة لأمي وأختي في هاواي، حيث ذهبنا بعد موت أبي. تحاولان أن تبتهما، رغم أن الشمس كانت في عيونهما. كانتا على ظهر سفينة في مكان ما، وفي أيديهما بيفيا كولاداس،^{١٢} مظلات الكوكتيل الوردية في المحيط. أمي تضع وردة صفراء خلف أذنها. وبدأت أختي شاحبة ومرهقة.

«أمك بدينة!»

«ليست بدينة جدًّا.»

«هل هذه زوجتك يا أداما؟»

«أختي.»

«هل هذه قرينتك؟»

«بشكل أو بآخر.»

«ما كل هذه المياه؟»

«ذلك هو المحيط.»

«شعر أمك في لون الأرض الناضج.»

«إنها تصبغه.»

«لكن الحنة^{١٣} تجعل الأشياء قاتمة يا أداما.»

استحسنتم جميلة الصور واحدة بعد الأخرى، فحسنتها بعناية كأنها تريد دخول أمريكا من خلالها: البيت الذي نشأت فيه تغطيه الثلوج، أختي بجوار صديق أو آخر في كامارو^{١٤} جديدة، أمي في حفل التقاعد، أنا في سترتي السوداء على طريق ميتشجان،^{١٥} وندف من الثلج على كتفي.

«كيف يبدو الثلج؟»

«يبدو باردًا مثل القمر.»

«أين العشب؟»

«بعيد عن المكان الذي نعيش فيه.»

^{١٢} بيفيا كولاداس: مشروب.

^{١٣} الحنة: بالعربي في الأصل.

^{١٤} كامارو Camaro: نوع من السيارات. ميتشجان Michigan: ولاية شمال وسط الولايات المتحدة.

^{١٥} ميتشجان Michigan: ولاية شمال وسط الولايات المتحدة.

«لن هذا الحَمَام؟»

«ليس مَلَكًا لأحد. يعيش على هذا النحو. لا أحد يأكله. العجائز اللاتي تركهن أبنائهن يحبين أن يُطْعِمَنَهُ الفول السوداني ويتحدّثنَ إليه.»
«هل هو مكان طيب للعيش فيه؟»
«أحيانًا.»

«لا بد أنكم أغنياء جدًّا لدرجة أن لديكم حمامًا لا تأكلونه، وتتركون العجائز يرمين المحصول له.»

بدون أن ندرك جلسنا متجاورين على الأرض. وتلامست أصابعنا مرة بعد الأخرى وأنا أعطيها الصور، وهي تشير لي إلى أشياء فيها: حذاء أحمر تنتعله فتاة في خلفية صورة، امرأة ترتدي قفازًا أخضر. كانت تفوح من جميلة رائحة خفيفة من القشدة والزبد، الخرز الكهرمان في حَلَقِها أصبح مألوفًا لي، والوشم حول شفثيها، كأن كل النساء يضعنه.
«ما هذا؟ كلب في سرير؟ هل أمريكا غنية جدًّا لتنام الكلاب في أَسِرَّة؟»
إنه روتويلر^{١٦} أختي، ديزي، على سريرها حين كان جَرَوًا. أمسكتُ الصورة وابتسمتُ قائلاً: «يفعلون ذلك أحيانًا.»

«كيف يمكن أن أعيش في هذه البلاد القذرة حيث تنام الكلاب في الأَسِرَّة؟» قالتُ جميلة مائلة عليّ وهي تضحك. كان جسمها دافئًا، وثقيلًا تقريبًا. وحولنا في كل موضع على الأرض صور لمكان بعيد، يَرُدُّ الناس فيها إلينا النظرة في مشهد رمادي من الخرسانة والثلج. لمستُ جميلة صورة لأمي بظهر يدها، وكأنها تُريد أن تتعرف على منحني وجنة أمي. بقيتُ قُرْبَ جميلة كما بقيتُ قربي.
«لن أعجب أمك لأنني سوداء.»

«ستعجب أمي أي واحدة أختارها.»

«سوف أسحق لها توه الحبوب وصلصة الفول السوداني.»

«قد تحب ذلك.»

«سوف أعدّها لها بحيث لا تلمس أمك أبدًا إناءً بقية حياتها.»

«لا أظن أن أمي فعلت ذلك منذ فترة طويلة.»

«وكيف يمكن أن أجامل أختك؟»

^{١٦} روتويلر rottweiler: سلالة كلاب ألمانية، تُنسب إلى مدينة روتويل Rottweil شمال ألمانيا.

«يمكن أن تجدي شعريها».

أظلم ظلُّ المدخل. كانت العجوز، وعصاها في يدها تهشُّ بها البط. حدّقت في الداخل حتى تتكيف عينها. «فلا موسو، اخرجني من كوخ أداما. خذي لبنك قبل أن يروب. اذهبي إلى منزل أبيك»، قالت بصوت منخفض، صارم لا ينم عن غضب. خرجت جميلة وساعدتها العجوز في حمل القرعة على رأسها. ثم خرجت أيضًا لأشاهد جميلة وهي تتباعد.

قالت العجوز لي: «يا أداما، أليست لديكم نساء من حيث أتيت؟»

«لدينا يا أمي».

«لماذا إذن تززع هذه الفتاة؟»

«أنا لا أزعجها يا أمي».

قالت ونخستني بعصاها، «أداما، أليس هذا ما تفعله؟ رجل؟ رجل آخر يززع فتاة؟ اذهب إلى الحقل واعمل، أنت كبش كسول. «هذا الرجل الأبيض، ذلك الرجل الأبيض». منذ كنتُ صغيرة والناس يقولون ذلك. آه يا أداما، إذا كانت أمك هنا لَوَبَّخَتِكَ. اذهب إلى الحقول الآن قبل أن أضربك بهذه العصا. تَوَّج جبيننا أوج جبيننا، كوناني أوف لا ويللا»^{١٧} في الغابة أو الحقل، الظبي هو الظبي. «يا لها من خيبة أمل!»

هل أحببتُ جميلة؟ أحببتُ أفريقيا، أحببتُ وجودي في الحقول مع بوكاري وماشيته، اليدين الحنونين اللتين يضعهما على مؤخراتها. أحببتُ صوت الأطفال وهم يغنون في الليل، الستارة الطويلة من النجوم. أحببتُ الغابة وأحببتُ وجودي فيها. أحببتها وهي تُمطر والهواء بالغ النقاء، ولا مثيل له إطلاقًا.

بعد يوم طويل مع بوكاري، وبعد دخول القطيع الزريبة والخوار، تمنيتُ له ليلة طيبة، وحييتُ الجالسين عند المواقد هنا وهناك، ثم وجدتنِي جميلة في الظلام. سِرْنَا في مسارات بين أعشاب طويلة على حافة القرية مثل حبيبين من زمن قديم، القمر يتهدأ فوقنا. خشيتُ أن تشعر بالبرد في أمريكا ووعدتها بأن أشتري لها معطفاً لتبقى دافئة. ضايقتها بأنها يمكن أن تبيع اللبن في تلك المتاهات الفولاذية التي رأتها في الصور، بأنها يمكن أن تصطاد ذلك الحمام الذي لا يملكه أحد وتبيعه أيضًا. ضحكْتُ وضربتني على يدي، هذه الفتاة الموشومة من مالي.

^{١٧} توج جبيننا أوج جبيننا، كوناني أوف لا ويللا: باللغة المحلية في الأصل.

ونحن متكئون نرشف الشاي ذات ليلة، وقد اكتمل القمر في النهاية، قال لي بوكاري:
«أنت مثل ابني حقًا يا أداما. اطلب ما تريد ويكون لك.»
ذهبتُ إلى بيت مامادو. أهملته فترة طويلة، لكنه لا يزال ينظف لي مقعدًا. ابتسم
وسأل: «آه، سيد فلا شي! وقت طويل. هل الماشية بخير؟»
«أعتقد أنني أريد أن أتزوج جميلة.»
تلاشت ابتسامة مامادو. تطلّع إليّ باهتمام. كانت الليلة مظلمة، ونيران الموقد تومض
فيها. قال: «جميلة بالغة الجمال. هادئة وتعمل بجدية. أي رجل يتمناها زوجة له.»
«أريدك أن تُكلم بوكاري من أجلي.»
«هل هذا يعني أنك ستكون بجواري دائمًا؟»
«ربما.»
«وهل أنت متأكد من أن ذلك يسعدك؟»
أومأت.

بعد يوم قضيته وحيدًا أصطاد الدراج^{١٨} في الغابة، شعرت بأنني أحب جميلة حقًا،
فعدتُ إلى القرية وطلبتُ من مامادو زيارة الرجل العجوز. تطلعتُ إلى النجوم من تحت
شجرة مانجو أمه ودخنتُ سجائر وأنا أنتظر. هنا كانت زوجتي. حين عاد مامادو، جلس
بجواري وتنهّد كما لو كان مستهلكًا. قال: «أداما، وافق بوكاري بمجرد أن دخلتُ إلى فناءه
تقريبًا.»

«ماذا يحدث الآن؟»

«ننتظر. سوف يرسل كلمة إلى مانكونو، ونقرر الأم. هذه طريقتهم.»
صارت الأيام طويلة. تجنبتُ مجمع جميلة طبقًا للعُرف، وتجنبتُني. ساد سكون
في القرية. عرفتُ من النظرات الطويلة التي يلقيها الناس على أنهم يعرفون. ولم أعرف
رأيهم في ذلك. لكنهم ما عادوا ينادونني «السيد بيول» بعد ذلك، حيث إنها لم تعد نكتة.
ليالي طويلة أستلقي مستيقظًا في ظُلمة كوشي، شعرتُ بأنني سأقترف خطأ فظيلاً إذا لم
أستطع حل ذلك الآن. ثم رأيتُ جميلة في خرزها ودثارها وقطع العُملة عبر القرية، تنحني
إلى الخصر وتسحب الماء من بئر، وفكرتُ في نفسي، تلك امرأتي.

^{١٨} الدراج: francolin: طائر أفريقي يشبه الحجل.

ذهبتُ إلى العمل في الحقول مع الجيران لتمضية الوقت. لسبب ما. سعدتُ بوجودي مع الوردودوجو مرة أخرى، نُغني أغاني الحقل، والعودة إلى ذلك الإيقاع المألوف. نظرتُ إلى صور أُمي وأختي من حين لآخر في كوشي. بدتا مثل أناس لم أعرفهم أبدًا. جاء بيولي صغير يقظ أسود من مانكونو على قدميه. وصلت الكلمة أخيرًا. جرت الغمغة في القرية. انتظرتُ تحت النجوم مع مامادو وصول الرسول إلى كوشي ليخبرني بما تتحول إليه حياتي.

كان طويلًا ونحيلًا. يرتدي رداءً من الساتان الأخضر بزركشة ذهبية مطرزة حول العنق. وقف أمامنا مثل أمير من الصحراء. قدّم له مامادو مقعدًا، فرفض. قال: «إذا كان الرجل الأبيض يريد ابنة بوكاري فابنة بوكاري له. تلك كلمة أمها. انتهى.» استأذن الشاب في الانصراف، وسمعتُ مامادو يأذن له. ثم هز مامادو كتفي. قال: «ابسطُ يا أداما! تحقق ما أردتَ. الله أكبر! ^{١٩} عليك أن تتزوج!»

لكمني لم أتزوج جميلة لا هذه المرة ولا غيرها. في الصباح، قفزتُ إلى شاحنة محملة بالأخشاب إلى سيجولا، ^{٢٠} بقيتُ أسبوعًا في المدينة، أسبوعين. حين عدتُ إلى القرية كانت جميلة قد رحلت. لم أوضّح موقعي لبوكاري، ارتبك جدًا. أيضًا، كان من البيول ولم يكن عليّ أن أفعل ذلك.

لأسابيع لم يحدثني أحد في الأمر. ثم ذات ليلة ونحن نُشعل السجائر ونسند على شجرة المانجو بعد العشاء، قال لي مامادو: «لبن أم لحم يا أداما. في تلك الأوقات فقط نتعامل مع البيول.»

أومأت وأنا أدخن سيجارتي وأتأمل النجوم.

جاء بائع خرز متجول بعد ذلك ببضعة أيام بحكاية. كنتُ في الحقول ولم أره. وقعتُ فتاة بيولية جميلة في مانكونو في حب رجل أبيض، وتعرضت للاحتقار. لبضعة أيام أصابتها علّة شديدة ثم صارت في حالة طيبة من جديد. الآن صارت مشهورة لأنها تُعطي صدقات من اللبن لمتسولين مصابين بالبرص في سوق مانكونو. حين يسألها الناس عن السبب، تقول لأن المصابين بالبرص يُذكرُونها بالرجل الذي أحبته. رأى القرويون أن الحكاية لذيدة. استوقفوني من حين لآخر خلال السنوات التالية ليحكوها لي، ضاحكين بصعوبة ليذكرُوني بأنها لم تكن قصة مضحكة على الإطلاق.

^{١٩} الله أكبر: بالعربي في الأصل.

^{٢٠} سيجولا Séguéla: من مقاطعات ساحل العاج.

في عين دب

تأليف: يانيك مورفي^١

سمعت الدبّ، ينبع مثل بومة، فقط بصوت منخفض، يبدو مثل صوت بومة في أعماق بئر أو كهف. نظرت من النافذة. كان في الحقل فوق بركة على ساقيه الخلفيتين. يهز التفاح على الشجرة. لم يكن ولدها يتطلع إلى الدب في الحقل. كان قرب البركة. الدب ليس قريباً جداً والولد ليس بعيداً جداً. إذا أراد الدبّ، فإنه يستطيع أن يجري إلى الولد ويكون فوق ولدها في لمح البصر، في الوقت الذي تستغرقه تفاحة للسقوط من الغصن إلى الحقل. خرجت تجري ومعها بندقيتها.

كان شعر ابنها أسمر يتحول في الصيف إلى اللون الأشقر تقريباً. في ضوء الشمس المشرقة تخيلت كيف يبدو شعر ابنها ذهبياً، كيف يبدو حين يتحرك، لأنه لا يبقى ساكناً أبداً، كيف يلتفت لون شعره نظر أي شخص، حتى لو كان دباً. وهي فتاة أرادت أن يتحول شعرها إلى ذلك اللون. قطعت فصوص ليمونة وطوتها حول خصلات شعرها وعصرت فصوص الليمونة حتى النهاية. واستلقت وأخذت حمام شمس. فردت شعرها خلفها على فوطة. كانت الخصلات لزجة، وبذُر الليمون متشابك فيها في بعض المواضع. طار النحل قرب شعرها. ظل اللون أسمر فاتحاً.

^١ يانيك مورفي Yannick Murphy: كاتبة أمريكية. والعنوان الأصلي للقصة In a Bear's Eye.

البندقية أثقل مما تتذكر. ربما كانت في ذراعها عضلة أقوى حين حملت البندقية مع زوجها في الغابة. كانا يصطادان قنبرات^٢ كل موسم. العضلة ضعيفة الآن. لتصل إلى ولدها تعرف أن عليها أولاً أن تربض خلف الجدار الصخري ثم تجري، مثل جندي، وتختبئ خلف الأشجار. عليها بشكل ما أن تكون مثل ثعبان؛ أن تتصرف مثل أفعى. أليس هذا ما يقوله الجندي؟ مثل الأفعى، كان عليها أن تجري إلى صف أشجار تحيط بالحقل لنحو مائة قدم. لم تُفكر في قدرتها على القيام بذلك. يمكن أن تُرى في النهاية. قد يتوقف الدب عن هز شجرة التفاح ويتلفست مستنشقا الهواء. ربما أتى الدب إليها.

كان زوجها هو الذي يصيب القنبرات دائماً. كان بارعا في إصابة الهدف. كانت تُصوّب عاليًا جدًا دائماً. كان زوجها، وهي تصوّب، يضع يده على قمة بندقيتها، لكي يخفضها، لكنها لم تصب قنبرة قط.

أخذ الولد صخوراً صغيرة من شاطئ البركة. وقف وأخذ يُلقي بها في الماء. «اجلس»، قالت هامسة بصوت لم يبدُ مثل صوتها.

لم يكن الولد متفوقاً في المدرسة. أحبّ القراءة أثناء الحصة. تحت الطاولة يحتفظ بكتاب مفتوح. كتاب عن القنادس أو الفراشات أو العناكب. بعثت المدرّسة إلى البيت بملاحظات إلى أمه. قالت الملاحظات على الولد أن ينتبه. كان ابنها يقرأ لها أحياناً من كُتبه وهما يتناولان العشاء. كانت هناك أشياء لم تعرفها أبداً وهي فتاة. تولد الفراشة الأنثى لدود القز بدون فم. لا تعيش ما يكفي لتحتاج إلى الأكل. لا تعيش إلا ما يكفي للتزاوج ووضع البيض قبل أن تموت. كان ولدها يتوقف ويُريها الصور. وربما هزت رأسها. اندهشت كيف لم تعرف قط وهي فتاة ما يعلمه ولدها في هذا العمر. هل كانت مشغولة جداً بعصر فصوص الليمون على شعرها فقط؟ لم يقل ولدها أبداً إنه حزين لأن أباه، زوجها، مات، لكنها تعرف أنه حزين. كان زوجها مثل كتاب يتكلم. على مائدة الطعام يحكي لابنه عن العلوم والرياضيات. تحدّث عن الصفر. قال زوجها: «أفزع الصفر القدمات. لم يكن هناك من يريد أن يُصدق أن لا شيء هناك.»

نزل إلى المحيط ذات يوم ولم يتوقف عن المشي. تحب أن تعتقد أنه لا يزال يمشي تحت الماء. كانت أسماك الورنك^٣ تقلّب الرمال وترتفع إلى السطح وهو يمشي بجوارها. دخلت

^٢ القنبرة أو الطيهوج grouse: طائر يشبه الدجاج يعيش في النصف الشمالي من الكرة الأرضية.

^٣ الورنك skates: نوع من السمك، مفلطح له زعانف صدرية طويلة تمتد حول الرأس.

المياه ثنايا قميصه وانتفخ ظهر القميص. تحدّثت هي وولدها عن هذا أحياناً. قال ولدها كيف طفا شعره وتموّج مثل أوراق طويلة على نباتات بحرية. قال ولدها كيف مدّ والده يده إلى السمك المنتفخ،^٤ رغباً في أن يراه يتحول إلى كرات مليئة بالشوك. كان أبوه يلمس أي شيء وهو يمشي، الجوانب الخشنة لأفواه الكهوف حيث يندسّ الأخفس^٥ ويُقلّب عيونته، والجوانب السفلية المتدلية لشطآن البحر تُسقط سُحباً من الظلال فوقه. قال الولد لأمه: «لا بد أن أبي في الصين الآن.»

الصين لأنه بعد أن مات ونظّف الولد والأم أدرج الأب، وجدا دليل سفر إلى الصين. لم تكن لديهما فكرة عن اهتمام الأب بالذهاب إلى الصين، كُتِب على الدليل من الخارج «انظر السور».

رأت الأم كيف مالت الشمس خلف التل. وضربت أشعتها الأخيرة الفولاذ الأسود في بندقيتها وضربت قمة شعر ولدها قبل أن تغرب. انتهى الدب، أسقط كل التفاح تقريباً على الأرض. بدأ يأكله. رأت الأم كيف أن الولد صار في أمان، سيأكل الدب ويرحل وربما لا يتطلب الأمر أن تجري مقتربة من الدب، من شجرة إلى شجرة، في انتظار طلقة قد تخطئ في تصويبها لأن زوجها ليس هناك ليضع يده على بندقيتها، ويدفعها إلى أسفل، ويمنعها من التصويب عاليًا جدًا.

لم تنقِض فترة طويلة على قدوم مُدرّسة الولد لرؤيتها. أبقت باب الحاجز مفتوحاً من أجل المُدرّسة وطلبت منها الدخول. جلسوا في المطبخ وسألت المُدرّسة الولد إن كان يُمكنُها التحدث إلى أمه على انفراد. أولاً الولد وسحب الكتاب من على طاولة المطبخ وغادر المكان. سمعت الأم خطوات الطفل وهو يصعد السلم ويغلق باب غرفته. قالت المدرسة: «ولدك ذكي، لا بُدَّ أن موت الأب كان صدمة. لكن يبقى أن هناك مدرّسة.»

فتحت الثلجة لتقدم شيئاً للمُدرّسة. لم يكن هناك الكثير. لم تذهب إلى المحل منذ أيام. فتحت الدرج الأخير ووجدت ليمونتين. أخرجتهما ووضعتهما على الطاولة، ثم تدرجتها لحظة. أحضرت الأم لَوْحَ تقطيع من الخشب ووضعت الليمونتين عليه وقطعت كل ليمونة إلى أربعة أجزاء. أذاحت لوح التقطيع باتجاه المُدرّسة. «من فضلك خذي بعضها.»

^٤ السمك المنتفخ puffer: نوع من الأسماك البحرية السامة غالباً.

^٥ الأخفس groupers: نوع من الأسماك الكبيرة يعيش في قيعان البحار الدافئة. شيطان البحر manta rays أو devilfish: حيوان بحري يعيش في البحار الاستوائية.

لم تقل المدرسة شيئاً. بعد لحظة قالت المُدرّسة: «آسفة، آتي في يوم آخر لأتحدث عن ابنك.» حين رحلت المُدرّسة، صعدت الأم إلى ولدها. كان يقرأ في كتاب عن العناكب. استلقيا معاً على السرير يشاهدان الصور.

ستأخذ ولدها في رحلة. يذهبان إلى الصين. يريان السور. ربما يبحثان عن علامات عليه. عليها أن تقول للمُدرّسة إن الولد سيغيب أياً ما عن المدرسة وقد تكون أسابيع. عند البركة اعتقد الولد أنه سيحاول. مشى ببطء. ملأ الماء الأسمر حذاء التنس الذي ينتعله. الجو بارد. والولد يعرف من الكتب أن للقنادس حواشي من الجلد خلف أسنانها الأمامية. يمكنها أن تغلق الحواشي حين تكون تحت المياه، مانعة خروج المياه من أفواهها وراثاتها. حين صار الماء فوق عيني الولد وأخيراً فوق رأسه، تخيل الولد أن له مثل هذه الحواشي. فتح عينيه تحت الماء. كان الظلام يشبه أربعة جدران من حوله. ربما كان يستطيع مد يده ولسها.

توقف الدب عن الأكل. استنشق الهواء ورفع رأسه. ذهب باتجاه البركة. حين سار بدا مثل رجل يمشي الهويني. لم تعرف قبل ذلك أن الدببة تنعب مثل البوم وتمشي الهويني مثل الرجال. تبعته. لم تجر من شجرة إلى شجرة. جرت في خط مستقيم. «لا، لا، لن تُصيب أبداً أي شيء يتحرك بهذه الطريقة»، تستطيع أن تسمع زوجها يقول. أين كان الولد؟ أين كان زوجها؟

رأت رقرقة في البركة حيث نزل ولدها ثم لاحظت أن الدب يتطلع إليها. شفته العليا ملتوية. وعلى صدره بياض، على شكل مُعين ناقص، تمدد المُعين، ذاب المُعين. تركت البندقية تسقط. جرت مسرعة خلال أعشاب اللبن^٦. طارت إلى الرقرقة التي صنعها جسد ولدها. تريد إنقاذه. تريد أن تقول له يجب ألا تغرق. سبحت تحت الماء، آملة أن تناديه تحت الماء، آملة أن ترى خلال شق في الظلام. لم تأخذ نفساً قبل أن تغطس ولم تصدق أنها لا تحتاج إلى نفس. فكَرت لحظة في ضرورة أن يُخطئ الجميع، لا حاجة إلى كتم النفس تحت الماء. عرفت هذا آنذاك. اعتقدت أن ولدها يعرف ذلك أيضاً. اكتشف الاثنان سراً. استطاعت التوقف عن تحريك يديها في الماء، باحثة عن ولدها. ستصعد وتخرج حين تستعد. حين خرجت إلى السطح أدركت أن البركة ضحلة. كانت واقفة والمياه تصل إلى وركها فقط.

^٦ أعشاب اللبن milkweed: نبات له عصارة لبنية، يُعرف أيضاً بأعشاب الحرير silkweed.

كان ولدها على الناحية الأخرى من البركة. يجلس على صخرة كبيرة مفلطحة على الشاطئ. ويمسك بشيء في يده. والدب يشاهدهما، ولم تعد شفته ملتوية. مشّت إلى ولدها وهي لا تزال في الماء. سحبت أكمام قميصها وجرت رجلي بنطلونها خلفها. أبعدت شعرها عن عينيها.

كان في يد الولد وحل جرفه من قاع البركة.

قالت: «ما هذا؟»

«ربما بعض الذهب»، قال الولد وهو يحرك الوحل ويضغط عليه في راحته.

قالت الأم مشيرة إلى الدب: «انظر هناك.» استدار الدب ويمشي الهوينى مبتعدًا.

قال ولدها: «نعم. رأيته منذ وقت طويل. إنه يحب تفاح شجرتنا.»

في تلك الليلة أخبرت الولد بأنه ربما من الأفضل ألا يذهبا في رحلة إلى الصين رغم كل شيء. ويجب التفكير في المدرسة. أوماً الولد، وقال: «حسنًا.»

فكرت في كيف افتقدت زوجها. فكرت في أن عليها أن تفتقده كما تفتقد النساء أزواجهن الموتى. سترتدي قمصانه. أليس هذا ما فعلته النساء الأخريات؟ يمشين مسافات طويلة ويُفكرن في أزواجهن وحين يعرقن لا تكون الرائحة التي تفوح منهن رائحتهن بل رائحة رجالهن الموتى؟

صيف مع توأم

تأليف: ريبيكا كورتيس^١

في ذلك الصيف عشتُ مع توأم سيرانو في منزل والديهما الصيفي. قابلتُ التوأم في الكلية، ورغم اتساع الجامعة، يعرفهما الجميع وينادونهما بالتوأم. كان هناك توأم آخرون، مثل حامي وحميد، فتَيان إيرانيان يبتسمان لكل من يقابلهما وهما يمشيان عبر الحرم الجامعي، ويحييانه وينحنيان له، ولم يبال أحد بهما. كانتا بنتين، طول الواحدة منهما خمس أقدام وثمانية بوصات، بشعر أسمر طويل وناعم يصل إلى منتصف الظهر. كانتا رياضيتين، نجمتي كرة قدم في المدرسة الثانوية، لا يمكن ملاحظة وجهيهما إن لم تكونا معاً، كانا بيضاوين مع بعض نظرات السخط «شفاه ممتلئة، وعيون بُنيَّة قائمة، وذقنان يَبْرُزان حين تتحدثان». حين التقيتُ بهما أول مرة، تساءلتُ عن سر كل هذه الجلبة، فقد بدتا غبيتين. تحصلان على تقدير سيئ في الاقتصاد رغم أنها المادة الأساسية لهما. اعتقدتا أن سنغافورة مدينة في الصين، وذات مرة مكثتا ساعة تتطلعان إلى إيران في خريطة. لم تكونا جميلتين بشكل لافت، ولا عطوفتين بشكل خاص. تفعلان كل شيء بحماس: إذا تناولتا قزما من طعام فالطعام لذيذ؛ إذا قَبَلتا ولداً فالقُبلة طويلة وعميقة؛ وإذا ذهبتا

^١ ريبيكا كورتيس Rebecca Curtis: ولدت في واشنطن ونشأت في نيو همبشاير، وتعيش في بروكلين، نيويورك. والعنوان الأصلي للقصة Summer, with Twins.

للنوم فالنوم بلا أحلام وسماوي. غضبتُ من حماسهما فقد بدا زائفًا لكنه أَسْرَنِي فيما بعد وأدركتُ أنه أصيل.

بعد بضعة أسابيع تعلمتُ التمييز بينهما: كان حاجبا جان أكثر قتامة وسُمكًا وقربًا من عينيها؛ شفتا جيسكا أكبر ووجنتاها مكتنزتان، وجه جميل لغرفة النوم، كأنه مكان تستريح عليه يد أو وجه آخر. كانت أصغر بثلاث دقائق، وأحلى، وأسرع في الغضب وأسرع في العفو. فيما بعد، بعد انتهاء الصداقة بيننا، ربما تفرقت اهتماماتهما، لكن حين عرفتُهما كانتا تدرسان المواد نفسها، وتقضيان الوقت كله معًا، تتناقشان في ملابسهما المشتركة، وفيما يتعلق بالسياسة كانتا متفقتين، وبقدر ما أعرف، ستكونان دائمًا: فضّلنا أصحاب المبادرات الخاصة، الاقتصاد الحر، عدم التدخل الحكومي بأي صورة.

كان أبوهما مصرفيًّا، وخططتا لأن تصبحا مصرفيتين أيضًا، وكانتا تقحمان التعبيرات المالية في كل ما تقولان.

عرفتا أنني في حاجة إلى نقود للكلية، فقالتا لي إن البلدة التي فيها منزل صيفي للوالدين تكتظ بمطاعم فخمة. قالتا إننا جميعًا يمكن أن نعمل نودل في أحدها، طوال الصيف للحصول على مبلغ كبير. وأنا في المدرسة الثانوية لم يكن المطعم الذي أعد فيه الطاولات يُقدِّم إلا سندوتشات، فوافقتُ. اندهشتُ حين صرْتُ والتوأم صديقات لأنني، فيما يتعلق بالكلية، لم أكن موجودة؛ لكنهما اعتقدتا أنني مسلية. في أول يوم التقينا فيه خرجنا لتناول الغداء. على الغداء، شاهدتاني أعصر ليمونة في كوب ماء. وشاهدتاني أفتح مُحلّيًا زائفًا ورديًّا وآخر أزرق، وأضعهما في الماء، وأُقلِّب الماء بالماصة. طلبتُ جيسيكا رشفة. أعلنت أنه لذيذ. بعد دقيقة جرّبت جان رشفة. اتسعت عيناها بهجة.

قالت إنه عصير ليمون الفقراء.

ثم عصرت كل منهما ليمونة في كوب ماء وأضافت محلّيًا أزرق وآخر ورديًّا. قالت: أنت مسلية! أحبُّ ذلك!

منذ ذلك الوقت، كلما خرجنا لتناول الغداء نشرب جميعًا عصير ليمون الفقراء. قالتا إن عليَّ أن آتي وأمكث الصيف لأنهما تشعران بالوحدة معًا وتشعران بأنهما أفضل في وجود شخص آخر.

حين وصلتُ أصابتنِي رجفة. لم يكن منزل والدي التوأم الأجمل على البحيرة، لكنه مكون من طابقين من الطوب الأبيض، أرضيته الخلفية واسعة وفناؤه الخلفي يمتد إلى الشاطئ. تسمح نوافذ المنزل بدخول الشمس طوال النهار، وكانت البحيرة عميقة وصافية

وقاعها رملياً، وفي الجراج سيارة فيات حمراء قديمة، قالتا إنها يمكن أن تسير بسرعة واحد وعشرين ميلاً على الطرق المستقيمة في البلدة.

كان المطعم الذي اختارته التوأم حانة الكريسماز، على الطريق الرئيسية قرب الشاطئ. غرفة الطعام طويلة مستطيلة في المقدمة، والبار خلفها مساحة ضيقة إلى حد ما ومربعة. في الغرفتين سجاد أخضر بوبر ومفارش خضراء كثيرة للطاولات. لم يكن مكاناً جذاباً. كان يقدم أطعمة بحرية وشرائح لحم، بأسعار مُبالغ فيها. بعد أن ملأنا طلبات العمل، قابلنا بوريس، المالك وكبير الطباخين، رجل بطن ضخم وشفائر فضية طويلة بعض الشيء على رأسه. له عينان زرقاوان مَرحتان، وأنف بنفسجي منتفخ، وشففتان ورديتان مشقوقتان. يرتدي تي شيرت أبيض وشورت أسمر مائل للاصفرار، ومريلة قصيرة دموية. ذراعه ممتلئتان، وجسمه مفرد، وبطنه يتدلى أمامه مثل سرب من الإوز مقطوع الرأس. ألقى نظرة على طلبات التوظيف التي قدمناها، ورأى أننا بلا خبرة، وقال: «إننا نبدو مناسبات». قال إن المطعم يمكن أن يوظف فتيات جميلات. ثم نظر إلى المرأة التي تتحرك في غرفة الطعام، تعد موائد العشاء. ربما في الخامسة والأربعين، شعرها أسود قصير وبشرتها زيتونية وعيناها كئيبتان ومرهقتان.

قال: لدينا دينا بالطبع. لدينا دينا منذ فترة، كم، عشر سنوات؟
قالت المرأة شيئاً ولم تلتفت. ونظر بوريس إلينا. ثم نادى عليها وطلب منها أن تُرينا المطعم.

شكراً، لقد أرينا كل شيء، قالت جان، حين انتهت.
لا تشكريني، قالت دينا. أؤدي وظيفتي.
حسناً، شكراً لك على أي حال، قالت جان.
قالت دينا: هذا ما نحتاج إليه بالضبط. ثلاث فتيات بلا خبرة.
حين عدتُ مع التوأم إلى البيت، خرجنا لنسبح في المساء في البحيرة ثم جلسنا في غرفة المعيشة نتناول فشاراً بالزبد ونشاهد التلفزيون.

قالت جان: حصلنا على وظيفة.
قالت جيسيكا: مظهر دينا.
قالت جان: النوادل بهذا الشكل حين يكبرن، من ممارسة هذا العمل لفترة طويلة.
يكتسبن مظهراً جامداً وقدرًا. التفتت ناحيتي: تعرفين ما أقصد؟
لم أكن أعرف حقاً. لكن أردتُ حقاً أن أبدو وكأنني أعرف، فأومأت وقلت: تقصدين أنها تبدو مثل بغي.

قالت جان: ما البغي؟
قلتُ: مثل القذرة الجامدة.

قالت جان: أوه. ثم قالت: نعم. ذلك بالضبط ما قصدتُ.
علمنا أسبوعين تحت إشراف دينا. كل ليلة، تحت إرشاد دينا، نضع المشروبات على طاولات دينا، ونقوم بالخدمة على طاولات الطعام، وننظف الأطباق القذرة على طاولاتها، ونعيد ترتيب الطاولات كما كانت ونُقدِّم لها البقشيش. نأخذ النقود، نطوي الفواتير، ونضعها في مريلتها. بمرور الوقت تتحدَّر سيقاننا، وتتملَّح أجسادنا من العرق، ويصبح شعرنا مشحماً منه، وكانت دينا ترتدي معطفاً رقيقاً أسود بحافة بالية. تنتظرنا قرب الباب. تشكرنا، وتتأسف لأن المبلغ ليس كبيراً، وتعطي كلَّ واحدة بضعة دولارات.
حين حدث ذلك أول مرة، قالت التوأم، ونحن في الطريق إلى البيت: يا لها من بغي.
قالت جيسिका: نقضي آخر صيف ممتع لنا. شعرها يتطاير على المقعد الأمامي في السيارة، والجدائل الياشمينية تضرب وجهي. وراء الطريق عدد هائل من أشجار الأناناس تنحني باتجاه بعضها والللمبات المكورة تومض على قطع الجرانيت. قالت جيسिका: حين نكون مصرفيات في بنك استثماري لن نأخذ أبداً هِبات وسوف نعطي عشرة دولارات للمتشردين.

قالت جان: أموت لو كنتُ نادلة في الأربعين. هل رأيتما الأوردة المنتفخة في ساقها؟
قالت جيسिका: يكون الوضع أسوأ إذا حملتِ صواني. لا نحمل صواني. ونمارس هذا العمل لصيف واحد فقط. في الصيف القادم وراءنا تدريبات عملية.

قالت جان: أوردتها ضخمة.

قلتُ: أشعر بالأسى تجاهها. عندها طفلان.

قالت جان: ربما تعرضت للإجهاد مرتين.

قالت جيسिका: جان! لا تقولي ذلك!

أدارت جان عينيها. قالت: أمزح.

حين وصلنا إلى البيت شربنا الشاي وشاهدنا بعض الاستعراضات كما نفعل كل ليلة قبل النوم. حين استيقظنا في الصباح، شربنا عصير الماء — لم نكن نتناول شيئاً كل صباح إلا عصير الماء، حفاظاً على صحتنا — ثم نستريح لساعات على الشاطئ الأبيض بجوار المنزل، وننزل أحياناً إلى البحيرة.

في البداية كسبتُ دينا معظم النقود، وبسرعة كسبت التوأم ضعف ما تكسبه دينا أو ما أكسبه، أو ثلاثة أمثال دينا أو أنا. لا يبدو أن دينا تلاحظ؛ لا يبدو أنها تلاحظ غالباً. كانت

نادلة أفضل من التوأم، وكان مع التوأم سلاح سري، التشابه بينهما. وسط الوجبة، قد يمد رجل يداً بدينة قابضاً على كتف في يده الرطبة، ويقول، عسل؟ جان؟ وتقول جيسिका: أنا جيسिका. لكن يمكن أن آتي بشيء لك. ماذا تحتاج؟

ترفُّ رموش الرجل، وترتعث زاويتا فمه، وتضغط كل شفة على الأخرى ويصدر صوت اعتراض. وبعد ذلك قد يقول: هل أنتما توأم؟ فتومئ جيسिका.

قد يركز الآخرين في الحفل أحدهم، ومعظمهم أطباء ومحامون وأطباء أسنان ربما ربواً لحى قصيرة وأتوا من مساشوسيتس^٢ على موتوسيكلات لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. ويقول: توأم. النادلان توأم!

أعرف ذلك، ربما يقول شخص آخر بتواضع. شاهدتهما. تنتظر جيسिका، في هذه اللحظات بصبر لا نهاية له، وهي تحفظ توازن الأطباق الفارغة في يد، وتمسك بكأس نبيذ فارغ في الأخرى. ثم قد يقول الرجل الأول، مرتباً على وجهه رقيق محترق من الشمس: هل أنتما متماثلتان؟

بانتهاؤ الليلة، يستطيع نصف الحاضرين على المائدة التمييز بين جان وجيسिका، لأن الاثنتين قامتتا بالخدمة لهم، وربما انتزعوا حكاية طموحات التوأم منهما. وربما قدموا للتوأم أرقام تليفوناتهم، وأذهلهم أن التوأم تحبان الجولف وتحبان التجديف أيضاً، كما تحبان التزلُّج على الماء؛ ويأخذون وعداً من التوأم بالاتصال بهن، ليمارسوا هذه الأشياء معاً، ويستطيع من في الحفل التمييز — تلك أكبر، لتلك شفتان أكبر قليلاً — وقد يفرضون ذلك على الآخرين قائلين: ذلك واضح إذا عرفت أين تنظر، ثم يتركون للتوأم بقشيشاً كبيراً. كانت التوأم تقومان بالخدمة على طاولات مخصصة لهما معاً ويقتسمان البقشيش؛ تسميانه ودائعهما المتبادلة، إناء عسلهما، وثمره عرقهما. في نهاية كل ليلة، ودينا تنظيف المطبخ، تحسبان بصوت عالٍ في القاعة المجاورة.

لم يمض وقت طويل قبل أن تنحينا دينا جانباً. قالت إننا بحاجة إلى بدء العمل في الوقت المحدد. وإنها تقوم بإعداد كل شيء. أيضاً: هل نحن أغبياء؟ لأننا كنا نأخذ وجبات عشاء زبائننا ونُقدِّمها لزبائننا، حين يطلب زبائننا الطلبات نفسها، فيحصل زبائننا على عشاءهم في وقت متأخر.

^٢ مساشوسيتس Massachusetts: ولاية في شمال شرق الولايات المتحدة.

إنها غيورة، قالت جيسिका في السيارة وهُنَّ في الطريق إلى البيت. لأنها تحصل على بقشيش تافه.

قالت جان: أعطيتها بقشيشًا تافهًا أيضًا. أعطيتها صفرًا من الدولارات. قالت جيسिका: لن أفعل. لن أقدم بقشيشًا أبدًا لأي نادلة أقل من عشرين في المائة. لأن عمل النوادل شاق.

قالت جان: هذا كل ما أعرفه، ليس لها الحق في أن تصرخ في وجوهنا. قلتُ لكن هناك نقطة في صفّها وهي أننا نأخذ وجبات العشاء التي تعدّها. قالت جيسिका: آسفة، لكنني لا أعتقد أن تأخير تقديم العشاء مشكلة كبيرة. حين أنتظر طعامي يبدو أشهى!

كانت دينا مُطلّقة وعندها طفلان، ولد و بنت. الولد مريض. لم أعرف بِمَ، لأنني لم أسأل. عرفتُ فقط أن الولد في المستشفى، منذ بضعة شهور. ذات ليلة ونحن في المطبخ نُقطّع الخضراوات، أخرجتُ محفظتها. ربما كان الطفلان في الثامنة والعاشرة. الولد بدين، شعره أسمر خشن، يرتدي قميصًا أزرق من القطيفة. فقد إحدى أسنانه. شعر الفتاة رمادي، وعينها اليمنى تميل باتجاه أنفها. أردتُ أن أسأل دينا لماذا شعر ابنتها رمادي. وبدلاً من ذلك قلتُ إنهما فانتتان. ظهر وميض زيتوني على وجه دينا وقالت إنها تعتقد ذلك أيضًا. وأعادت المحفظة إلى موضعها. ربما تحبهما لكنها لا تستطيع قضاء وقت أطول معهما، لأنها في بعض الأيام تعمل فترة الغداء والعشاء، وفي أخرى تعمل فترة العشاء وتُعدُّ الكوكتيل بعد ذلك في البار وغرفة الانتظار. وهي تُعدُّ الكوكتيل تضع عقدة حمراء في شعرها. تبدأ طاولتها الأخيرة في غرفة الطعام في الثامنة تقريبًا. ثم تؤدي عملها الجانبي، تذهب إلى التوأم وتساءل إن كانتا تريدان شيئًا آخر، وبعد أن تُنجز خمسة أشياء أو ستة تطلبان منها أن تعمل، تضع بعض أحمر الشفاه والعقدة الحمراء وتدخل البار. أشعر بالأسى حين أفكر في دينا وطفليها. لكنني لم أكن أفكر فيهما إلا وأنا أتحدث معها، ولحسن الحظ لم نكن نتحدث كثيرًا.

في يونيو وصلت فاتورة تعليمي، فوضعتها في صندوق البقشيش الخاص بي. كنتُ قلقة بشأن النقود، غالبًا لأنني لستُ نادلة جيدة. حاولتُ، غنيتُ، يريد رُدّه ضلعًا طازجًا وبيلاف، أشقر يحصل على ضلع وبطاطس، غبي يحصل على تيريaki^٣ وبطاطس، فتى

^٣ تيريaki: teriyaki: طبق ياباني يتكون من شرائح من اللحوم أو المحار.

رائع لحم عجل وبيلاف؛^٤ لكن حين أدخل المطبخ تختلط كل الأشياء في دماغي. بمجرد أن يكون لديّ ست مجموعات، أغرق. في مرات قليلة طلبت مساعدة التوأم، فكانت كل منهما تقترح عليّ أن أطلب من الأخرى. لم ترتبك التوأم أبدًا لأنهما تعملان معًا باستراتيجية: الضحية. حين تكون أمامهما موائد كثيرة جدًا تختاران مجموعة تعتقدان أنها ستدفع بقشيشًا أقل وتتجاهلانهما حتى تنتهيان من العناية بالآخرين جميعًا. فيما بعد تشرحان للضحية كم كانتا مشغولتين، فيسامحهما الضحية. رأيت مزايا الاستراتيجية لكنني أفتقر إلى العزيمة اللازمة للقيام بها بنفسي، ونتيجة لذلك ارتبكت كثيرًا.

في نهاية يونيو قال بوريس: إنه يجب تغيير الأمور. وسألني إن كنتُ أعرف عدد الشكاوى لديه مني، وإن كنتُ أريد أن أخمن.

قلتُ: لا أعرف، ثلاث؟

قال: خمني.

قلتُ: لا أريد.

قال: إذن اعتبري هذا تحذيرًا لك.

ذات يوم في عطلة نهاية الأسبوع ظَهَرَ والدا التوأم في المنزل مع بعض المشويات لأصدقائهما. قابلتُ والدي التوأم في المطبخ، حين دخلتُ لإعداد وجبة خفيفة. عانقاني ورحبًا بي وعرضًا عليّ أن آخذ ما يحلو لي من التلاجة. كان الباب المؤدي إلى الفناء الواسع مفتوحًا وكنتُ أستطيع رؤية الأصدقاء في الخارج، يلعبون الكروكيت على العشب. وأنا على وشك توجيه الشكر لوالدي التوأم التفتت السيدة سيرانو وقالت وهما هنا لماذا لا أُسدّد الإيجار؟

لا بد أنني بدوتُ مرتبكة، لأن السيد والسيدة سيرانو قالا في نفسٍ واحد تقريبًا: إيجار الصيف. حدد السيد سيرانو مبلغًا. ثم وضع يده على كتفي. بدا مرتبكًا من أجلي. قال إنه إيجار متواضع.

لم يكن متواضعًا. لكنني ذهبتُ إلى غرفتي وتناولتُ صندوق البقشيش وجمعتُ ما حصلتُ عليه من بقشيش. حين لم يتبقَّ شيء نزلتُ بما جمعتُ. حدّق السيد سيرانو فيما جمعتُ وقال إنه توقّع شيكًا. ثم قال إنه موافق. أخذ ما جمعتُ وذهب إلى غرفة الشمس، حيث يأكل فطير الخوخ، ليعدّ. سرتُ إلى الشاطئ. كانتا التوأم تستريحان عليه. جسدهما

^٤ بيلاف pilaf: طبق أرز بالبخار مع لحوم أو محار أو خضراوات.

الأسمران الطويلان يومضان على فوطة بنفسجية كبيرة، وأطراف الشعر الذهبي تضرب في ذقنيهما. جلستُ ووضعتُ يديَّ في الرمل. قلتُ إنني لم أعرف أن عليَّ أن أدفع إيجارًا. قالت جان: ليس عليك. أقصد أننا لم نكن نريد أن تدفعي. لكن حين عرضنا الفكرة على والدينا، فكرة أن تعيشي معنا، ألقينا بها، وكأنها لتحلية الإناء.

كانت عينا جيسيكَا واسعتين. قالت: لجعل الإناء أحلى بعض الشيء. لا بدَّ أنهما رأتا نظرة بغیضة على وجهي. أدركتُ أنني لن أحقق ربحًا فقط، لكنني ربما أُلِيس. وأدركتُ أن شيئًا ما صدمني: سوف تصبح التوأم مصرفيتين في مجال الاستثمار رغم كل شيء. ربما تكونان بارعتين في ذلك.

لمستُ جان كتفي. قالت: كنتُ ستدفعين إيجارًا في أي مكان آخر. قالت جان: هكذا، هل تريدین أن نساعدك قليلًا فيما يتعلق بالإيجار؟ قالت جيسيكَا: لم نكن نعرف أنه سيكون مشكلة.

سكبتُ جان بعض الزيت على بطنها ودعكتُه. قالت: ربما يمكننا التحدث مع والدينا. لخفضه قليلًا في النصف الثاني. نظرتُ إليَّ. قالت: ماذا عن ذلك؟

بدأتُ أعمل وردية الغداء، إضافة إلى وردية العشاء. وهذا يعني أنني أقضي أيامي مع دينا. لم أهتم بالعمل أثناء الغداء لأن دينا تعيد ملء أكواب الزبائن بالمياه وترتب طاولاتي. طلبتُ منها ألا تفعل ذلك لكنها تفعله على أي حال. أدركتُ أنها ترتدي الشورت نفسه يوميًا. كان أسود مكتوبًا عليه «تيجر وير» بشعار أحمر كبير في الخلف وثنايا من الأمام تجعله يبدو مثل الجيبة، وكان يبرز فخذيها. ولم أشعر بالأسى تجاهها لأنها تحب وظيفتها وتؤديها بشكل جيد. لديها الكثير من الزبائن الذين يأتون بانتظام، المسنين الذين يعطونها عشرة في المائة بقشيشًا. كان أفضل زبائننا زوجين سويديين. لا بدَّ أنهما في الخامسة والسبعين، يأتیان ظُهر كل يوم يطلبان ست كئوس ويسكي وضلعين مع بيلاف ويأتیان عليها كلها. كانا يتركان لدينا خمسة دولارات مهما يكن الأمر. اعتقدتُ أن ذلك مناسب حتى عرفتُ قيمة الفاتورة التي يدفعانها، فاعتقدتُ أنه إجحاف.

هزّت دينا كتفيها. قالت: إنهما عجوزان. بدا أنهما يعرفان دينا جيدًا، يجعلانني أقف بجوار طاولتهما وهما يتحدثان عنها: كم هي جميلة، كيف أن ابنها مريض، وكيف أنها تدفع فواتير ضخمة للمستشفى لأنها ليس لها تأمين صحي. أعطاني الزوجان السويديان محاضرة عن أمريكا انتهت باستنتاج أن السويد أفضل لأن الشوارع في السويد نظيفة بشكل مذهل والجميع يتمتعون بالتأمين الصحي، وأومأت لأنني اعتقدتُ أنني إذا وافقت فسوف يهبانني بقشيشًا كبيرًا. تركا لي ثلاثة دولارات وخمسين سنًا.

كنتُ قلقة بشأن النقود، لكن عملي نادلة لم يتحسن. مهما جريت بسرعة في المطعم، لم أستطع أن أقدم لمجموعاتي ما يحتاجون إليه حين يحتاجون إليه. ذات ليلة قال بوريس إنه يريد التحدث معي في البار بعد الشغل. في البار طلب لي مشروبًا. ثم قال إنني لا أعمل بشكل جيد في المطعم.

قلتُ له إنني أعمل بشكل أفضل. قلتُ إنني أحفظ قائمة الطعام، فهزَّ رأسه. قال إن بعض الناس ليس لديهم مَخ للنادلة. قال إن مطعمه منشأة لتقديم الطعام. قال إنه هو نفسه رأي أمسك بعشاء من شرائح اللحم وأطلب من طاولة عليها اثنا عشر شخصًا تقديمه لمن طلبه.

قلتُ: حسنًا، سأتوقف عن عمل ذلك.

هز رأسه مرة أخرى. وضع ذراعه حول ظهري. قال: أحبك. يبتسم عادة كأنه سمع سرًا. ابتسم، وكانت أسنانه ضيقة وطويلة. أعتقد أن لثته تقلصت. قلتُ: وأنا أحبك أيضًا.

قال: التوأم، إنهما مزعجتان، فاسدتان. لا أريد حتى أن تعملنا هنا في الصيف القادم. قلتُ إنني أعتقد أن وراءهما تدريبات عملية.

لم يبدُ أنه يسمع ما أقول. قال إن التوأم بنتان فاسدتان. ثم ضغط على كتفي بقوة وقال إن التوأم بدأت الحياة على قاعدة ثالثة وأن لا أحد ينظر إليّ مرتين أبدًا، بالطريقة التي ينظر بها الناس إليهما.

قلتُ إنه ربما لو هناك اثنتان مني لحققتُ ربحًا هائلًا، لكنني أخمن أنه لم يدرك ذلك، لأنه قال: لا، إنهما لن تحققا حتى الآن. ثم قال إنه يحتاج إلى نادلة كوكيتيل. دينا تفعل ذلك. بيني وبينه، إنها أفضل في غرفة الطعام. انتهى من شرب البيرة. قال إن الرب يحبها لكنها أكبر من أن تضع عقدة حمراء في شعرها.

قلتُ إنني لا أريد أن آخذ وظيفة دينا. حدّق بوريس. قال إنني لا آخذ وظيفتها، لأنه يقدمها لي. ثم قال إنني محظوظة لأنني وجدتُ وظيفة، بالطريقة التي تصرفُ بها في غرفة الطعام، وأنني لا شأن لي بدينا، إنها من شأنه هو.

قال: على أي حال، إنها تريد أن تقضي وقتًا مع طفليها.

في البار عملتُ بشكل جيد. كان العمل سهلًا، كل ما عليّ تدوين طلبات الشرب، وحمل المشروبات، وجمع الفوارغ، والحصول على بقشيشي. يواجه النقش الثلاثي على الحوائط الزجاجية للبار البحيرة، امتدادها المظلم والجذور الممتلئة بالأناناس في بُعدها الرمادي،

ورغم وصولي غالباً قبل غروب الشمس كان البار معتماً دائماً بشكل ما، وكنتُ أتحرك خلاله بالمرح وقوة الأحلام. عدتُ إلى البيت في الليلة الأولى في الثانية صباحاً، والتوأم تشاهدان التلفزيون.

قالت جيسिका: لا أريد أن أكون نادلة كوكتيل.

قالتُ جان: لا عيب في ذلك.

قالت جيسिका: تعرفين أنه طلب منا العمل في البار. لكنه يبدو شاقاً.

قالت جان: على أي حال، نعرف أنك تحتاجين إليه.

في الليلة التالية رأيتُ دينا في حمام المطعم، في الساعة التاسعة، الوقت الذي أبدأ فيه العمل وتنصرف فيه إلى البيت؛ لم تكن ترتدي الملابس التي تعود بها إلى البيت. ترتدي قميصاً بنفسجياً لامعاً وجيبة سوداء ضيقة، تميل على الطاولة لتضع أحمر شفاه بنفسجياً. اعتقدتُ أنه ربما لم يخبرها أحدٌ باستبعادها من البار. شعرتُ بارتباك. قبل أن أخرج لَوَحْتُ لي.

كان أحمر الشفاه البنفسجي يلطخ فوق شفرتها، ويدها اليمنى ترتجف قليلاً. قالتُ إن وراءها موعداً، للمرة الأولى في ثماني سنوات. قالت إن الرجل يضع سلاسل فضية في رقبتة ويعمل في تراك الكلاب، لكنه بصرف النظر عن ذلك يبدو رائعاً. قال لها إنها تبدو إلى حد ما مثل النجمة السينمائية الإيطالية، وهي نجمة اعتاد الناس أن يقولوا لها أحياناً إنها تبدو مثلها. مشطت شعرها بيدها وكررت اسم النجمة. لم أسمعُه من قبل. وأضافت أنها اشتركت في فيلم شهير من أفلام الغرب مع تشارلز برونسون،^٥ وتظاهرت بمعرفة تشارلز برونسون.

قلتُ: أتمنى لك حظاً سعيداً في الموعد.

شكرتني. ثم دفعت أشياءها في محفظتها وسألتني إن كنتُ أعمل في البار. قلتُ لها إنني أعمل. قالت: كل ما قاله لي بوريس لم يكن صحيحاً. اعتذرتُ، لكنها طلبت، قبل أن أنهي اعتذارتي، أن أنسى. قالتُ إنه ليس إلا طفلاً على أي حال، لم أقرر هذا الخرا.

من دون دوريات مشتركة، من النادر أن أتحدث مع التوأم. أتجول في المنزل أثناء ساعات العشاء، والتوأم في المطعم، وقد انتابني شعور بأنني لصة أو ضيفة. نظرتُ في

^٥ تشارلز برونسون Bronson (١٩٢١-٢٠٠٣م): ممثل أمريكي شهير.

خزائنهما، جرّبتُ ملابسهما، وأكلتُ قضمات صغيرة من طعامهما. أَدخَن سِجائرَ وأَشاهد التليفزيون، حتى يحين موعد ذهابي إلى المطعم وموعد وصولهما إلى البيت لتشاهد التليفزيون.

في منتصف يوليو ذهبت التوأم بالسيارة إلى مجمع تجاري جنوب الولاية، قرب الكلية، وصرفتا بضعة آلاف من الدولارات على ملابس الخريف. حين عادتَا إلى البيت، أخذتا الملابس إلى غرفتهما، ووضعتاهما على السرير وطلبنا مني الدخول لرؤيتها. أعجبتُ بشكل خاص بسويتِر، سويتِر رمادي من الكشمير بياقة طرية، وأخذتُ أفرك القماش بين أصابعي، متظاهرة بأن السويتِر على وشك أن يصيبني بالذهول حين رأيت السعر. قلتُ شيئاً غيباً.

بدأت جان منزعة. قالت إن الملابس استثمار لأنهما يمكن أن يلبساهما للعمل في التدريب العملي. وأضافت يجدر بك صرف النقود على ملابس تحبينها. قالت جان إذا ارتديتِ سويتِر بمائتي دولار عشرين مرة، فذلك يعني أن المرة بعشرة دولارات. وهكذا تكون السويتِرات الغالية أرخص من السويتِرات الرخيصة.

لمستُ السويتِر بأصابعي، ذكّرَتني روعته الفائقة بأنني ليس معي مصاريف التعليم لهذا الخريف. لم أكن متفوقة في الكلية — لا في الجانب الاجتماعي ولا في الجانب الأكاديمي — لكنني أريد أن أعود وأواصل.

قلتُ هاي. هل طلبتما من أبيكما تخفيض الإيجار؟

نظرت التوأم كل منهما إلى الأخرى.

قالت جان إن الوقت غير مناسب.

قالت جيسिका إن التوقيت أهم شيء.

قالت جان لا نريد أن نقول لك ذلك، لكن أسهم أبينا ليست على ما يرام.

وصلته أنباء سيئة.

وهذا هو السبب الذي حالَ بينه وبين قضاء هذا الصيف هنا؛ لأنه يريد حقاً أن يركز في أسهمه.

قالت جيسिका: لا شيء مؤكد.

قالت جان: لن نحصل على عربتنا الجديدة هذا الصيف. هذا مؤكد.

قالت جيسिका: إننا نختصر.

قالت جان: نعم! نعمل بجد. نتسوق حقاً بسبب التخفيضات.

أخذت جيسिका السويتر مني ووضعته على صدرها. الاهتمام بالنقود أمر بشع. لا أستطيع أن أنتظر حتى نعمل في بنك! سنساعد الناس على الاستثمار! نقرتُ جان على كتفي. قالت: ليست هناك طريقة أفضل لمساعدة الناس من مساعدتهم في الاستثمار.

طلبتُ من بوريس أن أعمل ورديات أكثر، فقال إنه يفضل ذلك، وسمح لي بالعمل في فترات العشاء مرة أخرى. ذات ليلة لم يكن هناك كثير من الزبائن على العشاء، وقد قضيتُ أنا والتوأم ودينا معظم الليل ندخن السجائر على السلم الخلفي. انتابنا شعور طيب بالحديث عن صعوبة العمل في المطعم. حين تبدد الشعور الطيب، حدّقت التوأم في الظلام باستغراق. ثم لمستُ جيسिका شعر دينا.

قالت إنني لا أصدق أنك تعملين نادلة منذ خمسة عشر عامًا.

قالت دينا إن ذلك ليس أمرًا سيئًا.

قالت جيسكا إنه أمر سيئ بشكل ما. أقصد أننا لا نحصل إلا على دولارين وخمسة وعشرين سنتًا في الساعة.

قالت دينا بالإضافة إلى البقشيش.

قالت جان: نعم. لكن علينا أن نُغني عيد ميلاد سعيد للحمقى، والحصول على مكاسب.

قالت جيسكا: ليست هناك مكاسب.

هزت دينا كتفها. قالت: ذات مرة حصلت على علوة الكريسماس.

قالت جيسكا: كم؟ فوكزتها جان.

قالت جيسكا: أوو.

كان كوعا دينا على ركبتها، وكانت تحرق في الأرض. قالت: كان سخياً.

فيما بعد في تلك الليلة، وأنا والتوأم نشاهد التلفزيون، أخبرتُ التوأم أن طفل دينا مريض. حدثتهما عن فواتير المستشفى وعن غضبها حين أخذت مكانها في البار.

قالت جان: آسفة، لكن إذا احتاج شخص إلى منافع صحية، فعليه أن يعمل حقًا في

سوق فولمان، لأن سوق فولمان يقدم منافع صحية.

قالت جيسكا أحب دينا كثيرًا، لكن أحدًا لا يرغبها على أن تكون نادلة.

قلتُ ماذا يدفعون في سوق فولمان. ألا يدفعون خمسة دولارات في الساعة تقريبًا؟

حوّلت جيسكا القناة إلى استعراض جديد.

قالت جان على كل واحد أن يبدأ من مكان ما؟

مضى على عملي في البار بضعة أسابيع حين قال بوريس إنه يريد التحدث معي بعد العمل. كانت السجادة في حاجة إلى تنظيف في تلك الليلة، ولم أكن نظفتها حتى الثانية والنصف. وحين نظفتها شعرتُ بالتعب وتمنيتُ أن ينسى موضوع الحديث، لكنه أتى بمجرد أن انتهيتُ من العمل وجلس في البار. قال إنني أفكر.

جلس بالقرب مني.

قال ما أفكر فيه. وضع يده على ساقي. قال: يمكنك أن تقضي الليل معي على قاربي، ليلة غد. ثم قال، وهو ينادي ببصره عني، لن يكون هناك شيء مهم. سيكون وقت استرخاء، وسنحضر شمبانيا. تطلع إليّ. كانت تجاعيده البيضاء رطبة، ووجهه ظلًا ورديًا حارًا. قال يمكن أن أطلق عليها صحبة. وسأعطيك شيئًا مقابل ذلك. أعرف أنك تحتاجين مزيدًا من النقود.

قلتُ لا أعرف. أقصد لا. شعرتُ بأن الكأس الذي في يدي سيسقط. أريد المزيد من النقود لكنني لا أعتقد أنني أستطيع ذلك.

قال سأدفع لك ألف دولار.

قلتُ أوه. المبلغ مذهل. لكن لا سبيل لذلك.

قلتُ حسنًا.

في العاشرة من الليلة التالية كنتُ أطوي المناديل في موضع النواذل حين أتى بوريس خلفي، وضغط بطنه على ظهري، ولف ذراعيه حول صدري. بدا ظلمًا، لأننا لم نكن في القارب. غادرت التوأم إلى البيت — أخبرتهما بأنني على موعد مع رجل قابلته، فحدّقتا ثم هزتا أكتافهما وانصرفتا — كانت دينا في المطبخ، تُنظف كل المعدات التي يُفترض أن تنظفها التوأم. همس بوريس بشيء عن أننا سنقضي وقتًا طيبًا. حين همس، التفتُ ورأيتُ الشعر الأبيض متجمعًا في خصلات على قطع من الدهن تحت ذقنه. كان يبتسم برقة وفمه نصف مفتوح. تفوح منه رائحة تشبه رائحة النعناع واللبن الرائب.

قلتُ اعدرنني. سرتُ إلى الحمام. أغلقتُ الباب وجلستُ على قاعدة التواليت. في التواليت حاولتُ التفكير في الدولارات الألف. ألف دولار، فكرتُ، ألف دولار. لكن لا يجوز. لا أريد الذهاب إلى قاربه. أعرف أنني أتصرف على نحو سيئ. تعلمتُ ألا أترجع عن تعهداتي. لم أكن متأكدة من سبب موافقتي في البداية. بدا غباءً. إذا لم أعد إلى المدرسة هذا الخريف يمكن العودة في الخريف القادم. عضضتُ أظافري. أعدتُ عد بقشيش وردية العشاء. عدته ثلاث

مرات. لم يكن كثيرًا. لكن شعرتُ بأنني أتقدم في عملي كنادلة. وضعتُ البقشيش في مريّليتي وخرجتُ إلى غرفة الطعام. كان بوريس يجلس إلى مائدة. قلتُ لا أعتقد أنني أستطيع ذلك.

غضب. وصاح في غرفة الطعام الخاوية بأنني أضعتُ عليه ليلته، ولن يتركني أُضَيِّعُ عليه ليلته. وقال أشياء أخرى عن أنه أحضر شمبانيا من البيت واشترى راديو جديدًا. كان يترنح، وسُكِبَتْ بيرة على قميصه. قلتُ إنني آسفة. قال إنه لا يبالي إن كنتُ آسفة أم لا. عدتُ إلى الحَمَّام. بقيتُ هناك بعض الوقت. عدتُ بقشيشي مرات أخرى. ذهبتُ إلى المطبخ لأطلب من دينا توصيلي في عربتها. كان الوقت متأخرًا، اعتقدتُ أنها انصرفتُ، لكنها هناك. ترتدي معطفها الأسود وكل أشياءها في حقيبة. حين طلبتُ منها أن توصلني حدقتُ. كان شعرها الأسود للخلف، وبدا وجهها مُنْهَكًا وقد وضعت أحمر الشفاه البنفسجي. لم ترد على الفور. حين ردت لم تقل سوى اطلبي سيارة أجرة.

في صباح اليوم التالي وأنا أنزل السلمُ كانت جان تأكل فطيرة على طاولة المطبخ وجيسكا تعد الشاي. قالتا، بصوت رقيق، إنهما سعدتا بعودتي إلى البيت. ثم قالتا إنه قد يكون عليها أن تعيش في مكان آخر.

كان النهار مشرقًا، وفي الساعة الثالثة لوجودنا على الشاطئ معًا، عانقتاني وطلبتا مني أن أسامحهما وقالتا إنهما لا تريدان أن أتركهما.

قالت جيسكا لسنا غيبيتين كما تعرفين. خاصة حين يبدو أن شخصًا بذيئًا يطلب منك شيئًا بذيئًا، وبدا أنك وافقتِ، ثم يبدو أنك غيرتِ رأيك. قالت جان كنتُ أعرف أنك لن تفعلي ذلك. جُنِنتُ فقط لأنك فكرت في الأمر. لم أجن، لكنني انشغلتُ أكثر بصحتك.

قالت جيسكا صحتك العقلية.

قالت جان إذا لم نذكر روحك.

قالت جان إن الأمور تكون صعبة أحيانًا. لكن يبقى أن عليك أن تلعبِي المباراة بشكل

صحيح.

أومأت. تمددتُ على فوطة من فوطهما، وشربتُ زجاجة من ماء العصير الذي معهما، ووضعتُ بعضًا من غسول بقع الشمس الخاص بهما.

في الثالثة ذهبت جان إلى المنزل وحين عادت كانت تصيح: ياهو! ياهو.

نهضت جيسكا على كوعها وظللتُ عينيها، وقالت أختي فقدت عقلها.

صاحت جان، أَسْهُمُ أبي عادت إلى وضعها الصحيح مرة أخرى!
قالت جيسيكا: ياهو!

في وضع أفضل مما كانت عليه في أي وقت!
التفتت جيسيكا إليَّ. قالت: قلق حقًا. قلق لدرجة أنه كان يعد اثنين بالكاد.
قالت جان: وسنحصل على سيارتنا!

اندفعت يدا جيسيكا. صاحت: ياهو. ياهو!
قالت جان: ادخرت الأفضل للنهاية. تطلعتُ إليَّ، وقالت: هل أنت مستعدة؟
أومأتُ.

خففت النصف الثاني من إيجار الصيف! خففته إلى النصف ثم خففته إلى النصف
مرة أخرى.

قلتُ: هذا مذهل.

لمستُ جان ذراعي. قالت: قلتُ لك لا تقلقي.

في تلك الليلة، في الرابعة وخمس وخمسين دقيقة، وصلنا متأخرات إلى المطعم. دينا
تعد الموائد للعشاء، وقميصها الأبيض به البقعة ذاتها من عصير الرمان الجاف على الجيب
التي كانت عليه في الليلة السابقة. كانت تسير مبتهجة، تخطو خطوات قصيرة في الغرفة،
تسير ولا تحرك وركيها. أيضًا كانت تبدو وكأن أحداً لكمها في فمها.

في المطبخ اتسعت عينا جيسيكا. قالت: ووو.
أومأتُ جان. همستُ: لا أشعر بالأسى من أجلها.
وضعتُ جيسيكا يدها على يد جان.

في تلك الليلة كانت دينا تقوم بخدمة الزبائن ببطء، وتوترت مرتين. وبقي بوريس في
المطبخ، لم يكن يشرب وهو يطبخ أو يصيح فينا حين لا نأخذ وجباتنا على الفور. بقي
معظم الأحيان في الخلف يُقطعُ بعض الأشياء.

في اليوم التالي أصيبت بنزلة برد. بقيت مريضة لمدة أسبوع. حين شُفيت، أخبرتني
التوأم بأن الزوجين السويديين جاءا لتناول الغداء في المطعم وأنا غائبة فطلبت دينا منهما
أن يخرجوا. طبقًا لما قالته غسالة الأطباق، دخل الزوجان السويديان إلى المطعم ببساطة
وطلبتُ دينا منهما أن يخرجوا. وقالت أشياء أخرى أيضًا. كان بوريس يسمع من المطبخ،
خرج وطلب من دينا أن تستريح بقية اليوم. ثم قدّم للزوجين السويديين وجبتيهما بنفسه
وقدّم لهما الشراب مجانًا. كانت غسالة الأطباق تسمع من الردهة وقالت إن الزوجين

السويديين لم يغضبوا من ديننا، حتى إنهما كان يجادلان في صف ديننا، قالا إن مرض طفل يمكن أن يصيب أي أحد بالجنون، وإنهما قد جُنَّا مرات عديدة لأسباب أقل أهمية، ومن ثم يجب العفو عن ديننا. طلب منهما بوريس ألا يفكرا في الأمر.

بعد أن تركتُ ديننا المطعم بقليل، أخذني بوريس جانبًا. عادت التوأم إلى الكلية، وبقيتُ وحدي لأنهي الأسابيع القليلة المتبقية من الموسم، وبدأ المطعم مختلفًا بدونهما، أليفًا. حكى بوريس كثيرًا مما حدث في ذلك الصيف، وتمنّى أن أكون أنا وهو على ما يرام معًا. أومأت. قال إن ديننا كانت تريد ترك المطعم. أومأت مرة أخرى. دفع مظلوفًا في يدي. في المظلوف بعض الأوراق، لم أعرف إن كانت نقودًا أم رسالة طويلة. تمنّى لي بوريس حظًا طيبًا في الكلية. كان على التي شيرت الذي يرتديه بقع صفراء تحت الإبطين، وبدأ مرهقًا. لكنه ابتسم. قال آمل أن تعرفي أيضًا أنه بصرف النظر عما يحدث في المدرسة يمكن أن تعودني دائمًا إلى هنا. وضع ذراعه حولي وضغط. قال سوف نجهز مكانًا.

لسانُ قاتل

تأليف: برين إيفنسون^١

أدرك هيكّر خطأً في نقطة معينة في كلامه، في مواجهة الآخرين، في معرفته السطحية بالعالم. بدأت اللغة تنساب في فمه، كلمات تُغيّر مواضعها وتتبادل المواقع مع كلمات أخرى، وبينما بقيت أفكاره جلية كما كانت دائماً، فقد لا يتجلى أحياناً إلا على لسانه أنها عُصِرَتْ أو لُوِيَتْ أو وُضِعَتْ مع العيون الزائفة؛ العيون الزائفة؟ شيء من هذا القبيل. كان إحساسه باللغة انسيابياً بعض الشيء دائماً؛ كان من السهل دائماً عليه، حين يحتار، أن يستبدل كلمة بأخرى على أساس الصوت أو الإيقاع أو التداعي أو التماثل، مما جعل الناس يعتقدون أنه شارد الذهن. كان الأمر مختلفاً. حين احتار، لم يعرف حين أخطأ في الكلام، قدّمت له التعبيرات على أوجه من حوله مفتاحاً للعودة إلى مساره وتصحيح ما وقع فيه. الآن، سمع نفسه يقول الكلمة الخطأ، وعرف أنها خطأ حتى وهو يقولها، لكنه يفتقر إلى القدرة على تصحيحها. لديه مشكلة حقيقية، انكسر فيه شيء. يمكن أن يقبض عليه لكنه لم يستطع أن يفهم إلى أين يأخذه.

حين حدث ذلك أول مرة، بدت على وجهه نظرة دهشة مروعة، أو هذا ما خمّنه من نظرة المرح التي ردّت بها ابنته.

^١ برين إيفنسون Brain Evenson: ولد في أيوا ونشأ في إيتا، يدرّس الكتابة الإبداعية في جامعة براون، نشر أربع مجموعات قصصية ورواية قصيرة. والعنوان الأصلي للقصة Murder Tongue.

«أوه دادي»، قالت، ورغم أنها كبرت لكنها لا تزال تقول له دادي لأسباب لم يفهمها ولم يشجع عليها، «أنت لا تقصد صلصة بل صيد السمك.»

صلصة؟ فُكّر. صيد السمك؟ هناك فجوة كبيرة بين المصطلحين لا تسمح بالقفز من واحد إلى الآخر بأي منطق متاح له. سمع صوته يقول صلصة وعقله مشغول بنقل صيد السمك إلى لسانه. أذهله ما سمعه يخرج من فمه، لم يفهم لماذا لم تكن له علاقة بأفكاره. بالنسبة لابنته لم يكن إلا الأب العجوز نفسه؛ شاردًا ومشتتًا.

قال: «أوه. بالطبع، يا ترميت.» وذهل مرة أخرى. بالنسبة لابنته كان يلعب لعبة فقط، يوبخها. وبعد لحظة كان على ما يرام. استطاع أن يقول صيد السمك مرة أخرى وهو يعني صيد السمك. وحده عرف أن هناك خطأ خطيرًا. تساءل: متى أدركت ابنته؟ تساءل: ماذا يحدث؟

كانت هناك أيام، تأتي وتمضي بانتظام. فتح فمه وأغلق فمه. ما سمعه يتشكّل على لسانه غالبًا له معنى، ولم يكن كذلك أحيانًا. حين لم يكن له معنى، يدخل في عملية بارعة وملتوية لمحاولة نقل ما يقصده حقًا. في أفضل الظروف يأتي شخص أو أشخاص بالكلمات نفسها ويقدمونها له. يتقبلها، وهو يومئ ولا يتكلم، أملاً حين يفتح فمه مرة أخرى أن يعود التواؤم بين مخه ولسانه.

أصيب بسرعة بفزع من الاجتماعات، من الكلام أمام زملائه. بمجرد انهيار لغته وسط الإفصاح عن شكوى أمام مقعده، يلمس زملاؤه كئوسهم أو وجوههم ويحدقون فيه وينتظرون أن يواصل. يقف، في خوف شديد ولا يستطيع الارتجال، لا ينطق ويهز رأسه، ويخرج. حيّاه بعضهم أحياناً فيما بعد على إيماءته الشجاعة، وخجل آخرون.

بدأت ابنته تلاحظ تردده، رغم أنها لم تكن الطريقة التي تعبر بها. لكنه يستطيع أن يراها تشاهده، ببعض الارتباك. اكتشف أن سلوكه الشخصي السابق كان غريباً جداً، لكنها تريد أن تعذره على كل شيء تقريباً. كانت تشعر بأن هناك خطأً. في الليل، بعد أن تدّعي أنها ناهبة إلى السرير، يسمعها أحياناً تتسلل خلال القاعات. قد يُغيّر موضعه على وسادته فوق الكنبه ويجدها في الخلف، في المدخل، تُحدّق في مؤخرة رأسه.

قال لها: «لماذا تفعلين ميلبا.^٢ على الفور.»

^٢ ميلبا melba: كلمة عامية لوصف شخص بالقوة والصراحة، أو فتاة بأنها نحيفة جداً، وبالطبع الكلمة ليست في موضعها، ومن هنا لا تفهم ما يقصد.

تطلعت إليه بجدية وكأنها فهمت وبإيماء عادت إلى السرير. بدأ الكلب يتصرف بشكل غريب، يلهث بصعوبة حوله، ويبقى بعيداً حين يحاول الاقتراب، ينسحب ببطء وذيله يتدلى. تساءل: هل أنا الشخص نفسه؟ ربما نعم، فكر، ربما لا. أو ربما لا باستثناء جزء من نفسه، ومهما يكن فإنه لم يتعلم قط أن يتكلم بشكل مناسب.

حاول أن يكون صديقاً للكلب مرة أخرى، مقدِّماً له ما طاب ولذَّ، ويتعامل معه أحياناً بأسنانه بحذر، حدِّراً حتى من أن يمس يده.

في الفصل، حيث كان يثق من قبل في نفسه، صار عدوانياً حتى، صار عصبياً، ينتظر دائماً اللحظة التي يثقب فيها سطح معدة لغته. اعتاد تقسيم طلابه إلى مجموعات صغيرة، والتحدث إليهم بأقل ما يستطيع. حاول قبل الدرس بعدة أيام، أن يتدرب على ما سوف يقوله ليدفعه إلى مجموعاته بأسرع ما يمكن، على أن يتملص من الأسئلة المحتملة أو يجيب عليها بسرعة. لكن بصرف النظر عن عدد المرات التي نطق فيها حديثه بشكل صحيح من قبل، كانت هناك دائماً لحظة فعلية من التذكر جاهزة لأول من يريد لها.

بدأ بدلاً من ذلك يجرب بدائل لكل جملة: في اللحظة الأولى من الانهيار يتحوّل، يحاول التعبير عن الشيء نفسه بصياغة مختلفة للجملة، بكلمات مختلفة تماماً. لكن إذا تكسرت جملة، وهو ما يحدث مرة أو اثنتين في كل حصة — تكفي غالباً على أي حالة أن يتطلع إليه الطلاب، مثل كلبه، مثل ابنته، مثل زملائه، باستغراب — كان البديل أيضاً يتكسر عادة. لكن إذا لم تأتِ الثالثة مناسبة أتت الرابعة مناسبة، لأن عقله بحلول ذلك الوقت يكون قد عاد إلى مسار يسمح باتصال مباشر مع لسانه مرة أخرى.

وهكذا استغرق الأمر عدة أسابيع قبل أن يجد نفسه يقف أمام الفصل واختياراته كلها مستنفدة في أخطاء كلامية رهيبة، كل منها أفضح مما سبق، وازداد الوضع سوءاً حتى خشي النطق بكلمة أخرى. كان الفصل، كما لاحظ جزءٌ منه ملتفتٌ بعناية، أكثر انتباهاً بشكل مطّرد من أي مرة أخرى في نصف السنة الدراسية، مستعدّاً بشكل خاص لتلقي المعلومات. لم يكن لديه ما يقدمه. وهكذا بدلاً من ذلك التفت، كتب شيئاً تافهاً على السبورة. طبيعة الشر. تأمل وناقش. وفجأة استطاع أن يتكلم من جديد.

لبعض الوقت بدا أن الكتابة قد تكون خلاصه. في الفصل حين تبدأ كلماته تخرج مجنونة أو منقطة أو مغررة يلتفت إلى السبورة ويكتب ما يقصده. بدا ذلك حلّاً رائعاً، وكان عليه أن يعترف بأنه يبدو من الغريب أحياناً أن يكف عن الكلام فجأة ويبدأ الكتابة.

ويبقى أن ذلك يمكن أن يرفضه طلابه باعتباره مجرد شذوذ، أو محاولة لتجنب تكرار شيء ما مرتين.

في البيت، كانت هذه الاستراتيجية مشحونة أكثر، أكثر شحناً. كلما حاول ذلك مع ابنته تباعد قبل أن يجد قلمًا، ربما تعتقد أنه قرر تجاهلها. في أماكن أخرى أيضًا بدا ذلك غير عملي. في مطعم، يمكن للمرء أن يشير إلى شيء في قائمة الطعام لكن ذلك لا يُستقبل بشكل مناسب، وفي مرة حاول فيها هذا في موقف اجتماعي ساد اعتقاد بأنه يسخر من أصم.

لكن ذلك كان مفيدًا في مواضع أخرى. يستطيع التحدث إلى زملائه بكتابة ملاحظة أو بالبريد الإلكتروني طالما لم يكن حاضرًا بجسده. حاول أيضًا أن يترك لابنته رسائل مكتوبة على عجل، لكنها اختارت تجاهلها أو التظاهر بأنها لم ترها. ذات مرة حين سألها عن رسالة، إن كانت رأتها، تطلعت إليه بثبات لبعض الوقت قبل أن تحرك عينيها في النهاية وتقول: «نعم، دادي».

قال: «حسنًا؟»

«حسنًا، ماذا؟»

«ما ردك؟»

هزت رأسها. «لا رد».

قال: «لكن. كورفو؟»^٣

قالت: «كورفو؟ في اليونان؟ عم تتحدث؟ لا تمارس اللعب معي يا دادي».

قال وغطى فمه: «سندوتش».

قالت بغضب: «أنا هنا يا دادي. هنا. أنا هنا عادة. لن أتركك تعبث بي. إذا أردت أن

تطلب مني شيئًا ما يمكنك أن تفتح فمك وتطلب».

كان يدرك أن المسألة ليست مجرد فتح فم. لم يجرؤ. سندوتش؟ أعتقد. جلس يُحدّق

فيها، ويده على فمه، يحاول أن يجمع شجاعته ليتكلم، ليخطئ في الكلام، حتى صرخت، مرغية، صرخة واهية وخرجت من الغرفة.

^٣ كورفو Corfu: جزيرة يونانية.

وحين تسوء حالته، يبقى صامتاً لساعات. مزحت ابنته، مشيرة إليه أحياناً بسخرية باعتباره «الناسك»، كما في كيف حال الناسك العجوز هذا الصباح؟ وفي أحيان أخرى تتهمه بأنه مستغرق في خرفته. تساءل من أين التقطت كلمة خرف؟ ازداد معدل أخطائه في الكلام حتى شعر في النهاية أنه لا يستطيع مقابلة تلاميذه؛ في آخر بضعة أسابيع من نصف العام الدراسي اتصل يومياً تقريباً يبلغ بمرضه، وربما جعل ابنته تتصل بدلاً منه. كان يرسل خطط الدروس بالبريد الإلكتروني، ويطلب من زميل أن يحل مكانه، وفي النهاية كتب رسالة إلى رئيس القسم يطلب تقاعداً مبكراً.

قالت ابنته له ذات مساء: «أنت وحيد، أنت في حاجة إلى الخروج أكثر.»
هزَّ رأسه نافيّاً.

قالت: «تحتاج إلى لقاء. هل تريد أن أرتب لك موعداً مع شخص ما؟»
هزَّ رأسه مؤكداً النفي.

قالت: «حسناً. موعد. سوف أرى ما يمكن أن أفعله.»

بدأت تأتي إلى البيت بكراسات من خدمات المواعيد، وتترك صفحة نساء يبحثن عن رجال من أسبوعية المدينة مفتوحة على إعلانات مختارة وضعت حولها دوائر. هل كان مقداماً؟ لا، فكَرَّ، وهو يقرأ الإعلانات، لم يكن. هل يحب التمشية مسافات طويلة وعشاءً رومانسياً لاثنتين على الشاطئ؟ لا، لا يهتم بالرمال وهو يأكل. مغرم بالكتب؟ حسناً، نعم، لكن هذه فكرة امرأة ذات ثقافة عالية، كما تبين مؤخراً في الإعلان، جون إرفنج.^٤ إذا لم يرفض إرفنج أن يكون واشنطن إرفنج في الوادي الوسنان. هل كان ذلك أفضل بحال من الأحوال؟

وماذا سيضع في إعلانه؟ أرمل وحيد، له ماضٍ طيب، فاقد القدرة على الكلام، يتطلع إلى علاقة خاصة لا تحتاج إلى كلمات؟ تأوّه ورتب كل شيء في رزمة صغيرة مُنسّقة على ظهر مكتبه.

بعد ذلك ببضعة أيام، بدأت رسائل البريد الإلكتروني تظهر موجهة إلى «سيلفر فوكس» أو «الثعلب الفضي» أو، في حالة، إلى «السيد ف. سيلفر». كنَّ جميعاً نساء ادعين

^٤ جون إرفنج Irving (١٩٤٢-؟): روائي أمريكي. واشنطن إرفنج Washington (١٧٨٣-١٨٥٩م): كاتب أمريكي من أعماله قصة «أسطورة الوادي الوسنان».

أنهن رأين «رسالته» وكنَّ «مهتمات». قلن جميعاً، بطرق مختلفة لكنها متشابهة في التفاهة، إنهن يردن أن يتعرّفن عليه بشكل أفضل.

سحب ابنته وأراها الشاشة. قالت: «فعلًا؟»

أوماً. بدأ يكتب شيئاً تحذيرياً لتقرأه لكنها تجاهلته، وأخذ كرسيه وتفحص رسالة كل امرأة.

قال: «لا. لا...»

كانت تقول: «وهذه، ما العيب في هذه؟»

قال: «لكنني لا، أي منهن، لا.»

قالت: «لا؟ لكن لماذا لا؟ دادي، قلّت إنك تريد موعداً. سألتك، دادي، وقلّت نعم.»

لا، فكَر، لم يقل ذلك. لم يقل شيئاً. فتح فمه. قال: «دكتورة.»

قالت: «دكتورة؟» ونظرت إليه بحدة، وضيق عينيها. «هل أنت بخير؟»

لم يكن ذلك ما قصد أن ينطق به فمه، لم يكن إطلاقاً.

«أنت تفضل دكتورة؟» قالت ابنته وهي تدوس على كل رسالة بالترتيب وهي تتحدث.

«لكنني لا أعتقد أن من بينهن دكتورة.»

لكن ماذا يفعل؟ تساءل. قبل كل شيء لا أحد يسمع، والأمر الثاني، إذا سمع، فهو نفسه لا يعرف، من لحظة إلى أخرى، ماذا يقول إذا قال أي شيء.

كانت هناك، تثرثر أمامه، ولا تسمع هي نفسها ما تقوله. تساءل: لماذا لا يخبرها أن ذلك الشيء خطأ خطير بالنسبة له؟ ممّ يخشى؟

لكن لا، فكَر، كانت نظرة الناس إليه بالفعل، أكثر مما يحتمل تقريباً، وإذا امتزجت بالشفقة شعر بأنه لم يعد إنساناً. الأفضل أن يحتفظ بذلك لنفسه، يحتفظ به أطول فترة ممكنة. وهكذا يمكن أن يبقى إنساناً، جزئياً على الأقل.

في النهاية أخذها من كتفيها، وهي تعترض دفعها في صمت خارج الغرفة. بدأ يشعر بألم في رأسه، اندفع الألم في عينه اليمنى. أغلق بابه وعاد إلى الكمبيوتر يحذف الرسائل واحدة بعد الأخرى. رأى أنها كلها مكتوبة بعناية، وكل امرأة تحاول أن تقدم نفسها باعتبارها متميزة أو أصيلة أو ذكية لكنهن جميعاً يفعلن ذلك باستخدام إحياءات إنشائية، الاستراتيجيات البلاغية نفسها، باستخدام التعبير نفسه أحياناً، الذي تستخدمه الأخريات. هذا ما يعنيه الانغماس في اللغة، فكَر، فَقَد القدرة على التفكير، التحدث بكلام الآخرين. لكن البديل الوحيد ليس الكف عن الكلام تماماً. أليس كذلك؟ طبيعة الشر، فكر. عَرَّف وناقش.

نظر مكتئبًا إلى آخر ثلاث رسائل. يا رب، شعر بألم في رأسه. الرسالة الأولى موجهة إلى «ثعلب فضي» مع ثلاث علامات تعجب بعد ثعلب. من شخصية تبنت لقب معجبة جدًا بهاندل. تسأل: عاشقة الموسيقى أم المتهجية السيئة؟ حذفها. قبل الأخيرة كانت إلى «ف. سيلفر»، من «عجوز ... لكن ... حلوة». أوه، يا رب، فكر، وحذفها. الألم في عينه يبدو سكينًا تندفع فيها. بدأت العين تدمع. أغلقها بقوة قدر استطاعته وغطاها بيده. وقف ينقر على مقعدة، وتعثّر في الغرفة، مصطدمًا فيما لا بدّ أنها الجدران.

كان شخص ما يطرق على الباب. «دادي»، ثمة شخص يطلبك، «هل أنت بخير؟» في مكان ما كلب ينبج. نظر بعينه السليمة ورأى فتاة في المدخل.

قال: «مُحكّمة، كراتين»، وانهار.

استيقظ على طنين، عرف أنه يأتي من اللبة الكهربائية، الفلوريسنت، الموضوعة في السقف فوق رأسه مباشرة. وابنته بجواره، تتطلع إلى وجهه.

فتح فمه وأغلقه مرة أخرى.

قالت: «لا، استرح فقط.»

أومأ. رأى أنه في سرير، ليس في سريره. كان هناك حاجز في كل ناحية لمنعه من الوقوع.

ادعت: «إنني ذاهبة لآتي بالدكتور. لا تتحرك.»

مضت. أغلق عينيه وبلع ريقه. لا يزال ألم الرأس موجودًا، لكن قلّ ولم يعد حادًا جدًا. أدار رأسه جانبًا وأعادها إلى وضعها مرة أخرى، وسعد لأنه لا يزال يستطيع القيام بذلك.

عادت ابنته والدكتور بجوارها، رجل عليه أثر الشمس، ضئيل الجسم، في حجمها تقريبًا.

قال الدكتور: «السيد هيكرو؟» وضع ملفًا ولبس قفازًا مطاطيًا. «كيف حالنا؟»

قال: «فخذ»، وفكّر في لعنة الرب.

«هل فخذك يؤلمك؟ نهتم برأسك، لكن سألقي نظرة على الفخذ أيضًا إذا أحببت.»

هز هيكرو رأسه. قال الدكتور: «لا؟ حسنًا، ثم. لا بالنسبة للفخذ إذن.» أشعل كشافًا وحدّق في العين الأولى ثم في الثانية. «أي صداع، يا سيد هيكرو؟»

تردد، أومأ.

«عمليات جراحية في الرأس في شبابك؟ جراحات في الرأس؟ علاج بالكورتيزون؟ تحطم موتوسيكل بشكل سيئ؟ جروح في الجمجمة لم تعالج؟»

هز هيك راسه.

قال: «كيف حالنا الآن؟»

أوماً هيك. فكر: جيد، جيد جداً. وفتح فمه فخرجت كلمة جيد.

أوماً الدكتور. نزع القفاز من يديه ووضعه في الزبالة. عاد وجلس على السرير.

قال: «رأيت أشعاع إكس الخاصة بك..»

أوماً هيك.

قال الدكتور: «ينبغي أن نتحدث. هل تحب أن تبقى ابنتك أثناء ذلك؟»

قالت ابنته: «بالطبع يمكن أن أكون هنا أثناء ذلك. أنا راشدة قانوناً». سألت: «لكن

هنا لماذا؟»

هز هيك راسه.

قال الدكتور «لا؟» والتفت إلى ابنة هيك، وقال: «انتظري من فضلك في الصالة.»

أقلت ابنته نظرة على الدكتور وفتحت فمها لتتكلم، ثم صرخت بشكل غير واضح

وخرجت. اقترب الدكتور وجلس على حافة السرير.

قال الدكتور: «أشعاع إكس الخاصة بك، لا أريد أن أربك، لكن، حسناً، أود إجراء

بعض الاختبارات.» أخذ الملف من على الطاولة المجاورة للسرير وأخرج أشعاع إكس،

وأمسك بها فوق هيك في النور. قال: «هذا الجزء المعتم، هل تراه؟ أهتمُّ به.»

تطلع هيك. منطقة سوداء، بقدر ما يرى، تنتشر من جانب الجمجمة إلى الجانب

الأخر.

قال الدكتور: «علينا إجراء بعض الاختبارات. هل تريد أن تعرف ابنتك؟»

تردد هيك. هل يريد أن يخبرها؟ لا، فكَرَّ، ولم يكن متأكداً من السبب. هل يريد

حمايتها أو ببساطة حماية نفسه من رد فعلها؟ أم لم يعد ببساطة يثق في الكلمات، على

الأقل حين تخرج من فمه؟ ربما يستطيع شخص آخر أن يخبرها. ربما عليه أن يكتشف

ماذا يفعل حين يجب أن يفعل.

«ربما لا توجد حاجة إلى تخويفها قبل ظهور النتائج»، قال الدكتور، وهو ينظر إليه

بدقة. قال: «لا حاجة إلى إصابتها بالهلع.» استدار وأخذ يكتب بياناته. «أية صعوبات؟

فقدان المهارات الحركية؟ مشاكل في الكلام؟ أي شيء غير طبيعي؟»

تردد هيك. هل هناك ما يحاول تفسيره؟ «الكلام»، حاول في النهاية أن يقول، لكن

لا شيء خرج. تساءل: لماذا لا شيء؟ من قبل، كان هناك على الأقل شيء ما، حتى لو كان

الشيء الخطأ. هز رأسه محبطاً.

أخذها الدكتور على أنها تعني شيئاً ما. ابتسم. قال: «رائع إذن، رائع جداً في الحقيقة.» بعد ذلك ببضعة أيام، بدأ، وهو ينتظر نتائج الاختبارات، يصاب بحالة هلع. فكر: في البداية أفقد اللغة كلها، ثم أفقد السيطرة على جسمي، ثم أموت.

بدأ يحاول طرد هذه الأفكار بعيداً عن رأسه ولم يحقق نجاحاً يُذكر. الآن، وقد استقال من التدريس، لا يعرف ماذا يفعل. جلس في المنزل، يقرأ، يشاهد ابنته بطرف عينه. عانى وقتاً عصيباً وهو يحاول عمل شيء مفيد. انتابه شعور متزايد بأنه حامل وبلا فائدة. اعتقد أنها غافلة، لم تكن لديها فكرة عما تشاهده، أولاً يفقد ما تبقى من الكلام، ويتحلل ببطء، ويضيع. كان عليها أن تمر بذلك، ربما عليها أن تدعو ليموت قبل أن يصل إلى ذلك بوقت طويل.

فكر: وهذا ما سوف أكون. قال لنفسه: من الأفضل أن تموت بسرعة، بهدوء، وتحفظ نفسك والقريبين منك. أكثر إجلالاً.

دفع الفكرة إلى أسفل. بقيت ترتفع. كانت ابنته تحاول أن تعطيه التليفون. كان الدكتور يطلبه ليلبلغه نتائج الاختبارات. «قياسية»، قال هيك في السَّماعة. كان الدكتور قلقاً بشأن ما عليه أن يقوله، بشأن أن يقوله بشكل صحيح، بألف طريقة ممكنة، بأكثر الكلمات التي يمكن تخيلها حيادية، ليلاحظ.

ادعى الدكتور أن النتائج عززت شكوكه. أراد أن ينصح هيك باختصاصي، جراح مخ، جراح بارع، من أبرع الجراحين. يفتح جمجمة هيك من موضع مناسب، ليُلقي نظرة على ما يحدث، ويُقيّم إن كان من الممكن استئصاله. إذا كانت هناك أي نقطة في ... قال الدكتور بعصبية: «لم أقصد ذلك. هناك نقطة دائماً. أعبر عنها خطأ.» كان المصطلح المناسب لوصف ذلك هو جراحة استكشافية. هل فهم؟

«نعم»، نجح هيك. «هل كانت مقصلة السمك ساكنة؟»

«هممم؟ ضروري؟ إنني خائف جداً يا سيد هيك.»

أراد أن يعرف: بأي سرعة يمكن للسيد هيك أن يرتب أموره؟ ليس لوجود خطورة فورية، لكن الاحتياط أفضل من الندم. أراد أن يعرف: متى يكون السيد هيك قادراً على ترتيب موعد للجراحة الاستكشافية؟ هل لديه اهتمامات؟ هل كانت هناك أسئلة متبقية يريد إجابة لها؟

فتح هيكرفمه ليتكلم لكنه شعر أن أي شيء يقوله سيكون خطأ، ربما بطرق عديدة في وقت واحد. وهكذا وضع السماعة.
«ماذا كان يقول؟» كانت ابنته تسأله.
قال: «لا أحد. مكالمة خطأ.»

فكر وفكر: في البداية أفقد اللغة كلها، ثم أفقد السيطرة على جسمي، ثم أموت.
كل ما يستطيع تصويره بوضوح وهو يفكر في ذلك ابنته، حياتها معوقة لشهور، وربما سنوات، بهذا الموت التدريجي البطيء. من حقها عليه أن يموت بسرعة. فكر: ربما معاناة ابنته كل ما يستطيع التفكير فيه لأن معاناته أصعب من أن يواجهها. حتى في الحالة التي كان عليها، مجرد فقد جزئي للغة، الحياة لا تُحتَمَل تقريباً.
فكر: في البداية. ثم. ثم.

تذكّر أنه لم يفكر في موت أبيه منذ سنوات، انتقال تدريجي إلى الشلل، حتى صار الرجل تقريباً قصبه هوائية تصدر صوتاً في سرير في مستشفى وعينين من النادر أن تفتحاً، وحين تفتحان تكونان مغممتين بالخوف.
فكر: الابن مثل الأب.

فكر: في البداية. ثم. ثم.
رقد في السرير يُحدّق في السقف. الوقت متأخر جداً، وابنته نائمة، ترك سريريه وتسلق إلى العلية وأخذ بندقيته من جرابها ونظفها وعمّمها. حملها ونزل بها السلم ودسها تحت سريريه.

فكر: لا، لا في البداية، لا ثم.
في سريريه مرة أخرى، يُحدّق، يفكر. بدا أن طبيعة الغرفة تغيرت. أدرك أنه لا يستطيع تحمل قتل نفسه وابنته في المنزل. سيكون هذا مفزعاً لها، أكثر فزعاً من أن تراه يموت ببطء. كان أمراً رهيباً جداً بحيث لا يستطيع التفكير فيه. لا، هذا غير مناسب، عليه أن يخرجها.

لكن منذ كان في المستشفى وهي ملتصقة به تلاحظه، لم تبعد قط. تسأل باستمرار عما يعاني منه، عما قاله الدكتور، لماذا لم يُسمَح لها بأن تسمع؟ وبعد ذلك ماذا قال الدكتور في التليفون؟ تُقدّم له باستمرار أكواباً من الحساء فيأخذ منها بضع رشقات ويتركها تفسد على أرفف الكتب، رف المدفأة، حافة النافذة. قالت: ليس عدلاً، ليس لها إلا

هو، ليس لكل منهما إلا الآخر، لكن طريقة تصرفه تجعلها لا تشعر بالانتماء إليه. ماذا قال الدكتور؟ ممَّ يعاني بالضبط؟ لماذا لا يقول لها؟ لماذا لا يتكلم؟ قالت له إن كل ما عليه فعله أن يفتح فمه.

لكن لا، لم يكن هذا كل شيء. لا، لم يكن الأمر بهذه البساطة. نعم، عرف أنه ينبغي عليه أن يخبرها لكن لم يعرف ما يقول أو إن كان يستطيع قوله. ولم يكن يريد أن تشفق عليه، أراد أن يكون كما كان دائماً بالنسبة لها، أباه، لا عجوزاً يُحتَضَر. لكنها لا تهدأ. تصيبه بالجنون. إذا أرادت مشاجرة فسوف يتشاجر. التفت إليها وقال، بفصاحة تامة: «أليس لك مكان؟»

قالت بحدة: «بلى. هنا.»

«قطط سمان»، أخطأ في الكلام، وفجأة نأى بوجهه يائساً مرة أخرى. أعد قائمة طلبات من البقال، قائمة طويلة، وأعطاهها لها. حدّثت فيها. قالت: «طلبات من البقال، دادي؟ منذ متى لك علاقة بطلبات البقال؟» هز كتفيه.

قالت: «إضافة إلى ذلك عندنا نصف هذه الطلبات. هل فتحت الخزائن؟» أخذ يعاني من مشكلة مع إحدى أصابعه. أخذ ينثني وينفرد وحده كأنه لم يعد جزءاً من جسمه. أخفاه عن ابنته تحت فخذيه حين يجلس، وشعر به يتلوّى مثل دودة نصف ميتة. حدّث هو وابنته، كل منهما في الآخر، من الكنبه والمقعد بالترتيب، وهي تواصل مطاردته بالأسئلة، وبقي صامتاً، متجهماً. أكل وهو يمسك الأدوات بشكل أخرق، لكي يُخفي الإصبع الشاذ عنها. اعتبرت ذلك عملاً استفزازياً، واتهمته بأنه يتصرف مثل طفل.

استمر الوضع على هذا الحال ثلاثة أيام أو أربعة، وكل منهما في مأزق، حتى صرخت فيه في النهاية، وحين لم يرد عليها، غادرت المنزل. شاهد الباب يُغلق خلفها. كم من الوقت تبقى في الخارج؟ تمنّى أن تبقى وقتاً كافياً.

أخرج البندقية من تحت سريره وسندها على الكنبه واتصل برقم ٩١١. «أي طارئ عندك؟» ردت امرأة.

قال لها: «قتلت نفسي. أسرعني من فضلك. غطّيت الجسد قبل أن تعود ابنتي إلى البيت.» لكن الوضع لم يكن على هذا النحو. ذلك ما قاله عقله فقط، ونطق لسانه بشيء مختلف تماماً.

«اعذرنني؟» قال صوت العاملة.

حاول من جديد، كان صوته مشدودًا جدًّا.
قالت العاملة: «هل هذه مكالمة هزار؟ ليست تسلية.»
لَفَّ الصمت، وحاول أن يلم شتات نفسه.
قالت العاملة: «سيدي؟ أهلاً؟»
تطلع في يأس إلى الغرفة. ينظر الكلب إليه في تصميم، وأذناه منتصبتان. التقط
البندقية، وقربها بإحدى يديه من السماعه، وأطلق طلقة على الحائط خلف الكنبه. ألم ردُّ
الفعل رسغه فسقط السلاح منه. خرج الكلب من الغرفة يعوي مسرعًا.
وضع السماعه على أذنه مرة أخرى. كانت العاملة تتحدث بشكل أكثر إلحاحًا. أغلق
السماعه.

التقط البندقية مرة أخرى، جلس على الكنبه. أمل أن يأتوا بسرعة، وأن يكون ذلك
بسرعة كافية، قبل أن تعود ابنته. مال إلى الخلف، أغلق عينيه وحاول أن يستجمع شجاعته.
حين هدأ مرة أخرى، وضع جذع البندقية بين باطن قدميه ووضع الماسورة ناحية
وجهه. بعناية وضع طرف الماسورة في فمه.
عادت ابنته. سمعها تفتح الباب الخارجى وتدخل الغرفة ووجهها شاحب. من الواضح
أنها تبكي. دخلت وشاهدته وتوقفت متجمدة، ثم وقفت والدماء تهرب من وجهها. بقيا
على ذلك الوضع، يُحدِّقان، ولا أحد منهما يهتم بمن منهما ينأى ببصره أولاً.
انتظر، متسائلًا أي كلمات يمكن أن يستخدمها، ماذا يقول لها. كيف يخرج من هذه
الورطة؟

قالت أخيرًا: «دادي. ماذا تفعل؟»
وحينذاك جاءت الكلمات.
رفع فمه عن ماسورة البندقية ولحق شفثيه. «حشرة»، شرح بأقصى ما يستطيع من
رقة: «جرنيون.[°] شاشة تنتبول.»

[°] جرنيون grunion: نوع من الأسماك الصغيرة يعيش قرب الشواطئ في كاليفورنيا والمكسيك. شاشة
تنتبول Tentpole screen: إنتاج سينمائي أو تليفزيوني بدعاية واستثمارات هائلة.

الرفيق

تأليف: سانا كراسيكوف^١

بدأت إلونا سيجال، منذ وصلت إلى أمريكا وطلّقت، ثلاث مرات. لم يكن الرجل الأول رجلاً عادياً لكنه حاصل على دكتوراه الفلسفة من موسكو، كما قال الصديق الذي رتب الموعد. حين فتحت إلونا بابها وجدت الحاصل على دكتوراه الفلسفة واقفاً على سلم المدخل في شورت أصفر رقيقاً مندفعاً. كان نحيلًا، على طريقة حيوانات الرعي الجائعة ورياضي التحمل، بثنايا من الجلد حول عظمتي الركبتين وعضلات نحيلة مثل عضلات الأرنب مجدولة في باطن فخذه. تحت إبطه يمسك بما ظنت إلونا، في لحظة ارتباك قصير، أنها زجاجة نبيذ. لكن حين دخل رأت أنها لم تكن سوى لتر من الماء أحضره لنفسه. كانت الخطة أن يتمشياً قرب المنتزه ثم يخرجان لتناول الغداء. لكن الحاصل على دكتوراه الفلسفة ذهب إلى المنتزه. قال إنه ليس فيه شيء مميز. ذهب فقط مندفعاً إلى هناك. لم يحب أن يفقد اندفاعه، وحيث إنه ركب السيارة لساعة ونصف خارج طريقه ليقابلها فقد دخل في أول مسار. صبّت إلونا له كوباً من عصير الجريب فروت واستمعت له يتحدث عن عمله في معامل بلّ. مال في مقعده، وباعد بين ركبتيه، غير مدرك أن إحدى خصيتيه تبرز من البطانة الداخلية لشورته. حدقت إلونا في وجهه، محاولة ألا تنظر إلى أسفل.

^١ سانا كراسيكوف Sana Krasikof: كاتبة أمريكية، ولدت في جورجيا. والعنوان الأصلي للقصة Companion.

وكان الثاني أمريكياً، مساعداً لشخص ما، جاء إلى حفل ليقابلها. كان شعره أحمر مبيضاً ورموشه الخفيفة مغطاة برقائق تشبه قشر الشعر. اصطحب إلونا إلى حفل موسيقي في كلية الجالية المحلية. فيما بعد، انتظرت وهو يبحث في خزائن مطبخه، مُقدِّماً في النهاية صينية من الكركيت ومثلثات جافة من البري.^٢ كل ما تذكرته من الشقة الصغيرة التي يعيش فيها النور الساطع في ثلاثته الفارغة.

وكان الرجل الأخير صغيراً جداً بالنسبة لها ومن الواضح أنه شاذ. وافق أن يقابل إلونا لأن لديه انطباعاً بأنها تقيم بشكل غير قانوني وتحتاج إلى الزواج لتبقى في البلاد. بمجرد أن جلسا معاً على طاولة في الهواء الطلق في كافيه، قال لها الرجل إنه لا يفكر عادة في مثل هذا العرض لكن أمه مريضة وعليه أن يدفع مصاريف العلاج. أومأت إلونا في تعاطف وطلبت من الشاب أن يُعيد ما قال ببطء أكثر. فهمت أن حالتها خرجت بسرعة عن نطاق معارفها حتى إن الذين يعطون رقم تليفونها ما عادوا يعرفونها أو يعرفون ما تريد.

لم يكن الحال على هذا الوضع دائماً. كانت هناك أوقات أسعد، حيث كان لها زوج وعشيق؛ حين أقاما حفلات هي وزوجها في شقتهم في تفليس^٣ حتى وقت متأخر من الليل، مع دورات أطول وأطول من شرب الأنخاب ورائحة العرق والكولونيا الشديدة تفوق حتى رائحة السجائر. لم يشبع شيء إلونا أكثر من صحبة الرجال. عشقت صوتهم الأجش، سلطة الهواة التي تحدثوا بها عن شئون العالم وأمور أخرى ليس لهم مطلقاً تأثير عليها. لكن أكثر ما عشقته الخفة المغربية في انتباههم. بعد أن تودعها آخر ضيفة، تجد نفسها في وضع المرأة الوحيدة في الحفلة، تتواضع بشكل أكثر سهولة. جعل ذلك شخصيتها متسقة تماماً، واستطاعت في النهاية أن تكون أكثر طُرْفًا وجاذبية. كان ذلك كله في عالم انقضى، حاولت ألا تفكر فيه، عادت إلى بيتها إلى شقة ليست شقتها، وإلى رجل لم يكن زوجاً أو حبيباً، ولكن بدا أنه احتياج أكبر من الاحتياج إلى الزوج أو الحبيب.

قالت تايا: «هل قابلت توماز؟ إنه في الخارج.»

^٢ الكركيت crackers: رقائق من البسكويت مصنوعة من عجينة غير مُحلّى. البري Brie: جبن أبيض طري مملح، يُنسب إلى منطقة في شمال فرنسا.

^٣ تفليس Tbilisi: عاصمة جورجيا.

«الجورجي؟» مضت إلونا إلى الحوض لتشطف يديها. «أتمنى ألا تكوني قد دعوتَه إلى هنا من أجلي.» أصابعها ملوثة بالبطيخ الذي قطعته. وضعتها تحت الحنفية ومضت إلى الطاولة لتأخذ خواتمها.

«لم أدعُه إطلاقًا. جاء مع آل جورفيتش.»

«إنه صغير، لا؟» وضعت أكبر الخواتم الثلاثة أولاً، جوهرة من الماس في خلفية من خمس شوكلات.

قالت تايا، التي لم تُشر قط إلى إيرل بالاسم: «إذا كنت تقارنينه برفيق الغرفة. لا تفقديها.» حدّقت في الخواتم. «ذات يوم تخلعين واحدًا فيسقط في بالوعة. ثمّة نساء لا يلبسن حتى المجوهرات التي يمتلكنها. لديهن نُسخ مقلدة.»

«إذن ربما يكون عليّ بدلًا من ذلك أن أقطع جزءًا من الرقائق المعدنية وألفها حول إصبعي؟»

قالت تايا: «افعلي ما يحلو لك.»

قررت إلونا أنه ليست هناك مشكلة في تذكير تايا بأنها كانت فقيرة قبل أن يبدأ فليكس في تكوين ثروة لدرجة أنها أخرجت أحشاء أنابيب كريست الخاوية، كاشطة معجون الأسنان من الثنايا. بصرف النظر عمّا كانت عليه حياتها، فكرت إلونا، لم تتدنّ قط لشيء بهذه الحقارة. على الأقل استفادت من الأشياء الجميلة التي تمتلكها. على عكس تايا، التي يضم مطبخها خزائن من الأرض إلى السقف، وقد غطّت كل شيء بالصلب الذي لا يصدأ، وطاولات من الجرانيت المصقول لم تكن تلمسها إلا حين تُقيم حفلة.

قالت إلونا: «هل وضعت أنوارًا خافتة جديدة في السقف؟»

قالت تايا، وهي تميل برأسها إلى الخلف: «فكرة أليكس، اعتقد أننا قد نحصل على ثمن أعلى في المنزل إذا كان المطبخ أكثر سطوعًا.»

«هل تبيعونه؟»

«ليس على الفور. يستغرق الأمر عامًا عادة.»

«لم تخبريني.»

«لم نخبر أحدًا في الحقيقة. إلا أسرة كوجان وأسرة وينبرج، يعرف الجميع. ليس

سرًا.»

هناك أشياء كثيرة نسيت تايا أن تخبرها بها، لكن بيع منزل؟ هل هذا جزء من معلومات أخرى يتبادلها أصحاب الأموال، مثل تقلبات البورصة؟

«أوه، لا تنزعجي، السنة طويلة. يمكن أن تأتي إلى هنا كلما أردت الابتعاد عن ذلك الرجل. تعالي في نهاية هذا الأسبوع. سنذهب إلى بروفيدينس^٤ لحضور عيد الوالدين.^٥ يمكن أن تأتي وتروي النبات وتطعمي القطة.» وضعت تايا سكين التقطيع ووقفت. «أبحث لك عن المفتاح.»

قالت إلونا: «معي المفتاح من المرة الأخيرة.» لم تعرف إن كانت تايا تقدم لها خدمة أم تطلب خدمة، بالضبط كما لم تحكم إن كان أصدقاءها يحتفظون بالأمر لأنفسهم للحفاظ على شعورها أم لأنهم وجدوا أنها لا علاقة لها بهذه الأمور. عرفت أنهم يروجون إشاعات. قبل عام، اعتادت ضبط إيرل يتحدث طول الوقت، يحكي لأصدقائها قصصاً عن نشاطيه المفضلين، البحث من جديد في سلالته وتنظيم مجموعة الفيديو؛ كانت تُقلده بقسوة حتى وهو في الغرفة المجاورة، أو بالتحديد لأنه في الغرفة المجاورة ولا يفهم كلمة بالروسية. تبقى معه حتى يمكن أن تدخر لشقتها الخاصة. لكنها بدأت مؤخراً تدرك أنها إن لم تنتقل شمالاً إلى بوتمان كونتي أو جنوباً إلى برونكس،^٦ حيث يستغرق أي طريق ساعة بالسيارة من مكان عملها، فقد تستمر إقامتها المؤقتة على الأقل سنة أخرى.

خرجت في الشمس. السحب في السماء تنحدر إلى الشاطئ ببطء، مكوّنة انعكاساً معدنيّاً في نوافذ الطابق الثاني. الهواء يفوح بدخان الشواء. في الفناء رجلان يندبان فقدّ الوظائف في بنجالور.^٧ مشت إلونا قرب أسرة كوجان وأسرة يوليتسكي، قرب نساء يستلقين في مقاعد غرفة الجلوس. منتصف سبتمبر لكنها شعرت بلدغة برد في الهواء. ترتدي بلوزة من الحرير، وجاء الآخرون في سويترات من القطن. وضعت كوبها على طاولة المرطبات وانحنّت لتعيد ملأها بالسلتزر.^٨ سقطت بضع أوراق ميتة على العشب. كانت أضعف الأوراق، لون الليمون الذي يسقط مبكراً.

حين التفتت وجدت فليكس يقف خلفها. «أين صديقك اليوم؟» قال، وتفحص الناس المتناثرين على العشب.

^٤ بروفيدينس Providence: عاصمة جزيرة رود Rhode، في الجزء الشمالي الشرقي من الولاية.

^٥ عيد الوالدين Parents' Day: عيد للوالدين يُحتفل به في أمريكا في الأحد الرابع من شهر يوليو.

^٦ بوتمان كونتي Putnam County: منطقة في ولاية نيويورك. برونكس Bronx: منطقة في جنوب شرق مدينة نيويورك شمال مانهاتن.

^٧ بنجالور Bangalore: عاصمة ولاية كرناتاكا الهندية.

^٨ السلتزر seltzer: مياه معدنية غازية غنية بالمعادن.

«حين خرجت كان لا يزال نائمًا أمام تليفزيون ستين بوصة.»

«هكذا نام إيرل وانسلت خارجة؟»

«هل أحتاج إلى إذن من إيرل لأرى أصدقائي؟»

«لا. لكنني اعتقدت أنك ستمدين الدعوة لتشمله.»

«ولماذا تعتقد أنني لم أفعل؟»

«لا أعتقد أنه يفوت فرصة ليرى معك.»

كانت مرهقة بدرجة لا تمكّنها من ممارسة هذه اللعبة اليوم. كلما حاول فليكس أن يجعلها أفضل يجعلها أسوأ. دبلوماسيته أسوأ ما في الأمر، إدراكه أن كل تعليق قد يُعتبر إهانة ضمنية. أغنية الندم القديم، ليس لانقضاء أحد عشر عامًا — لم يعلم بها أحد لحسن الحظ — بل لكل ما مرت به من إحباط في حياتها.

«لم يأت إيرل لأنه يشعر بأنه ليس في حالة طيبة. لا يزال ضعيفًا من عملية تغيير المجرى.»^٩ كذبة، كذبة واضحة، فقد انقضت خمسة شهور على إجراء العملية. لكن من يجادل؟ التقطت طَبَقًا. «أذهب لآتي بشيء أكله.»

«افعل من فضلك.» تراجع فليكس خطوة وردّ على تملصها بابتسامة رقيقة.

كانت غلطتها لأنها سمحت لإيرل بمقابلة أصدقائها أول مرة. اصطحبته معها قبل عام لحضور احتفال الرابع من يوليو وقدّمته لكل «رفاق الغرفة». كما لو كان ذلك يُفسّر كل شيء. كان في السبعين وكانت في الخامسة والأربعين. ربما أيضًا كانت تدعوه طاهيها أو مهندسها المعماري، ربما بدا ذلك مستساغًا أكثر. في الدقيقة التي تركته فيها انسل إلى رواق خالٍ. اكتشفته بعد ساعة في البهو يتحدث مع فليكس عن هيروشيما. كان ضحك الحفلة يصل إلى الفناء وإيرل يواصل الكلام عن ياباني قفز في نهر موتاسو^{١٠} ليُحرق حيًا في مياه تغلي.

شعرت بكعبها تغوران في العشب وهي تمشي. ينتعل معظم الضيوف أحذية خفيفة. اجتمع البعض حول الشواية ليستمتعوا إلى الجورجي، الرجل الذي ذكّرت تايًا. من الصعب معرفة إن كان وسيماً أم لا؛ رآته إلونا في الطريق إلى الحفلة ولاحظت العينين الرماديتين

^٩ عملية تغيير المجرى bypass: عملية جراحية لتحويل مجرى الدم أو أي سائل آخر ومن أشهرها العمليات التي تجري للشريان التاجي.

^{١٠} نهر موتاسو Motoyasu River: نهر في دلتا هيروشيما.

والأسنان السفلى المعوجة، مما أثار داخلها تعاطفًا مزعجًا. بدا أصغر من الرجال الذين حوله، ربما في الخامسة والثلاثين، لكنه بدا على حافة انحدار ربما يأتي سريعًا، وهكذا شيخ في النهاية، وقد يحدث ذلك في ليلة.

«أخبروني بأنهم يحرسون قاعدة»، قال الجورجي، والرجال يفسحون مكانًا لإلونا. «قالوا إن صديقهم أطلق النيران على يده ويحتاج أدوية لتخفيف الألم. عرضت عليهم مضادًا حيويًا وكانوا يريدون مورفين.» لم تكن تعرف عن أي حرب يتحدث. قد تكون أفخازيا أو أستييا الجنوبية. غادرت جورجيا قبل انفصال الجمهورية عن روسيا بثلاث سنوات، ومشاكلها الجديدة — أرادت مقاطعة تتمتع بالحكم الذاتي والاستقلال بعد ذلك — ليس لها تأثير عليها. سمعت عن مدمنين في تفليس ينقضون على المستشفيات حتى في أوقات السلم. ربما كانت عجرة البعد: لا شيء يتغير أبدًا هناك.

واصل: «أردت الخروج. لكن حين وقفتُ وجَّه أحدهم بندقية إلى وجهي.»
قاطعته رجل: «كان معك بندقية! كان عليك أن تطلق النار في فمه!»
قال آخر: «أي فم؟ هناك اثنان!»

واصل الجورجي: «فعلتُ الأخطر، لعنتُ. قلتُ كل ما ورد إلى ذهني من أسماء، أملًا أن تُنبِّه أحدًا يسمعني. لكنني ابتعدتُ عن التدنيس.»

توقف محدقًا في إلونا. بدا مندهشًا من الانتباه التام الذي أثاره.
سألت إلونا: «ألا تخبرنا إن كنتَ قد بقيت على قيد الحياة؟»

قال وهو يوميئ: «أشكرك. بقيتُ على قيد الحياة.» كان فكه طويلًا وفي ذقنه نقرة؛ السمة الوحيدة التي أمدت وجهه ببعض المرح. «سمعتُ مركبة تدخل فناء المستشفى. اعتقد المدمنون أنها عربة محملة بالجنود. لكنه لم يكن إلا رجلًا مصابًا بالتهاب في البنكرياس.»
قالت إلونا: «التهاب في البنكرياس؟ لا بدَّ أنه كان مدمن كحول.»

اعترف لها الجورجي صامتًا بحاجبيه. انتظر أن يتفرق الرجال من حوله في مجموعات أصغر. «كان. هل تعملين في عيادة لعلاج إدمان الكحول؟»

قالت: «لا، في مكتب طبيب مسالك بولية. وكنتُ ممرضة في تفليس.»
«وماذا تعملين الآن؟»

«قساطر، فحوص شرجية. تقنيًا، لستُ إلا موظفة استقبال، ومن ثمَّ أرد على التليفونات أيضًا. لكن هذا هو الشيء القانوني الوحيد الذي أقوم به.»

قال: «عملك أقرب إذن للطب من عملي. في النهار أستلقي على سجادة.»

«وفي الليل؟»

«في الليل أنظف المتاجر.»

«أتمنى إذن أن تُوفَّقَ في العثور على عمل يتناسب أكثر مع مهارتك.»

انقضت عينا الرجل على وجهها، كما لو كانتا لا تعرفان أي جزء تفحصه في البداية.

«ربما كان ذلك صعباً دون تصريح عمل. تنتهي تأشيرتي في شهر.»

«وبعد ذلك؟»

هز كتفيه. «سوف نرى. أنا توماز»، قال ماداً يده.

ضغطت عليها بخفة. «إلونا.»

أمسك بأصابعها. «في حياتي لم أقابل إلا اثنتين باسم إلونا، وأنتما الاثنتان جميلتان

جداً.»

شعرت بحرارة تتصاعد في وجهها. فكرت: إنه من هذا النوع من الرجال. يقف بالقرب

منها، وعليها أن تنظر إلى أعلى لتُكلمه. قالت: «تعيش في المدينة؟»

وجّه توماز ذقنه المنقورة إلى رجل بدين بلحية قصيرة أنيقة. «يوسف ابن عم صديقي

في شيتورا،^{١١} يسمح لي هو وزوجته بالإقامة في شقتهم في بروكلين.^{١٢} ابنهما في الكلية،

أنام في سريريه. هذا غير ملائم أحياناً. أساعد في شراء الطعام. إذا احتجتُ الحَمَّام في الليل

أسير على أطراف أصابعي. لا أشكو.» لمس قلبه بيده. «إنني ممتن. أشعر وكأنني أحتاج

إلى فقد ثلاثة أطراف وعين قبل أن أسف لحالي.»

مقيم بشكل غير شرعي ينظف المتاجر ... ابتسمت في داخلها. هذا كل ما يمكن أن

يجدوه لها؟ توهمت أنه عرف فتنته بالنسبة للنساء، ويستطيع الاعتماد عليهن في أحلك

الأوقات.

«المكان هنا رائع»، واصل وهو يتطَلَّع إلى الأملاك. تتبَّعت إلونا نظرته حتى البركة

المستطيلة الصغيرة. كلب يعوي في فناء بعيد. قال وهو يهز رأسه: «كل هذا الفضاء، أنا

داخل الزمن كله الآن. مضى وقت طويل على آخر مرة ذهبتُ فيها إلى غابة طبيعية. تبدأ

الروح تنسى.»

^{١١} شيتورا Chiatra: مدينة غرب جورجيا. بروكلين Brooklyn: منطقة جنوب شرق نيويورك.

^{١٢} بروكلين Brooklyn: منطقة جنوب شرق نيويورك.

قالت: «هذه طبيعية بصعوبة، لكن إذا أحببت أن ترى الطبيعة فعليك العودة إلى مسار القطارات. يمكن أن أقابلك في المحطة. تأتي القطارات كل ساعة.» انزلق صوتها بسلاسة تامة بما يشبه الحقيقة. متى خرجت للتنزه آخر مرة؟ أزعجها الشمس والناموس.

قال: «تعيشين قريباً من هنا؟»

«ليس بعيداً.»

«في منزل مثل هذا؟»

«في شقة.» حدّق في أصابعها. أضافت بطريقة خرقاء: «أشترك فيها مع رفيقة.»

«لست متزوجة إذن؟»

ضحكت إلونا ضحكة مرحة رقيقة. «لم أعد متزوجة.»

«خواتمك. لم أعرف ...»

فردت أصابعها وفحصت يدها عن بُعد. «ربما قال البعض إنها باهظة. لكنني أستثمر

في الحياة.»

ضحك: «من يعرف هنا؟ ثمة خاتم لكل شيء؛ للجامعة، للخطيب، للرفيق.»

قالت: «بعضها كانت هدايا. لكنها لم تكن هدايا تعاقده.»

كان الجو مظلماً حين عادت إلونا إلى البيت. كانت الكلبة عند قدميها بمجرد فتح الباب. «اهدئي إلسا»، همست، وجثمت لتلحس الكلبة كفها. على أطرافها الدكسهونت^{١٣} القصيرة تبعت إلونا في المدخل المظلم، حيث خلعت حذاءها ووضعت على رف الأحذية بجوار حذاء إيرل. من الكعب إلى الإصبع، كانت قدماها بالحجم ذاته. بدا غريباً، إذا وضعنا في الاعتبار أن كل الأشياء في العالم لم تكن مشتركة، كان حجم الحذاء شيئاً تشترك فيه. سارت حافية على السجادة إلى حيث يستلقي إيرل غافياً على الأريكة. وكان حول حافة بطنه قطعة قماش منقوشة. كان الهواء مفعماً برائحة الخميرة. ربما قضى إيرل بعد الظهيرة يعد سندوتشات الجبن، داهناً الطاسة بالزبد ليحصل على طعام شهّي. مالت إلونا على الأريكة وانتزعت جريدة مجمدة من تحت ركبتَي إيرل، ثم تناولت زجاجة حبوب الضغط من على منضدة القهوة. وقد ترك كوب الماء بقعة بيضاء منبعجة على الخشب. أخذتها إلونا وحاولت تلميعها لكنها صارت أسوأ. حملت الحبوب والكوب إلى المطبخ، وكان لا يبعد عن

^{١٣} الدكسهونت dachshund: كلب صغير الحجم من سلالة ألمانية، طويل الجسم، وأطرافه قصيرة.

غرفة المعيشة إلا بطول السجادة. قالت للكلبة التي تهادت خلفها: «مثل تنظيف موضع جحش».

كانت الغرفة التي تنام فيها مكتب إيرل ذات يوم. أخلاها لها حين انتقلت إلى الشقة، وشغلت الخزائن الطويلة التي تحتوي على الملفات ومنضدة الكمبيوتر، منضدة رمادية من البلاستيك، جانباً من غرفة المعيشة. طلبت منه التخلص من تلك الأشياء لكنه قال إنه يحتاج إلى أن تكون كل ملفاته القديمة متاحة إذا اتصل أحد من مكتب التأمين. كان الرجل متقاعدًا منذ ست سنوات.

طوت إلونا كُمِّيَّها ووضعت يديها في الحوض. كان إيرل يهتمهم في نومه بشيء ما ويتقلب على جانبه. ظهر طفح فضي على وجنتيه. سعل وفتح عينيه. «كم الساعة الآن يا لونا؟» قال وهو يتحوّل ببطء إلى وضع الجلوس. نظر إلى الساعة في جهاز الفيديو: «السابعة والنصف؟ لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا». عثر على نظّارته وعدلها وضغطها على أنفه. كان أنفه سميكًا، ألمانياً معقوفًا،^{١٤} انزلقت النظارة بسهولة.

«قلّت إنك ستأتين في السادسة. ألم تكن لدينا خطط هذه الليلة يا لونا؟»

«هل كانت لدينا خطط؟»

«السبت يا لونا. اتصلتُ بـ دلمونيكو^{١٥} مرتين ليحجزوا لنا طاولة.»

تجاهلته وواصلت الشطف. منذ متى أصبح الذهاب إلى دلمونيكو جزءاً من واجباتها؟ وقد رحبت بهما السيدة باعتبارهما السيد والسيدة بروير، لا يحب إيرل أن يضيع ليلة السبت. أفرغت كوب الشاي وبدأت فك الخيط المبلول من اليد.

قال: «شيء طيب أنني اتصلتُ»، ورفع جسمه الثقيل من على الأريكة.

ألقت إلونا كيس الشاي في الزبالة. «تتصل أو لا تتصل. يقولون دائماً إنهم يحجزون طاولة لنا يا إيرل. لأنه ليس هناك ما يُحجَز. كلما ذهبنا إلى هناك يكون شبه خالٍ.»

«ما عدت تحبين دلمونيكو الآن؟»

«لا أبالي يا إيرل.» شطفت طبقاً وحشرته في رف التجفيف. «هل يهم أي مطعم نذهب

إليه هذا الأسبوع؟ هل يمكن فقط أن أنتهي من هذه الأطباق؟»

تدلت شفته السفلى وهو يبحث عن فكرة.

^{١٤} معقوف: بالفرنسية في الأصل.

^{١٥} دلمونيكو Delmonico: فندق في مدينة نيويورك.

«إيرل»

«ماذا؟» تطلَّع إلى أعلى فسقطت شعرة بيضاء من حاجبه على عينه.

«علينا أن نهذب حاجبيك»

ارتفعت حدقتا عينيه. لعق إبهامه، وسوّى حاجبيه. حين انتهى، خطا بضع خطوات في صمت باتجاه غرفته. انتظرت إلونا حتى أغلق الباب، وجففت يديها في مريلة مُعلقة وذهبت إلى غرفتها.

سمعته يتحرك في الناحية الأخرى من الحائط. جثمت بجوار صندوقها القديم الذي يُطوى كمنضدة بجوار سريرها. في الخزانة الصغيرة مساحة لأشائها بالكاد. في أيام الرخاء، حاولت أن تتخيل أن المكتب الذي تعيش فيه كابينة على سفينة وأنها في رحلة عبر الأطلنطي في قرن آخر. وهي جاثمة، تناولت السويترات المكوّمة بكثافة والأوشحة المطرزة بالخرز واحدًا واحدًا حتى وجدت السويتر الكشمير البنفسجي. كان رائعًا ورقيقًا مثل جلد الحمل؛ فكرت في توفيره لمناسبة أفضل. لكنها تناولت الخيط البلاستيك لبطاقة السعر وقطعته. ستكون هناك أشياء أخرى لمناسبات أخرى. كانت تترك الملابس الجديدة فترة بدون استخدام، تمتد لأسابيع وربما حتى لشهور. بهذه الطريقة، حين تزيل في النهاية بطاقة السعر تشعر برضا وكأنها تفتح زجاجة براندي معتق. وإذا اعتقد بعض الناس أنها مبذرة فقد كانت تُعدُّ نفسها فقط للمستقبل وكان مشكوكًا فيه أكثر بكثير من مستقبلهم. هل كان إيرل يطرق على بابها إذا بدت مختلفة بأي شكل؟ هل طلب منها أن تصحبه إلى كوب من القهوة بشكل ودي في الأسبوع الذي قررت فيه ترك شقتها، ثلاثة أدوار تحت؟ هل أعطاهما ماكينة الخياطة التي أعجبتها؟ أو المعطف الفرو بعد ذلك بأسبوعين؟ وبينما كان عليها أن ترفض الفرو (فاحت منه رائحة تشبه النفطالين وكان يعود بشكل واضح لزوجها الميت)، كان عليها أن ترتدي شيئًا أفضل. بأدب جم، أخبرته بأنها ليس لديها مكان له الآن، لأنها كانت تخطط للانتقال من الحي. صار بقاؤها هنا باهظ التكاليف، بديون بطاقة الائتمان وأقساط السيارة ومبالغ دفععتها مقدّمًا لفصول التمرريض واكتشفت أنها ليس لديها وقت لحضورها. تحدثت بهدوء، لكنها، كأفضل ممثلة، تتمتع بغريزة اختيار التوقيت المناسب. قال إيرل: «لكن، مسز سيجال، لا ينبغي على امرأة مثلك أن تقلق أبدًا بشأن المال.» ذلك حين عرض عليها مكتبه القديم. يمكنها البقاء كما تشاء حتى يتحسن وضعها المالي. كان ذلك منذ عام ونصف.

سمعت إيرل يخطو عبر المدخل. خلعت قميصها وارتدت السويتر. بدت عيناها في المرأة مرهقتين. وبدا شعرها ظلًا أقرب إلى الأرجواني من الأحمر الغامق الذي صبغته به منذ

أسبوعين. رفعته عن قفاها وثبته بدبوس كبير مطلي. هنا مباشرة، السيد بروير، السيدة بروير. هكذا يرحب بهما النُّدُل في مطعم دلمونيكو. هل تبدو عجوزًا بما يكفي لاعتبارها زوجته؟ أم أنهم أيضًا يمارسون لعبة؟ حسنًا، لا تبالي بما يعتقد أولئك الناس، سواء اعتقدوا أنها زوجته أم صديقتها أم ربة بيته. كانت سعيدة بالاشتراك في أي تخيل اجتماعي خطط له. كان إيرل على الباب، يطرق.

قالت إلونا: «سأكون جاهزة في ثانية.»

ماذا يُفترض أن تقول للناس، حتى إذا أراد إيرل الاهتمام بارتفاع ضغطه وعدم انتظام ضربات قلبه؟ إذا تغاضت عن عملية البروستاتة قبل أربع سنوات. كل ما تعرفه أنه عنين، وكان مبعث ارتياح له أكثر من خيبة الأمل إذا صدته.

طرق على الباب مرة أخرى.

«نعم!» قالت وهي تفتح الباب.

كان القميص السادة مُزَرَّرًا حتى ذقنه تقريبًا. وقف في المدخل في بنطلونه الفضفاض وشبشه. وفي يده مقص مانكير.

قالت إلونا: «لنفعل هذا بسرعة.»

تركته ينظر إليها وهي تفرد ورقة من جريدة في حوض الحمام. «ملّ يا أرسوتل أوناسيس.»^{١٦} أغلق إيرل عينيه واتجه بوجهه ناحية المرأة. «هنا صديقتنا»، قالت، وهي تعثر على الشعرة المزعجة وتقصها. شذّبت البقية، وبظهر يدها أسقطت القصاصات من وجهه الرطب إلى الجريدة. فتح عينيه مرة أخرى ووقف مستقيمًا. قال: «لونا، أنت ملاكي»، وهو يضع عينيه في عينيها.

كان دلمونيكو يجعل إلونا تفكر دائمًا في مطعم فندق. سجادة مزخرفة، حوائط من المرايا، الإحساس بأن زبائنه لا يأكلون فيه إلا لأنهم يحاولون البحث عن شيء أكثر جاذبية. لكنه كان غالبًا، ولهذا السبب بدا أن إيرل يستمتع به دائمًا. شاهدته يرفع كميّه ويفتح قائمة الطعام المغلفة بالجلد. كان يتكفل بمهمة طلب الطلبات بجدية شديدة.

قالت مبتسمة: «لا يمكن أن تستغفني. أعرف أنك تتطلع إلى كبد العجل.»

«لا، لم أكن أتطلع، يا ملاك.»

^{١٦} أرسوتل أوناسيس Aristotle Onasis (١٩٠٤-١٩٧٥م): رجل الأعمال اليوناني الشهير.

«انظر إلى هذا، تأتي شرائح اللحم مع لحم الخنزير المملح. كيف نواصل الحضور إلى هنا بعد ما قاله طبيبك؟»

«صرْتُ في حالة جيدة يا لونا.»

«صرْتُ في حالة جيدة؟ هل ذلك هو السبب في أن الشقة كانت تفوح منها رائحة تشبه الجبن المشوي حين أتيت؟»

«أعددتُ ذلك من أجل لورانس. لقد مرَّ بي اليوم مع لوسيندا.»

«مرَّ بك ابنك فقط؟»

«سألاً عن مكانك. قلتُ إنك في زيارة لأصدقائك. لا عيب في ذلك.»

«حدَّقْتُ فيه إلونا: «هل يُفترض أن يكون في ذلك عيب؟»

«تعرفين أن لهما أفكارًا خاصة دائمًا.»

طوت إلونا قائمة الطعام ووضعتها بجانب طبقها: «أية أفكار؟»

إنهما قلقان كما تعرفين. بعد العملية الجراحية. يعتقدان أنني أحتاج إلى مساعد، مجرد شخص يأتي ويراني من وقت لآخر.

اعتقدت أنه اخترع هذا الكلام انتقامًا منها لأنها لم تصطحبه إلى الحفلة.

«يعتقدان أن شخصًا محترفًا يمكن أن يرعاك أفضل مني؟»

لم يرفع إيرل رأسه: «أخبرتُهما بأنني في حالة جيدة.»

«من الغريب أن الفكرة لم تخطر لهما على بال حين كنْتُ مصابًا بالتهاب رئوي وأخذتُ أسبوعًا إجازة من الشغل.» رشفت الماء من كوبها.

«قلتُ لهما إنها سخيفة. أنا بخير. لا أحتاج إلى أحد.»

كانت تستطيع أن ترى أنه ندم لأنه أخبرها. بدأ يعرق، وشعرت بأسف من أجله.

أخذت إلونا نَفْسًا عميقًا ومدَّت يدها على المفرش لتربت على يده. قالت: «سأهتم بك دائمًا على أفضل وجه». جلسا على هذا النحو حتى اقترب النادل. تطلعت إلونا إلى الشاب وابتسمت.

قالت له: «أريد مكرونة تاجليت.»^{١٧}

«وسيدي؟»

ردت: «يريد سمكًا.»

^{١٧} تاجليت tagliatelle: نوع من المكرونة.

كان توماز سيصل في السادسة وعشرين دقيقة. تركت العيادة في الخامسة وأربعين دقيقة وقادت السيارة إلى محطة القطار مباشرة. وهي تنضم إلى صف متعرج من السيارات على الرصيف، تقاطر المطر على الزجاج الأمامي لسيارتها. حدّقت في أطفال يتلوّون في المقعد الخلفي في العربة التي أمامها، يندفعون وينظرون من الشباك كل بضع دقائق إلى الوميض الفضي المنبعث مع المطر. في النهاية، هطل، بأنين مرتفع للفرامل، وشاهدت إلونا الجموع يختفون تحت بئر السّلم المغطّى ويظهرون مرة أخرى في الشارع المبلول بالمطر. حين رأت توماز انقبضت معدتها. كان يقف على رصيف المشاة، ويظلّل رأسه بيده. ارتدى سترّة قصيرة باللونين البرتقالي والبني، واسعة جدًا. ظنّنت أنه التقطها من سلة الصدقات. لمح سيارتها، ولم يكن أمامها من خيار إلا أن ترفع أصابعها في إشارة واهية قبل أن تمد يدها لتفتح الباب.

ركب ووضع حقيبة الظهر المبلولة على حجره، ثم ضغط رأسه على النافذة وتطلّع إلى السماء، وقد أظلمت وصارت أرجوانية داكنة.

«أسفة»، قالت وهي تُشغّل الراديو. «كان ينبغي أن أعرف حالة الطقس.»

قال متفائلًا: «ربما يتوقف المطر خلال ساعة.»

لم يتوقف. واصل وهما يسيران إلى الطريق السريع المُزدان بالأشجار، والقطرات الثقيلة ترتطم بالزجاج الأمامي والراديو يكسر الصمت بينهما. واصل وإلونا تقود السيارة في المدخل الضيق المؤدي إلى منزل تايا وفليكس، وقد امتلأ بالأوراق التي تساقطت من الأشجار.

جريا إلى المنزل وخلعا حذاءيهما وأشعلا المدفأة. طلبت إلونا من توماز أن يستريح على الأريكة الجلدية، واختفت في المطبخ وقدّمت للّقطة عشاءها من علبة من الصفيح. حين عادت إلى غرفة المعيشة، كان يمسك برزمة صغيرة ملفوفة في منديل خشن من الورق. «تذكّر من تفليس»، قال، وقدّمه لها. «إنه من الفضة، لكن أعتقد أنه قد يعجبك.»

كان سوارًا؛ حجارة موضوعة في سلك مُلتف مثل بتلات الزهرة. وضعته حول رسغها ومالت لتقبّله في خده. «شكرًا»، قالت وعادت إلى المطبخ لتعد الشاي. السابعة والنصف، وربما كان إيرل في انتظارها. فكّرت في القيام بالتمشية التي وعدت بها توماز بمجرد توقّف المطر. لكن كان الجو مظلمًا جدًا، وعرفت أنها لن تعود به إلى المحطة في تلك الليلة. سمعت التليفزيون في الخلفية حين رفع إيرل السماعة.

قالت: «ماذا تفعل؟»

«أشاهد قائمة شندلر»^{١٨}
«هل يمكن أن تخفض الصوت؟»
تلاشى الصوت في الخلفية. «أحضرتُ الفيلم لأنك تريدان رؤيته.»
«ابقَ الليلة في منزل تايا. هل تناولتَ عشاءك؟»
«نعم، أعددتُ بعض الفول المُعلَّب.»
«تركتُ لك طعامًا كافيًا في الثلاجة.»
«نظرتُ، ولم أجد شيئًا.»
«إيرل، تركتُ لك دجاجة. والخضراوات الجافة في إناء من الزجاج.»
«أكلتها أمس.»
«أعددتُها لتكفي يومين.»
«لم تذكر لي شيئًا عنها.» صار صوت التليفزيون أعلى مرة أخرى.
استمعتُ لحظة في صمت، استطاعت أن تسمعه يتنفس بصعوبة.
سألتُ: «ألا تزال معي؟»
«أين أذهب؟»
«هل تناولتَ حبوبك؟»
«تناولتها. لا تفعل شيئًا أبدًا.»
صار في حالة صعوبة. «ماذا يا إيرل؟»
سعل في التليفون: «أشعر بضغط على صدري.»
«في صدرك أم الجزء العلوي من بطنك؟»
«لا أعرف. فقط ... عام.»
«إنه مختلف تمامًا.»
لم يرد.
قالتُ: «يمكن أن يكون الفول. وعدتُ تايا، لكن هل تريد أن أعود إلى البيت؟»
«لا.» كان الرد فاترًا. «ربما أتصل بلورانس.»

^{١٨} قائمة شندلر Schindler's List: فيلم أمريكي من إنتاج ١٩٩٣م، عن رجل أعمال ألماني أنقذ عددًا كبيرًا من اليهود البولنديين من الهولوكوست بتوظيفهم في مصانعه.

«لورانس؟ إذا لم تكن مريضًا...» توقفت. قالت مرة أخرى: «آتي إلى البيت إذا أحببت.»

«سأكون بخير.»

أصدر براد الشاي صغيرًا.

قالت: «أصل بك فيما بعد»، ووضعت السماعة. وجدت فوطة أطباق وصبت الماء المغلي في كوبين من الخزف على صينية معدنية مزخرفة أخذتها من أحد الأرفف التي تعرض تايا أشياءها فيها. حملتها إلى غرفة المعيشة، حيث يقف توماز. كان يلمس بأصابعه الزجاج الرصاصي للمبة ديكو. قال: «لا بد أن الحياة في بيت مثل هذا رائعة.» وضعت إلونا الصينية: «لا أحسد أحدًا.»

من الصعب معرفة إن كان يبتسم أم يسخر. بدا وكأن وجهه يقول: «نعم، هذه أيضًا إجابة، لكن ليست للسؤال الذي طرحته.»

تخيلت أنه وجد لذة هائلة في الفُرجة على منزل تايا. وكانت سعيدة لأنه بدا متأثرًا، بالسقف المنحدر بشدة وبكتب الفن الثقيلة في خزائن الكتب المشيدة في الحوائط، وحتى عش الطائر من الفناء الخلفي، مما ينم عن لذة هائلة فاقت التوقع. ودت أن يكشف عن الشخصية التي وراء هذه الأشياء. يبقى أنها لم تكن شخصيتها، وكان عليها قمع رغبة ملحّة بأنها قد تُعدّ المكان بشكل مختلف، وأنها ستضع الأثاث أقرب للنوافذ أو تدهن الحوائط بلون أفتح، لون يمكن أن تلتف فيه. دار توماز حول الأريكة وجلس في مقعد مُنجد.

قال: «أنظر حولي هنا فأجد كل شيء نظيفًا ورائعًا. يعمل الناس، يعملون بشكل جيد.»

جثمت على السجادة بجوار منضدة من الزجاج ووضعت كيس الشاي في كوبها. «ليس كل الناس. بعض الناس يفشلون، يتوهون هنا.»
نظر إليها توماز: «مثل زوجك؟»
هزت كتفها: «ربما إذا بدأ مبكرًا، لكن...»
«لكن؟»

«لتحرز تفوقًا هنا، ينبغي أن تحب وجودك هنا.»

«أرى. لم يكن يريد أن يأتي إلى أمريكا؟»

قالت، وهي تشاهد شريطًا ملونًا ينتشر في كوبها: «كانت حياتنا طيبة في تفليس، وظيفة جيدة، شقة جيدة.»

«لماذا رحلتما إذن؟»

«كان الجميع يريدون الرحيل، جميع الأصدقاء. لم أرغب في أن أكون في العربية الأخيرة من القطار.»

فكرت: كيف تفسر له الأمر بشكل آخر؟ هل تقول إنها جاءت إلى أمريكا وراء رجل لم يكن زوجها؟ رجل كانت زوجته الصديقة الأقرب إليها، تورط معها فقط لأنه على وشك مغادرة البلاد وكان عليها أن تبقى بعده؟ أم أنها بقيت مع زوجها لأنها كانت فزعة جدًا من القيام بالرحلة وحدها؟ كانت في الثانية والثلاثين، بلا أطفال، لم تكن صغيرة، ربما، لكنها كانت صغيرة بما يكفي لأن تتراجع عن اختياراتها.

قالت: «كان زوجي مديرًا في مؤسسة إلكترونيات. تعرف ما يعنيه ذلك. يعرف كيف يمزح، كيف يتهرب من شخص. كان كلبًا ذكيًا، يعرف متى يعوي ومتى يلحق. لكن لم يفده شيء من هذا هنا. جرّب برامج، مثل جميع الآخرين. لكنها لم تمنحه إلا الألم.»

كل وجود زوجها ارتداد من الحياة كما يرتد شخص شبه نائم من الضوء. انتباها لبرهة، غفر لها شعورًا بالمسؤولية، لكن كانت الحرب، هبّات الاستقلال في جورجيا. بدأ الأصدقاء الذين بقوا في كتابة رسائل مليئة بقصص مفزعة: وقفت في وجه المظاهرات قوات مسلحة بالعصي والهراوات، مدعومة بالدبابات، ترش الغاز المسيل للدموع والكلوروبكرين^{١٩} في أوجه الناس. ثم أغلقت مؤسسة الإلكترونيات، أفلست بدون العقود التي كانت تأتي من روسيا. العائلات الروسية تفر وتستقر في بلدات نائية حيث وفّرت لهم حكومة موسكو ملاذًا وقطعة من الأرض. حتى إذا أراد زوجها العودة، فلم يكن هناك ما يعود إليه.

قالت لتوماز: «إنه ليس في حالة سيئة الآن. ذهب إلى سان أنطونيو^{٢٠} للعمل في محل أثاث يمتلكه ابن عمه.»

مال توماز على المنضدة وتناول كوب الشاي. «أزعجك ضعف زوجك؟» بدا أنه يوجه السؤال إلى نفسه أكثر مما يوجهه إليها.

أجابت بشكل آلي: «لا. لم نكن متوافقين منذ البداية.»

^{١٩} الكلوروبكرين chloropicrin: سائل عديم اللون يُسبب الغثيان والتقيؤ.

^{٢٠} سان أنطونيو San Antonio: مدينة جنوب وسط تكساس.

«حين لا يستطيع رجل تقديم الدعم لأسرته ...» يعتدل في كرسيه ويهز رأسه. «في بلدتي، يموت كل الرجال صغارًا. يصابون بنوبات قلبية وجلطات. لأنهم فقدوا هدفهم.»
تطلعت إليه إلونا من الأرضية: «وأنت؟»

«لا، لأنني هنا.» أخذ رشفة من الشاي ووضع الكوب. «حين عدتُ من أفخازيا، لم أعثر على عمل. ثم وجدت عملًا في عيادة. لكن لم يكن هناك من يدفع، على الأقل نقودًا. والآن لا يذهب الناس إلى الأطباء إطلاقًا.»
«ماذا يفعلون؟»

«يموتون في بيوتهم.»

أراحت إلونا كفَّها على أصابعه. قال: «آسف. كل هذه القصص المحزنة.» فتح فمه ليضيف شيئًا آخر، أغلقه على فكرته. أخذت يده. جلد مفاصل أصابعه ناعم ومتين مثل قشرة جوز الهند. شبَّكَ أصابعه في أصابعها، وقبل أن تشعر بعرقها أو نبضها رفعها، مثل شخص يدفع شخصًا خارج الماء، حتى بدأ جسمها يعمل ما يعرفه وغاص بعمق في حجره.

تركته يقبِّل يدها أولًا ثم وجهها. أبقتُ عينيها مغلقتين وتوماز يقبل خط فكها ومُنحنى عنقها. حين تحركت شفاته إلى أسفل، ضغطتُ وجهها في شعره وتنفست رائحة الطقس الذي أتى به معه.

في الدور العلوي، لم يكن إلا ظلًا ينتفض، عضلات مشدودة في الظهر وخربشة في الخد. وضع ثقله عليها بتركيز بطيء، يحاول الاثنان بوعي تجنب عدم البراعة، لم يختبر أي منهما الآخر، حريصين على ألا يهدرا أي قوة تنبعث منهما مهما تكن ضئيلة. فيما بعد رقدًا معًا في صمت. حين صار الهواء دافئًا جدًّا، طلبتُ من توماز فتح نافذة.

«قل لي شيئًا»، قالت حين عاد إلى السرير المجعد. انقلبتُ على بطنها ومررتُ أصابعها على الحواف المستقيمة لجبهته وأنفه، على ما تبقى من لحيته.

«كنتُ أصغر من أن تكون دكتورًا وأنت في أفخازيا.»

«كنتُ في الخامسة والعشرين. أنهيتُ دراسة الطب. لم أعتبر نفسي صغيرًا. كان الجنود أصغر. لم يعلمهم أحدُ شيئًا. لا يعرفون حتى كيف يتصرفون مع الموتى.» سحب ملاءة على كتفه لأن الغرفة صارت باردة. «ذات ليلة أتوا برابع. رأيتُ، بمجرد دخولهم به، أنه لم يكن هناك ما يُفعل من أجله. صرخوا فيَّ لأنقذه. أطلق أحدهم طلقة في السقف. اندفعتُ إلى جسمه فربما كان قلبه ينبض. بقيتُ أمام أصدقائه. ضغطتُ على صدره، مجرد استعراض.

كان أسوأ من أي شيء فعلته لشخص حي.» أشاح بوجهه عنها باتجاه الحائط، بقي جسمه مشدودًا بعد ذلك بدقائق، وعرفت أنه لم ينم.

«هل لديك أبناء؟» سألت أخيرًا.

انقلب توماز على ظهره وأخذ نفسًا من الهواء البارد المنتشر في الغرفة. «عندي ابن. يبلغ الثانية عشرة في الشهر القادم.»

«وزوجتك...»

«هو وزوجتي مع أُمِّي في شيتورا. لوالديّ منزل هناك، ربما أقيم هناك أيضًا حين أعود.»

وجدت انحناء ذراعه ووضعتُ رأسها فيها، ثم قالت: «رائع أن يكون لك مكان تعود إليه.»

استيقظا في الظهيرة، والشمس تنفذ من الستائر. في طريق العودة إلى المحطة، أخذته بالسيارة عبر حي تري تاون^{٢١} الجميل، في شوارع تصطف على جوانبها الأشجار، عبر المنتزه، وبجوار ملاعب التنس تتلألأ في الشمس. «ربما في المرة القادمة أرى بيتك؟» قال وهي تندفع إلى المحطة. ابتسمت ووضعتُ قبلة جافة على شفتيه.

في مطعم على الطريق، شربتُ كوبًا من القهوة. نظرتُ في قائمة الطعام ووضعتها جانبًا. كانت القهوة ثقيلة جدًا بحيث قضت على شعورها بالجوع، وعادت بسرعة إلى البيت لتعدّ العشاء لإيرل. شعرتُ كأن جسمها أخذ نفسًا طويلًا وعميقًا. نسيت الطريقة التي يمكن بها للجنس إزالة الفوضى من المخ، وكانت تريد أن تجلس وتقيم في هذا الخواء برهة أخرى.

نبحت إلسا حين فتحتُ إلونا الباب. كان الهواء في الداخل باردًا، فاحت فيه رائحة الكربون، ورائحة زيت احترق ثم برد.

«إيرل؟» نادت في غرفة الطعام. دخلتُ غرفة النوم ووجدت السرير مرتبًا. «إيرل؟» نادت مرة أخرى بصوت أعلى.

تركت الباب الخارجي الثقيل مفتوحًا فطرقَ شخص باستعجال على باب الحاجز. «أهلًا؟» قالت إلونا، وقد قطعت نصف الطريق في الردهة.

^{٢١} تري تاون Tarrytown: قرية جنوب شرق نيويورك على نهر هادسون شمال مدينة نيويورك.

«السيد بروير؟» كانت المرأة التي تسكن الشقة المجاورة. ربما كان اسمها مارتا، لكن إلونا لم تسأل قط.

«هل تريدین شيئاً؟» تفحصت إلونا المرأة من فوق إلى تحت. ترتدي بلوزة ويبرز وركاها تحت بنطلون ضيق.

«أردتُ فقط أن أعرف إن كان السيد بروير عاد.» مدَّت المرأة رأسها لتنظر إلى الداخل بشكل أفضل.

«عاد من أين؟»

«أظن أنك لم تكوني هنا هذا الصباح إذن، حين جاءت عربة الإسعاف؟ كان ذلك في وقت مبكر جداً. أيقظوني.» ركزت المرأة عينها على سويتِر إلونا وحقيبة يدها وحذاءها.

ردت إلونا: «لم يعد. الآن من فضلك اعذريني. أعدُ بعض الأشياء له لأخذها إلى المستشفى.»

«ألم تنادي عليه منذ لحظة؟» سألت المرأة.

ردت إلونا: «كنتُ أتحادث إلى الكلب.»

أخبرتها موظفة الاستقبال في فيلبس ميموريل بأن إيرل نُقل إلى عنبر القلب في التاسعة والنصف صباحاً. هل كانت قريبة مباشرة؟

قالت إلونا: «لا. أنا ...» ألقت نظرة إلى الردهة ورأت لورنس يخرج من مصعد معدني كبير مع زوجته لوسيندا. «ثانية فقط»، قالت للفتاة. سحبت خواتمها في كفها ووضعتها في حقيبتها. «أنا رفيقته»، قالت وهي تلتفت خلفها.

«رفيقته»، كرّرت موظفة الاستقبال لنفسها وبحثت في الشاشة. ابتعدت إلونا عن المكتب وألقت للوسيندا ابتسامة تعاطف تجاهلتها. حين تطلع إليها لورنس، كان وجهه مفعماً بالتأنيب، لكن لا، حمداً للرب، مع ألم الشعور بالذنب. إذا كانت لديهم طاقة مُتبقيّة للعداوة المتحضرة، فكَرَّتْ، لكن إيرل بخير بشكل أكيد.

«كيف حاله؟» قالت وهي تقترب.

قال لورنس: «بخير. إنه بخير.» بدا محبطاً لأنه لم يقل ما هو أسوأ.

أخبرهم الأطباء بأنها نوبة قلق، لكن مع مريض أصيب بالفعل بجلطة في القلب عليهم التعامل مع كل شكوى باهتمام. قال لورنس إنهم ما زالوا يُجرون بعض الفحوص في الدم. ربما ينتهون من رسوم القلب هذا المساء.

قالت: «في هذه الحالة سوف أقيم معه اليوم.»

ألقي لورنس نظرة إلى لوسيندا. قال: «لا نعتقد أنها فكرة جيدة.» مثل أبيه، لم يكن طويلًا. شعره ملتف في موجة واحدة على قمة رأسه. «يبقى معنا في منزلنا يومًا أو اثنين.» «يحب شقيقته...» حدّقت إلونا فيهما مرتبكة. «هل يريد هذا؟»

قالت لوسيندا: «لا يهم ماذا يريد. المهم صحته.»

قال لورنس: «نحبك يا إلونا. لكن أليس من الأفضل لك أن تكوني برفقة شخص أكثر ... حيوية؟ أبي ضعيف. لديه أوهامه. يمكن أن تدمره.» بدا أنه يتأمل حذاءه، قال: «يمكنك البقاء في الشقة لبعض الوقت.»

لم تسأله عما يعنيه «بعض الوقت». مثل أي شخص آخر، سيكون لورنس لطيفًا حتى يأتي وقت يصبح فيه فظًا. حين عادت إلى الشقة وضعت طاسة القلي على الموقد وصبّت فيها بعض الزيت. من خلال النافذة رأت الأشجار تعتم تحت سماء المساء الهادئ. عند قدميها إلسا تقضم بضع مكعبات من السلامي.^{٢٢} كسرت إلونا بيضتين وضربتهما، وصبّت المزيج في الطاسة وشاهدته يتمدد على سطح الزيت. إذا رحلت فعليها أخذ الكلبة معها. لن يتحداها إيرل في ذلك. أذهلتها خططها بنوع من اليقين يسيطر على عقلها بعد يوم من الجوع. يمكن أن تطير إلى ألاسكا، حيث الرجال أكثر مثل السلمون. أو تؤجر شقة رخيصة في بدروم في أوسننج^{٢٣} وتدعو توماز لقضاء عطلة نهاية الأسبوع. سخرت من التفكير فيهم، في بدروم بلا نوافذ، من طوب مدهون باللون الأبيض، رافضة الشعور بأسف تجاههم لأنه ليس فيهم من فقد ثلاثة أطراف أو عين. اعتقد أن ضيقته صقلته، لكنها عرفت أن الجميع يمكن ألا يعرفوا الخوف طالما لم يكن هناك اختيار آخر. في حالتها، لم يكن الأمر بهذه السهولة. بمجرد أن يدخل إيرل من الباب ويرى صناديقها على الأرضية، سيسألها إلى أين تذهب؛ سيطلب منها التخلي عن ذلك كله ويعرض عليها اصطحابها للتسوق، وإذا قاومت فربما يتوسل إليها لتبقى. كم يبدو الاستسلام رائعا. غدا، ربما تبدأ حزم أمتعتها. قلبت الأومليت في طبق رقيق، قطّعت الثوم على لوح التقطيع، ونثرته على القمة. قليل من الزخرفة جعل طعمه أحلى دائمًا.

^{٢٢} السلامي salami: نوع من السجق المملح المضاف إليه الكثير من التوابل.

^{٢٣} أوسننج Ossining: قرية جنوب شرق نيويورك.

منزل حجري

تأليف: باي أنابول^١

الآن تُحتَضَر أم كيت — سوف تموت في الحقيقة بعد وقت قصير — وكيت تحاول نسيانها معظم الوقت. تكتب أطروحتها على الآلة. تنزع الأعشاب الضارة من الحديقة. لكن أمها تزحف على أي حال: غير متوقعة، غير مرغوبة. تتخيل كيت ١٩٣٨، السنة التي استأجر فيها والدا أمها منزلاً ساحلياً من الحجارة على الحافة غير العصرية لمدينة كان. أخذتا بناتهما بعيداً عن حرارة باريس مثل أي عائلة فرنسية أخرى من الطبقة المتوسطة. تتخيل كيت المنزل الحجري مربعاً صغيراً رمادياً رائعاً، والمطبخ يكتظ بأشياء من أجل سيد نهم،^٢ كرواسو بالزبد، قطع من الشيكولاتة مدسوسة في البجيت.^٣ أم كيت، سولان، هادئة تماماً، ومثل كل تلاميذ المدارس الفرنسية لا يوجد جزء من شعرها منكوشاً. تخبط كل حجر في المنزل بيديها الصغيرتين. تبتسم. لا تعرف ما تعرفه كيت: سوف تقضي الحرب في أقل من عام على حياتها، وتفقد أباه وأختها وكل شيء. لكن الآن — في هذا الصيف الأخير المدهش — تنزع سولان ملابسها، جلد مدينتها، وتجري إلى المياه تضرب الرمل الأبيض

^١ باي أنابول Bay Anapol: كاتبة أمريكية. والعنوان الأصلي للقصة A Stone House.

^٢ سيد نهم: بالفرنسية في الأصل.

^٣ البجيت baguettes: نوع من الخبز الفرنسي المستطيل.

البارد النقي، بعيدًا عن شوارع باريس بروائعها. هذا فقط ١٩٣٨. تغمس إصبع قدم نظيفة في البحر.

ربما تكون القصة الحقيقية وربما لا تكون، لكن كيت تُضيف تفاصيل للقصة التي تحكيها لجون. تضيف ولدًا ألمانيًا يسبح مع بنت شقراء قريبًا جدًا من المنزل الساحلي الحجري، قريبًا جدًا حتى تتوقف دقات قلب أمها وتبدأ مرة أخرى من الكلمات: فيرنر، لا. لا. تضيف كيت قطارًا محطّمًا في طريق العودة إلى باريس، فتش جدها وأخذه إلى أوشفيتس،^٥ ولم يعد قط. في القصة الحقيقية، عادت سولان إلى باريس وإلى المدرسة، وإلى الهلع، وكل ما حدث من أشياء مهمة بعد ذلك. لكن كيت لا تستطيع إلا أن تُغير مصير أمها للإثارة. كانت مع جون لأكثر من مائة ليلة، وكل ليلة تغزل حكاية لتأسر انتباهه من جديد. اعتادها مثل الوحمة، كيف لا يستطيع جون أن يراها؟ ليس هناك حدث درامي آخر تشترك فيه معه، وهكذا تُقدم معظم ما لديها.

تتقلب كيت في السرير، تحت لحاف أمها، الفضي القديم. صحيح أن القصص التي تحكيها لجون حكّتها جدتها، ليست جديدة. لم تقل أمها شيئًا تقريبًا عن حياتها قبل الحرب، قبل أن تغادر فرنسا، قبل أن تتزوج من أمريكي غبي سمّاها سو. هناك قصص كثيرة لا تعرفها كيت عن أمها: قبلتها الأولى، حبها الأول، شعورها وهي تُبحر إلى جزيرة إليس.^٦ لا أتذكر، تقول أمها، مستبعدة كل أسئلتها. لا يهم. كانت أمها قوية. حوّلت ماضيها إلى بخار بالضبط كما يتحول ماء نقي في برطمان.

«آخر مرة شعرتُ فيها بالأمان»، بهذه الطريقة تختم كيت قصة المنزل الحجري. جون لا يستمع. يدخل إلى غرفة نومها بفراولة مغسولة بعناية وقشدة مضروبة في إناء أزرق صغير. يشبه مشهدًا سينمائيًا، تعتقد كيت، مشهدًا سينمائيًا عاطفيًا رائعًا. في فيلم، رغم ذلك، قد تختفي بشكل سحري أغصان الفراولة والبقع الحمراء على المفارش.

^٤ لا. لا: بالألمانية في الأصل.

^٥ أوشفيتس Auschwitz: مدينة جنوب بولندا، ضمت أكبر معسكر اعتقال نازي أثناء الحرب العالمية الثانية.

^٦ جزيرة إليس Ellis: جزيرة في خليج نيويورك جنوب غرب منهاتن. كانت المحطة الرئيسية للهجرة إلى الولايات المتحدة من ١٨٩٢-١٩٤٣م.

يبتسم جون، ابتسامته بعيدة. «الفراولة العضوية أفضل.» تفهم كيت أنها ليست المرة الأولى التي أكل فيها فراولة في سرير امرأة. تشعر بقلبها يضرب بقسوة، مدفوناً تحت الملابس والجلد، رافضاً التوقف.

هناك قصة أخرى يمكن أن تحكيها له، لكن ما جدوى ذلك؟ في هذه القصة، كيت في التاسعة في منزل ساحلي مع أبويها، منزل ساحلي في أمريكا، لا فرنسا؛ مشيد من الجص الوردي لا الحجارة. فلوريدا، حيث تشرق الشمس طوال اليوم والسيارات بيضاء وتركواز، لون الدمى التي تعمل بمفتاح. تقف أمها قرب المدخل، تنادي عليها، لا تبتسم، نفذ صبرها. كيت متأخرة دائماً. في الذهاب إلى الشاطئ؟ ما أهمية ذلك؟ شعر أمها الرمادي مدفوع إلى الخلف بتوكة قديمة. لون شعر الأمهات الأخريات متألق، طافٍ بشكل سحري على وجوههن النضرة. لا تصبغ سولان شعرها باللون الأشقر أو ترشه برذاذ الشعر. لا تضعه على كتفيها.

الشاطئ مزدحم بأمهات أخريات، من نوع تحن إليه كيت: أمهات أصغر في ملابس استحمام محكمة على أجسامهن قاطعة علامات حمراء على أوراكن المترهلة، أمهات يلعبن المايونج^٧ بقطع من الرقائق الرطبة، أمهات يشعلن سجائر ويضعن كريماً طباشيرياً على أنوفهن الحمراء المقشرة. لا تلعب أم كيت المايونج قط على الشاطئ أو تتحدث إلى الأخريات بلهجة نيويورك الخشنة الرتيبة. الأمهات الأخريات غصون سمكة تميل لمتطلبات الجميع. يأكل أطفالهن السجق ويسبحون دون انتظار ساعة معينة. إجازة، تقول الأمهات كل منهن للأخرى. من لديه طاقة للشجار؟

كيت تخاف من كل هذه الرمال، قناديل البحر المجففة، المياه التي تتراجع وتندفع في نوبات مفاجئة تحت قدميها. تستدير لتعود جرياً إلى أمها. هنا تتوقف الذاكرة، أين أمها؟ تتسلل كيت من السرير وتتخلص من الفراولة الفاسدة المتبقية في الزبالة. تستمتع بصرير اختفائها. تود غالباً أن تجعل جون يختفي بمثل هذه السهولة. جون، الذي عاش في غرف قذرة في أفغانستان ولشبونة، مفروشة لكن دون مياه جارية، دون جواز سفر صالح، ودون تذكرة عودة للوطن. تجوّل في إسبانيا بحقيبة ظهر وخمسة دولارات أمريكية. ظل هناك ستة شهور، ثم عشرة. انتظرت صديقته ذات الشعر الأصفر في الوطن، وأخذته امرأة

^٧ المايونج mahjong: لعبة صينية يلعبها أربعة أشخاص وتشبه الدومينو، ولها تصميمات متنوعة.

إسبانية بعينين سوداوين وأطعمته أطباقاً غريبة وغالية في لون الدم. وقعت في حبه، تركها وذهب إلى بمبلونا.^٨

يوم أخبرت كيت جون بمرض أمها، أمسك بوجهها وتتبع عينيها المبللتين بأصابعه. الآن ربما لا تستطيع كيت أن تخبره بالحقيقة: لا تبكي من أجل أمها. تبكي لأنه رجل عاش في أماكن كثيرة جداً وطنه ليس من بينها. أمها تُحتَضِر ولا تشعر إلا بارتياح. منذ كانت طفلة وهي تتمنى اختفاء أمها؛ تمنى أن تكون العلة الأخيرة. تزحف الآن عائدة إلى السرير. وضعت يدي جون عليها، في الانحناءات الضيقة بين وركيها وبين ثدييها. يده دافئتان بصورة مدهشة.

يقول جون فجأة: أحب الطريقة التي تنطقين بها كلمة بالضبط. تستخدمها معظم النساء ليقطعن طلباتهن: مثل أودُ بالضبط أن تحدثني عن يومك؛ أودُ بالضبط أن تُحبني بقدر ما أحبك. أنت لا تطلبين بهذه الطريقة. تقول كيت: «لا أريد شيئاً.» «أمر مدهش فيك. أحب ذلك فيك.»

أوه، يا لها من كذبة كبيرة. جون هو الذي لا يحتاج شيئاً، لا يريد شيئاً. إنه سرخس هوائي. لكن كيت تدرك أنها تريد الكثير جداً. تريد منزلاً حجرياً وكلباً مدلاً وطفلاً. تريد التطلع إلى جون كل صباح في حياتها. تريد غمر نفسها في الوصلات الغريبة في وجهه، المراوغات الضئيلة في تعبيراته، الطريقة التي يميل بها أنفه إلى اليسار قليلاً، الارتفاع الكبير لعظام وجنتيه. تريد ضمه إليها، الزحف بين ذراعيه، وأن تكون ضرورية له كالماء. يمكنها أن تقسم هذه الرغبات بعناية؛ لكنها تدرك في النهاية أنها إضافة لكتالوج الرغبات نفسها، القدر نفسه من الاشتياق. الآن، يمكنها الاختباء في شقوق جسمه، في جلده القوي. يمكنها تغطيته مثل سر. يمكنها لف كاحليها حول كاحليه، يبدو أنهما يتحركان دائماً، يجريان منها، يجريان حتى أثناء النوم.

يتجمد في ذاكرتها: يوم كانت وحدها دون سابق إنذار على شاطئٍ صاحب مزدحم. كيف حدث هذا؟ كانت أمها هناك دائماً، تأخذها من المدرسة والفتيات الصغيرات الأخريات

^٨ أطباق: في الأصل stews، وهو طبق يُطبخ ببطء، وهو مزيج من اللحم أو السمك والخضراوات. بمبلونا Pamplona: مدينة في شمال إسبانيا.

يركبن الباص، أو تنتظرها بعد درس الباليه، تنظر من زجاج نافذة كبيرة وكيت تتدرب على الوضع الثالث ثم تناديها بعد ذلك «يا فيلتي الصغيرة». تقول هذا كأن كيت عبء آخر يوضع في حياتها، طفلة ضخمة جدًا، تفتقر تمامًا إلى الكياسة، حتى جوارب الراقصين، الوردية، لن ترفعها عن العيوب الأمريكية. الأطفال الفرنسيون ليسوا سمناً، تقول لكيت، تقول ذلك سلطة طاغية في ذلك الصيف الذي يزورون فيه باريس، تتطلع كيت في كل مكان بحثًا عن وزن زائد. لكن الأطفال الفرنسيين نحاف. يطيطون في شوارع متعرجة وفي ردهات الأنفاق، تاركين كيت لا تفعل شيئاً إلا عد إعلانات نيبذ دوبونيه وهم يسرعون في نفق المترو.

في ذلك اليوم لا يمكن أن تنسى كيت، تتطلع بشغف لكرسي شاطئ وأمها تقف أمامه، ترتدي بلوزة بيضاء سادة، وبنطلوناً أزرق غامقاً. سولان فرنسية، لكنها ليست فاتنة. لا تضع مكياجاً، ولا أحمر شفاه. قامت كيت بعمل سيئ لتصرف. كيتي، حين أعد إلى عشرة، من الأفضل أن تكوني في هذا المنزل. تحب سولان استخدام التعبيرات الأمريكية. حين تفقد كيت الدمى بعدم التقاطها تقول، الطريقة التي ترتبين بها سريرك هي الطريقة التي سوف تنامين بها فيه. حين تمزح كيت بتهريج بشع مع ولد صغير، تصرخ أمها، من يسكن بيتاً من زجاج لا ينبغي أن يرمي الناس بالطوب.

حين تغضب أمها، تظهر خطوط ضيقة حول عينيها. تغمض كيت عينيها نصف إغماض لتتخيل أمها معها، وعن بُعد بقعة صغيرة بيضاء وزرقاء. تضع قوقعة على أذنهما، قوقعة أنقذتها من المد، تسمع صوت أمها: عودي إلى هنا.

لماذا لا تتذكر أنها موجودة؟

تحتفظ كيت بقواقع ذلك الصيف. تُلْفُها في مناديل ورق وتدسها بعناية في صندوق صغير من خشب الأرز. يحب جون ذلك فيها: شغفها بالتذكارات. يحب ألبومات صور متعاقبة دون ترتيب ودون تواريخ. يحب صناديق مجوهراتها الممتلئة، لخبطة الحلي الفضية والسلاسل الذهبية، الحقائق الصغيرة الممتلئة بالعملات الفرنسية والإيصالات القديمة.

يقول لها إنه رآها تقف أمام محل ملابس كانت مغرمة به دائماً لكنها لم تشتتر منه قط، شاهدها وقد بدأت تضحك، تسخر من التكلفة الباهظة لتمني الأشياء الجميلة — طريقة الحصول على الممكن — فقرر الاقتراب منها. لمس يدها برقة حتى لا يخيفها وقال:

أردتُ فقط أن أقول لك كم تبدين سعيدة. لم أرَ قط شخصاً يبدو بهذه السعادة. ما تخبئه كيت مدى تعاستها؛ إنها محطمة، تقول أمها إنها لا تساوي شيئاً، وترى كيت بوضوح تام حتى الثمن المرعب للرغبة في شيء جميل مثل جون. لكن حين يلمس ذراع كيت، تشعر فجأة بسعادة مفاجئة، وبعد ذلك أيضاً، وهما ينتظران فتح المحل، وتُجرب كل الملابس الغالية، ملابس بيضاء تتشكل على بشرتها، ثنية الحرير وفتحته فوق رأسها، مظلات فضية وزهبية. لا تشتري شيئاً، لا يمكن أن تشتري شيئاً، لكنها لا تجد ما تُعبر به عن نعمة الملابس حين تتجراً وتلمسها. وبعد ذلك، حين تن، يندس على جسمها مثل فستان غال. بعد ذلك بوقت طويل تتساءل كم لمس بهذه الصورة في حيوات النساء الأخريات، كيف فتحتها وابتعد فجأة بدون أن يترك أثراً.

«كم عمرك هنا؟» يسأل جون، وهو يُقلب في ألبوم صور أخرجه ونفضت الغبار عنه. يشير إلى صورة فتاة صغيرة تقف حافية تخبئها الأشجار. ينتظر مكاملة من «صديق». يدّعي أن مجلة ترسله للسفر في مهمة. نظرة الفتاة في الصورة مهيبة.

تقول كيت: «ليست صورتي. إنها أُمي.»

«لا يمكن، ليست في لونها.»

تنظر كيت من جديد. الصورة صورتها، كيت، مع تعبير ثعلبي حاد على وجه أمها. فيها الكثير من أمها رغم كل شيء. الدروس في قيمة الأوشحة الحريرية الغالية مع أسماء صغيرة منقوشة في الزوايا. كيف تضع عطرها في مراحل بحيث يبقى: في البداية الصابون، ثم المسحوق، ثم لمسة في الرسغ، الصدغين. سقط شعر أمها من العلاج الكيميائي، وظهرت علامات كبيرة على شكل حرف إكس على جانبي رأسها الأضلع حيث يُسلط الإشعاع. أحبك، قالت لها كيت في البداية، منذ ستة أشهر، بشكل حلو، بشكل زائف، أحببتك دائماً.

لم تقولي ذلك من قبل قط، ردت أمها، بصوت مزعج، وهي تهزُّ رأسها، غير متسامحة حتى النهاية. لم تقولي ذلك قط وأنا على قيد الحياة. ابتعدت عن يد كيت بآخر ما تبقى لديها من قوة. تذكّرها بأن حب أي شخص مثل غزو بلد: بصرف النظر عما تقطعيه عبر الحدود تبقي غريبة.

«أين تم التقاطها؟» يسأل جون بتكاسل، عن الصورة. يمسك بالتليفون، ينقره على وركه. ربما يقيم علاقة غرامية مع ممثلة مشهورة، تغير اسمها ورقمها أسبوعياً، وتنزل في فندق رائع باسم دورثي باركر، أو، على الأرجح، ويلما فلينستون.

«بنسلفانيا»، تقول كيت. كانت في منتزه بلدة أميش.^٩ شعرت بالعار لأنها سائحة في مكان يرتدي فيه الناس ملابس سوداء وقورة في حرارة الشمس ويسافرون في باجي^{١٠} بدلاً من السيارات. يعتقد جون أن هناك أشياء لن تشارك فيها، يعتقد أنها مفتونة باستحالة التأثير عليها. لكنها كذبة. هناك ببساطة أشياء لا تهتم بالمشاركة فيها، وهو أمر مختلف تمامًا.

في ١٩٤٢، وسولان في الثالثة عشرة، وقفت أمام ألماني، جندي من القوات النازية الخاصة. لم يكن هناك إلا هي وأمها؛ رحل أبوها إلى المعسكرات، وضاعت أختها في تيار الأطفال الضائعين. لم يضعوا النجوم الصفراء على أذرعهم. النجوم، النجوم التي تقول يهوذا، كانت في قاع حقيبة جلدية سمراء. هربوا من باريس واختبئوا مع عائلة مسيحية في مكان لا يبعد كثيرًا عن المنزل الحجري، ساعة أو ساعتين إلى الشمال. تشيح سولان بعينيها وهي تمر قرب طريق جانبي؛ كانت كبيرة جدًا على الألعاب والشواطئ. لديهم سيارة، معجزة، وسولان تريد أن تقودها، رغم عدم تأكدها من معرفة القيادة. تعرف، مع ذلك، أنه حين تصدر السيارة فرقعة عند التوقف تكون المشكلة في الغاز. لا يمر الغاز بسهولة. تنتظر المرأتان في صمت ساعة، ثم اثنتين. في النهاية تصل عربة جيب بها جنود ألمان. تلوح لهم سولان. لا خدمات قيمة مضافة؟ يسألون. لا خدمات قيمة مضافة؟^{١١} سولان جميلة جدًا حين تبسم، وتبتسم للجنود. تتطلع في وجوههم بلا خوف. نحتاج إلى غاز، ترد بألمانية سليمة.

حين تحكي كيت هذه القصة لجون، تحشوها بالتفاصيل، ما لا تستطيع تفسيره. على سبيل المثال: كيف عرفت أمها اللغة الألمانية؟ والمحير أكثر: لماذا يقدّم لهما الجنود الغاز النفيس؟ لماذا يتركون سولان وأمها في حالهما؟

بالعودة إلى السرير، يكون للحاف الفضي مثل إطار للبشرة الذهبية، بشرة جون. يهتز بجوارها في الضوء الخافت. أذنه تتجه إلى التليفون. كيت مجرد خلفية. ستكون الخلفية دائمًا. تتخيل سولان ميتة تناديهما من القبر: لماذا ألبستني أزرق في الجنازة؟ أردتُ الأحمر. قلتُ لك الأحمر. كيت، لا تركزين أبدًا.

^٩ أميش Amish: بلدة في جنوب شرق بنسلفانيا.

^{١٠} باجي buggy: عربة خفيفة يجرها حصان واحد، بأربع عجلات في الولايات المتحدة وعجلتين في المملكة المتحدة.

^{١١} لا خدمات القيمة المضافة Vas nicht: بالألمانية في الأصل.

كيت خارج القصص. يعرف جون كل ما يستحق اهتمامًا. حتى الأشياء الحقيقية: سوف تموت أمها. يعتقد أن كيت ستكون شجاعة فيما يتعلق بهذا، لكنها لن تكون شجاعة. سوف يرحل. سوف تريده وتبكي بمرارة.

لكنها تعرف أنه يشحب بسرعة مثل سولان، التي دُرِّبَت في صمت رهيب. تستطيع أن تعاقب كيت به. الصمت حتى والأطفال الآخرون على الشاطئ يُشَيِّدون قلاعًا من الرمال ليفرِّجوا أمهاتهم عليها، ويبعثون شرائح البطاطس في كل اتجاه. تترك أمها الشاطئ، تتركها وحدها، تشكل الرمال أشكالًا مروعة في شمس المغرب، والسماء تظلم. يهمس الصمت لكيت بوضوح: بقيت على قيد الحياة، والآن عندي طفل أمريكي يطلب دمي بربي^{١٢} ولُعِب طوافة من المطاط. هل تتمنى أن تبتعد أمها، ألا تصل أبدًا، أن تبقى في باريس، حيث تنتمي؟ يأخذها الجنود. تتأرجح الضلف البيضاء، ضلف الشقة الخاوية، شقة جدتها، مثل الأشباح وأجنحة الملائكة، عاليًا فوق شارع الدرب الأحمر الصاخب.

«ربما يرسلونني إلى برشلونة مرة أخرى»، يقول جون، وكأن قضاء الوقت في تلك المدينة الإسبانية الجميلة أسوأ من الموت. تدرك كيت أنها لم ترَ فعليًا أي مقالة كتبها جون عن السفر.

«ربما تذهب أيضًا»، تقول كيت بجفاف. يُحدِّق كل منهما في الآخر لحظة. يغلق عينيه ويحلم، على ما تعتقد، بجياد تجري. تريد أن تسخر منه، تعرف أن عليها أن تسخر من جياده وأنية الحساء الأحمر، ولا تستطيع. لا تستطيع أبدًا.

حين تأتي المكالمات التليفونية، يستعد جون. ليست في الوطن. كلَّفته المجلة بمهمة، يكتب ملحوظة صغيرة ويلصقها على الثلاجة. يريد أن يجنّبها، أو يجنّب نفسه، المشاهد. لا يضيف إلى أين يذهب. تجد قميصًا قديمًا على عمود السرير، ولا تجد تفسيرًا. يحتمل ألا يكون هناك تفسير. يرحل الناس ببساطة لأنهم يريدون الرحيل. تشحب ذكراه ببطء، مثل ملابس قديمة كثيرًا ما ذهبت للمغسلة. يصبح شبكًا مثل سولان.

مع أن ذلك محير، محير حقًا، حين مضى على زهاب جون وقت طويل وأمها، بالطبع، ميتة، تستيقظ كيت ذات صباح بذكرى أخيرة واضحة.

لم تتركها أمها. أمها هنا على الشاطئ، وليست غاضبة. ذهبت لتأتي بالغداء، وتعود بسرعة، تضحك وتحمل أطباقًا فضية عليها بطيخ أحمر بارد، وشرائح مجمدة من الجبن

^{١٢} دمي بربي Barbie dolls: طراز من الدمى تصنعه شركة ماتل الأمريكية.

على أطباق صفراء ساطعة. وكيت في حالة هلع لأنها تحب أمها كثيرًا ولا تحتمل أن تبتعد عن عينيها ولو للحظة. يسطع الشاطئ مثل عاج مصقول تحت قدمي كيت الصغيرتين، وهي تلتقط قنديل بحر ولا تخاف. وحين تقترب من سولان، تبتسم في دهشة وتضرب شعر كيت وتناديها قردة، قردي الصغيرة. أوه، إنها أمها، أمها رغم كل شيء. انظري إليّ، تصرخ كيت لأمها، انظري إليّ، وتعدو حتى تمد أمها يدها وتقربها منها، تقربها وتتأكد كيت في تلك اللحظة أنها تستطيع الغوص في جلدها والسباحة في ذلك الجدول الأحمر الدافئ إلى قلبها مباشرة.

صحبة الرجال

تأليف: جان إليسون^١

لبضع سنوات كان في حوزتي معطفان واقيان من المطر تفوح منهما رائحة الويسكي والسجائر وعطر ما بعد الحلاقة. كانا أحمرين فاتحين مخططين بخطوط من الصوف، احتفظتُ بهما في كرتونة على رفٍّ فوق التواليت في شقة صغيرة كنتُ أعيش فيها وحدي. ثم وأنا على وشك الزواج وأريد التخلص من عيوب كثيرة جدًّا، وكثير جدًّا من عادات ورغبات بلا جدوى، آمنتُ بأن عليَّ أن أكف عن السير على هُدى الماضي، رميتُ المعطفين في كوم الإحسان وفقدتُهما للأبد. ما يتبقَّى الآن هو صورة واحدة أعود إليها من وقت إلى آخر، لشابين يرتديان معطفين لونهما أحمر فاتح يتسكعان تحت سماء مُظلمة.

التقيتُ بهما أولاً في آخر يوم كامل لي في نيوزيلندا، بعد أن استأجرتُ دراجة وسرتُ بها ثلاثة أميال على ممر قذر لتلمس أصابعي نهر الجليد. بدأت السماء تمطر، وعند الضحى حين عدتُ إلى القرية، كنتُ منقوعة في المياه حتى حمالة الصدر. لم يغادر الأتوبيس الذي قلّني إلى كريست تشارش حتى الواحدة، وكان على الناحية الأخرى من موقف الأتوبيس حانة^٢. داخلها نار في موقد وشابان — جيمي وري — يقفان في معطفين واقيين من

^١ جان إليسون Jan Ellison: نشأت في لوس أنجلوس، والعنوان الأصلي للقصة The Company of Men، وهي أول قصة تُنشر لها.

^٢ كريست تشارش Christchurch: مدينة في نيوزيلندا، قرب ساحل المحيط الهادئ.

المطر يشربان المارتيني. كان ري ممتلئاً أسود، بجذع قصير، وعينين ضيقتين، وأنف ضخمة معقوف. شعره نحيل أسود على جبهة عالية ملساء، وبدأ أن كل هذه السمات تبرز في وسط وجهه. كان جيمي أطول وأشقر، بكتفين عريضين وعينين زرقاوين جميلتين. شعره ملتف عند أذنيه وعند قفاه الذي حرقته الشمس. كان هناك شيء شاذ، صدفة غالباً بشأن طريقة وقوف جيمي في الإطار، كأنه يغفل التأثير الذي قد يكون لطوله وطلعته البهية — التأثير الذي لهما — على فتاة مبلولة تقف في مدخل بار على بُعد سبعة آلاف ميل من وطنها.

كنتُ أسافر وحدي لعام، منذ أنهيتُ الدراسة في الكلية، عبر أوروبا والهند وجنوب شرق آسيا، وقضيتُ شهراً في أقصى شمال الجزيرة الشمالية^٣ أجمع الطماطم في الشمس مقابل أجر ضئيل، أكل سندوتشات الجبن، وأنام وحدي في غرفة سوداء قاتمة بها أسرّة خاوية. خطر ببالي فجأة وأنا أقف في مدخل البار أنني مشتاقة بشدة إلى اقتحامه، مشتاقة بشدة إلى أن أجتث في الشمس، مشتاقة بشدة إلى أخذ ذلك كله، إلى تدوين ملاحظات على دفاتر قانونية صفراء، إلى القفز عبر الصخور والجليد في حذائي وعبر الرمال ورماد عشب البحر والمرجان والأعشاب المبتلة في حذائي الممزق. لم تكن الوحدة ما أردتُ التخلص منه وأنا أعبر البار باتجاههما بل من صرامة أفرضها على نفسي، اضطرار إلى تبرير التجربة، تمزيق معناها، العودة بشيء إلى الوطن. كانت أيام الخبرات الناضجة القيمة تتتابع واحدة بعد أخرى فيما بدا لي امتداداً طويلاً دون تصفية، مناظرة، تقارب ... سكر بيّن.

كان جيمي وري قد تحرّجاً للتو في جامعة كارولينا الشمالية، وكانا في رحلة إلى نيوزيلندا وأستراليا وربما بالي أو كتمندو.^٤ تحت المعطفين اللذين يلبسانهما، كانا يرتديان ملابس لا بُدَّ أنهما يرتديانها في الوطن، يرتديان الجينز وحذاءين من الجلد وقميصين بأزرار في الياقة، وكانا يتشدقان في الحديث. خاطباني بحضرتك، مما جعلني أشعر بأنني مهمة بشكل غريب، وكأنني حملتُ معي سلطة حاشية سرية. شربنا معاً خمس جولات سريعة والمطر يضرب النافذة والوحل ينزلق من فوق التل في الخارج إلى بركة سمراء هائلة. عن بُعد برزت قمم بيضاء لنهر الجليد من كتلة سوداء من السحاب. ونحن نشرب، أراح جيمي يده أسفل ظهري وحدثني ري عن فتاته التي تعيش في الوطن؛ حمراء الشعر سرقت نقوده وحطّمت قلبه.

^٣ الجزيرة الشمالية North Island: جزيرة في نيوزيلندا.

^٤ كارولينا الشمالية North Carolina: ولاية جنوب شرق أمريكا. بالي Bali: جزيرة جنوب إندونيسيا. كتمندو Kathmandu: عاصمة نيبال.

حين حان وقت انصرافي — والعدام ينطلق من خلف الأتوبيس وبدأت أوجه المسافرين تظهر في النوافذ خلف الأمطار الغزيرة — تحولت الرغبة في البقاء إلى ولع. لكن كانت معي تذكرة بنصف الثمن إلى سيدني في الصباح وتأشيرتي السياحية على وشك الانتهاء. «تريدين البقاء والشرب معنا»، قال جيمي، وأنا أقف وأضع عشرين على البار. التقطها ووضعها في الجيب الخلفي لبنطلونه الجينز. ترك كأس المارتيني، ووضع خلة بين أسنانه، ومال ناحيتي، اقترب حتى شعرتُ بنفسه السكران في رموشي. أخذتُ زيتونة ووضعتها بين أسناني، ثم أعدتها إليه فيما يشبه القُبلة. قال: «ما زِلْتُ مبلولة». خلع معطفه الواقى من المطر. قال ري: «لا تُعطها هذا، أيها الخاسر».

قال جيمي: «سهلة، يا ولد». ثم هز كتفيه ووضع المعطف على كتفيه. أخرجتُ لساني لري وخرجتُ من الحانة في المطر وركبتُ الأتوبيس.

في كل مكان في سيدني رأيتُ أناسًا أعرفهم. خرجتُ من محطة مترو الأنفاق إلى الشمس، وكانت هناك فتاة من مسكني في بداية الدراسة الجامعية، تجلس على محطة أتوبيس، أو الرجل المتزوج الذي كنتُ معه في لندن قبل عام، منطلقًا في سيارة أجرة. قد أطوَّح ذراعيَّ في الهواء لأحبيهم، وحين يلتفتون إليَّ، تتلاشى أوجه من أعرفهم في حيرة أوجه الغرباء. فكرة العودة للوطن لا تفارقني، وكانت هناك أسباب وجيهة لعدم العودة. سافر أبي إلى الخارج مرة أخرى، قبل أن أسافر، وأظن أن تلك المرة للأبد. «عند نقطة معينة يجب التسليم بالأمور»، كان هذا ما قاله، ليس لأمي لكن لي. عرفتُ أنني كنتُ أيسر الأمر عليه، بالبقاء بعيدة، متخفية عن السبب، لكن الزمن والبعد قتلا جسَّ المسؤولية عندي. وهذا من روعي إيماني بأن أُمِّي قد تكون متألَّة وحزينة فقط، لكنها ليست يائسة أو في حالة تدعو إلى اليأس.

انقلتُ إلى شقة مع ثلاث فتيات ألمانيات كُنَّ يتجولن معًا حول العالم لمدة عام. كنَّ لا يتكلمن الإنجليزية مما جعل الأمر سهلًا؛ لم يكن هناك ادعاء بأننا نتعامل معًا كأصدقاء. وقَّعتُ في وكالة عمل مؤقتة، وكالة لا تُراجع تأشيرات العمل وتدفع نقدًا كل يوم جمعة. وَجَدْتُ لي الوكالة مهمة تستغرق ستة أشهر، كاتبة لشركة تأمين في المدينة. كان العمل مملًا لكن العائد كان كبيرًا، انكببتُ عليه. في الوقت المتبقي جَدَّدْتُ حملة تحسين الذات طويلة المدى. أَقْلَعْتُ عن التدخين وابتعدتُ عن الحانات؛ تدرَّبْتُ على سرعة الكتابة؛ دَوَّنْتُ الكلمات التي لا أعرفها على دفاتر قانونية صفراء وبحثتُ عنها في القاموس في مكتبة

في طريقي إلى البيت. من المكتبة قد أمشي إلى المنتزه، بجوار الحانة في وولومولو^٥ وفوق هضبة صليب الملك. اشتريتُ فلافل^٦ وجلستُ عند نافورة في الميدان، أشاهد مراكب صيد في المداخل، متجولين وسائحين ورجال أعمال وحيدين يدخلون ويخرجون من الملاهي والنوادي، المطاعم والمحلات والحانات القذرة.

انبهرتُ بتغير الفصول، التحول من جو ضبابي ممطر في شهر مايو إلى برودة رمادية واضحة لما كان صيفًا في الوطن. اقتربتُ الإجازات وبدأت الأيام تطول وتزداد حرارة وترقبًا. في اليوم الأخير من عملي كاتبة، أخذتُ الطريق الطويل إلى البيت خلال المنتزه وتوقفتُ عند السياج المشرف على ميناء سيدني. كانت دار الأوبرا تومض باللون الأبيض، فخمة عن بُعد، والمياه تتلألأ، والبدر الأزرق يطفو منخفضًا في السماء. امتلأتُ بفراغ هائل، بحرية رائعة، وكنتُ كحالي دائمًا حريصة على البقاء والاستمتاع والتشبع بهذا كله. لكن ماذا تفعل بشعور مثل هذا؟ مثل لحظات الوحدة الأخرى في سنوات الترحال تلك، جبال الهيمالايا في العتمة بعد يوم بارد أمشي فيه وحيدة، سطح شاحنة على البحر الأديرياتيكي في شمس ساطعة، باريس تحت تساقط الثلج المخملي. متصنعةً وشديدة الخصوصية ومملة. واللحظات الأخرى الأكثر ظلمة تعني أكثر، بشكل نهائي، المسرحيات التي بدأتُ غالبًا في الحانات، حيث تستقيم الحركة الدوامة في المساء وتشتعل في شكل إنسان ولم تكن هناك فقط احتمالية الرغبة، واحتمالية أن تكون موضوعًا للرغبة، لكن احتمالية لقصة فقر أو إدمان أو خداع. هناك وعد بمعرفة جديدة — شكل أذن، رائحة المسك — أو تحول في رأي المرء في نفسه وفي العالم.

بدأتُ المشي من جديد، بسرعة عبر المنتزه، وحين وصلتُ إلى الحانة في وولومولو دخلتها فورًا، وجلستُ على مقعد خالٍ، وطلبتُ لنفسني بينت^٧. هناك أغنية لبوب دالان^٨ في صندوق الموسيقى. غنيتُ مع «مثل حجر يتدحرج» ولسْتُ بيدِّي الخشب الأملس للحانة. ظننتُ أنني سمعتُ اسمي، لكنني كنتُ متأثرة بالأشباح وأبقيتُ رأسي ثابتًا. أمسكتُ بالبيرة بين

^٥ وولومولو Woolloomooloo وصليب الملك King's Cross: منطقتان قرب سيدني، أستراليا.

^٦ فلافل falafel: بالعربي في الأصل.

^٧ بينت pint: وحدة حجم في الولايات المتحدة تساوي ثمن جالون أو حوالي نصف لتر تقريبًا.

^٨ بوب دالان Bob Dylan (١٩٤١-؟): غنى «مثل حجر يتدحرج» Like a Rolling Stone.

سنة ١٩٥٦م.

يديّ. ثم كانت هناك حرارة جسد خلفي، ويدان توضعان فجأة على كتفيّ فاستدرتُ وكان جيمي.

قال: «هاي كاترين.» أخذ مقعدًا على جانبي وأخذ ري مقعدًا على الجانب الآخر. استدرتُ باتجاه ري. نظر إليّ بوجه خالٍ من التعبير وأخرج لسانه. أخرجتُ لساني وضحكنا، وكأنها الطريقة التي يرحب بها كلُّ منا بالآخر كل ليلة جمعة على مدى عقد من الزمان. شجعني ضحك ري، وأزعجني أيضًا. كان بشعًا جدًّا، ذاتيًا جدًّا، ليفتح فمه بتلك الضحكة. ثم يكون مجرد أسنان وعينين ساطعتين، وتتجعد جبهته مثل قطعة من الكتان. لكنني علمتُ أنه يستطيع غلقه مرة أخرى في لحظة فأندهش مما فعلتُ. استخدم جيمي كارت والد ري وطلب مارتيني لنا جميعًا، وبدأنا نشرب بقوة وسرعة. بدأ ري يتحدث.

«الآن هذه الفتاة ياسمين، في روليا. السبب في وجودنا هنا؟» قال ذلك كأنه يطرح سؤالًا. «منزلها بجوار المنزل الذي نشأتُ فيه. كان منزل جيمي على بُعد ثلاثة منازل. مجرد بعوضة، تتصرف كأنها ولد. وتترك شعرها يكبر، لها عينان خضراوان وكأنها تضع عدسات لاصقة. طالبة في الصف الأول من المرحلة الثانوية، تحصل على مستانج موديل ٦٧^٩ مناسبة لعيد ميلادها ونلونها لها. باللون الأصفر كما طلبت.» «أصفر مثل شبيب سيدة»، ذلك ما قالته.

قال جيمي: «كانت مهتمة بالزهور والخرا.»

قال ري: «نعم، لكن أصفر فقط. زرعت فناءها الأمامي كله بها — ورود والتوليب وأي زهور أخرى. سجلوا ذلك حتى في الورق، مع صورتها وهي ترتدي ثوبًا أصفر. ثم ابتعدتُ إلى الأسمر وباعت أمها المنزل ولم نرَها لبعض الوقت. وفجأة، تظهر في الصيف الأخير على الرأس. وكانت السيارة لا تزال معها. كان جيمي في ميامي يعمل على مركب ولم يكن هناك إلا أنا وياسمين، نجلس طوال الليل نتعاطى الكوكايين، نلف بالسيارة في المستانج. وفي المقعد الخلفي كانت تضع كل تلك الآنية التي صنعتها على عجلة الأواني في المدرسة، مثل العشرات منها، كانت كلها مزروعة بالزهور الصفراء.»

حدّق ري أمامه مباشرة وهو يتكلم، إلى صفوف الزجاجات المصفوفة على البار. توقف ورشف رشفة من كأس المارتيني.

^٩ مستانج موديل ٦٧ Mustang 67: موديل من السيارات الفورد.

قلتُ: «وماذا حدث؟»

«حسنًا تنتقل هي إلى كارولينا مباشرة، لحضور السنة الأخيرة؟ ونقضي نحن السنة كلها بشكل أفضل معًا، ونتحدث عن الانتقال إلى نيويورك بعد التخرج. كنتُ أتصرف، وعرفتُ أنني أستطيع الحصول على شقة وعلى كل شيء. وبعد الاختبارات النهائية مباشرة، تأخذ خمسة آلاف دولار من مخبأ في غرفتي وتنفصل. تخرج بسيارتها من كاليفورنيا وتتسكع مع بروفيسور متأنق — كبير، في الأربعين تقريبًا، وحصلتُ على وظيفة هناك — وأعرف بالأمر كله عن طريقة بطاقة ترسلها إليَّ.»

قلتُ لري: «يا إلهي، لا بدُّ أنه كانت هناك مؤشرات، على أنها ستُنهي العلاقة وتنصرف بهذه الطريقة.»

قال ري: «ربما. لكنني لم أقضِ وقتًا مثل هذا مع أي شخص آخر.»

قال جيمي: «باستثنائي.»

«حتى أنت يا جيمي، يا ولدي.»

كنتُ أستمع إلى ري وكوعاي على البار وذقني في يدي، بقوة يمكن أن تتغلب عليك حين يكون لديك كمية كبيرة تشربها. بدت قصته غريبة وحزينة، لا تُنسى. وري يتكلم، وأصل الشرب وترك ظهر يده يسقط على ذراعي على البار. ترك وركه يحك في ركبتَي تحته. بدا أن هذا هو الترتيب. مع الشرب واليدين الجوّاليتين والعينين الحلوتين والنظرات الجميلة، كان دور جيمي لفت أنظار الناس إليهما، ودور ري — بقصصه وبعينيه الحزينتين — أن يُبقيهم هناك. يمكن أن يبقينا هناك حتى لا نستطيع في النهاية احتمال سماع القصة مرة أخرى، ثم ينقذنا جيمي، بالشرب أو أغنية أو بجري همجي في الظلام خلال المنتزه.

«اللعة على أ!» قال جيمي من صندوق الموسيقى. ضرب بيديه على الكأس وأسقط بعض قطع العملة. جاءت «جبل السكر» بصوت نيل يانج،^{١٠} جاء وجلس بجواري، وتوقف ري عن الكلام وأنا أغني أنا وجيمي. كانت الأغنية فجأة شيئًا لنا وحدنا — نعرف كل سطر فيها — ولم ينضم إلينا ري. حين ضغطنا عليه قال «لا أُغني»، كأن الغناء عادة أقلع عنها منذ وقت طويل.

غنيْتُها أنا وجيمي مرة بعد أخرى، وبعد بعض الوقت بدا أن ري وقصته يتراجعان فلم يعد هناك إلا جيمي وأنا وتلك الأغاني وتألّق أزرق مفعم بالدخان في البار. آخر ما

^{١٠} نيل يانج Young (١٩٤٥م-؟): مطرب كندي، غنى «جبل السكر» سنة ١٩٦٤م.

أتذكره من تلك الليلة الأولى الوقوف عند صندوق الموسيقى في آخر طلب، محاولة بصعوبة وضع رُبع دولار في الفتحة لنغني تلك الأغنية مرة أخيرة.

في صباح اليوم التالي، استيقظتُ بكامل ثيابي تحت الغطاء وحذائي موضوع بعناية بجوار السرير. لم يكن هناك دليل واضح على المودة؛ لا احتكاك أو سواكل أو روائح غريبة. لم يكن هناك رقم تليفون أيضاً، لا شيء مكتوب على كُفِّي أو على منديل موضوع في جوربي. قضيتُ النهار نائمة بتأثير الشرب واستيقظتُ من وقت لآخر لأتساءل كيف يمكن أن أتبعهما — جيمي وري — ولم أكن أعرف اسميهما الأخيرين. حين نهضتُ أخيراً وأخذتُ حماماً، كان وقت الأصيل، والفتيات الألمانيات يشاهدن التليفزيون. بدأتُ خطاباً إلى أمي. كتبتُ أشياء أعرف أنها تحبها: ادخرتُ بعض النقود، اندمجتُ مع رفيقاتي، واستمتعتُ بالحي، كل المحلات، الميدان، المقاهي في الهواء الطلق. لم تكن هناك حاجة لأن تعرف أنه قلب حي البغاء القذر، والشوارع مرصوفة ببائعي العقاقير والعاهرات ونوادي العُراة والحانات. بدأتُ خطاباً إلى أبي وطبَّقته وألقيتُ به. أول الخطابات الكثيرة التي بدأتُ كتابتها إليه ولم أنْهها قط ولم أبعث بها قط. خشيتُ أن أفقد القرب الذي كان بيننا، لكن الاتصال به بدا مضللاً؛ مشجعاً أو خادعاً.

في الساعة السادسة، دخل جيمي بتثاقل من باب الشقة المفتوحة وعلى صدره إناء به نبات طويل. الجذع فوق كتفه والغصون ترحف على السجادة خلفه. وضع النبات على الأرض، ناثراً طين الزهرية على السجادة البيضاء البالية. كانت عيناه مغمضتين نصف إغماض وعلى وجهه نظرة تركيز عميق. بدا ضخماً بشكل خاص في الغرفة الضيقة البيضاء، وكانت وجنتاه مفعمتين بالألوان بجوار الفتيات الألمانيات الشاحبات، اللاتي نقلن أعينهن بعناية من على التليفزيون ووضعنها عليه.

قلتُ: «ماذا تفعل هناك يا سيد؟»

«أحمل هدية إليك»، قال، وخرج من الباب. ذهبْتُ إلى النافذة وشاهدته. كان يتطوح عبر الشارع إلى لوبي فندق ريكس القديم ويظهر مرة أخرى وكان هناك نبات تحت كل ذراع. ثم عاد إلى الشقة ليتركهما ولم تقل الألمانيات شيئاً. حين خرج مرة أخرى بدأ ن يثرثرن معاً، وحين عاد بنبتين آخرين ابتسمن له ثم لي وضحكنا.

قام بدسته جولات، وفي كل مرة يُحضر نباتاً أو اثنين دون أن يبدو أن أحداً يلاحظ ويضعه بتثاقل على أرضية غرفة معيشتنا. جلس أخيراً بعنف على جزء خالٍ من السجادة، وربَّع رجليه على الطريقة الهندية، وابتسم لي ابتسامة انتصار وكشف عن أسنان بيضاء رائعة. ثم أغلق عينيه ومال بجسمه للخلف ووضع رأسه على الأرض بصوت مكتوم.

كان أثقل من أن يتحرك. كل ما استطعنا فعله فرّد رجله ووضع ذراعيه على صدره. فيما بعد، حين مضت الفتيات الألمانيات للنوم، أحضرت مخدة وبطانية واستلقيت بجواره. كان قميصه قد خرج من بنطلونه الجينز فوضعتُ كَفِّي على بطنه ولمستُ زغب الشعر الأشقر حول سرتِه. لم يكن بكرشٍ، لكن بطنه لم يكن مشدودًا بشكل يوحى بالزهو أو الالتزام، وهما صفتان اعتبرت في ذلك الوقت وجودهما في الرجل غير مستحب. جريتُ بظهر يدي على خده الذي حرقته الشمس. فاحت منه رائحة الكحول والدخان ونوع من عطر ما بعد الحلاقة كان الأولاد يضعونه في الكلية. رائحة ذكرتني بالجنس العشوائي السريع. ضممتُه، ضممتُ جسمه كله. انبعثت حرارة من المواضع التي تماس فيها جسمانا وبدأت اللحظة بسيطة وكاملة بشكل مطلق. بقيتُ بهذه الصورة بيننا. لم أعرف قط اعتقاده بشأن معظم الأشياء، إن كانت له آراء رزينة بشأن الاقتصاد أو طبيعة الرجال أو وجود الرب. الأشياء التي يعرفها — كرة القدم، والمراكب الشراعية وتصنيع المعدات الثقيلة — لا توفر موضوعًا للمناقشة بيننا. من النادر أن نكون وحدنا وكنا سكرانين غالبًا، ولم تكن هناك حاجة قط لأن يعرف كلُّ منا الآخر بشكل جوهري؛ لم يكن هناك مستقبل متخيّل. كنا متحررين من الثقل الذي عانيتُ منه كثيرًا في الكلية وفيما بعد، حين تعلن لنفسك وللعالم أنك قابلتَ شخصًا مميّزًا وعليك أن تواصل الفصل الدراسي. عليك أن تهمس في الليل وتعانق عيوبه الرهيبة؛ قشر الشعر على صدغيه، ميله لمخاطبة النادلة بفضاظة، نزوعه للمبالغة في اللبس.

مع جيمي كان الأمر بسيطًا بشأن وضع «جبل السكر» في صندوق الموسيقى وتلامس أوراكننا تحت البار. كان عن التحدث عن ري والشرب وتمضية الوقت دون التشبث به أو قياسه. لم يتعلق الأمر بالأفكار؛ تعلق بوزن جسد وحرارته مقابل وزن جسمك وحرارته. شعرتُ بشيء يشبه ذلك مرة أخرى حين أمسكتُ بطفتي الأولى في ذراعي. حرّكتني حقيقتها الفيزيائية البسيطة؛ ذقنها الصغير وشحمة الأذن الطرية، رأسها الأملس الأشقر بلون الرمل، تنفّسها اللبني على وجهي.

بعد الليلة الأولى، نقلت الألمانيات النباتات إلى بلكونة الشقة، وبإيماءات صماء بالأيدي وابتسامات اعتذار، وكان واضحًا أنهن يفضلن ألا يمر جيمي بغرفة معيشتنا. ومن ثمّ اعتدنا الذهاب إلى شقة قريبة من الميدان اشترك فيها جيمي وري وعدد آخر من الرحالة — معظمهم من النيوزيلنديين في عطلة الصيف — يأتون ويرحلون. سعدتُ في تلك الشقة المشاكسة؛ الكنبه الخضراء الملطخة، المطبخ الصغير المكس بالبيرة والطماطم وأحيانًا

أفوكادو أو ليمونة، الحجرة الواسعة حيث ينام جيمي وري على مفارش عارية، وُضِعَتْ طرفاً لطرف، حتى صارت بطول الغرفة كلها. هناك مجموعة من زجاجات الويسكي الفارغة في ركن، وصنارتان لصيد السمك في الركن الآخر، وحقائب ظهر مفتوحة في الوسط، مكتظة بالملابس. لُصِقَتْ صور فوتوغرافية على الحائط فوق سرير جيمي لتجاولهما في أماكن بعيدة؛ جيمي وري في ملابس داخلية مبلولة بجوار بحيرة في الشمس، جيمي وري يتسلقان جبلاً بحذاءيهما، جيمي وري في معطفين واقين من المطر، يتسكعان تحت سماء مظلمة.

شربنا كل ليلة، في الكروس غالباً، أحياناً في وولومولو أو الروكس. ننام حتى الظهر ثم نخرج لتناول الغداء ونبدأ الشرب مرة أخرى. كان معي ما يكفي من النقود التي ادخرتها وكنت أستطيع دفع حساب دورة أو اثنتين من وقت لآخر، ولم يسمح لي قط. يُدْفَع ثمن الشرب من كروت والد أحدهما، والفواتير تعود إلى الوطن.

كان جيمي سكيراً لا يعرف القلق أو الاعتدال. لم يرفض الكأس التالية قط، وكنتُ مثله. لم يكن صحيحاً بالضبط أننا نخرج للشرب. هناك دائماً فكرة أن الكأس الأولى في أذهاننا وحين ننتهي من الأولى تظهر فكرة الكأس التالية. فيما بعد جرى الأمر معي بالطريقة نفسها فيما يتعلق بالأطفال، وهكذا برغم الأعباء — الفوضى والقلق والأرق وفقدان الحرية تماماً — حين أفطم الطفل الأول أكون جاهزة للثاني، نتيجة لحلاوة الجسم الصغير الدافئ على صدري.

كان ري مختلفاً؛ يشرب حين يقرر الشرب، ولا يشرب حين لا ينوي الشرب وكان يقطعاً غالباً بما يكفي لتذكر ما حدث في الليل واستعادته في الصباح.

قد يقول لجيمي: «يسوع، تقيأت على حذائي اللعين»، أو «ضربتَ الجرسون في عينه بطيارة من الورق».

يسألني جيمي بابتسامة عريضة: «هل فعلتُ؟»

أقول: «لا أتذكر ذلك»، وهو ما كان صحيحاً في معظم الأحوال.

وأنا سكرانة، يأخذني جيمي إلى الفراش، يغطيني بملاءة زرقاء، يلفها حولي بإحكام. يعرف كيف يكون ودوداً مع النساء. يفتح الأبواب لي، ويبعد شعري عن وجهي حين أفكه، ويجعلني أشرب كوباً من اللبن قبل النوم. وحين كان جيمي يبدأ التصرف بشكل سيئ في البارات، كنتُ أنا وري نضع ذراعيه على كتفينا ونسحبه إلى البيت. كان يقف على الفراش وكتفه ملتصق بالحائط ويصيح «عاوز أسكر».

«نم»، يأمره ري. «أنت سكران بالفعل.»

«أنا؟» يقول جيمي. ثم يغرق ويغلق عينيه اللتين يطفح منهما الدم، وينام أربع عشرة ساعة متواصلة. من المعتاد أنهما كانا يعرفان تمامًا، وكنتُ أشعر بأن ري يشعر بلذة عميقة في الحفاظ على جيمي آمنًا في العالم.

لم أسأل جيمي قط عمّا درس في الكلية، أو عما يخطط له بعد انتهاء الرحلة، أو إن كان قد وقع في الحب. كنتُ أريد أن أفهم ري. ري يعيش مباشرة على حافة البشاعة، والحديث معه يعني أنك تريد أن تعالجه أو تكسبه. في البارات، تجاهلني أحيانًا، أو تعامل معي ببرود كأنني عين سمكة قد يزيلها يومًا ما. في مرات أخرى يجلس قُربي ويتحدث إليّ عن ياسمين، حاكياً لي القصص نفسها مرة ومرة. لسنوات حملتُ في رأسي صورة لياسمين تركب بسرعة على طريق ساحلي في سيارتها الصفراء، وشعرها الأحمر يتطاير خلفها، ومقعدها الخلفي يمتلئ بالزهور. صورة ربما تجعلني أشعر بضيق في صدري، اشتياق مُبهم إلى أن أكون أصلية، فتاة تستطيع أن تكسب الحب بصورة مطلقة وتبتعد. حين تحدث ري عنها تحدث بتبجيل وندم؛ لم يسامحها ولم يتخلَّ عنها أيضًا. مما رغبني في أن أريه نساءً أخريات في العالم؛ رغبني في أن أجعله يراني.

خططنا يوم عيد الكريسماس لنزهة على الشاطئ. أخذنا مَعَدِيَّة إلى مانلي^{١١} في الصباح الباكر والشاطئ خالٍ والهواء لا يزال رطبًا. مضى ري إلى ممشًى خشبي وعاد بثلاث دست من الرخويات في دلو وجالون من النبيذ الأحمر. فتح الرخويات بمطواته وأكلناها واحدة بعد أخرى، بلعناها بالنبيذ من الزجاجاة مباشرة. في الظهيرة امتلأ الشاطئ وكان حارًا لدرجة لا يمكن معها المشي على الرمال. مضى ري مرة أخرى وعاد بخبز وجبن وخوخ وفستق وصندوق بيرة أسترالية. بعد ذلك أتت الفتيات الألمانيات، شاحبات ومتحمسات في بدل من قطعة واحدة، ووصل النيوزيلنديون بصندوق آخر من البيرة. تجمّعنا لمباراة كرة قدم — ملعب كرة القدم، كما سمّاها النيوزيلنديون — بالطريقة الأمريكية.

ما زلتُ أشعر بنفسي في ذلك اليوم، بطني مستوٍ وأسمر في بكيني برتقالي، وشعري يتدلى مبلولاً على ظهري، أجسُّ بضلوعي تحت جلدي. الشمس حارة على رأسي وأنا مستلقية في غفوة، مستعدة للجري وراء الكرة. لم أمسك بتمريرة واحدة، واستبدل بي ري فتاة

^{١١} مانلي Manly: ضاحية شمال سيدني.

ألمانية، أمسكتُ بواحدة وسجلتُ. لم أهتم. مع كل كأس أصبح أجمل في تصوري وانقضى اليوم بشكل رائع. غفوْتُ على الكنبه في الشقة بسيجارة في يدي وحرقتُ ثقباً في المرتبة، ووجدتُ في الصباح بقعاً سوداء من الشمس على وجنتي استغرقت سنوات مع الكريم والجلِّ لتتلاشى. لكن في مكان من ذاكرتي حيث يعيش ذلك اليوم، لم يتحطم شيء، ولم يضع شيء.

مع حلول المساء ذهب الجميع وجلستُ بين جيمي وري تحت السماء المتغيرة وشاهدنا المياه تتحوّل من الأخضر إلى اللازوردي إلى الأسود الزيتي. فيما يشبه الظلمة، تمايلنا في الأمواج الهائلة. غطستُ، وبقيت في الرمال وتركتُ الأمواج تضرب في أذنيّ وتنساب فوقِي. غصتُ مع كل موجة، ولم أخرج قط لأتنفس. ربما كنتُ أخاف وسط الأمواج، لكنني لم أخف. مرّ الوقت كله بهذه الطريقة؛ ربما أقلق بشأن صحتي أو سمعتي أو سلامتي لكنني لم أقلق وقتها قط. كنتُ محمّيةً وسكرانة وسعيدة، ولو كان هناك مجال للندم فلن يكون على الوقت الذي أضعناه، بل على انتهائه سريعاً جداً.

في فبراير والنيوزيلنديون يغادرون سيدني للعودة إلى وطنهم، أقام جيمي وري حفلة وداع في الشقة. تخيلتُ بعد ذلك أنها الليلة التي فقدتهم فيها، ليلة الجولة حول أستراليا في السيارة الخضراء — إلى كوينزلند والساحل الذهبي إلى أراضٍ قاحلة في داروين وشواطئ بيضاء في بيرث^{١٢} — رحلة قد تحدث دوني.

ما أتذكره عن تلك الليلة جيمي بفانلة داخلية بالية على كتفيه العريضين وكيف مزقناها، ليس بغيظ أو انفعال بل لأن فيها ثقباً صغيراً فوق الحلمة اليمنى، بدأتُ التمزيق وانضم إليّ الجميع ثم صب شخص بيرة على رءوسنا. في وقت ما من الليل جاءت الفتيات الألمانيات؛ ثلاث فتيات معتدلات بسمانات ممثلة وجيبات قصيرة، وأحذية بكعوب عالية. أتذكر أنهن حين وصلن كان على رأسي كيس ورق؛ قَطَعَ شخص ما فيه ثقباً لأرى وأتنفس. حين انصرف الجميع تقريباً كنتُ على وشك الإغماء، وجدتُ نفسي في مختلٍ واسع في الناحية الخطأ من الغرفة على الفراش الخطأ؛ مع ري. كنا نجلس القرفصاء، يواجه كل منا الآخر، ورُكبتنا متلامسة، وري يمسك بصنارة في حجره. ثم مدَّ أصابعه باتجاهي وأنا

^{١٢} كوينزلند Queensland: ولاية في شمال شرق أستراليا. الساحل الذهبي Gold Coast: في كوينزلند.

داروين Darwin: مدينة في شمال أستراليا. بيرث Perth: مدينة جنوب غرب أستراليا.

أرفع أصابعي لتقابل أصابعه، نظر إليّ مباشرة، مال باتجاهي، وتعانقنا في قبلة. رقيقة في البداية، تكاد تكون سؤالاً، ثم صارت أكثر إلحاحاً حتى التحمت شفثاه بشفتيّ بعنف. فجأة كان جيمي يقف أمامنا. هاي! قال، وضحك في البداية كأن وجوده نكتة. ثم هاي! مرة أخرى، ثم هاي! مرة ثالثة، بصوت عالٍ، ويده تضغط على استدارة كتفي لتبعدني عن ري. هكذا توقفنا. همس ري لي بشيء ونحن نتباعد، كلمات فهمتها وقدرتها ثم نسيها؛ ولم أستطع العودة قط.

استيقظت في اليوم التالي على فراش بجوار جيمي، وقد نفذت شمس بعد الظهيرة من المدخل وسقطت على وجهه. كانت الدوائر حول عينيه أرجوانية قاتمة، وبدا عزيزاً جداً، غالباً لأنني أخشى فقدته. في الوقت ذاته، كان هناك جزء صغير عنيد بداخلي يود الاعتراف لري بما حدث بيننا، وأنني أود أن يكرره مرة أخرى. كان في داخلي جزء لم أبدأ بعد في فهمه؛ جزء في عادة الانتباه المتوقع من الرجال في ظروف استثنائية. ليس الوميض الأول للرجبة فقط، للشعر المصقول والشفاه الممتلئة، لكن فوضى معجزة الحب كلها. لم تكن المسألة أنني أرغب في المازق التي تأتي مع الحب، أو أنني أعد بتقديمها بدوري. لم يكن الأمر أنني أؤمن بأنه بمجرد أن يعرفني رجل، يرى كم أبدو مختلفة عن أي فتاة عادية — مهما تكن صريحة وماهرة وكتومة — ويجد أنني لا يمكن الاستغناء عني.

كانت عادة استمرت خلال انكسار القلب والدمار، في سنوات الدليل على العكس. ثم تزوجت، وكانت هناك ومضات أحياناً — في حوض السباحة الذي يأخذ فيه ابني دروس السباحة، في محل البقال حين دفعت حقيبة شبال عربتي الإضافية إلى السيارة — لكنني اقتنعت غالباً بأنني تجاوزت ذلك. وفي ليلة حارة في أغسطس أقمنا حفل عشاء لأصدقاء الأطفال مع أطفال أقارب زوجي طوال ليلة انتظرناها طويلاً، وفيما بعد، حين قبلتني الزوجات وشكرنني وذهبن إلى بيوتهن ليربحن جليسات الأطفال، وتجمع الأزواج الآخرون — ثلاثة رجال عرفتهم لعقد من الزمان — ليلعبوا بوكر، جلس في مقعد تركه زوجي، وقد انتقل فجأة على الكنبه. إحدى ذراعيه على وجهه والأخرى على ظهر الأريكة، وكنت أرى من حيث أجلس أصابعه الطويلة تتدلى، أرى أظافره النظيفة المقصوصة.

تواصلت اللعبة في خداع وإخفاء. كان هناك ويسكي وتدخين متواصل ومُراهقات خيالية مسجلة على كوكتيل من المناديل. كانت هناك سواعد؛ رائعة، مُشعرة، أطراف رجال تحك في أطرافهم على الطاولة ونحن نتناول الكروت. وفجأة تضغط ركبة عمداً على وركي تحت الطاولة. عيانان سمرانان تحدقان في وجهي ونفس حار في أذني. ووراء ذلك، حيث

كانت ذراع زوجي، ليس إلا ظهر الكنبه. لا دليل على الرسغ الهائل، الإبهام القوي، الكف الغليظ المحبوب. لا دليل على وجود زوجي في الغرفة إطلاقاً. كنتُ وحدي في صحبة الرجال بمتطلبات مباشرة في يدي، آسات عالية. تأججت الرغبة في صدري وغريزة الكسب، التقدم بحيوية، تنفذ من خلالي، عبر قفائي إلى ما بين ساقَيَّ.

في الوقت ذاته كانت هناك قوة منزلي؛ تصلني خلال ضباب الويسكي والكروت والجنس. هناك أنية خزفية في انتظار العودة إلى الخزانة. وباب الخزانة يهدد بالخلع من مفصلته ورزمة من الكتلوجات في فوضى. هناك التليفون، لوحة الإعلانات، سجل العائلة، مركز القيادة في حياتنا المنزلية. بعد الردهة هناك غرف الأطفال، مفارشهم ووسائهم موضوعة في أغطية خاصة لحمايتها من عثة الغبار. في تلك الغرف حيث أراجع يومياً التنفس ودرجة حرارة الجباه، حيث أقبلُ برقة بين الوجنات والأذن.

السؤال الذي يستمر، يطاردني حتى الآن، هل كان مجرد كارت لعبته — السبعة الاسبيد — أنقذني. حررني أنقل ساقَيَّ في مكان مفتوح، لألعب كروتي على الطاولة في خفاء، وبنبوة عزيمة غير معتادة، استأذنتُ.

حصل جيمي على وظيفة لأسبوعين في خليج رشكترز^{١٣} يكشط الجانب السفلي من يخت. وهو يعمل ذلك في الأسبوع الأول، تخيلتهُ هناك، يشرب كوكا في الشمس. في الجمعة، اشتريتُ سندوتشين وست زجاجات بيرة وأخذتُ طريقي إلى حوض السفن. كان يوماً دافئاً مشرقاً، وقد امتلأ الخليج بالأشعة. كان جيمي هناك وكذلك ري. يصطادان سمكاً. لا يجلسان متجاورين ولا يتحدثان، كان بينهما شيء، شيء صامت وذكري تاريخاً ومستقبلاً، واستدرتُ تقريباً لأعادر المكان.

«هاي»، قال جيمي حين رأني. ونظر إلى ري.

قلتُ: «اشتريتُ بيرة.»

قال ري: «لا نشرب أبداً ونحن نصطاد.» ساد صمت. ثم ضحك وأخذ زجاجتين من البيرة. فتح واحدة لجيمي وواحدة لنفسه. قال: «إنهم حاسمون اليوم. ذلك التأكيد اللعين.» فتحتُ زجاجة بيرة لنفسي وجلستُ على جذع بجوار جيمي. كان الخشب رمادياً متناثراً، والمياه خضراء بالطحالب. جلسنا في صمت بعض الوقت وبدأ خيط ري يتحرك. وقفتُ كما فعلاً، وري يسحب الخيط، في نهايته سمكة ملساء مذعورة. أخرج جيمي

^{١٣} خليج رشكترز Rushcutters Bay: في الضاحية الشرقية من سيدني.

الكَمَّاشَة من صندوق الطعم وفك الخطاف، وأمسك ري بالسمة ثم وضعها في دلو مع ثلاث أخريات. لم يكن هناك ما أفعله إلا أن أقف وأشاهد.

انتهيا من شرب البيرة وبدأ يحزمان معدات الصيد.

قلتُ لري: «الفرقة النيوزيلندية تعزف في وولومولو لمدة أسبوع بداية من السبت.»
تطلَّع ري إلى جيمي بعد ذلك، ثم حدث شيء بينهما، شيء قرَّره بالفعل.

قال جيمي: «نتجه إلى الشمال، حقًا. حصلنا على سيارة وكل ما نحتاج إليه.» كان وجهه يحمل اعتذارًا وهو يقول ذلك، وقد أتخيل الآن أنه لمس خدي أو أخذ يدي في يده. لكنه لم يفعل. ضرب كوعه في كوعي وقرصني برقة في ذراعي. كنا على هذا النحو فائقين؛ أحمقين مرتبكين ومأخوذين بالصمت الذي على ري أن يملأه. لكن ري استدار وكان يسير على التل في اتجاه البيت.

في يوم الرحيل، أطبقت السماء وأظلمت. لبس كل منهما معطفه الواقى من المطر. كنتُ دون معطف أشعر بالبرد. حمَّل ري مستودع البوز^{١٤} الذي جمعا للرحلة على ظهر السيارة وأنا أقف مع جيمي على جانب الطريق نشاهد.

قلتُ أخيرًا: «أستطيع أن أنام في المقعد الأمامي.»
«لا سبيل لذلك»، قال ري من ظهر السيارة.

«آه، تعالي، كاث»، قال جيمي. ثم أمال رأسه على ناحية وقلَّب شفتيه إلى أسفل استياء.
ثم خلع معطفه ووضعه على كتفي. بدأ المطر يتساقط.

جاء ري ووقف بجوار جيمي. لدقيقة طويلة، تطلَّع إليَّ مباشرة وقد رَقَّتْ خطوط وجهه. بدأ أنفي ينمل من الانفعال وتطلَّعتُ بعيدًا. سار باتجاهي، نزع معطفه من كتفه ووضعه عليَّ، وهكذا ارتديت المعطفين، واحدًا فوق الآخر. لم أعرف حينها ما يقصده من ذلك، ولا أعرف الآن، لكن أمل أنه كان يعني أنه سامحني، على جشعي السري، على رغبتني في أن أكون محبوبية الجميع.

حين رفعنا حقائب الظهر إلى السيارة وأغلَقنا الأبواب ولوَّحَا بالأيدي ومضيا، وقفتُ وحدي لحظة على جانب الطريق في المطر، جافة تمامًا تحت معطفين واقيين من المطر. ثم صعدتُ إلى الشقة ودخلتُ وتفحصتُ المختلَّى الذي كان غرفتهما. تركا صورًا فوتوغرافية

^{١٤} البوز booze: من المشروبات الكحولية.

ونزعتُ واحدةً من الحائط، دسستها في جيبِي، وخرجتُ في المطر. بدأتُ السير عكس اتجاه البيت، مع تقلب الطقس، في أجزاء من المدينة لم أرها من قبل، ويداي في البداية في جيوب معطف، ثم في جيوب الآخر. وأنا أسير، فكرتُ فيهما — جيمي وري — بشدة متذكّرة كل ما حدث، أفدّر وأقيس، متأملة السبب والنتيجة. ليس في محاولة للتغلب على الفقد بل للاستمتاع به، لتشكيله، لمنحه ديمومة.

زيارة مدينة

تأليف: آدم هازليت^١

وهم يصعدون الجسر، مال بريندان على نافذة التاكسي، محدّقًا في الأبراج المضاءة في سماء الليل، بالضبط كما في بداية كل أفلام شركة ميرامكس، أو في لقطات من منطاد مراقبة في عرض افتتاح الألعاب المسائية في الولايات المتحدة ... الآن فقط يستطيع رؤية الجداول الحمراء والبيضاء من أضواء السيارات تندفع بطول حافة النهر، منارات على مقدمات سفن تندفع في المياه، وأضواء هيلوكوبتر تتساقط على الشاطئ المتلألئ. أحكم قبضته على محفظة في جيبه، ٣٠٠ دولار ادخرها من فترات العمل المسائية في أوفس ماكس في أمان في الثنية الداخلية. فكر في أن هذا يشبه ما يوجد عند الدبلوماسيين والنجوم؛ روديك عائد من انتصار آخر في فلشنج،^٢ ممثل مرهق من مشهد غريب، مسافرون في الليل مشتاقون لراحة المحبين والشقق في المدينة الملساء.

«أمل ألا يتوّهنا هذا الرجل»، همست الأم من المقعد الخلفي.

«يسوع، ماما. كأنه لم يذهب أبدًا إلى البلازا.»

«ماذا تعرف عن فندق البلازا؟»

^١ آدم هازليت Adam Haslett: كاتب أمريكي يعيش في مدينة نيويورك، والعنوان الأصلي للقصة City Visit.

^٢ فلشنج Flushing: قطاع من مدينة نيويورك.

«أعرف ما يعرفه أي شخص آخر في العالم، إنه في التاسع والخمسين وطريق المنتزه، وهو ملك دونالد ترمب.»

قال السائق عبر حيز البلكسيجلاس: «فيث، البلازا في الفيث.»^٣
صاحت أمه: «شكرًا سيدي.»

حلق فيها بريندان، لا يستطيع تحمّل المشهد: حذاء أسمر خفيف، جينز ناعم، سويتز أخضر منقط. تحت قاعدته قد تغرق خزانة ملابسها بالكامل في وعاء ضخم من الصبغة السوداء. لكن لا شيء من هذه الاختيارات الرهيبة اقترب من بشاعة ما تربطه حول خصرها. وقعت عيناه على النايلون الأزرق في حقيبة الخصر، وبدا كأنه ارتدى طوال السنوات الست عشرة في حياته سذاجتها في الشوارع مثل تاج من الأشواك. ناشدها منذ أمس ألاّ تحمل نفائسها في ذلك الشيء القبيح. لم يذكر قط الإحصاءات الأخيرة عن الجريمة؛ دافعًا إياها إلى التسليم بأن نيويورك من أكثر المدن أمنًا في البلاد، وأن نسبة القتلى في ولايتهم، ميسوري،^٤ أكثر مما قُتل في المناطق الخمس في السنة الأخيرة. لكنها لم تَلُنْ بعد. وكان عليها أن تشاركه أول دخول له في فندق عالمي وقد صدمه هذا الإعلان عن الجهل بأكثر مما يحتمل أي شخص.

«هل يمكن من فضلك أن تخلعي هذا؟» توسّل مرة أخرى، محدّدًا في يدها، وبدا أنها تحركت لا شعوريًا لحماية التتوء الرهيب.

قبل عام ربما نظرت في عينيه وأخبرته بأنه على ثلج رقيق. الآن اكتفت بالإشاحة برأسها وقالت: «بريندان، يجب أن تهدأ.»

وكأن الهدوء اختيار! احترقت كل ساعة من ساعات اليقظة على مدى شهرين توقّعًا لهذه العطلة الأسبوعية. اليوم انتقل أبوه بحسن نية بوجه شاحب مكتئب من المنزل أخيرًا إلى شقة أقرب إلى عمله، اتصلت أمه بجذته، وحين أغلقت التليفون أخبرت بريندان بالهدية التي طلبها في كل عيد ميلاد وكريسماس على مدى العامين الأخيرين: الذهاب إلى مدينة نيويورك والإقامة في فندق.

في مساء اليوم نفسه أرسل رسالة بالبريد الإلكتروني إلى توم، فتّى قضى وقتًا طويلًا يتخيله منذ التقيا على الويب منذ بضعة شهور، وكانت صورته رائعة: شعر أسود ملتف،

^٣ بلكسيجلاس Plexiglas: اسم تجاري لبلاستيك حراري خفيف شفاف يقاوم تغيرات الطقس. البلازا في الفيث: في الأصل Thee Plaza eez on Feeth، ومن الواضح أن السائق ينطق خطأ.

^٤ ميسوري Missouri: ولاية تقع في وسط الولايات المتحدة.

عينان خضراوان، صدر منحوت وأملس وقوي. ولم تكن هذه واحدة من علاقات الإنترنت غير المهمة والمثيرة للشفقة التي كان صديقه تانيا منهمكًا فيها، حين يقع في حب عامل تغذية وزنه ٤٠٠ رطل تقريبًا في مدينة جيفرسون، معتقدًا أنه ابن أخي براد بيت.^٥ استقل بريندان الأتوبيس لإنجاز بعض تلك المواعيد. ولم يشعر بالارتياح إلا حين عرف أن بعض الناس على هذه الأرض أكثر يأسًا منه. جالسًا في الصف الخلفي من دروس الأدب في اليوم الأول من المدرسة في هذه السنة، يومئ المتهورون من مُدخني المارجوانا بجواره، شاهد المعلم يعدل نظارة بلاستيك حمراء في حجم طبق على قنطرة أنف، وبدا واضحًا مثل الجملة المخططة على السبورة أن بريندان يمكن أن يصبح وحيدًا، تلميذًا بائسًا متوسط العمر مثل مستر جرولي، هناك في سترته الصوفية، ديمومته، شاربه المصفر، قَلِقٌ ومتألم كنزير في ذلك المكان، مثل أسوئهم؛ أو شخص خرج، شخص عاش في شقة في مدينة شهيرة.

منذ رد توم، قائلًا إن نهاية هذا الأسبوع ستكون رائعة، كان معظم خوفه من أن يقطع الطريق بطوله إلى مدينة نيويورك ويعجز عن فقدان أمه فترة طويلة لينزل إلى القرية الشرقية وحده. واندھش لأن الخطة التي بدت أصعب تبين أنها الأسهل. بعد أن حجزت التذاكر بأسبوع، سألها إن كان يستطيع الذهاب بعد ظهيرة السبت أثناء الزيارة إلى منزل ابن عم تانيا غير الموجود، على بُعد عشرة منازل من الفندق. توقع ممانعة، وكانت معه خريطة ليريها. لكن باستثناء طُرْح بعض الأسئلة، وهي تواصل تناول أطباق العشاء، ظهرت نظرة إزعان على وجهها، كأنها توقعت أن يطلب هذا.

والسيارة تنزل من القنطرة وتتجه إلى الطريق، نظر بريندان في ساعته وعرف؛ لم يعد أمامه إلا أقل من عشرين ساعة انتظار.

تمثلت الحياة في البلازا أساسًا في محاولة الإبقاء على عشر ياردات على الأقل بينه وبين أمه حين لا يكونان في الغرفة والباب مغلق أو مدفوعين إلى التقارب على طاولة مطعم. بمجرد التوقف، قفز من التاكسي وصعد السلالم خلف البواب. وهو ينظر وراءه من المدخل، اعتقد تقريبًا أن المرأة التي ترتدي ملابس رثة تنظر بفزع من فوق كتفها، كأنها تستعد للانقضاض على القاعدة، مجرد سائحة يمكن أن يتوقع المرء وجودها في مثل هذه الأماكن. بعد أن انتهت من التسجيل وأعطته مفتاحًا، أخذ المصعد إلى الدور الذي فيه غرفتهما وسار أمامها في البهو المترف إلى الغرفة. صوت الطَّرْق بعد تكرار فشلها في فتح

^٥ براد بيت Brad Pitt (١٩٦٣-؟): ممثل ومنتج أمريكي.

الباب جعله يتأمل حقًا ما قد تفعله ببساطة إذا لم يرد. قد تبدأ نوبة من نوبات صيحاتها الهامسة أو تستدعي مشرفًا. قرر الذهاب إلى الباب وفتحه لتدخل.

قالت: «حسنًا، أعتقد أنها رائعة جدًا»، حين احتج على خطط عشاء الفندق الذي اختارته. «أنا على يقين من أن مكانًا بهذه الروعة يمكن الثقة فيه تمامًا.» ليومين قصيرين يقيمان على جزيرة ربما بأعظم تنوع طعام في العالم. لكن لا. ليس بالنسبة لآل بلنكبرج. آل بلنكبرج يأكلون دجاج كييف في البهو.

قال: «خفتُ للتو من إطلاق الرصاص عليك. ربما عليك أيضًا خلع ذلك الصوف وارتداء سترّة واقية من الرصاص. على الأقل قد يكون اللون مناسبًا.»

كما تبين، كانت غرفة البلوط^٦ رائعة بشكل خيالي، وحين رأى بريندان أسعار الوجبات انتبه. انتظر أن تهمس أمه بشيء عن أنهما قد يبحثان عن مطعم آخر، ولم تنطق بكلمة. لم يكونا فقيرين، لكنهما لم يأكلا خارج البيت ولم يسافرا، وكانت أمه تؤكد دائمًا على حساب البنك، على أي مشتريات أكثر أهمية من البقالة. لم يكن الأمر وكأن والده يستطيع التحمل، ووظيفة أمه في المركز التجاري لم تكن تدفع أكثر من وظيفة بريندان في أوفس ماكس.

منذ سنة، حين فقد والده وظيفته كبائع وبدأ يقضي نصف اليوم نائمًا، انتابها نوع من الهدوء، لم تعد حتى تتابع واجب مدرسة بريندان كما اعتادت. بدأت تذهب إلى الكنيسة ثلاثة أيام أو أربعة أسبوعيًا، وتُصلي أكثر في البيت. على طاولة المطبخ رأى الأدب الذي عادت به، يشجع الناس على دعم تحسين الزواج لأن الشواذ جنسيًا يحاولون إفساد عائلات ميسوري. لم يتذكر أنها صوّتت في الانتخابات من قبل، لكنها ذهبت إلى مدرسته الابتدائية في انتخابات الترشيح، في أغسطس، وحين عادت إلى البيت جلست إلى طاولة المطبخ وبكت. دفع بريندان ثمن البيتزا في تلك الليلة واستأجر الفيلم الذي تفضله، فيلم قديم بالأبيض والأسود تحبه اسمه «قصة فيلادلفيا»^٧.

وصلت الأطباق التي طلبها، وأكلا معًا في صمت في غرفة بأعمدة بلا نوافذ، يُحدّقان في الآخرين الذين يتناولون العشاء. لم تهز رأسها إلا حين سألتها النادل إن كانت تحب

^٦ غرفة البلوط: قاعة في فندق بلازا منهاتن، افتُتحت بارًا للرجال فقط في ١٩٠٧م وتحوّلت إلى مطعم في ١٩٣٤م.

^٧ قصة فيلادلفيا: فيلم أمريكي رومانسي كوميدي من إنتاج سنة ١٩٤٠م.

أن تتناول الحلو، لكنها قالت يمكن لبريندان أن يطلب إذا أحب. كما يفعل أحياناً حين تصمت، شعر بضيق في صدره، بشعور بانقباض. لم يقصد أن يصرخ فيها كثيراً في ذلك اليوم؛ كان فقط عصياً جداً.

قال: «شكراً على الرحلة.» كان أمامه آيس كريم بالشيكولاتة باثني عشر دولاراً في زبدية بيضاء على طبق بإطار ذهبي.

أومات، ناظرة من فوق كتفه، وهي ترشف الكوكا دون سكر.

بعد العشاء تمشياً قليلاً في الشارع التاسع والخمسين، سحبها ست ياردات إلى المدخل السفلي إلى الجراج الرئيسي قبل أن تذكر أن امرأة اغتصبت وهي تندفع في الليل وقالت: «تعرف، لا ينبغي أن نتعرض لذلك حقاً.» تركت حقيبة الخصر في الغرفة، واستبدلت بها سترة بغطاء للرأس تربطها حول خصرها حين يكون الطقس سيئاً. شعر بريندان، ناظراً إليها خلفه في ضوء المصابيح وهي تُحدّق في الأشجار، وشعرها مغطى بقبعة المطر، بالغضب يتأجج من جديد، تلك الحافة المتقدمة من الوعد المر لنفسه بالأ يصبغ على شاكلتها أبداً، ألا ينطق في أي مكان بما تنطق به، ألا يعيش أبداً كما تعيش هذه الأسرة، بمثل هذا التقدير. شاهد جدّه قنوات سي سبان^٨ في دار للرعاية في سانت لويس، وكان يلعن الديموقراطيين الضعاف، قائلاً لبريندان حين يزورونه في الخمسينيات إن الاتحاد عرف كيف يدبر الأمور، مُهَشِّماً بضعة رءوس في الوقت المناسب، ولا أحد من هؤلاء الليبراليين التافهين الجامدين على سُلَّم الأجور يريد الصمود والدفاع. وحين تنتهي خطبة التقرير الرائعة، يُحدّق في زهول في ابنته المُطلّقة التي تعمل نصف الوقت كأنها كائن غريب من سكان المستقبل الفاسد. انتاب بريندان، وهو يعود بسرعة عبر ممرات تلك الغرف الخائقة المفروشة بالشمع، إحساس بأنه مثل سيجوريني ويفر^٩ في «الغريب»، يهرب من السفينة المهددة، وقد تجلّت الحياة في صراع محض من أجل البقاء، ليركب في سيارة الهروب مع أمه ويدرك أن الوحش المجهول والهزيمة كامنان خلفه مباشرة.

سار ثلاث خطوات إلى الأمام في طريق العودة إلى الفندق.

في الواحدة من اليوم التالي حمل كل اختياراته السريعة إلى الحمام، أغلق الباب، أخذ دُشاً بالصابون استغرق وقتاً طويلاً، وحاول أن يقرر. على مدى الأسبوع الأخير تشجّع على

^٨ سي سبان C-SPAN: شبكة تليفزيونية أمريكية. سانت لويس: أكبر مدن ولاية ميسوري.

^٩ سيجوريني ويفر (Weaver ١٩٤٩م-؟): ممثلة أمريكية، اشتهرت بدورها في فيلم الغريب (١٩٧٩م).

ارتداء الجينز الأسود، وقميص رمادي وكاب بيسبول دون شعار. لكنه رأى أن القميص نزل كثيرًا جدًا عن خصره، وثنيته تبدو غير مناسبة تمامًا. كان الأزرق المحافظ رائعًا إلى حد ما، يشبه زي المدرسة الإعدادية، وإذا سلّمنا بأن توم يدرس القانون، بدا مناسبًا. لكن كل ما قرأه عن القرية الشرقية جعله يعتقد أنه ينبغي عليه أن يبدو مثل «لو ريد»^{١٠} قدر المستطاع، على الأقل فيما يتعلق بطريقة اللبس. صمّم على تي شيرت أزرق قاتم بكم طويل وسترة سوداء تصل إلى خصره. وضع بعض الجِل على شعره، وباستثناء بعض المرطبات للحفاظ على بشرته من التقشير لم يفعل شيئًا لوجهه. غطّت الملابس على الأقل جسمه النحيل.

انتزع محفظته من منضدة بجوار السرير وحشرها في جيبه. عبر الغرفة، كانت أمه تجلس في أحد المقاعد الوثيرة، في مواجهة النافذة التي تطل على المنتزه. قالت: «عليك أن تشكر جدتك على هذا، تعرف. أرادت أن تعطينا — أنا وأنت — أرادت أن تعطينا دعوة بعد أن تركنا أبوك. اكتب لها كلمة شكر.»

قال، أملًا أن تنظر إليه حين تتكلم: «بالتأكيد، سأعود متأخرًا، موافقة؟»
البنية البيضاء في ٢٢٨ في الشارع الشرقي الثالث عشر تتكون من خمسة أدوار، تبدو عبر قطعة خالية. ثمة سلام تؤدي إلى لوحة فضية لأجراس كهربية. لم يظهر اسم توم في القائمة. قيل لبريندان أن يتوقع ذلك. بيت مؤجّر من الباطن، قال توم. عليه فقط أن يدوس على الجرس رقم ١٢ ويدخل. جلس على مُنحني على بعد بضعة منازل، ينتظر حتى لا يراه توم من النافذة ويعتقد أنه معقد لأنه وصل مبكرًا. متأكدًا من عدم وجود أحد ينظر إليه بارتياح، أخرج محفظته وعدّ نقوده مرة أخرى. حدد توم ٢٠٠ دولار للموعد، لكنه أحضر مائة إضافية فربما يحتاج أكثر، نظرًا لشكل بريندان. تساعد النقود على دفع مصاريف مدرسة الحقوق ودين توم في الكلية.

أصوات مثل التي تحتاج إليها لتثق في نفسك. يمكن أن أكون رقيقًا على هذا النحو. لا تنزعج. صار تنفسه سطحيًا حين تذكر الكلمات التي قرأها في البريد الإلكتروني. مارس العادة السرية مرات عديدة وهو يتخيل أن توم يقبله، لم يعرف ما يفعله حين يدخل. بدا وكأن الدقائق الأخيرة التي تبقت بينه وبين مواعده لن تمر أبدًا. مرت فجأة، يقف في المدخل ويضع إصبعه على الجرس.

^{١٠} لو ريد Lou Reed (١٩٤٢-٩): مطرب أمريكي.

«مَن أنت؟» صوت رجل، صوت منخفض مشوّه يسأل من خلال مُكَبَّر صوت على البوابة.

«بريندان. بريندان بلنكنبرج.»

«حسنًا. اصعدُ. الدور الرابع.»

فتح الباب وسار في ردهة من الطوب الأبيض والأسود.

كل ليلة لشهور يزور موقع الشبكة الإلكترونية، يقرأ يوميات توم، وينظر إلى صورة توم في كاب البيسبول وقميص كولومبيا، أو وهو يستحم والماء يجري على ظهره الأملس المتموج. قابل الكثير من الفتيان في مواقع الشات، ممن يعلنون في صفحات رئيسية مثل توم، لكن معظمهم أكبر، وكل ما يضعونه صورًا وأرقام تليفونات محمولة، وربما فقرات عن حرارتهم. توم الوحيد الذي وجدته وله قصة: نشأ في أسرة مصري في أوهايو. يكتشفه أبوه مع ولد آخر في السنة الأخيرة من الدراسة الثانوية، يستنزف نقوده. يأتي إلى نيويورك، ويعمل مع مخرج سينمائي، ويلتحق بكلية ثم بمدرسة الحقوق. بعض المواضيع التي كتبها تعود إلى فترة سابقة، لكنها تتحدث عن صعوبة الأمر في البداية، وهو لا يعرف كيف تسير الأمور في المدينة، الحفلات والملابس، كيف بدا أن الجميع يعرفون كل شيء وضجروا منه. عرف بريندان من الموقع أن توم يُعطي مواعيد لفتيان آخرين بطريقة رومانسية عادية؛ ولا يخلط أبدًا بينها وبين مواعيد مثل التي أعطاها لبريندان. ظلَّ يُدَكِّر نفسه بهذا. حركة اهتزاز مزعجة تتأجج في صدره وهو يصعد السلم.

باب الشقة رقم ٤ كان مواربًا قليلًا. وهو يطرق الباب، فُتِح أكثر.

«ادخل»، قال توم، وهو يدخل إلى المطبخ من الغرفة المجاورة. مدَّ يده وتصافحا. بذل بريندان جهدًا هائلًا لتبقى يده ثابتة. يرتدي توم بنطلونًا أحمر لامعًا بشريط أبيض ينزل على الساق، وتي شرت أبيض يمسك عضلات صدره وذراعيه. بدا أكبر قليلًا مما في الصور — ربما في السادسة والعشرين أو السابعة والعشرين، خمن بريندان — لكنه على نفس القدر من الجمال، شعره رطب ومجعد، وعيناه خضراوان أكثر مما ظهرا على الشبكة الإلكترونية، بشرة وجهه المصبوغة قليلًا ناعمة جدًا. لا أحد في موبرلي،^{١١} ميسوري، بدا على هذا الشكل. كما يبدوون في المجلات.

«شكرًا على دعوتي.»

^{١١} موبرلي Moberly: مدينة في ولاية ميسوري، الولايات المتحدة.

قال، وقد وصل خلف بريندان ليغلق الباب: «لا مشكلة، تشرب شيئاً؟»
تطلع بريندان بسرعة في الغرفة ليعرف ما يمكن أن يطلبه في الثالثة بعد الظهر في
القرية الشرقية. ولما لم يجد شيئاً، قال بصوت عرزي قدر ما يستطيع، «سأشتري سيفن
وسيفن». ابتسم توم. «لنرَ. لا أعتقد أن عندي أي منتج من منتجات سيجرام. ماذا عن تان
كيرى ومنشط؟»^{١٢}
«رائع».

تحول مضيفه إلى الثلاجة، مقدماً لبريندان فرصة لمشاهدة الشقة. المطبخ الذي وقفا
فيه صغير لكنه نظيف، والطاولات عارية تقريباً، والخزائن مصقولة بالصلب. من خلال
المدخل ظهر توم مما قد يرى بريندان أنه غرفة معيشة ضيقة بأرضية من الخشب وأريكة
باللون الأحمر المشرق، لوحة تجريدية بالألوان تبدو حديثة على الحائط فوق الأريكة. إضافة
إلى ذلك، من خلال باب آخر مفتوح، ظهر سرير كبير مفروش مثل أسرة الفندق؛ لحاف
من الصوف، وسائد كثيرة مرتبة رأسياً على رأس السرير. بدا المكان مثل نسخة مصغرة
من شيء تراه في مجلة ديكور. تخيل شقة توم مثل غرفة سكن الكلية: أدوات الرياضة في
كل مكان، قمصان وأحذية خفيفة، كتب القانون، لوحات للفرق الموسيقية التي يفضلها
معلقة على الحائط. بدت الشقة مثل بيت شخص أكبر سناً.

سأل توم، وهو يقدم لبريندان كأساً: «هل هذه هي المرة الأولى لك في المدينة؟»
«لا، أتيت مرة مع أبي وأنا في التاسعة. نعيش في ميسوري.» يسوع! فكّر. هل كان
يستطيع أن يقول شيئاً أكثر غباءً؟

قال توم: «نعم، ذكرت ذلك في رسالتك الإلكترونية. هنا، لنذهب إلى الغرفة الأخرى.»
اصطحب بريندان وجلس على الكنب الحمراء. هناك مقعد على الناحية الأخرى من منضدة
القهوة. تجمّد بريندان، ولم يعرف إلى أين يذهب. تطلع إليه توم وضرب على الكنب بيده.
«تعال هنا.» شعر برجفة من جديد، جثم على الناحية الأخرى من الأريكة.

منذ شحذ شجاعته تلك الليلة منذ شهرين وأرسل إلى توم رسالة إلكترونية يطلب
موعداً، تساءل مرة ومرة إن كانت وحدته الشديدة قاداته في لحظة إلى الجنون. الذهاب إلى
مدينة نيويورك والدفع لفتى لممارسة الجنس؟ أية لعنة يقتربها؟ أعتقد أنه أمر خطير، قالت

^{١٢} سيفن وسيفن: اسم تجاري لمشروبات كحولية ممزوجة بمشروبات غير كحولية. سيجرام: شركة
لتقطير الكحول في مونتريال، كندا. تان كيري: اسم تجاري لنوع من الجن البريطاني.

تانيا في الكافتيريا يوم أخبرها. نزوة بالطبع، لكن الأمر خطير. خريطة الأنفاق والواقيات الجنسية التي اشترتها له كهدية للسفر دَسَّها في الجيب الداخلي لسترتها. فقط لا تتركه يقتلك، حسناً؟

حسناً.

بلع رشفة أخرى من مشروبه.

سأل توم: «هكذا ... هل كنتَ مع فتى من قبل؟»

تدرَّب على إجابة لهذا السؤال، لم يتطلع إلى أعلى، وحاول الرد دون أن يبدو التأثير على صوته. قال: «مرتين. لا يوجد رفيق جاد الآن.»

«رائع على أية حال. مارس معي فتیان لأول مرة. أعتقد أن ذلك مثير.»

انزلق بجوار بريندان ووضع ذراعاً على كتفيه. قال: «تعالَ إلى هنا. أعطني حضناً.» ترك بريندان مشروبه ومال عليه، رأسه على كتف توم، التف ذراعاً توم حول ظهره. لم يُمسك على هذا النحو من قبل قط.

جعله هذا الإحساس مشوش الذهن فجأة. شعر أنه على وشك أن يفقد رشده، انفجرت داخله أشهر من الانتظار وأغلق عينيه بقوة وضم عضلات فخذه بشدة حتى لا يقذف في بنطلونه الجينز.

همس: «هذا يشبه فترة اختبار، حسناً؟»

«ماذا تقصد؟» سأل توم برقة في أذنه.

تراجعا من عناقهما، لكنهما بقيا قريبين، وفي المواجهة.

على موقع كولومبيا على الشبكة الإلكترونية، قال: «إن الفتیان يخوضون امتحانك الأسبوع التالي.»

يضع توم يده على ركبة بريندان الضخمة. قال: «أنت فاتن.»

«حقاً؟»

أولاً توم. شعر بريندان بتوهج وجنتيه، حنى رأسه. «من الصعب بالضرورة تذكر كل القوانين. زوج أم صديقتي تانيا محام، ويقول إنها تتغير باستمرار.» لمست يد توم قفا بريندان، وانسابت الأصابع في شعره، ضاغطة برقة فروة رأسه.

همس بريندان ربما بشكل أكثر هدوءاً الآن: «من الأفضل، من الأفضل ألا نصل إلى النهاية؟»

«بالطبع. ما تريد فقط. انطلق وانته من مشروبك.»

شرب بريندان ما تبقي من كوبه وأعاد النظر إلى وجه توم، وبدأ أكثر جدية، كانت شفتاه مغلقتين في خط مستوي. «ادخل هناك»، قال وهو يومئ باتجاه غرفة النوم. «اخلع سترتك وحذاءك. سأكون هناك بعد دقيقة.»

دخل بريندان إلى غرفة النوم وفعل ما طُلب منه، خلع السترة ووضعها على كرسي في ركن. كل شيء على ما يرام، قال لنفسه، مُتطلِّعًا إلى السطح المنمق للتسريحة: إناء للتغيير، مفاتيح، صينية بها أزرار الأكمام، قنينة مما يبدو أنه عطر ما بعد الحلاقة. بجوار ذلك، رزمة أظرف صغيرة مرتبة. رأى اسم جريج دي مارينو مطبوعًا على عنوان الشقة. رفيق، ربما؟ شخص ما عاش هنا ذات يوم؟ معًا على سطح خشبي قاتم، ظهرت أشياء ذكورية إلى حد ما. لم تكن تشبه تسريحة أبيه، بفواتيرها المجعدة وكتالوجات مطوية الحواف اعتاد أن يبيع منها لزبائنه. قفز ذهنه إلى الفكرة المحرمة، فكرة أن توم قد يكون رجلًا أكثر من أبيه: أقوى، أكثر قدرة، أغنى. في تلك اللحظة، أكثر من الرغبة في لمسة من توم، أراد بريندان أن يكون هو، أن يعيش داخل تمثال جسمه، داخل الحياة التي صنعها هنا، مُحاطًا بهذه الأشياء النظيفة. والأطفال الأكبر يدفعونه إلى الأدراج في السنة الأخيرة ويشرعون في ركله، تحدثوا عنه بضمير المؤنث، هي، «هي متقيحة». «هي منهكة.» «انظر إليها.» لا ينسى هذه الكلمة: هي. ليست صحيحة.

خلع حذائه وجلس على حافة السرير. من هناك استطاع رؤية ما في المطبخ، في المرآة المعلقة على باب الحمام. يقف توم عند الحوض، مُشعلًا غليونًا صغيرًا بجانب فمه، يميل برأسه إلى الخلف ويخرج تيارًا من الدخان الأبيض. نظر بريندان بعيدًا، من النافذة، عبر عمود التهوية إلى الحائط وشريط من السماء فوقه. ربما مجرد أداة لتدخين المخدرات، وهو ما لا يبالى بريندان بفعله، لكن ربما يكون السؤال بشعًا جدًّا. حين نظر خلفه بعد دقيقة، كان توم يقف في المدخل. خلع تي شيرت ووقف وذراعه مُعلَّقتان على جانبيه، وأثر ضئيل من الشعر الأسود على بطنه ينزل من سترته في خصر بنطلونه.

كمية الصور الجنسية التي رآها بريندان على الويب تركته في حالة رعب أو غثيان، خاصة الصور المقربة؛ بدت مثل صور فوتوغرافية مأخوذة عن كتاب في الطب البيطري أكثر مما بدت شيئًا يود اثنان القيام به معًا. الصور التي أحبها كانت لولدين رائعين، وجهاهما واضحان، عليهما بعض الملابس — تي شيرت، وربما البنطلونان، وقد نزلا — يقبلان أو على وشك أن يُقبلا. في ليالٍ لا تُحصى حين لم يكن هناك ما يفعله قضى الساعات بحثًا عن صورة مناسبة، يدوس مرة ومرة، منتظرًا الارتباط الغبي بواسطة التليفون بحيث

يستطيع تنزيل مجموعة بعد أخرى، مُتفحصًا الأوجه والأجسام، ودماعه ينتفض إلى الأمام مثل حيوان صغير في قفص في شرك على عجلة لا تتوقف عن الدوران، لُعبه يسيل بنفاد الصبر. وحين ينتهي لا يشعر إلا بالخمول والوحدة. فكّر في كل الرجال في مواقع الشات، الرجال الذين أثارهم صغر سنه، يريدون مقابله، والذين كتبوا سطورًا قذرة عن أشياء يريدون ممارستها معه. أشياء مقززة، أحيانًا. أشياء لم يكن يعرف أنها تعيش في قلوب أناس آخرين.

«عليك أن تخلع التي شيرت»، قال توم، وجاء ليقف عند حافة السرير، بين ساقَي بريندان. يستطيع أن يشم الدفء المُسَكِّي المُعَطَّر بعض الشيء لبطن توم وصدره العاريين. أمر غبي، غبي جدًا، لكن كل ما يستطيع التفكير فيه هو إذا خلع القميص، فسيرى توم جسمه النحيل ولا يقع في حبه أبدًا، لا يريد أن يعود بريندان أبدًا ويساعده في الدراسة، أو يساعده وهو يبدأ كمحامٍ أو يحاول ذات يوم تسوية الخلافات مع أبيه، عائدًا إلى أسرته في أوهايو ليعرفوا أن له رفيقًا.

حين لم تبدر عن بريندان حركة لخلع القميص، أراح توم يديه على كتفيه.
«المرّة الأولى بالنسبة لك، أليس كذلك؟»
أومأ بريندان، متطلعًا إلى الأرضية. «أُخمن أن الأمر كان مختلفًا بالنسبة لك، لكونك كنت مع هذا الفتى من المدرسة الثانوية. كان طبيعيًا أكثر، أُخمن.»
للحظة، لم يتفوه توم بكلمة، وتساءل بريندان إن كان أذاه بتذكيره بشيء مؤلم.
«تحدث عن اليوميات؟»

أومأ مرة أخرى، وتطلع للمرة الأولى في عيني توم، ولاحظ أنها مُحْتَقنة.
«بريندان. اسمع. كثير من الفتيان الذين يزورونني، فتيان أكبر منك، يحبون التظاهر بالنهم، التظاهر بغير حقيقتهم. أو يحبون أن أُمَثِّل بشكل معين. تلك الصفحة الرئيسية، واحدة من صفحات أواظب عليها لأن بعض الفتيان يحبون هذا الشيء الدراسي. يُغَيِّرهم. لستُ في مدرسة الحقوق ولا أي شيء، لكنني حصلتُ على كل القمصان — قمصان الجامعيين — يريد بعض الفتيان النوم مع شخص من مدرسة متميزة. كل ما أقوله هو، لسنا في حاجة إلى شيء من هذا. تبدو مثل طفل حلو. تريد فقط أن تعرف أنك تبدو حسنًا، وربما تتعلم كيفية امتصاص عضو فتى حتى لا تتوتر وأنت مع شخص. هل يبدو ذلك صحيحًا؟»
تَبَّت بريندان عينيه على التسريحة: خشب أحمر مصقول، زجاج قاتم لقنينة عطر ما بعد الحلاقة، صندوق جلدي أسود ربما احتوى ذات يوم على سيجار مثل السيجار الذي

لم يعد مسموحًا لجده بتدخينه. وكلمات توم ترشح في ذهنه، شعر وكأن الدم الثقيل الذي لا بد أنه تدفق لفترة طويلة تحت تاج رأسه ينفذ إلى مخه، يملأ ما خلف عينيه، ضاغطًا على جمجمته، تلقيح بدائي ضد الفقد الفجائي.

لم يرد. أخذ توم يد بريندان وضغطها على البروز في بطنولونه.
«كيف يبدو؟» سأل بصوت منخفض.

مرعبًا، في الحقيقة، أراد بريندان أن يقول، ولم يقل. اختفت رائحة توم التي لاحظها من قبل. كأنه يشاهد صورة أمامه على الشاشة: رجل جميل بصدر مكشوف، ويد تخرج من أسفل الإطار، صورة يحبها لو وجدها مؤخرًا في بحثه وكان مرهقًا من البحث عن قبلة رائعة. لا أحد في حياته، ربما باستثناء تانيا، يمكن أن يتعرف عليه الآن، وهو يجلس على سرير شخص غريب، على وشك أن يمارس الجنس مع رجل. ليس عليه أن يفعل ذلك. يمكن أن ينهض ويرحل. ولكن بمجرد أن مرت بخاطره هذه الفكرة، رأى مستر جرولي، مُدرسه، في غرفة على بُعد ألف ميل، يجلس أمام الكمبيوتر، وصور رجال عراة تومض على سطح عدساته المكبرة. تمنى بريندان أن يصل إلى عقله ويطعن الصورة حتى الموت، لكنها استمرت وهو يواصل، تاركًا يده الأخرى تلمس بطن توم.

قال: «وماذا إذا أردت أن أتظاهر؟»

نظر توم إليه بميل حذر من رأسه. انتهى تعبيره بغموض، واتسعت حدقاته.
بدأت الكلمات التي تفوه بها بريندان كأنها أكثر الكلمات التي نطق بها رُشدًا، مرتجفًا ببرود، وحيثًا بأسلوب جديد أكثر ذكورة. كان صلبًا الآن صلبًا جدًا.
قال توم: «نستطيع أن نفعل ذلك، أؤمن، إنها ساعتك.»

قال بريندان: «قبلي إذن. قبلي.»

ثم وبعض الملابس لا تزال عليهما، سقط ضوء من النافذة على ذراع توم الأملس
المفتول العضلات، كانت الصورة صحيحة، أغلق بريندان عينيه وانتظر.

على الطريق الثالث سقط الشفق؛ يسرع الناس بجواره، يحملون حقائب البقالة، أو حقائب الظهر مُعلّقة على أكتافهم. يضع البعض سماعات؛ ويتحدث آخرون في التليفون. رجلان أصلعان في بدلتين سمرائين يلغطان بلغة غريبة، وأيديهما تضربان في الهواء البارد. لا يقف سوى بضعة أولاد من أمريكا اللاتينية يعملون في محلات البقالة يدخلون السجائر قُرب ركام من صناديق اللبن، عجوز أسود بلحية بيضاء يغمغم على الرصيف. عبر بريندان الشارع الرابع عشر مع الضوء ووقف تحت محطة الأتوبيس. بجواره عجوز تصل بالكاد إلى خصره، رأسها مغطى بوشاح مُنقط؛ تحت ذراعها صندوق مثقوب

في داخله قطة تن. وصل الأتوبيس بسرعة وحملهم ببطء عبر الطريق، صف بعد صف من المطاعم، محلات حيوانات الأليفة، صيدليات، أذهلته مجموعة من المراكز التجارية مجهولة الاسم على الطريق السريع قرب مدرسته. بدأت البناءات الأعلى تملأ المشهد وهم يدخلون وسط المدينة، وكانت أماكن سير المشاة خالية هنا في وقت متأخر من مساء السبت. من خلال النوافذ الزجاجية يستطيع النظر في صالونات الحلالة المظلمة ومحلات السندوتشات، وقد قلبت فيها المقاعد على المناضد. كل بضعة صفوف يتحرك رجال في ملابس حمراء وبيضاء، يتحركون ببطء بجوار واجهات المحلات، يجرفون الفضلات في صناديق صغيرة مُعلّقة في نهايات الأعمدة. غلب النوم العجوز في أحد المقاعد المُخصّصة للمعوقين في مقدمة الأتوبيس. سار بريندان بجانبها وهو ينزل من الأتوبيس، واتجه بجوار بلومنجديل^{١٣} باتجاه الفندق. كان في منتصف اللوبي حين أدرك أنه نسي أن يلاحظ كيف بدا وهو يصعد السلالم، خلف البواب، خلال الباب الدوّار وحده، ضيفًا مثل أي ضيف آخر. أضاءت المصابيح الداخلية القاعة الفخمة؛ وكانت خطواته صامتة على السجادة. غرس المفتاح في ثقبه وفتح باب الغرفة، وتوقّف على العتبة.

إذا كانت أمه تحرّكت، فليس هناك دليل على ذلك. تجلس في المقعد نفسه، تواجه النافذة، تتطلع إلى الخارج على رقعة الأشجار الجرداء في المنتزه والسماء المنخفضة المعتمة. لم تلتفت لصوت دخوله.

في الربيع أخبرها نائب المدير باليوم الذي ضُبط فيه بريندان يقاتل مع أطفال ركلوه بجوار الأدراج. برغم أنه لم تكن لديه وسيلة يعرف بها ما قاله الرجل لها، شعر بأنه كان كافيًا للإطاحة بأي غطاء حاول التواري خلفه حتى ذلك الوقت. ابنها الوحيد. لم تقل شيئًا قط، لم تلح قط على أن تعرف، لم تطلب منه قط الذهاب إلى الكنيسة حين لا يريد. كان الرجال في الجماعة متزوجين كلهم تقريبًا، وأحيانًا، حين كان بريندان يتعب وهو يتتبع في ذهنه الملابس البشعة التي ترتديها أمه في صباح أيام الأحد، يعتقد أنها قد تكون نوعًا من التعويض بالنسبة لها أيضًا، كيف تبدو الملابس ويشعر بالشفقة.

«كيف كانت زيارتك؟» سألت ولم تلتفت لتراه.

هل يمكن أن تعرفه الآن؟ بعد ما فعل؟ كيف يمكن للحقائق الفجّة التي حدثت منذ بضع ساعات في حياته أن تُوجد في العالم نفسه الذي هو عالمها؟

^{١٣} بلومنجديل: سلسلة محلات أمريكية.

قال: «رائعة. كنتُ رائعًا.»

قالت: «تعرف أنني سوف أحبك دائمًا.»

لكي يمنع نفسه من الصراخ، رجع خطوة باتجاه المدخل وأغلق الباب. أمام المصاعد كرسيان على كل جانب من طاولة عليها زهور. فتح سترته وجلس، وساقاه ممدتان أمامه، ورأسه مستريح على وسادة منجدة. في الشقة ترك ٢٠٠ دولار على منضدة المطبخ والفتى، وقد تبين أن اسمه جريج، يستحم، وأغلق الباب خلفه ورحل. قبل مجيئه بلحظات، شعر بدوار وبهذا الخوف البشع، عدم تصديق أن شخصًا بارعًا لمسه مع إحساس بأنه يغادر للأبد عالمًا فهمه. راقدًا على ظهره بعد ذلك، مستمعاً إلى غريب يغسل يديه في الحمام، مستطيل من السماء الشاحبة واضح على الحاجز، وفكر في كم بدت الأبراج المتألقة غير قابلة للفهم حين جاءوا إلى الجسر، كيف بدا الوعد الذي تقدمه بالشهرة. فتحت أبواب المصعد أمامه وخرج زوجان في الثلاثينيات يرتديان معطفين فخمين وأوشحة، ظهرا بوجنات مُشرقة وحقائب تسوق. ابتسم الرجل وأتى بإيماءة وهما يمران به، ومر بخاطر بريندان أن ذلك ربما قدّم لهذا الرجل قدرًا ضئيلاً من الرضا ليأتي بهذه الإيماءة، ليقابل شخصًا آخر في عالم الفندق، ليكتسب لوقت قصير إحساسًا بالقبول، هنا حيث ننتمي جميعًا.

دوقة ألبنى

تأليف: كريستين شوت^١

«يموت البستان مع البستاني» هذا ما قاله أوين، لكن حين مات بعد سنوات، واجهت الحديقة بإرادة أن تبقىها على قيد الحياة، على عكس ما توقع. لكن التوأم ألحتا عليها للبيع. اعتقدتا أنه قد يكون من الحكمة أن ينتقلا من المنزل (لأنه طويل جدًا وواسع جدًا) إلى هضبة واكس حيث وسائل العناية المساعدة والمستشفى المرتبط بها: هضبة واكس، ذلك الخط القصير إلى الأتون والطريق العام.

حملت عظام أوين الهشة في حقيبة. نثرتها في كل أجزاء الحديقة. كيف يمكن أن تباع المنزل بينما يمكن أن ترى من كل نافذة في المنزل — وكانت هناك نوافذ كثيرة — جزءًا منه، من أوين، روحها الطاهرة بيدي بستاني ماهر وموانع أخرى. أحبَّ البطء والسوداوية؛ استمع لفترة طويلة بعد عيد الفصح إلى عظة القديس متى^٢. لكن الرب؟ لم يؤمن. ذات مرة وهو صغير رأى نفسه عجوزًا وحيدًا مع ابنته. ترك وراءه اثنين، ليسا من صنعه يديه لكنهما يبجلانه رغم ذلك.

^١ كريستين شوت Christine Schutt: كاتبة أمريكية تعيش في مدينة نيويورك. والعنوان الأصلي للقصة The Duchess of Albany.

^٢ عظة القديس متى: لحن من تأليف باخ (١٧٢٧)، يُعتبر من روائع الموسيقى الدينية.

كان مُعلم مدرسة، وأوراق البلوط الملونة الملتفة تشير إلى موسمه، لكنه أتى بسرعة كبيرة. كانت له راهبات من بنات العم، راهبات! أخوات المحبة، كم يبدو غريباً الآن؛ تهديدهن، زوالهن. أجنز جرتود ذات الشارب وماري أجنز المصابة بالتهاب المفاصل، كانتا تدرّسان في المونت^٣ حوالي أربعين سنة، وضعتا خمار الراهبات وفجأة زخرتا بالسلطة. قالت: «لم أرَ راهبة لوقت طويل جداً».

التوأم، في اتصال للتشاور، كان من الصعب أن يُقال إنهما بعيدتان إلا حين تضحكان. لم يكن لديها الكثير لتقوله وانتقلت إلى حالة الطقس. اليوم ثلجي، العاصفة الثلجية الثانية في السنة الجديدة، تعرّض لها أوين ذات مرة. كانت تستطيع أن تراه، غير متزن، مهرج، حول رأسه وشاح. السير في الطقس الثلجي العاصف مدهش.

«أوه يا أمي»، من التوأم حين بكت. بشكل درامي واضح، نعم، عرفت أنها كانت موجودة، لكنها افتقدته. الطريق الواسع الذي قدمه لها كل صباح، قائلاً: «ماذا يحتوي برنامجك؟» الطريق الواسع كان له الآن فتنة طريق حر.

قالت التوأم: «لكن تمشي، إذا كان الثلج يتساقط..»
«داخلياً»، قد تكون كلمة رائعة لوصف ما كانت عليه، ربما كانت «مُسغَرقة» أكثر دقة.

قالت: «أعرف أن البلاد في حرب»؛ ورغم ذلك كانت تفتقده. «بالإضافة إلى أنني حين أنظر إلى العالم الكبير، كثيراً ما أبكي أكثر».

لكن كان هناك أوين، صوته، صوته في الغرفة الأخرى، ترنيم نشاز، تكسير الجوز على الورق، غناء أو صفير أغنية سريعة. دار لحن جيلبرت وسوليفان لأيام: «الروائية ... أنا على يقين من أنها لم تخطئ»^٤ كان يفضل ما يفكر في عزفه أو سماعه. «حصلت على قائمة صغيرة ... أنا على يقين من أنها لن تخطئ».

انهمكت في العمل بعض الليالي، وفضّلت الفودكا في صباح بعض الأيام. كان عليها أن تُسلم بذلك؛ لنفسها، لا للتوأم.

^٣ المونت: كلية مونت سانت جوزيف، كلية كاثوليكية رومانية ليبرالية لدراسة الفنون.

^٤ جيلبرت وسوليفان: جيلبرت Gilbert (١٨٣٦-١٩١١م) كاتب، وسوليفان Sullivan (١٨٤٢-١٩٠٠م) موسيقار، تعاوناً معاً في ١٤ أوبرا كوميدية بين عام ١٨٧١م وعام ١٨٩٦م.

قالت لهما: «شرعتُ في موشح سداسي.» قالت إنها تستلهم «الموشح السداسي» لإليزابيث بيشوب،^٥ وتستخدم كلمتين من الكلمات نفسها. «كان البيت الذي حرّكني هو الوقت يزرع الدموع.»

قالت التوأم: «الموشحات السداسية صعبة.» ابتاتها المتعلمتان، عرفتا، حاولتا. «في المدرسة الثانوية يا أمي. هل تتذكرين مس بيرد؟»

«أوه، مس بيرد!« وضحكن ضحكة رائعة نادرة، الثلاث جميعهن، هي والتوأم، متذكرات مس بيرد الأثرية، الطائشة، تعمل بكثرة وتصطدم بالجدران. وضحكت التوأم لأن مس بيرد تاهت في مركز تجاري في رحلة في بوسطن. كانت التوأم تضحكان، وكانت تضحك قليلاً، أيضاً، حين نبهها منظر الكلب العجوز النائم. وفجأة، في التقلب المزاجي الحاد للشباب، جنّت بأوين. عليه اللعنة. «ليست هناك متعة يمكن الحصول عليها في الانضباط والقيود»، قالت للتوأم. «هذا ما يدور حوله الموشح السداسي اللعين»، وانتهت لذة الضحك.

«لماذا يا أمي؟» جاء صوت إحداهما.

قالت الأخرى: «هل أنت سكرانة.»

قالت: «لا ينبغي أن أدافع عن نفسي.» بالإضافة، شرحت، الشرب ليس مشكلة إلا مع قيادة عربية، «وأنا لا أقود.» كانت تبقى عند الطاولة أو تنام في مقعد كبير وليس لأحد أن يقلق. ربما تموت هناك، لا خطأ في ذلك.

«يا أمي!»

«كل ما أقوله إن المرء لا يتعرض لحوادث كثيرة إذا مكث في مكان وشرب.»

«عليك النهوض للحصول على زجاجة.» كلارسا وحدها يمكن أن تقول ذلك. هنا

الاختلاف بين بنتيهما: إحداهما أكثر تحديداً من الأخرى.

«أحضر الزجاجة على الطاولة.»

«عظيم يا أمي، هذا عظيم. الآن تعرفين لماذا لا نريد الاتصال؟»

«لا تتصلا إذن. اتركاني وحيدة.» وأغلقت التليفون وكادت تركل الكلب، لكنها

أحجمت. الكلب صديقها. «بينك.» قالت: «بينك، أيها البائس العجوز، أفزعّني»، ومالت لتربت على كوم من الزغب وتتحدث إليه بكلام لا معنى له، كلب أوين، «بينك»، خليط صغير

^٥ إليزابيث بيشوب Bishop (١٩١١-١٩٧٩م): شاعرة أمريكية.

متبنى من شيء مهجور يساء استخدامه. كان «بينك» دون شعر في البداية. انظر إلى نفسك الآن، ثوبك الضئيل المُغْبَر، يا «بينك» الصغير، الحلو العجوز. لن أُوذيك. أنت صديقي.

«أنا في يوم الحركة»، قالت لبينك، لكن الكلب رقد رابط الجأش، متأكدًا من عودتها.

عاصفة ثلجية، ذوبان الجليد، شمس ساطعة، ثلج، درجة حرارة التجمد، ثلج، ويصبح الجو أفضل، أدفأ، وصل الطقس الواعد، نظرت إلى «بينك» ثم إلى الجاروف ثم إلى الحديقة، حيث تطفو جزيرة رطبة من أوراق الماهوجني، طُمرت شهوًا في الثلج. تلاشى الثلج نتيجة المطر الذي سقط في الليلة السابقة ولم يبقَ في الصباح إلا السديم، شيء أكثر من الضباب. تحب العمل في هذا الطقس. فكرت في شعر أوين، عليه قطرات الماء ومنمق بوضوح في الشمس. جرفت التربة وفكرت إن كان يمكن أن ترى التوأم. إذا كانتا تستطيعان العيش مع الحديقة بالطريقة التي تعيش بها. مغطاة أم مكشوفة، مورقة أم جرداء، الحديقة متجددة في أي موسم. السديم الدائم يتحول إلى مطر. مارس، أواخر مارس. عيد ميلاد شخص ما ... مَنْ؟

تركت «بينك» للوحل. قلبت الأحواض؛ جرفت التربة. «فتاة قذرة!» قالت حين تمايل الكلب باتجاهها. لماذا أخرجت الكلب المهجن البائس؟ ارتجف الكلب وأصدر صوتًا حادًا.

الكلمات الست في موشحها السداسي: حديقة، أرملة، زوج، كلب، تقويم، دموع. قالت: «المندوب قطار قادم. يُقَيّد العنصر البري في الحداد وما تحصل عليه هو الوجداني.»

ينبغي أن تستمع إلى التوأم، تتبع، تنتقل، ضمان ما كان هناك ضمان لهما. فتاتان بائستان، في حياة بلا زواج، مشوشة، الضجيج، الضجيج، ضجيج المجفف في المغسلة تقلب ملابسهما المنهكة. لا يوجد إلا قليل من الرجال غير المتزوجين حيث تعيشان، وأغلبهم شواذ.

المطر بارد، تركت نفسها تبتل، كما كان أوين يفعل، حتى تشبعت بالمياه.

في المطبخ مرة أخرى أشعلت الموقد وشاهدت المطر يغسل الحديقة تمامًا. أشواك خضراء رَقَطَت الأحواض التي قَلَبْتَهَا، وتيجان مقصوصة لنباتات ثابتة، سيقان الكوبية في لون القمح، تسطح على شكل دوائر غالبًا.

إذا كان من الممكن فقط أن ترى ابنتيها.

كيف تفقد الصيف في الاهتمام بالحديقة؟ كيف يمكن ذلك، لكنها افتقدته.

في الرابعة ومرة أخرى في الخامسة، وفي الخامسة والنصف وإلى الأبد. كان «بينك» يقظًا؛ سمعته ينقر الأرضية العارية، يلف حول السرير؛ سمعته يتثاءب. «صباح الخير»، قالت، وواصلت الحديث إلى بينك وهي تحمل الكلب وتنزل به السلم. «لأن الجو بارد جدًّا،

أليس كذلك يا «بينك»؟ لن أفعل ما فعلته أمس. الطقس بارد جداً وممطر هذا الصباح.»
رأتها خمساً وأربعين في الترمومتر. قال الراديو إن الطقس أبرد. بارد جداً. تناولت الماء
والأسبرين، ومزيداً من الماء. وضعت مُزيل الروائح، وعادت إلى السرير. لكم من الوقت؟ من
يبالي؟ نهضت مرة أخرى. غسلت شعرها وجففته في حرارة الفرن المفتوح.

ذات مرة فُكِّرت أنه قد يكون نَرْكُ الحياة صعباً، لكنه لن يكون صعباً جداً.
قرأت؛ كتبت؛ لا بُدَّ أنها تناولت الغداء، لا تذكر. المشاهد التي بدت جوارها متعددة
الألوان. أضاف التعقد الناعم لأغصان جرداء نوعاً من السحر؛ الظلال مظلمة وأكيدة.
وضعت أوين في قصيدتها، أوين أو شكله، على ظهر سفينة في معطفه وقبعته ذات الريش،
مسافر على سفينة بخارية، على ساقيه بطانية، وسويتر ثقيل ووشاح، القبعة ذات الريش.
الحديقة خلفه تحولت إلى قش.

لماذا كذبت على التوأم؟ لماذا قالت، حين اتصلتا، «لا أشرب. أعمل.» لماذا لم تخبرهما:
«أفعل الاثنين»؟

الترحيب القصير بالصيف وتوديعه الطويل جداً. أكوام هائلة من الموت سحبتها إلى
الأخشاب، إلى الركام الميت. وداعاً لزهور الصيف، للخشخاش المتألق وأعشاب الفيرنونيا.
زنابق القبعات التركية، رقيقة مثل الفوانيس الورق في قمة توهجها، وداعاً.
«إلى متى تهتمين بالنظر»، كان أوين يقول حين يراها تشاهد شريطه السريع في الباب
الخلفي. تحب النظر إلى آلتِه السرية من الخلف حين ينحني ويقف على رجل واحدة خارج
بنطلونه القصير. هناك كيسه الأسود الطويل. رأس قضيبه رمادي مُصْفَرًا. تعبيره غريب
معظم الوقت، لا مبالاة مُقْنَعَة. وهو يجلس في مكان آخر للتنظيف، رأس قضيبه وردي
وضخم ومنتصب.

كل ما كان عليها أن تسأل لكنها كانت تحب أكثر أن تنظر. انظر!

«كما تريدين»، قالت، وبتباهٍ مد باقته، «كوني ضيفتي.»

في ليلة بدا أثر العمر عليه، وبضع سنوات من «لو»، صحة أسوأ وأدوية.

«من فضلكما لا تحدثا عن الانتقال»، قالت للتوأم. «ليس الليلة.»

لماذا ردت، باستثناء الشعور بالوحدة، على التليفون؟ (أوين على المنضدة الطويلة،

يقول في التليفون الذي يرن: «ابتعدوا، اتركونا وحدنا»، وتركهم الناس بشكل جميل.)

لتتخلص من التليفون كانت تتحجج بمرض «بينك». الغريب أنها حين تغلق التليفون تجد

بينك في الغرفة مريضاً.

قالت: «الطفل المسكين.»

«العجوز»، قال الطبيب البيطري.

أعطى «بينك» حبوبًا لعلاج دوار يحدث أحيانًا للحيوانات المسنة، رغم حيواتها الثابتة.
«سينام أكثر بعض الشيء.»

قالت: «نومًا سعيدًا. أليس ذلك رائعًا؟»

تحدثنا قليلًا، هي والبيطري العجوز، لأنه، أيضًا، كان عجوزًا. تحدثنا عن أوين، أو تحدثت عنه، وسأل: «هل بحثتِ عن أي مجموعات؟» في الرجوع إلى البيت بقيادة مترنحة في المطر، صرخت، ولم ترَ وهي تقود السيارة وكان عليها أن تتوقف. «عليك اللعنة أيها البيطري العجوز!» وضعت وجهها في يديها وصرخت. لاطفت «بينك» وتحدثت إليه قليلًا، قائلة: «لن نرجع إلى هناك مرة أخرى، لن نرجع يا بينكي. لا، لا. لكنك تشعر بتحسن، أليس كذلك؟» كان الكلب الصغير كُرّة مغبرة؛ بمجرد ملاطفته شعرت بالبشاعة. «هل عليّ أن أعيش بعد موت الجميع؟»

قالت: «نعم، نعم، نعم، لا. زنبق الوادي ازدهر. نعم، مضت سنتان الآن.»
قالت التوأم: «أردنا أن نعرفي، كنا نفكر فيك.» واتصلت الفتاتان مرة أخرى بعد ذلك لتعرفا أحوالها. «كيف حالك يا أمي؟» سألتا في صوت أمومي.

قالت: «زنبق الوادي ازدهر.»

ربما كان شهر عيد ميلادها وعيد ميلاده، حين تحتفل هي وأوين بهدوء مذهش. استسلم لمقولة: «أعتقد أنني سأرى ربيعًا آخر.» ورأى ... بالضبط.
القلب.

بالطبع، قلبه، وماذا أيضًا؟

الآن أبلتها الخاصية الجائرة الثابتة للأشياء.

«يا أمي!»

أرادت تذكر كل ما لم يكن أمامها. رأسه الجميل، أذنه الصغيرة الحمراء، شعره.

«كنتُ تشربين. يمكن أن نقول.»

«عرفنا أنك كنت تشربين.»

«لماذا تتصرفين إذن بهذا الشكل الغريب؟» تغلق التليفون وترى الكلب اللعين يُحدّق

في الأرضية أمامها. لعين صغير!

لم يكن لديهما، هي وأوين، وقت كاف.

قالت للتوأم: «لستُ بهذا الشكل.»

في ليلة أخرى: «أنا مرهقة.»

في أخرى: «أنا عجوز على هذا.»

قال أوين في الحديقة تكتشف الطفولة، لكن خبرات الطفولة التي تتذكرها فظيعة غالبًا. أخرجت أنفها من الزهرة، وضحكت ابنة عمها حين رأتها. «أنفك!» من الصعب التخلص من الأحمر وصبغة العشب على ركبتيها وكوعياها. الطفولة في الحديقة. لم تكن الحديقة أنيقة، كانت مليئة بالسفاحين، وأراها أوين بعضهم. لم تكن «دوقة ألبنى» سفاحة، بل متسابقة على جذع هش، ياسمينة برية بكئوس وردية عميقة مقلوبة، كئوس هشة بشكل خادع حسنة الإنتاج، صغيرة وجبانة. كانت تفضل دوقة ألبنى: كيف يمكن أن تبيع المنزل لشخص ربما يقتل الدوقة في عملية التحسين الشاملة للمنزل؟

قالت لبنتيها: «جاء الرجال، نعم. لكن أقدامهم كبيرة. لا حيلة لهم، أعرف.»

قالت التوأم: «أمي. نحاول فقط أن نساعد.»

هكذا كانت. ألم توافق على الأنبوب البشع؟ ذلك الأنبوب البشع بالقاع الفظ والقبضات. لم تزرها بنتاها لسنوات.

قالتا: «أوه يا أمي، عمّ تتحدثين؟»

أخذت احتياطات الأمان الخاصة ونقلت غرفة نومها، لتكون في الدور السفلي بجوار رواق الشمس. في رواق الشمس على الأريكة لم تكن تخشى النوم.

سألت: «ما الذي جعل عُش بينك في الزوايا؟ ماذا تعتقدان في الأمر؟»

«بينك عجوز يا أمي.»

«الكلب عجوز. خذيه إلى البيطري.»

«أوه، يا إلهي.» قالت. الذهاب إلى البيطري العجوز يرعبها بقدر ما يرعبها الكلب.

«أوه، يا إلهي»، قالت. وشعرت أنها متورطة ومرتبكة.

من المعتدلة: «أنت سكرانة وهذه هي الحقيقة.»

قالت: «أوه، يا إلهي لا أريد أن أجد كلبًا قاسيًا تحت المنضدة. لا أريد، لا أريد، لا

أريد.» كانت تبكي والتوأم تواسيانها.

«أمي، لماذا لا تزحفين تحت لحافك المصفر وتنامين لبعض الوقت؟»

«تأخذين غفوة أنت والكلب.»

قالت: «أعتقد أنني سأفعل.» قالت: «بينك لا يدرك أنني تنتابني مشاعر مختلطة

بشأنه.»

وجدته في وضع غريب يقف على أطرافه بجوار السقيفة. كان الخرطوم يرش نصف الحديقة، وفي موضع آخر دلوان، وجاروف ومعول. كيف تمتّ، لمصلحته، أن يُبعد أوين الأدوات ويلف الخرطوم ويموت ميتة رائعة، بينما التوأمان تصرخان فيها لأنها تقول مثل هذا الكلام.

لكن في صباح اليوم التالي لموته، الصباح الرهيب التالي، تكرر مرات عديدة يوميًا: استيقظت، ارتدت ملابسها، نزلت إلى الدور السفلي، أعدت شراب الفطور بحزم، وخرجت بالشاي. ثم رأته، صندوق الحبوب، حيث احتفظ بملابس الحديقة، وسقطت على ركبتيها وبكت. حتى تلك اللحظة، كانت ترشف الشاي وتعتقد أنه لا يزال حيًا ويوجد في الحديقة ملوئًا بالوحل.

استمر غيبته صخب تسمعه حين تستمع إلى الهدوء الشديد من حولها. كيف عمل وعمل وعمل من أجلها.

«هل يمكن أن أقدم مساعدة؟» كان هذا ما يقوله دائمًا، «هل تريدان أي شيء؟ هل يمكن أن أقدم لك أي شيء؟»

اعتقدت أن ذلك كان الصيف إن لم يكن الربيع، لكن الدليل اليوم قال إن الأمطار تتساقط. مرة أخرى!

«متى خرجت آخر مرة يا أمي؟»

«أرعى الحديقة.» قالت لهما إن أنفها فيها، تنطلق بجوار حبوب اللقاح الملطّخة، الواضحة بشكل فظيع، حيوان أصلع، كلبة قوية غريبة، لا تختلف عن الكلب الذي لديها. بينك، بينك، ما مشكلة الكلب؟ بعد أن أغلقت التليفون، أمسكت به في غضب ودفعته بعيدًا، أوقفته، وضعته خارج المنزل — على هذا النحو — ثم مسحت خلفه. أدخلت بينك وحملته إلى سريره في المطبخ وتحذث إليه. لكن حتى وهي تعتذر على ما حدث، تمتّ جزء منها موته وخشي جزء آخر موته، ثم أخذت بينك إلى الدور العلوي وحممته في الحوض الجديد. كان جلده الوردي ورديًا جدًّا وبدا متوهجًا. كان نحيلاً؛ يرتجف رغم رقتها ودفع الماء. نشفت بفوطتها الناعمة وحين جفّ وسعد وهدأ، لفّته وهزته. كان نحيلاً بشكل يثير الشفقة. وضعته تحت لحافه المصفر وقالت: «سأذهب إلى لحافي.»

نوع جديد من الجاذبية

تأليف: أندرو فوستر ألتشول^١

في الواحدة صباحًا تقريبًا خرجتُ إلى الزقاق مع هوراس لنستجدي سيجارة ونقايش على تراجيديات المساء. أجدّه في قفصه في البدروم، يدق على عدسته المدعومة، مشيرًا إلى الساعة فوق رأسه. نراجع الشاشات لتتأكد من وضوح كل شيء، لا يوجد سكارى مشاكسون أو أزواج ماهرون ينتظرون في كمين. يمكن أن تطلق ماتي النار علينا نحن الاثنين في دقيقة ونصف تقريبًا إذا عرفتُ أننا فعلنا هذا. إذا تطلعتُ خلفها على شرائط أمن الليلة، ورأت الباب الفولاذي يُفَتَح بطوبة، ونحن الاثنين مائلان على الجدار الخارجى كأننا مدرسة؛ لن يكون أمامها اختيار، يعرف الجميع ذلك.

قالت حين استخدمتني: «العَبْ بحياتك الخاصة إذا أردتَ». تطلعتُ في عيني، وصافحت يدي، ولم ترفع صوتها. «لا تعبتُ بحياة شخص آخر. هذه قاعدتنا هنا.» تقول ماتي دائمًا أشياء من هذا القبيل، صراحة حقيقية، وكأنها تتكلم لمجرد أن تتكلم. لكن ماتي لا تتكلم أبدًا لمجرد أن تتكلم.

حاولت أن أسخر من هذا مع هوراس ذات يوم، في أسبوعي الأول في الوظيفة، محاولًا التودد إلى الحارس الآخر. أثرتُ انطباعًا رائعًا برتابة صوت ماتي، بسمتها الباردة، الطريقة

^١ أندرو فوستر ألتشول Andrew Foster Altschul: روائي وكاتب قصة قصيرة يعيش في سان فرانسيسكو، والعنوان الأصلي للقصة A New Kind of Gravity.

التي تضغط بها كَفَيْهَا وهي تُلقِي عليك محاضرة. لم يعتقد هوراس أن الأمر مُسلٍّ إلى هذا الحد. فكَّ أضرار زِيَّهٍ وأراني ندبة سمراء سميكة حيث طعنه زوج بسكين على رصيف المشاة في الثامنة صباحًا وأخذ مفاتيحه. أطلقت ماتي النار على الرجل في الردهة، وقَدِّمت له الإسعافات الأولية حتى جاءت عربة الإسعاف.

ليست المسألة أننا لا نستطيع التدخين في المبنى، النيكوتين عمليًّا يجعل هذا المكان متماسكًا. توجد غرف اجتماعات في الدورين الثاني والرابع مع صفائح نفايات صناعية كبيرة ممتلئة عن آخرها دائمًا. وفي الدور الثالث مطبخ قذر، وهناك السطح. لكن لتصل إلى هناك عليك المرور بالردهات البائسة، ملصقات عن باريس والجراند كانون،^٢ «يوم في كل مرة» في الرسائل المتدفقة عبر شروق الشمس. تسمع النساء في غرفهن، يُصَلِّين أو ينتحبن أو يتحدثن وهن نائمات، يصحن في أبنائهن أو يقرأن قصصًا قبل النوم. يسود بعض الغرف صمتٌ تام. جدران غرف الاجتماعات مكتظة بصور فوتوغرافية وقصاصات من الأخبار وتطريز بالإبر، واختبارات هجاء الصف الثالث وصُحف طلاق وصلوات إسبانية. أحب أنا وهوراس الخروج إلى الزقاق، حيث صفائح النفايات والطقس، بضع دقائق من الحرية الخالصة.

لا تخرج النساء إلى هنا. لا يقفن على السطح أو يتمشين في منتزه المدينة أو يصطحبن أبناءهن إلى تدريبات اتحاد الناشئين. لا تستطيع بعضهن الاحتفاظ بوظائفهن، لا يبرحن المبنى لأسبوعين أو ثلاثة أسابيع أو عشرة أسابيع. وحين يبرحن المبنى، لا نُراهن عادة مرة أخرى لبعض الوقت، حتى يأتين وأنوفهن مُهشَّمة أو أكتافهن مخلوعة أو ما هو أسوأ. يقول هوراس في الزقاق: «انظر إليهن». ليس عليه أن ينظر إلى أعلى ليعرف أنهن هناك؛ أوجه مؤرقة في النوافذ، ينظرن إلى المباني البالية، نظرة غيرة لنا ونحن ندخن في الخارج. يقول: «محزنة. نماذج محزنة.»

هوراس مُدرج في قائمة. تعتقد أحيانًا أنه يكره النساء، من طريقة حديثه. لكنه هنا منذ ست سنوات. ساعدته وماتي تصارع شخصًا مفتول العضلات في قيد متين، الفتى مُرهق حتى تستطيع أن تشم رائحة البلور. رأيتُ وجه هوراس ونحن نمسك الزوج، يصرخ بعنف. ليس لي أن أسأل في أي جانب يقف.

^٢ الجرانند كانون Grand Canyon: gorge وادي نهر كولورادو في شمال غرب أريزونا.

بدأ الليلة يعمل لأنه رأى في السجل أن لوسيل جونسون فحص من جديد. «اشرح لي يا تشارلي»، يقول وهو ينفخ الدخان وكأنه أهانه. «أخبرني لماذا على هذه المرأة أن تأتي إلى هنا وتذهب من هنا، وتضيع حياتها في هذا المكان. أليس لها أخوة؟ أليس لها أب؟ ولا أحد يفعل شيئاً.»

يغضب بشكل خاص من النساء السود في سكاير هاوس. يقول إنه أمر خاص، على المجتمع أن يراعاه. «امرأة في الحي الذي أسكن فيه تضرب على هذا النحو لن تحتاج إلى منزل آمن. لن تحتاج إلى نظام للتقييد»، قال. ينفُض سيجارته عبر الزقاق، حيث تنفجر إلى رذاذ برتقالي صغير على صندوق النفايات. «هذا النوع من الهراء لا يحدث إلا مرة واحدة. هل تعرف لماذا؟»

سمعتُ هذا الكلام مائة مرة. أقول: «لأن الرجال السود يعرفون كيف يتعاملون مع نساءهم؟»

ضحك هوراس ضحكة لاذعة. يقول: «يعرف الرجال السود كيف يتعاملون مع الحيوانات. يربع يديه ويومئ. فركتُ سيجارتي بطرف حذائي.»
أقترح: «عُد؟» مراجعاً ساعتِي. هناك في الواحدة والنصف صباحاً إعادة «شهر العسل»^٢ لا أريد أن أضيِّعه.

يدمدم ونحن نتجه إلى الباب: «تحدث عن الإنساني، أريك بعض الإنسانية اللعينة.»
أركل سلسلة الباب وأحاول ألا أنظر إلى أعلى، رغم معرفتي بأنني سوف أنظر، رغم معرفتي مَنْ أرى حين أنظر إلى أعلى: فتاة في السابعة من عمرها في بيجامة عجيبة، تلوِّح لي من نافذة الدور الرابع. ألَّوَح لها بدوري، أشير إلى ساعتِي وأعبر صامتاً عن الرغبة في النوم، لكن كاميلًا تُحدِّق فقط من خلف الزجاج الواقِي من الرصاص. هذا ما يحدث كل ليلة: أصعد السلم إلى كشكي في اللوبي، وفي الشاشات أراها تقف هناك، شخصية صغيرة تنظر إلى المكان الذي غادرته، وأنا أتأكد من غلق الأبواب ثلاث مرات وأنظف بندقيتي وأتساءل إذا كان سيأتي يوم يكون عليَّ قتل أبيها للحفاظ على أمنها.

يرن جرس الباب في السابعة صباحاً، ولستُ في حاجة لمراجعة الشاشات لأعرف ما يدور في الخارج: زوج على المنحنى الأمامي، يتلملح في ملابسه، محاولاً ألا يواجه الكاميرا.

^٢ شهر العسل the Honeymooners: يوجد فيلمان أمريكيان بهذا الاسم، أحدهما من إنتاج ١٩٥٥م والآخر من إنتاج ٢٠٠٥م.

حليق وبدين، ربما يضع ربطة عنق. معه زهور بالتأكيد، ورود حمراء من المحل الكوري في الزاوية، ينجزون قدرًا هائلًا من العمل. بعض هؤلاء الأزواج ضخام، ضخام حقًا؛ والبعض ليسوا ضخامًا. يبدو البعض مثل قاع برميل، ويبدو البعض مثل المحاسبين. وحين يسيرون بجوارك، ينتابك الشعور نفسه، بالرائحة التي تفوح منهم، شيء ساخن وفاسد موضوع داخلهم، محشور في مكان أضيق من أن يحتويه.

بسرعة أسمع وقع أقدام تنزل السلم وأبريل بيتيلي تظهر بجوار الكشك في أفضل ثيابها بمكياج يتناسب مع الساعة. ترسم ابتسامة ضخمة، رغم الفك المتورم، تومض مثل مراهقة يقع عليها الاختيار لحفلة راقصة ... تغادر، تقول، يمكن أن نُعطي سريرها لمن تحتاج إليه حقًا. هذا ما تقوله دائمًا. تقف لتعانقني قبل أن أتركها تخرج. في الشاشات، أشاهدهما يتعانقان، زوجها يصرخ، يغمرها بالقبلات. تتماسك أيديهما وهما يبتعدان.

المرّة الأولى التي كان عليّ أن أترك فيها امرأة ترحل، بدأتُ الجدل معها، بتشكك. هزت ماتى رأسها لي عبر اللوبي. قالت فيما بعد: «ليس قرارك. لا أحد سواهن يمكن أن يراعهن.» صحيح. لا يمكن أن توقفهن. حتى في المرّة الرابعة أو الخامسة — حين عُذُن ليمكثن فترة قصيرة، حتى تلتئم عظامهن، ويكبر شعرهن من جديد — حين يرن الباب يطرن عملياً وهُنَّ يهبطن السلم. يتحدث دارسو الحالات عن هلع النساء، وكيف يعدن لأنهن لا يعرفن شيئاً آخر يفعلنه، أو لأنهن لا يستطعن دعم أنفسهن، أو من أجل الأطفال. لكن البسمة تشدني، الطريقة التي يفتحن بها الباب ويرتمين بين أذرع أزواجهن. تعتقد أنهن يؤمن حقًا بأن هذه المرّة ستكون مختلفة. ربما تخترق أيضًا أوامر الحبس في ملفهن، وتنثرها مثل ورق التلغراف من نافذة الدور الثاني، في احتفال عظيم.

حينها يجب الاتصال بالمحكمة للحصول على نسخ جديدة خلال أسبوع أو عشرة أيام، حين تعود في سيارة الشرطة بحروق سجاجير على ذراعيها أو أزيز مرتفع نتيجة كسور في الضلوع، أو الأسوأ، جروح لا تستطيع رؤيتها، مهما تكن الروح التي تخلفها وقد حُلَّت مكانها أيدٍ مرتجفة وكراهية عميقة للذات لا تعثر لها على قاع لشهور.

حين عادت ماريانا أول مرّة، تضع دعامة عنق وتقبض على يد كاميللا بقوة حتى إن الفتاة الصغيرة حاولت التخلص منها، فتحتُ الباب ووضعتُ ذراعًا حولها لأُدْخِلها. أغلقتُ عينيها لثانيةً، واعتقدتُ أنها ربما تبكي على كتفي، لكنها ابتعدتُ وجذبت ابنتها بعنف على السلم واختفت. نادت ماتى في مكتبها بعد دقيقة وحذرتني مرّة أخرى. قالت إنه لا يوجد هنا اهتمام ذكوري إيجابي، قالت وهي تمزق الهواء بقبضتي يديها. تفتح الباب وتغلق

الباب. ترى يدًا مرفوعة، تنتزعها. ترى سكينًا، تطلق عليها النار. قالت هؤلاء النساء لسن صديقاتك. لسن رفيقاتك. إنهن مريضات. عليّ أن أقول لك، لا ترغب في معرفة ما حدث لهن.

للحظة بدا أن كل امرأة واعدتها كان لها رفيق سابق يضربها. لأن البعض لم يكن متوقعًا، كان نوعًا من رد الفعل التلقائي، الدفع العنيف وسط المعركة، مشروب يُلقى على الحائط؛ وبالنسبة للبعض الآخر متعمد، ومنهجي. بدأ الأمر مع تريزا، خطيبتي القديمة. بسرعة بعد أن انتقلت للعيش معي، حكّت عن رفيقها السابق، كيف اعتاد الصراخ وهو يلف الفوطة حول قبضته بحيث لا يخدشها. جلستُ على حافة السرير، وظهرها باتجاهي، وأنا أضع وسادة على وجهي وهي تخبرني بمدى شعوره بالأسف بعد ذلك، وكيف اعتقدت أنه مختلف، وكأن شيئًا كان يسيطر على جسمه.

قالت إنه وضعها في غرفة الطوارئ ذات يوم، وعادت إلى البيت في اليوم التالي لتجده في البانيو، حلق رأسه ويحاول قطع رصغيه. حين سألتها لماذا لم تتركه يفعل ذلك، أغلقتُ عينيها ولوت فمها مبتسمة، وكأن هناك شيئًا في الحب لا يمكن أن أفهمه.

سمعتُ هذه القصص كثيرًا ولم تعد تثير دهشتي. لم أعرف ما يجذب إليّ هؤلاء النساء اللاتي كنَّ مع مثل هؤلاء الرجال. حلمتُ بأنني أهاجم على الفتى في الشارع وأسحق وجهه في الرصيف. كان ذلك وأنا أعمل في المركز التجاري، وجدتُ نفسي أنفدُ الأمر في لص معروضات غبي، غارسًا عنقه في الجدار.

ما أدهشني أنهن كن يعدن جميعًا. ربما يذهبن للاستشارة أو يقلعن عن الشراب معًا، ولا يختلف الأمر، لا يتوقف الضرب بعد المرة الأولى. لا أحد من هؤلاء المتسكعين دخل السجن. لم يوجه أحد اتهامات لهم. كان الرفيق السابق لتريزا الوحيد الذي وقّف، وذلك لأنه نزع التليفون من الحائط حين حاولت الاتصال برقم ٩١١. من الواضح أن انتزاع التليفون من الحائط جريمة فيدرالية.

آخر ما نفعله أنا وهوراس كل صباح وضع الأطفال في الأتوبيس. يحضرهم المستشارون إلى السلم الخلفي ويتراصون بجوار قفص هوراس ومعهم حقائب الكتب وصناديق الغداء، حين نرى الأتوبيس في الشاشات يتوقف، نقف خارج البوابة الفولاذية ويمر الأطفال بيننا. إنها تقريبًا مثل أي محطة أتوبيس أخرى، مجرد مجموعة أطفال يذهبون إلى المدرسة، باستثناء ذلك لا يصدر تقريبًا أي صوت عن هؤلاء الأطفال، لا يضايق أحد منهم الآخرين ولا يشكون، ويحتاجون إلى رجلين مسلحين بالبنادق للتأكد من أنهم يركبون الأتوبيس بخير.

أحياناً يكون هناك أب في الزقاق، لا يفعل إلا أن ينادي على طفله ويلوح له. «قل لأمك إنني أحبها» هذا ما يقولونه عادة. لدينا خطوط على الرصيف على بعد ١٠٠ قدم وعلى بعد ٢٠٠ قدم، لمعرفة أين يُحرق الأمر بالضبط. أحياناً، أشاهد أباً بزاوية عيني، أكتشف أنني أتمنى أن يعبر الخط ليعطيني مبرراً.

يقول هوراس إنه لم ير مشكلة أبداً في الأتوبيس. يعرف الآباء أنه لا شيء يكسبونه هنا، ماذا والألم مغلق عليها مع وجود حارسين مسلحين. يقول إنهم يأتون فقط للشعور بالأبوة لبضع دقائق. ربما يأملون أن يلوح لهم أبناءهم. ربما يأملون أن يجري الأطفال إليهم ويصيحون: «دادي، دادي!» وعلينا أن نوقفهم إذا فعلوا ذلك.

عقدت اتفاقاً مع باحثة حالة كاميليا يسمح لي بأن أربت على رأسها قبل أن تصعد الأتوبيس. اعتادت أن تجري إليّ وتحضن ساقيّ، تشاهد باحثة حالتها، وتنبه، وأنا أقف هناك وأحاول أن أبعدها بركة. الآن يُسمَح لي بأن أقول: «تقضين يوماً سعيداً في المدرسة»، ويُسمَح لها بأن تمنحني قبلة.

في الأسبوع الماضي ظهر أبوها في الزقاق. عرفت أنه هناك لأن كاميليا خرجت من الباب وتجمدت وبدأت تصرخ على الفور. صاح: «كاميليا. أحبك كاميليتا. قولي لأمك إنني أحبها»^٤. وكان على باحثة الحالة أن تحملها إلى الأتوبيس. التفتُ لأرى رجلاً متوسط العمر يرتدي بنطلوناً وسويتراً صياد سمك. أدركتُ أنني قد أتعرض لنظرة قذرة أو لعنات إسبانية، لكنه لم ينظر إليّ. حدّق فقط في الأتوبيس وابتعد وقرض بشكل بشع ظفر إبهامه.

في الأمسيات تكون الأمور شكلية أكثر. من الثامنة، حين آتي، حتى العاشرة، تكون النساء كلهن في اجتماع. يُفترض أن يضع المستشارون الذين يأتون في الليل خطط أنشطة للأطفال، لكنهم غالباً ينجزون واجب المدرسة أو يشاهدون التلفزيون. أجلس في كشكي مع سجلات اليوم وأشرب قهوة، وأقرأ عن أي نزيلات جدد أو أشاهد «عجلة الحظ» في تلفيزيون أبيض وأسود صغير. في النهاية، بزاوية عيني، أرى نصف وجهه وبضع خصلات من الشعر تختلس نظرة حول زاوية بئر السلم. أظهاره بأنني لا ألاحظ، أطلع إلى المفكرات على الحامل، تنزل الدرجات الأخيرة لتتعلق في باب الكشك. «بوو!» تصيح، وأظهاره بأنني أسقط من مقعدي.

^٤ أحبك، قولي لأمك إنني أحبها: بالإسبانية في الأصل.

«لا ينبغي أن تقتربي خلسة من رجل ببندقية»، قلتُ لها ذات يوم، معتقدًا أنها دعابة، لكنني رأيتُ من وجهها أنها لم تكن دعابة. في مرة أخرى وضعتُ يدي في الهواء وقلتُ: «من فضلك، لا تؤذيّني!» وكأن الأمر سرقة بالإكراه. لم تكن دعابة أيضًا. عليك حقًا أن تهتمي بنفسك.

تأتي كاميلًا بالواجب المدرسي إلى الدور السفلي، أتركها تجلس في مقعدي وأساعدُها في الرياضيات. كانت تحفظ جدول الضرب، ولم يكن لها حيلة إطلاقًا في القسمة المطوّلة. في الليلة الماضية كان عليّ أن أقول لها مرة أخرى إن حاصل القسمة لا يكون بالضرورة تامةً، يكون هناك باقٍ أحيانًا.

قالت: «هذا غباء»، وطوّحت الكتاب على الأرض. بدأت تضغط الأزرار على الحامل ولم أسمع القفل الكهربائي على الباب الرئيسي يُغلق ويُفتح. راجعتُ الشاشات بسرعة، وكانت خالية لحسن الحظ، لكنني لا أريد العبث بالأبواب. أخذتُ الكتاب والقلم الرصاص ووضعتُهما أمامها، لكنها لم تتوقف.

قلتُ: «كاميلًا، لا ينبغي أن تلمسيها»، وحين واصلتُ مددتُ يديّ ووضعتُهما على يديها — برقة حتى إنني لم أتنفس — وأبعدتُ ذراعيها. «علينا أن نُبقي الأبواب مغلقة»، قلتُ وأنا أرجع بالمقعد إلى الخلف.

قالت: «لماذا؟»

«تلك هي القاعدة، للحفاظ على أمن الجميع.»

قالت: «لكن ماذا يحدث إذا أراد أحد الدخول؟»

أشرتُ إلى الشاشات وقلتُ إن أي شخص يريد الدخول يستطيع التحدث معي عبر الاتصال الداخلي. تعرف هذا كله. تحدثنا في ذلك من قبل. قالت إنها تريد أن تخرج وتستخدم الاتصال الداخلي. أرادت أن أسمح لها بالدخول. حين قلتُ لا، قالت إن عليّ أن أخرج وستسمح لي بالدخول. أرادت أن تتأكد من أن القاعدة لا تُخترق.

قلتُ لها: «غير مسموح لي بالخروج.»

«تتعرض لمشكلة؟»

«نعم، أتعرض لمشكلة.»

«هل تتعرض لعقاب؟» ° سألتُ، ولم أعرف ماذا تقصد، فاكتمتُ بالإيماء.

° عقاب: بالإسبانية في الأصل.

انتهينا من المسألة الأخيرة وقلتُ لكاميلًا حان وقت غسيل الأسنان. كانت المجموعات تصعد السلالم، تخرج النساء من غرف الاجتماعات، يثرثرن عن الكافيين والتأكيدات. «يريد دادي أن يزورني»، قالت، وهي تمسح اسمها وتعيد كتابته في كتاب التدريبات، نافضة مخلّفات المسح على الحامل. «يقول إنه يريد أن يأخذنا إلى البيت.» سألتُ: «هل رأيّت أباك اليوم؟» محاولاً أن يبدو السؤال عَرَضِيّاً. «قال إنه يريد رؤية غرفتي.»

أخذتُ نفساً عميقاً. عليّ أن أخبر باحثة حالتها. ينص النظام فيما يتعلق بأبيها على ألاّ يذهب إلى مدرستها، لكن ليس لديهم ما يكفي من العمال للحفاظ على هذه الأمور. في الشهر الماضي أخذ أحد التابعين لنا في الصف الأول مباشرة. وظل مفقوداً لأسبوع تقريباً حتى عثروا عليه، في لوكاندة مع أبيه، على بُعد بلدين. كانا يشاهدان التلفزيون ويطلبان بيتزا، وكأنهما لا يستطيعان التفكير في شيء آخر يقومان به. قالت كاميلًا: «يقول إنكم لن تدعوه يزورني.»

رأيتُ أباها خلفي في الزقاق وكاميلًا تركب الأتوبيس. اندهشت مع عدد المرات التي يأتي فيها في الصباح في الخارج هناك، يشاهد، بمَ يشعر حين يرى ابنته تمسك بساق رجل غريب ويناديها؟ توقفتُ عن التفكير في الموضوع، تقول ماتي إن أسوأ ما يمكنك القيام به هو التماهي مع هؤلاء الناس.

قلتُ: «يمكن فقط أن أسمح بالدخول لمن يُطلب مني إدخالهم»، واستعدتُ مقعدي. حاولتُ الكلام بطريقة ماتي، ببطء وتأکید: «بهذه الطريقة يكون الجميع في أمان.» طوتُ ذراعيها في الباب وحدّقت: «دادي يحبني.»

تظاهرتُ بأنني أفرد بعض الأوراق، وفحصتُ الشاشات مرة أخرى. أرى النساء في ردهات الأدوار العليا، يملن على الجدران، في صف عند التلفونات العمومية، في انتظار أن يكلمن أزواجهن، أن يمسكن السماعات خمس عشرة دقيقة مخصصة لهن. قلتُ: «أعرف.»

«يحبني.»

رأيتُ ماريانا في بسطة الدور الثالث، في طريقها للنزول. لا يمكن أن تتجاوز الخامسة والعشرين وتبدو أكبر بكثير. شعرها مدفوع بإحكام إلى الخلف وتسير بميل، ورأسها مائل إلى جانب كأنها تستمع لشيء ما. لم تتحدث قط مع النساء الأخريات. وقفتُ كاميلًا على باب الكشك وعبستُ.

قالت في النهاية: «أنت غبي.»
«تحتاج إلى التصرف بحذر مع كامبلا لوبيز»، قالت ماتي في التليفون. تراجع الأمور عادة في الحادية عشرة تقريباً. الآن أنا في وردية الليل، أراها فقط في المتابعة الشهرية، أو حين تكون هناك مشكلة حقيقية. «تتصرف الفتيات الصغيرات في سنها بطرق جنسية جداً مع الرجال. هكذا يحظين بالاهتمام.»
«جنسية؟» قلتُ بصوت مرتفع جداً. حاولتُ أن أضحك: «أساعدها في القسمة المطولة، لوجه المسيح.»

«لا تدافع. لا أتهمك. لستَ مدرّباً لتعرف هذه الأمور. لا تعرف ما أعرفه.»
كنتُ أعرف إلى أين تتجه. مسموح لي أنا وهوراس بالاطلاع على أوامر المحكمة، ولذا نعرف ما علينا فعله، لكن لا يُسمح إلا لباحثي الحالات بالاطلاع على الملفات. نسمع الكثير من المسؤولين، وهناك المزيد دائماً. حدثتُ في الشاشات، في العالم الزيتوني الباهت حول سكاير هاوس، وماتي تتحدث عن التعزيز الإيجابي، والحوافز المناسبة، والتلميحات غير اللفظية. شعرتُ بهذا الضيق يزحف ثانية، بتلك الحرارة على قفائي. في الإشراف الأسبوعي الأول، منذ عام تقريباً، عبّرتُ لماتي عن مدى شعوري بالغضب حين أفكر فيما تعانيه هؤلاء النساء، فيما يعانيه الأطفال. ثنيت دبوس ورق حتى ترك آثاراً سوداء في أناملِي وقلتُ إذا حاول زوج أن يفعل شيئاً وأنا بقربه فسيعرض لأسوأ مما تعرضت له زوجته. وضعت ماتي ملفي وطلبتُ مني أن آخذ الأسبوع التالي إجازة لأقرر إن كانت هذه الوظيفة مناسبة لي. لم يكن هناك ما يثير الغضب أو خيبة الأمل في الطريقة التي قالت بها ذلك، لكن لم يكن هناك شيء مشجع أيضاً.

قالت: «من الأفضل ألا تهتم كل هذا الاهتمام. لا نريد رامبو آخر.^٦ ذلك هو السبب من وجود معظمهن هنا في المقام الأول.»

في الزقاق، سألتُ هوراس إن كان يعتقد أن هناك ما يقلق في الطريقة التي تحضنني بها كامبلا أو تطلب بها مني أن أحملها. سند قدماً على الحائط ونفخ الدخان باتجاه النوافذ.

قال: «يتصرف بعض هؤلاء الأطفال مثل الأطفال. يكبرون وهم يعتقدون أن الجميع ملاعين مثل أمهاتهم وأبائهم. تعتقد في لحظة أنك تعانق شخصاً، وفي الدقيقة التالية يؤذونك في الصميم.»

^٦ رامبو Rambo: جون رامبو شخصية سينمائية عدوانية لا تبالي بخرق القواعد.

قلت: «الأطفال عاطفيون بشكل طبيعي. لا تحتاج إلى إنكار ذلك»، لكن بدا الأمر وكأنني أطرح سؤالاً.

دمدم رذاذ خفيف على صناديق النفاية وخرج زفيرنا في سحب برتقالية. فاحت من الزقاق رائحة مطاط يحترق، وكان شخصاً ما يُسلخ في الركن. قال هوراس: «تسألني، عليهم أن يغلقوا على الاثنين، الأم والأب. تجعل طفلك ترى هذا الخرا، تراك تتحمل هذا، والآن أي رسالة لعينة في ذلك؟»

«ضعف»، قال وهو في طريقه للداخل، يستعد لنوبة غضب. «لا شيء يجعل المرء يرغب في أن تكون ضحية بأكثر مما أنت ضحية الآن. يستطيعون أن يشموا هذا، كما يشم سمك القرش رائحة الدم على بعد ميل. إذا لم يكن هناك دم، يمكنك أن تسبح بجوار سمكة القرش مباشرة وستترك في حالك. لكن لو عرفت أنك ضعيف...» قال وأغلق باب كشكه. شاهدته يجلس على مقعده مربّعاً ذراعيه، وفمه يتحرك، وصوته المثير الأجوف يدوي في مكبر صوت بسماعتين.

في الأدوار العليا، راجعت كل الأبواب والنوافذ ووضعت «شهر العسل»، رالف يتميز غيضاً مرة أخرى وأليس تهز قبضتها في وجهه. شاهدت كاميلاً في الشاشة، ظهرها للكاميرا وهي تُحدّق من نافذة غرفة الاجتماعات. في بعض الليالي تقف هناك لساعات، ملفوفة في ثوب عجيب. ربما كانت قلقة لأن أباهما سيأتي ليأخذها. أو ربما تتمنى أن يأتي. في الشهور التي سبقت خروج تريزا اعتدتُ الوقوف عند نافذة مطبخنا، أشاهد الشارع. أحياناً أرى رفيقها السابق، يقود سيارته ببطء قرب المبنى، محدّقاً في النوافذ؛ حين أذهب إلى هناك يكون قد انصرف دائماً. في مرات أخرى، منتظراً عودتها إلى البيت، أجلس والنور مطفأ أصلي لحين تظهر سيارتها.

بعد أن ركب الأطفال الأتوبيس ذهبْتُ إلى البيت وأظلمتُ المكان ونمتُ في الصباح. حلمتُ مرة أخرى، الحلم الذي رأيته لشهور: أنا في الدور الرابع وقد وجدتُ غرفة لم أدخلها من قبل. النوافذ مفتوحة، وستائر طويلة ترفرف، ولا أعرف إن كان شخص ما دخل أم خرج. أندفع على السلم ولم أكن سريعاً بشكل كافٍ، أتحرك تلك الحركة البطيئة المعذبة. هنا أستيقظ عادة، لكن في هذه المرة كان هناك المزيد. في هذه المرة كان والد ماريانا في الشارع، وماتي تصرخ في من قاع السلم ولا أعثر على بندقيتي. «نهاية الأسبوع!» ظلت تصيح، كأنه لا ينبغي لمثل هذه الأمور أن تحدث، وتحسستُ محفظتي، محاولاً أن أضعها في القاع، وكانت هناك سلالم كثيرة، وكانت قدماي ثقيلتين حتى عرفتُ أنني لن أحقق شيئاً.

كانت ماريانا تتحدث إلى زوجها مرة أخرى، رافعة سماعة التليفون العمومي في الدور الرابع كل ليلة في ذلك الأسبوع. عرفت باحثة حالتها ذلك من مستشار وردية الليل، رغم إنكار ماريانا ذلك أثناء الجلسات.

«إنه النمط القديم»، تقول باحثة الحالة، وهي تهز كتفيتها وأتوبيس المدرسة يبتعد. «ليس لديها حقًا شخص آخر، لا تتمتع بمهارات أو خبرات. تعود إلى زوجها أو تعود إلى السلفادور.» تتطلع إلى الحائط المشيد من الطوب والنوافذ الواقية من الرصاص والسماء الرمادية الغائمة. «أو تبقى هنا.»

يذهب إلى مدرسة كامبلا كل صباح، تقول باحثة الحالة، يعطيها ملاحظات توصّلها إلى أمها. تقول: هكذا تجري الأمور في المرة الأخيرة. اتصلت بالمدرسة، بالبوليس؛ لا أحد يتصرف بمسئولية.

أقول: «هناك ما يمكن أن تفعله.» تتطلع إليّ كأنني بثلاثة رءوس. «لا يمكن أن تعود. أقصد هناك فتاة صغيرة في الموضوع.»

تقول: «أدرك ذلك يا تشارلي.»

قلت: «هل أركب الأتوبيس معهم. وأتأكد أن الأمور تسير في المدرسة على ما يرام.»

تنظر إلى يديها: «للمدرسة حُرّاس أمن.»

«اللجنة على الوظيفة التي يؤدونها.»

«أقول فقط.»

تميل على الحائط، تتطلع إليّ عبر نظارتها. في مثل عمري، وربما أصغر قليلًا، وجهها جميل إذا لم تربط شعرها للخلف، إذا ابتسمت من حين لآخر. يبدو أنفها وكأنه تعرض للكسر من قبل. حين تتحدث لا ترمش عيناها.

أقول: «لا بُدَّ أن هناك ما يمكن أن نفعله.»

«نفعله»، تتنهّد، وتتحدث مباشرة. «نعطيها الاختيارات. نمناها مكانًا يمكن أن تكون آمنة فيه، طالما كانت في حاجة إليه.»

«ماذا عن اختيارات كامبلا؟» أقول، بهدوء بقدر ما أستطيع.

لا ترد الباحثة. ليس سؤالًا مناسبًا حقًا. تربت على ذراعي وتدخل. أعرف من وضع كتفيتها كم هي مرهقة. أحاول تخيلها خارج سكاير هاوس، تسير في منتزه أو تقود سيارة، أو تخرج لموعد، ترشف مشروبًا، وشعرها متهدل حول كتفيتها. لكن كل ما يمكن أن أراه هذا التعبير المنهك، الخطوط في زوايا عينيها تتعمق يوميًا. أشاهد وجهي، وأنا أخلق في

مرآة الحمام. خلفي، شقتي الصامتة، الثلجة الخالية والاستريو المحطّم، ناحية من الخزانة عارية حيث اعتادت تريزا تعليق ملابسها.

حصلتُ على وظيفتي في الملجأ حين فصلتُ ماتي الحارس السابق، ولد لقبه تريفور. لم تخبرني أبدًا بما فعله لتفصله، لكنها قالت إنها كانت تعرف دائماً أنه لن يستمر. في الإشراف كان يضحك ويتحدث بسخرية. قال لماتي: مما يثير السخرية أن نساء كثرات يعلّقن صلباناً في غرفهن. ومما يثير السخرية أن أزواجهن في الخارج، يعيشون حياة طبيعية، وهؤلاء النساء محبوسات مثل المجرمات. قالت: لم يكن ذلك ما يجعله لا يتعاطف معهن. رأى فقط أنهن غير حكيّات، وأنهن مثار السخرية، بأئسات في وضع ساخر بقسوة. لكن السخريات الرخيصة كثرّت في سكاير هاوس ولن تسمح ماتي لك بالتقليل من شأن النساء. قالت لي ذات يوم: «إنه تدمير مؤكد بصورة متبادلة، مثل القنابل بالضبط». شاهدنا فقط عربة الإسعاف تبتعد؛ ابتلعت امرأة قنينة حبوب وانهارت في الاجتماع. قالت ماتي: لا تستطيع منع الناس من تشويه حيواتهم. لا تستطيع حتى منعهم من تشويه حيوات الآخرين، إذا كان ذلك ما يريدونه. كل ما تستطيعه تقديم خيارات لهم، تقديم نسخة مقننة من الحرية، وتراجع وتغطّي أذنك وهم يصرون على ضغط الزر. قلتُ لها: «الآن أقف هناك وألوح ثم تضغط هذا الزر لتسمح لي بالعودة». أشير إليها على الزر ثلاث مرات، حتى تأكدتُ أنها تعرف الزر الصحيح. أقول: «لا لعب في ذلك. ألوح، تضغطين.»

لكن كاميليا تريد أن أكلمها في الاتصال الداخلي. تقول استأذن.

«لا. عليك فقط أن تضغطي الزر. هذا كل ما في الأمر.»

تربع ذراعيها وتلف وتلف في الكرسي. تقول: «لكن تظاهر بأنني لا أعرفك. اسأل إن كان يمكن أن أسمح لك بالدخول.» تتوقف عن اللف، وتضع ذراعيها حول خصري. «من فضلك؟»

ألقي نظرة على الشاشات. لا تزال أبواب غرفة الاجتماعات مغلقة، وكان رصيف المشاة والزقاق خاليين. هوراس في مطبخ الدور الثالث، يأخذ فترة الراحة الأولى. «لا يمكن أن تخبري أحداً قط»، أقول وأنا أريها كيف تفتح الاتصال الداخلي. «سأتعرض لمشكلة كبيرة.» «حسناً.»

«وعد؟» تومئ في هدوء.

وأنا أفتح الباب الرئيسي، ألتفتُ لأتطلع إليها، تجلس في مقعدي، تُحدّق في الحامل، تزم شفّتيها في تركيز. في الخارج على المنحنى، أنتظر بضع ثوانٍ وألوح للكاميرا، أضغط

جرس الباب، أمسك بالمقبض. بعد لحظة، تطقطق السماعة، ولا صوت هناك. تطقطق مرة أخرى، فقط نهاية ما حاولت كاميلا النطق به.

«أنا تشارلي»، أقول في السماعة وأبتسم للكاميرا. أدرك أنني نسيت مفاتيحي في القفص. «هل يمكن أن أدخل من فضلك؟»

ثمة طقطقة أخرى في السماعة، طقطقة سريعة تفتح القفل وتغلقه، أسرع من أن أدفع الباب لأفتحه. أطلع في الكاميرا وأنتظر، تفعل ذلك مرة أخرى — تفتح وتغلق — لا تضغط على الزر وقتاً كافياً لتفتح الباب.

«كاميلا، لا مجال للعبث»، أهمس في السماعة. «افتحي الباب.» لكن حين تطقطق مرة أخرى أسمعها تضحك، وتنطق باسمي. يطقطق القفل، بسرعة كبيرة، تلعب بهذا الزر مثل لعبة لعينة من ألعاب الفيديو، وكأن الأمر كله لعبة. ثم يتوقف عن الطقطقة تماماً.

للحظة كان الجو هادئاً خارج سكاير هاوس. واجهة المبنى مزينة بنوافذ مضيئة، إذا نظر شخص ورآني أقف هنا، إذا أخبروا ماتني بذلك في الغد، قد أودع وظيفتي. «كاميلا، افتحي الباب»، أقول، محاولاً أن أبقى صوتي منخفضاً، أشد الفولان الموقى. «افتحي الباب اللعين أو ستذهبين إلى السجن.»^٧ بدأت أعرق. لا رد، دقيقة أخرى وأنا أقف في الخارج مثل شخص أحمق، ثم يئز القفل بثبات وأدخل مرة أخرى.

«كاميلا»، أقول وأنا أفتح باب الردهة، مستعداً لإبعادها عن الكرسي وإرسالها إلى الأدوار العليا. لكن ماريانا تقف أمام كشكي، تمسك ابنتها بإحكام من ذراعها، تصيح كاميلا، وتخبئ وجهها في ورك أمها، ممسكة بطرف بلوزة أمها في يد وتضرب بقبضة الأخرى ساق أمها. تلتفتُ لتتأمل إليّ، بوجه أحمر بائس، وتصرخ أكثر.

«أرادت فقط أن تعرف كيف يعمل الباب»، أقول، وأنا أنهج، وأشعر بأن عليّ الاعتذار عن شيء. تتطلع ماريانا إلى الأرضية، ولا تزال قابضة على كتف كاميلا. تصل بلوزتها إلى ركبتيهما تقريباً، على بنطلون جينز قديم. تبدو صغيرة جداً، يمكن أن تكون أي واحدة، فتاة جامعية في سكن جماعي، أو أختاً صغيرة لشخص ما. فوق رأسها، الشاشات رمادية وخالية.

تقول ماريانا بهدوء: «فتاة سيئة جداً». تسعل كاميلا وتعطس. «لا تسمع كلامي، لا تسمع كلام أبيها.»

^٧ السجن: بالإسبانية في الأصل.

أقول، متفحصًا الحامل، والكشك: «غلطتي، ما كان لي أن أتركها تفعل هذا.»

«آسفة»^٨ تقول ماريانا. «سأبقيها في الغرفة. لن تزعجك.»

أقول: «كل شيء على ما يرام، لم يحدث شيء يستحق.» أمد يدي وأضعها على رأس كاميليا، تختبئ خلف أمها. ترفع ماريانا عينيها، ولثانية فقط أتخليها فتاة صغيرة، تعود إلى السلفادور، رغم هذا كله. ثم أتخليها فوق، في الدور الرابع، في الغرفة الصغيرة التي تشاركها ابنتها فيها، تحدّق في الزقاق وتتساءل ماذا حدث بحق الجحيم.

أقول لماريانا، التي ترمش لي من باب كشكي: «فتاة طيبة، رائعة جدًّا. مثل أمها بالضبط.»

لثانية بدا أنها توشك أن تبتسم. تخفض عينيها بسرعة، وتنسل من جواربي. تهمهم باعتذار آخر وتقود كاميليا إلى السلم؛ أجلس في مقعدي، أشاهدهما تتحركان في الشاشات، تعودان إلى الدور الرابع، لتكونا في أمان بقية الليل.

في الليلة التالية يصدر الباب الرئيسي صوتًا وأنا وهوراس نتجه إلى الخارج لندخن. أتجمد ثانية، متأكدًا أنه والد كاميليا. عليّ أن أجز على أسناني وأتبع هوراس إلى كشكه. عليّ أن أتذكر أنني محترف، لا أتقاضى أجرًا لأفهم.

لكن الرجل الذي في الخارج أبيض، في الثلاثينيات، يرتدي بنطلونًا من الجينز وقميصًا. يقف ويداه في جيوبه، يصفرّ وينظر للسماء. خلال الشاشات يبدو ودودًا غالبًا، مثل وكيل شركة تأمين؛ إذا رأيت هذا الرجل في سوبر ماركت لن تفكر مرتين. لم نره من قبل، ربما زوج زبونة جديدة، يجس المياه فقط، ليرى إلى أي حد يمكن أن نتركه يفلت دون عقاب.

يفتح هوراس الاتصال الداخلي ويقول: «آسف، لم نطلب بيتزا.»

«أريد أن أرى زوجتي»، يقول الرجل. يتطلع مباشرة إلى الكاميرا، ويميل إلى الأمام فيبدو وجهه أكبر في الشاشة، يتفرع إلى وحدات صغيرة خضراء على الشاشة. حدقتاه ضيقتان مثل خرم إبرة.

يقول له هوراس: «انتهت ساعات الزيارة. أمامك دقيقتان لتنصرف من هنا.» يحافظ على صوته هادئًا وحازمًا، كما تعلّمنا بالضبط. بارع حقًا في هذا، رأيته يضع رجلًا في ذراعه والزوجة تخمش وجه هوراس، فينزف، كل ذلك ولا يرفع صوته. لا أعرف كيف

^٨ آسفة: بالإسبانية في الأصل.

يفعل ذلك، كيف يكبح كل هذه المشاعر. أتساءل إن كانت تخرج حين يعود إلى البيت، إذا كانت هناك عيوب ضخمة في دهان جدران منزله حيث يضرب، مثلما أفعل. يزمرجر الرجل في الكاميرا: «أمامكما دقيقتان وتلعنان يوم ولدتما، إنها زوجتي اللعينة، أنتما خرا.»

الساعة في حامل هوراس الواحدة وثمانى دقائق صباحًا، أُخرج سجل الأحداث لأبدًا كتابة تقرير. يميل هوراس للخلف ويربع ذراعيه، محاولًا أن ينتظر في الخارج. لا تريد أبدًا الالتحام مع زوج، خاصة حين يكون متوثبًا لشيء، مثل هذا الرجل. تحافظ على الأمر بشكل ودي قدر ما تستطيع، ليعرف الحدود، وتأمل في أن يبدي شعورًا طيبًا وينصرف، وهو ما لا يحدث أبدًا تقريبًا.

يقرع الزوج الجرس مرة أخرى، ساحقًا الزر وصارخًا في الاتصال الداخلي. دقيقة وتبدأ النساء في الخروج من غرفهن. سنشاهدن في الشاشة، أشباح في ملابس النوم يزحفن في الردهات. يُصدر الجرس صوتًا في الكشكين فقط، لكن بطريقة ما يعرفن، بما يشبه الحاسة السادسة.

يقول هوراس وهو يُحرِّك عينيه: «لا تجعلني أستدعي البوليس، تصرَّف بشكل أفضل.»

يقول الزوج: «أحطم هذا الباب وأركلك في مؤخرتك»، ويبدأ قرع الباب بعنف، يضربه بكتفه. «تسمعني يا ملعون؟» يصرخ مشيرًا بإصبعه إلى الكاميرا. «حين أدخل أسحق رأسك وأتبرز على عنقك. أريد أن أرى زوجتي اللعينة!»

أقول: «نقطتان من أجل التبرز على العنق. هذا الشخص مبدع.»

«أجل، شاعر حقيقي»، يقول هوراس، ويتناول التليفون. هناك نساء في الردهات الآن، يتهامسن بين أنفسهن، يدفعن أطفالهن للعودة إلى الغرف. سينتهي هذا كله في خمس دقائق حين يصل البوليس. الشيء الوحيد الذي يجب القلق بشأنه إن كان الزوج سيُلقي نظرة على زوجته أم لا. إذا ذهبَ زوجته إلى النافذة، وتطلَّع الزوج إلى أعلى ورأها، انتهت كل الرهانات. رأيتُ زوجًا يزن ١٤٠ رطلاً يتغلب على ثلاثة من رجال الشرطة بعد أن رأى زوجته في النافذة. رأيتُ رجلًا يشق طريقه إلى الدور الثالث بتسلق واجهة المبنى، كانت زوجته تضرب على الزجاج محاولة أن تضع ذراعيها حوله. لم أستطع التوقف عن التفكير في أنه لم يكن إنسانًا، لا يتصرف البشر عادة بهذه الطريقة. شاهدتهُ في الشاشات، يقبض على الطوب حتى جاءت وحدة المطافئ، وكانت زوجته محجوزة بواسطة المستشارين، لم

يكونوا بشرًا، كانوا أشبه بفراشات تلف حول مصابيح، تقودهم غريزة فطبيعة لا يمكن السيطرة عليها.

هذا ما لا تقوله لي تريزا، لم تستطع التوقف عن العودة إلى رفيقها السابق، مرة بعد أخرى. شيء غير قابل للتفسير. قوة الطبيعة. كنا معًا لعامين، وقالت إنها تحبني، ولم أشعر بذلك قط. كانت مجرد كلمات حين تقولها، بلا قوة.

يندفع رجال الشرطة أخيرًا، وبعد صراع اضطراري — يبصق الزوج في وجه أحدهم، يضربونه على كُبُوت السيارة، ساقاه وحشيتان ومرنتان، يصفعونه — الأمور تحت السيطرة. نُلقي أنا وهوراس قطعة عملة لنعرف من منا يذهب ليُهدئ النساء. أخسر، وأتسلق السلم إلى الدور الثاني، حيث لا يزلن يهمسن في الردهة ويحدّقن من النوافذ. لوسيل جونسون على التليفون، ضاربة بيدها على الحائط، ووجهها ملطخ بكريم بارد. أخبرهن بأن كل شيء على ما يرام، وعليهن أن يعدن للنوم. أبقى يديّ مفتوحتين على جانبي كما أرّنتي ماتي. أحافظ على مسافة مقبولة. هؤلاء النساء يعرفنني، يعرفن أنني لا أؤذيهن، لكن المسألة لا تتعلق بما يعرفنه. أتحديث بهدوء، وأبذل قصارى جهدي حتى لا أنظر إلى أبواب الحمام المفتوحة، أو ملابس النوم الرقيقة أو البنطلونات البالية، ابتسامة الخجل من امرأة تميل إلى الحائط وتحاول إخفاء جبيرة على رسغها.

«من كان يا تشارلي؟» يسألن وعيونهن عصبية مستتارة. يمسكن بذراعيّ ويسألن: «هل يعود؟ أين ماتي؟» لا أعرف زوج من منهن، يبدو الأمر وكأنها نامت أثناء ذلك، إذا رأت زوجها تحت، ربما كانت ليلة أطول بكثير مما كانت.

حين انتهيت أخيرًا من إبعاد الجميع عن الردهات أتذكر السجارية في جيب قميصي. سترَاجع ماتي شرائط أمن الليلة، وهكذا أفتح باب غرفة اجتماعات الدور الرابع، أبحث عن علبة كبريت. بمجرد الدخول أشعر بنسمة باردة — تَرَكَ شخص النافذة مفتوحة من جديد — وكنتُ في منتصف الغرفة قبل أن أشاهد ماريانا تقف في الظلام، وملابس النوم تموّه وجودها مع وجود الستائر. تقف في البقعة التي تقف فيها كاميلًا دائمًا، وتلف ذراعيها حول جسمها، ووجنتها رطبة في لون فضي محمر من نور الشارع.

«هل أنت على ما يرام؟» أسأل بهدوء. أمد يدي للمس كتفيها وأترّاجع. تومئ ماريانا. أقول لها: «انتهى كل شيء. ليس هناك ما يثير الخوف.»

أُغلِقُ النافذة وأبحث عن بطانية أو روب أضعه عليها، لا شيء هناك. على الزجاج انعكاسات خفيفة، تجعل وجهها يبدو مزدوجًا، والظلام الذي يظهر خلفها أنا.

أسأل: «تريدين شيئاً؟ هل يمكن أن أساعدك؟» وأنا أقول ذلك أسمع صوت ماتي في رأسي، لكنني لا أوّمن بما تقول. لا أوّمن بأنك يمكن أن تساعد إنساناً آخر بالأّ تساعد. إن ذلك يبرر أي إحساس.

«أنت رائع جدّاً»، تقول ماريانا بصوت يُسمَع بالكاد. عيناها متورمتان من البكاء، الضوء على وجهها يجعلها تبدو صغيرة وبريئة. «كاميلا تحبك. تقول إنك ذكي جدّاً».

أقول لها: «بارعة. إنها فتاة صغيرة متألّقة».

ماريانا لا تتطلّع إليّ: «من أبيها. إنه ذكي جدّاً».

أعرف أنه لا ينبغي أن أقول شيئاً لكن لا حيلة لي في الأمر. أقول لها: «لا أعتقد أنه بارع جدّاً».

تبدأ في قول شيء وتتوقف، أرى أنها تمسك بشيء، إطار صورة تضغطه على بطنها، قماش ثوبها مشدود على جسمها. لا أحتاج إلى النظر لأعرف لمن الصورة. لا صوت في الغرفة، إلا صوت ارتفاع صدرها وهبوطه، صفارة إنذار في مكان ما من المدينة، تعطيتها لي.

«كنتُ في السابعة عشرة»، تقول، وهي تعطيني صورة الزفاف. عيناها سوداوان وصافيتان، شعرها ملفوف خلف أذن صغيرة ليس بها حلق. وكل منا يحرق في الآخر أدرك أنها لم تفزع من الجلبة التي حدثت في الخارج. لم تخف، تبكي لأنه ليس زوجها، لأنه لم يكن الشخص الذي حاول اقتحام المكان ليأخذها إلى البيت. تدفع الإطار إليّ، والنقت نظرتها بنظرتي أخيراً، واحتياجه إليّ لأنظر إلى الصورة، لأرى ما تراه، قوة تماس بيننا، نوع جديد من الجاذبية، يتنافر جسدان ويتجاذبان في الوقت ذاته. أطلع إلى كاميرا الأمن في الزاوية، يرتعش الضوء الأحمر الواهي ببطء، آخذ رسغيها وبرقة أدفعهما جانباً، جلدها دافئ على يديّ، تحك مفاصل أصابعي في قماش ثوبها.

أفتح فمي وكل ما يخرج، همساً، «كاميلا» نفق متقاربين أكثر مما ينبغي، شيء ما يدفعنا إلى التقارب أكثر، ينبغي أن أبعد يدي، لا أفعل. نأخذ نفَساً، ولا أعرف إن كنتُ سأميل في اللحظة التالية وأضغط شفّتيّ على شفّتيها أو آخذ عنقها الصغير الشاحب بين يديّ. لا أعرف ما يسيطر عليّ، لكن الصورة واضحة تماماً، بارزة تماماً، أبعدت يدي وتراجعتُ خطوة، يسقط الإطار على قدمي ماريانا ويتحطم.

«لا تحركي»، أقول لها، يقطّ الآن، أنحني لأمسك بالإطار، أجمع الحُطام في راحة يدي. «ابقي هنا. لا أرى هذا كله، اللعنة»، أقول لماريانا، وأصابع قدميها الحافيتين على بُعد بوصات من أصابع يدي. «اسندي يدي. أحملك وأخرجك أو أقوم بشيء ما».

في المدخل أتوجّه، انجذبت لصوت العنف. أنا على يديّ وركبتي، أمرّ أطراف أصابعي على السجادة، شظايا غير مرئية تدخل في جلدي. تنزع ماريانا الإطار من يدي وتمشي، برغم تحذيراتي، بجواري مباشرة بقدميها الحافيتين. أريد أن أمد يدي وأمسك بذراعها، أدفعها إلى الخلف، أسأل عما يجعلها تفعل ذلك. أبقى عيني على السجادة، متلفتاً حولي بغباء، كل ما أراه رفرفة القطن، وميض سمانتيها وهي تغلق الباب خلفها.

بضعة أيام بعد ذلك، لا تنزل كاميلا لتركب أتوبيس المدرسة مع الآخرين. نقف أنا وهوراس في الشمس، صباح رقيق في أوائل الربيع، أرى أوجه الأطفال يمرون بجواري. حين يُغلق باب الأتوبيس، أرفع حاجبي لباحثة الحالة، تهز كتفَيها وتبتعد، مُتّجهة إلى الأدوار العليا قبل أن أصل إليها.

«تدخن؟» يقول هوراس ويمد يده في جيبه. يتحرك عَرَضاً بيني وبين الباب. يخرج الأتوبيس من الزقاق، تنعكس أشعة الشمس على النوافذ الخلفية.

أقول له: «أعتقد أنني سأذهب لأعرف مشكلة كاميلا»، يشد كوعي وأنا أحاول الابتعاد. يقول: «دُخْن سيجارة أولاً. ستذهب خلال بضع دقائق.» يده على ذراعي ودودة وحازمة، تعبيره حيادي متعمد. أعرف ذلك التعبير، رأيته على وجهي وأنا أتردب عليه في المرايا.

أقول: «ماذا يحدث؟»

يتطلع هوراس باتجاهي: «ماذا تقصد؟»

في منتصف الطريق على السلم أسمع صوت ماتي في الردهة الأمامية وأعرف أن شيئاً فظيئاً حدث. أصدع السلم درجتين درجتين، ويدي مطبقتان، متسائلاً كيف أخطئ هذا. على قمة السلم أحدّق تقريباً في أربعة أشخاص يقفون خارج كشكي.

«صباح الخير، تشارلي»، تقول ماتي، وهي تخطو نصف خطوة إلى الأمام لتنظر في عيني. «هل يمكن أن تنتظر لحظة في مكتبتي من فضلك؟»

قبل أن أنطق بكلمة، تجري كاميلا إليّ وتلف ذراعيها حول ساقَيّ، ضاغطة وجهها في وركي. تنادي أمها عليها، لكنها تشبث بي، متنفسة في رجلي. لا يقول أبوها شيئاً، يعبس ويتطلع إليها من فوق شاربه، وهو يمسك بيد ماريانا. تقول ماريانا شيئاً بالإسبانية ويومئ. إنه أقصر من زوجته، يرتدي بنطلوناً أسود مكويًا وقميصاً وربطة عنق. تمسك ماريانا بورود على صدرها. حقيبتها بجوار الباب، وحقيبة الظهر الصغيرة، حقيبة كاميلا، فوقها.

«كاميلا، انظري»،^٩ تقول ماريانا، صوتها أكثر ثباتاً مما كنتُ أسمعها.
تنطق ماتي باسمي مرة أخرى، لا أنظر إليها. يدي تستريح على رأس كاميلا، تداعب شعرها.

«انظري يا ابنتي»،^{١٠} يقول الزوج. تتطلع كاميلا إليّ، تريدني أن أخبرها بما عليها فعله، لم أنزل عيني عن أبيها. أخيراً، تذهب وتلحق بأبويها. ينحني والدها ليهمس في أذنها. تهز رأسها، يلفها، يرغمها على أن تعطي ظهرها لي.
ترجم: «قال شكرًا على صداقتك». تضع ماتي يديها في خصرها، تنظر إليّ بتمعن، لكن لا أحد يتحكم فيما هو على وشك الحدوث، ناهيك عني.
أقول: «أخبريه بأنني لستُ صديقه».

تبدأ كاميلا في المهمة. تقول: «لا، غبي. صديقي أنا».
تبدأ ماريانا قول شيء، أخذتُ خطوة إلى الأمام، منسحبًا إلى أعلى، وكأنني أرى ما يحدث، كأنني أشاهد الأمر كله، هذا الحيوان اللعين ينكمش مني، محاولاً أن يرفع ذراعيه، لكن ليس في الوقت المناسب، وألم وجهه أمام يدي المفتوحة يبعث رجفة في أعماقي، الصفعة الحادة تدمد في الهواء وهو يدور نصف دورة، ينزل على الحائط، يتعثّر في حقيبة زوجته وينبطح أرضاً. أقف جواره، أنتظر أن ينهض، أنتظر فقط، تبكي كاميلا، يصيح الجميع، يبدو أن ذلك كله يأتي من مكان آخر. هذه اللحظة ليس فيها إلا أنا وهو، يُحدّق كل منا في الآخر، أحدهما أقوى من الآخر، نتشابك في لحظة اتصال تام.

«الآن فعلتها»، يقول صوت من خلفي، هناك أذرع تلفني في حضن أخرق. يرفعني هوراس عن الأرض تقريباً، ويدفعني إلى الحائط البعيد. يقف على بُعد بوصات مني، يحتويني دون غضب، تهز ماتي رأسها وماريانا تحمي ابنتها التي تبكي، تناثرت الورود على الأرضية.

«قف هناك»، يقول هوراس بهدوء، وهو يحجز صدري بذراعه. «لا تتحرك..» يمد يده ويفك حزامي، يُزيل حافظة الرصاص، تُحدّق وجوه من أعلى السلم، تهمس أصوات مشدودة. أقف وراحتاي مفتوحتان على الحائط، وحلقي مغلق لا أستطيع البلع، ووالد

^٩ انظري: بالإسبانية في الأصل.

^{١٠} انظري يا ابنتي: بالإسبانية في الأصل.

كاميلا ينهض وينظف ملابسه، ويصل إلى ذراع زوجته. من الصعب معرفة مَنْ يسند على مَنْ.

تفتح ماتي الباب فتغمر اللوبي أشعة الشمس. تحمل ماريانا ابنتها الباكية، وذراع زوجها حولهما وهم يخرجون من سكاير هاوس. على كتف أمها، تتطلع كاميلا إلى مرة أخيرة، ووجهها ملطخ بالدموع، وعيناها مفتوحتان في حالة خوف. يغلق الباب ويعود هوراس، لا يزال حذرًا، مستعدًا لإعاقتي إذا حاولتُ المضي خلفهم. «خرا، تشارلي، بحق الجحيم ماذا تعتقد؟» يقول، محاولًا التواصل معي بعينه. يبدو صوته وكأنه يأتي من نفق. «تعرف أن ذلك اللعين سيأخذها.»

هناك صخب على بسطة السلم، نساء يُصَفَّقْنَ، يستهجنّ، ويهنئن. «أنت بطلي يا تشارلي!» يأتي صوت لوسيل جونسون. أعود إلى كشكي، ببطء، ويداي في الهواء ليعرف هوراس أنني لم أعد أُمثّل خطرًا. أجلس إلى الحامل وأجدهم في الشاشات، أراهم ينتقلون من كاميرا إلى كاميرا، ووجه كاميلا مدفون في كتف أمها، وذراع أبيها حول ظهر أمها. تثبت الصورة من شاشة إلى أخرى، تتغير الزاوية حين تلتقطهم كاميرا جديدة، وهكذا بدا لثانية كأنهم عائدون.

بسرعة ابتعدوا عن الكاميرات. أرى ماتي في المنحنى، تحبس أنفاسها، تنتظر أن تدخل وتوبخني. أسمعها تفعل ذلك، ذلك الصوت العملي تخبرني بأن ذلك لمصلحة الملجأ. لا يمكن أن ألومها. لم أترك لها خيارًا.

تقول إن ذلك لمصلحتي أيضًا. تبتسم بوهن وتقترح أن أفكر في الحصول على استشارة. تقول إن الأمر يرجع لي في أن أقرر ما أفعله الآن. وتطلب المفاتيح وتطلب مني ألا أعود أبدًا. لكن في البداية تُدخلني إلى مكتبها وتغلق الباب، ومن درج المكتب تخرج شريط الليلة السابقة. تسألني إن كنتُ أعرف ما يحتوي عليه هذا الشريط فأومئ، عاجزًا عن النطق بكلمة. ثم تضع الشريط في الجهاز وتخرج، وتتركني وحيدًا في مكتبها الأنيق الخالي من النوافذ. وهي فوق، تعيد كل شيء إلى وضعه الطبيعي، أشاهد الشريط مرة ومرة، وأنا أجلس قرب الشاشة وأحدّق في الصورة غير الواضحة لرجل، يقف خارج الملجأ يدخل الباب. أظل أدوس على زر الإعادة، وأشاهده إلى الأمام وإلى الخلف، وأتساءل إذا كان ذلك ما أبدو عليه حقًا في العالم الرمادي المسطح خارج الباب.

الغرباء

تأليف: أرييل دورفمان^١

وأورلاندو يمر بالرجل، نظر إلى الرجل نظرة طويلة متفحصة. حتى رغم أن كارينا ظلّت تطلب منه ألا يفعل ذلك، لا أبالي، قالت منذ بضع دقائق، إذا كان الناس هنا في إسبانيا أو في أمريكا اللاتينية يفعلون ذلك دائماً، هذا عمل فظ، يا أورلاندو، فظ حقاً، يا إلهي، حاول أن تؤمن بأنك ستعود إلى الولايات وتتصرف ... حتى رغم أن كارينا نفسها، صديقة في نصيحتها الجديدة، استعجلها الرجل الذي يقف في مدخل المبنى السكني القديم، متجنباً بتصميم إغراء النظرة، وحتى الوثبة الجانبية الخفية من العينين، لا شيء.

لا حيلة لأورلاندو في ذلك. يُحدّق دائماً في الناس، يقيّمهم، قال، مفتوناً بما قد يكون خفياً ومكتشفاً، بما يكمن خلف ملامحهم، حتى إذا كان يعرف أنه لم يستطع قط فك أسرار كائن بشري آخر كما تستطيع كارينا، ليس حتى إذا استغرق بدلاً من ثلاث ثوانٍ عابرة ثلاث ساعات أو استغرق الأبدية ثلاث مرات لفحص الوجه، مُدرّكاً في أسى وهو يمر ويلتفت برأسه بسرعة في اتجاه الرجل إنه سينسى كل تفاصيل هذه الخبرة غالباً بمجرد انتهائها، مدرّكاً أنه بعد ساعة، في الحقيقة بضع دقائق، لن يكون في ذاكرته أثر لها.

^١ أرييل دورفمان Ariel Dorfman (١٩٤٢-؟): كاتب أمريكي تشيلي من أصول أرجنتينية، روائي ومسرحي ونشط في مجال حقوق الإنسان. والعنوان الأصلي للقصة Gringos، وهي كلمة للاستهجان يوصف بها الغريب في أمريكا اللاتينية وخاصة الأمريكان والإنجليز.

في هذه الحالة، ينجذب للرجل لأن الرجل في موضع غير مناسب في ذلك الشارع المهجور في برشلونة، شارع يختلف تمامًا عن أي شارع رآه أورلاندو في أي موضع من هذه المدينة أو في أي مكان آخر في كتالونيا،^٢ رجل قصير ممتلئ، بدين تقريبًا، بوجه قمري، مدور تمامًا تقريبًا، بلمحة من شكل فليبيني، أو ربما الملايو، مُهَجَّن مع ... ماذا أيضًا؟ ربما أثر من شيء ما شبه زنجي أو ربما ينحدر من هنود أمريكا الجنوبية، خليط من المستحيل تحديده، خالٍ من التعبير بالطريقة الشرقية ومهذب إلى حد ما، ربما بسبب النظارة السلك على أنفه القصير أو الصوت الحزين الذي يُشبه صوت الطفل الذي يستخدمه الرجل لينادي شخصية اسمها فرنشيسكا في الاتصال الداخلي الصدى في المبنى، كأن الرجل يعرف — أو أن أورلاندو يقوم بعملية إسقاط مرة أخرى، مرة أخرى يسمح لمخيلته بأن تشطح؟ — أنه ليست هناك فرصة لتفتتح فرنشيسكا الباب، كأن المرأة التي تدعى فرنشيسكا غير موجودة، مجرد كينونة استحضرها الرجل ليعتقد أن لديه شخصًا، أي شخص، يمنح جسمه ملجأً في هذه الأمسية الخريفية الغائمة.

حينذاك، بالطبع، مرَّ أورلاندو وكارينا وكانا في طريقهما، يبحثان عن أقصر طريق إلى لابوكيريا، السوق الرئيسية النشطة في برشلونة، وإغراءات شارع الرمبلا كتالونيا خلفها. لكن ليس قبل أن يستحوذ الرجل، في اللحظة الأخيرة، على نظر أورلاندو. ليس قبل أن يفهم الرجل أن أورلاندو حاول أن يلتهمه بعينه، مُقَحِّمًا الرجل في خبرة بسيطة ربما من حيث لم يتوقع قط، نفخ عنه الغبار، ووضعه في الواجهة. لا بُدَّ أن الرجل خَمَّن بالتأكيد الشفقة التي زحفت في عيني أورلاندو وهما يتجنبان عينيه وهو يواصل مع هذه المرأة المتألقة التي تهز ردفها؛ كأن الرجل البائس، في رأي أورلاندو، لا ينتمي لمكان على هذه الأرض أو حتى على الأقل في برشلونة، وبالتأكيد ليس أمام هذا المبنى السكني حيث لا فرنشيسكا الخفية في المجالات العليا أو أي شخص آخر يُقدِّم له السلوى، لا يرافقه إلا الوميض الزائل في عيني أورلاندو.

لكن لم يكن أورلاندو هو الذي أدرك، بعد بضع خطوات، أن الرجل ينادي عليهما، على كارينا خاصة، وتبين أن كارينا سمعت النبرة البريئة لذلك الصوت الآتي من خلفها، ربما لأنها لم تهتم بمن قد يكون صاحب الصوت، لم تلاحظه أو تُحدِّق في اتجاهه بوضوح. فيما بعد تساءل أورلاندو كيف لم ينتبه لهذا النداء، كم كان غريبًا ونموذجيًا حتى كان عليه

^٢ كتالونيا Catalonia: منطقة في جنوب شرق إسبانيا.

محو هذا الرجل من ذاكرته فوراً بعد تلك الثواني الملحة في اتصال عابر، ويندفع أورلاندو إلى الخبرة التالية، النظرة الحادة التالية وإعادة ترتيب الأمور فوراً والنسيان السريع لحياة إنسان غريب. وربما كان التفسير أبسط: التفتت كارينا حين نادى الرجل لأنها موضوع اهتمامه، الكلمات موجّهة إليها، قال شيئاً من قبيل «سيدتي، سيدتي»،^٣ مُكرّراً الكلمات بإلحاح هادئ حتى لم يكن من الممكن تجاهل نبرة التحذير. التفتت حولها ورأت الرجل، يحوم قُرب العتبة، ويتقدم فجأةً باتجاههما مثل دب ضخم ساذج، يشير بإصبعه إليها، مُهمّماً بشيء بدائي بلغة ربما كانت الإسبانية (أو الكتالانية؟ أو الإيطالية؟) ويومئ إلى سويتز تُلْفَه كارينا حول عنقها. حدث شيء هناك.^٤ حدث شيء هناك، حرك المترجم الآلي في رأس أورلاندو. وتفاعلت كارينا في هلع، شعرت بحشرة — عنكبوت، عنكبوت — صرخت وفكت السويتز الأسود القطيفة عن جسمها ببراعة وليدة الخوف، ودفعته يدها المرتجفة باتجاه أورلاندو الذي، بدوره، مدّ ذراعه به إلى الرجل، وقد وصل إليهما وأخذ يشرح: لا، لا، عنكبوت،^٥ لا، لا. ليس كذلك، ليس عنكبوتاً، أشار إلى شريط من مادة بنية لاصقة يمسك بالقماش.

احتفظ أورلاندو رغم ذلك بالسويتز على مسافة آمنة، حتى حين استدعى رائحة واهية بعيدة من الخرا، لا بدّ أن طائرًا بارك سويتز كارينا من فوق إحدى أشجار حديقة مونتجوك^٦ التي زارها للتو، حدث استثنائي لأنه هو وكارينا امتدحا قبل نصف ساعة تناسق الطيور الخيالية العابثة في لوحات متحف ميرو وتماوج اللون الباهت على قطيفة السويتز الأسود لا تختلف عن المخططات والخطوط التي استمتعا بها حديثاً في اللوحات. لكن لم يكن وقتاً مناسباً — ويخّ أورلاندو نفسه تقريباً — بسبب هذا النوع من التداعي. كانت هناك المسألة الحاسمة، مسألة الخرا نفسه واستمرار تفاعل كارينا بشكل هستيري، الذي حير الرجل وأربكه حتى أشار بإصبع نحيل مدهش إلى مبنى عبر الشارع، قائلاً لأورلاندو هناك مياه، لا توجد مياه،^٧ ناطقاً كل كلمة ببطء وتأنٍ كأنه يتحدث إلى أطفال

^٣ سيدتي، سيدتي: بالإسبانية في الأصل.

^٤ حدث شيء هناك: بالإسبانية ثم بالإنجليزية.

^٥ عنكبوت، عنكبوت: بالإنجليزية ثم بالإسبانية. لا، لا، عنكبوت، لا، لا: بالإسبانية في الأصل.

^٦ مونتجوك: حديقة على هضبة في برشلونة. ميرو (١٨٩٣-١٩٨٣ م): رسام إسباني.

^٧ لا توجد مياه؛ مياه: بالإسبانية في الأصل.

أو أناس غرباء على اللغة، مياه، قال مرة أخرى، ثم حدّد بإيماءة أخرى أن الطائر لم يلوث السويتر فقط بل لوّث أيضًا قميص أورلاندو وبنطلونه الجينز الأزرق، رغم الطريقة التي تحدّث بها الرجل، اعتقد أورلاندو أن الرجل يتسم ببعض السذاجة، كان بريئًا بالتأكيد، يشع بحاجة طفولية إلى تقديم خدمة، وكانت في ذاتها مريحة تستحق الترحيب في هذه المدينة حيث الناس متحفظون وغير مباينين ويتصرفون بشكل سيئ جدًّا مع أي شخص ليس من أهل البلاد، كأنهم يكرهون فكرة مخاطبتهم وربما أكثر، على ما يبدو، حين أدرك الكتالانيون أن أورلاندو وكارينا من أمريكا الجنوبية ومن ثمّ يتحدثان باللسان الإسباني الإمبريالي الكريه. اقترحت كارينا بشكل ساخر: ينبغي أن نتكلم الإنجليزية ونتظاهر بأننا لا علاقة لنا بالإسبانية، تبدو غريبًا على أية حال، لكن أورلاندو لم يتوقع رد فعل من هذا القبيل في مدينة يتحدث فيها الجميع الإسبانية، أربكته درجة العداء. ليس الموقف مع هذا الرجل، بحال من الأحوال، الذي يتوسل تقريبًا لتقديم المساعدة لهما، كأنه يلوم نفسه على ما حدث، حتى لو تبيّن تمامًا من النبذة الحيادية واللهجة المبهمة لكلماته — كما لو كان جلده ووجهه الآسيوي المستدير لم يكشف الحقيقة بالفعل — إنه لم يكن أصلًا من برشلونة. قال: التنظيف صعب هنا،^٨ يمكن أن ينظفوا ملابسهما فوق هناك، في ذلك المبنى فوق هناك. كان على أورلاندو، وربما كارينا أيضًا، أن يقرر قبول الدعوة على أنها رغبة عادية تمامًا ليتجنب إهانة الرجل، لكن الدافع الفوري أتى من نكتة قدّمتها الرجل، نكتة ضعيفة، ليتأكد، لكنها رغم ذلك محاولة أخرى ليؤكد للثنتين سذاجته وهشاشته، ردًّا على تعليق أورلاندو: لا بدّ أنه كان طائرًا كبيرًا بزائدة مثل فيل، النوع الذي يمنح ويأخذ، النوع الحميم غالبًا والملائم بالتأكيد، وهكذا حين وجدا نفسيهما منقادين إلى العتبة المفتوحة عبر الشارع الضيق ودخلا في مدخل^٩ مظلم ممتلئ بمواد بناء متناثرة في كل مكان، لم يعترض أورلاندو أو كارينا. أي شيء، فكر أورلاندو، لتهدأ كارينا. وإذا كان المناخ الكئيب شديد الرطوبة، في ظروف أخرى، أجم ظنونهما، فقد بددت الأفعال الخرقاء التي أتى بها الرجل شكوكهما قبل أن يستوعباها. عارضًا الذوق نفسه وشفافيةً بلهاء غالبًا، التقط قطعًا من جريدة ملقاة على الأرض ناسيًا على ما يبدو عرض الماء الذي قدّمه وربما ارتبك من حقيقة أنه لم يكن هناك، بشكل غير قابل للتفسير، أثر لحنفية أو شيء من هذا القبيل في أي مكان

^٨ التنظيف صعب هنا: بالإسبانية في الأصل.

^٩ مدخل: بالإسبانية في الأصل.

في المنطقة المحيطة بمدخل ردهة المبنى، وتقدم ليستخدم الورقة في تجفيف ملابسهما، هنا وهنا وهنا، قال، محاولاً ألا يكون متطفلاً، حريصاً على ألا يلمس الجلد أو يضغط اللحم، نموذج من الاهتمام. ظل أورلاندو يهتمهم شكراً، شكراً،^{١٠} مرتباً هو نفسه من هذا العطف، عاجزاً عن تصديق أن شخصاً في هذا اليوم وهذا العصر يمكن أن يلوث أصابعه بفضلات طائر ليريح شخصاً غريباً، لكن الرجل لم يكن ذكياً بالضبط، يمكن للمرء أن يغامر ويقول إنه بليد بعض الشيء.

فتشت كارينا، بكفاءة كالعتاد، في حقيبة يدها وأخرجت بعض المناديل الورق. أخذ الرجل بعضها وأعطى واحداً لأورلاندو، طالباً منه بطريقة لا تزال طفولية أن ينظف زوجته، واحتفظ ببعضها لنفسه ليعمل بجد في تنظيف قميص أورلاندو وبنطلونه الجينز الأزرق.

بمجرد شعور كارينا بأنها نظيفة بشكل كافٍ، فحصت أورلاندو، ووجدت بضع بقع صغيرة، وتركتها في حالها. لم تتبقْ مناديل. خادمة رجفة — فكرت: كأن هناك حشرة تزحف تحت أظفاري — ألقَتْ بالمناديل المستخدمة في ركن في ظلمة ردهة المبنى، وتركتها بين ركام من الطوب والنفائيات المتنوعة، نعم، حتى الفراش القديم البالي.

«علينا أن نغتسل»، قالت كارينا لأورلاندو بالإنجليزية، لكن زوجها، بدل أن يرد، التفت إلى الرجل وسأله، متحدثاً بالإسبانية، عن اسمه. أجفل الرجل، بدا مذهولاً تقريباً لأن هناك من يهتم بشيء في أهمية اسمه، تغلب على انزعاجه وأعلن مبتسماً بخجل للمرة الأولى «جوان». نطق أورلاندو باسمه وقدم كارينا، هذه زوجتي،^{١١} زوجتي، وصافح الرجل الذي دعا نفسه جوان، ووقف الثلاثة جميعاً بعض الوقت في الدوامة المظلمة في ردهة المبنى، كأنهم يعرفون ما يفعلونه، انتهت ضجة النشاط البري الذي استهلكهم في الدقائق الأخيرة المفزعة. «نحن من تشيلي أصلاً»،^{١٢} أضاف أورلاندو، لم يتفاعل جوان مع معلومة أن الاثنين اللذين صادقهما من تشيلي أصلاً، أو على الأرجح، كما اعتقدت كارينا، بدا أنه لا يصدقهما، ويعتبرهما، أو على الأقل أورلاندو، بشعره الأشقر وجسمه الطويل، غريباً مثالياً، بأحذية ليفس ونايك. أو ربما كان جوان غيباً — أقصد، رغم كل شيء، يقضي وقته مُقدِّماً العون

^{١٠} شكراً، شكراً: بالإسبانية في الأصل.

^{١١} هذه زوجتي: بالإسبانية في الأصل.

^{١٢} نحن من تشيلي أصلاً: بالإسبانية في الأصل.

لغرباء رائعين لوثتهم طيور برشلونة — لا يعرف موقع تشيلي، لا يعرف حتى أنها دولة في أمريكا اللاتينية على بُعد آلاف الأميال إلى الجنوب، في النصف الآخر من الكرة الأرضية. «هل تحب أن تتناول مشروباً معنا»، قال أورلاندو، مما أثار استياء كارينا؛ لا تستطيع القول إن جوان لا يحتاج الشكر بهذا الشكل المسرف في العاطفة، كما اعتاد أورلاندو المبالغة في ذلك، معتقداً ضرورة رد كل جميل في الحال، أو ربما كانت مناورة اعتاد عليها أورلاندو للتنقيب في الحيوانات الغريبة التي تصادفه، ليضيفها إلى مجموعته، في صراع أبدي ضد النسيان. لم يكن هناك، بحال من الأحوال، ما يمكن أن تفعله كارينا فيما يتعلق بهذا سوى أن تتعاون وتصرّ على أن جوان، بدون جدل، يجب أن ينضم إليهما ببساطة، كان لطيفاً ورائعاً للغاية، رغم انقشاع الحذر الذي غمر عيني جوان خلف نظارته بسرعة. لكن صديقهما الجديد ردّ بنعم، بالطبع، شرف، وأضاف، نحتاج جميعاً إلى أن نغتسل.

ساروا إلى الركن في صمت وكانت هناك حانة صغيرة يلعب فيها بعض الكتالانيين المسنين الكوتشينة. اختارت كارينا طاولة قُرب المدخل وشاهدت أورلاندو وجوان يذهبان إلى الحمام وحين عادا، ذهبت إلى غرفة السيدات وأخذت تنظف نفسها، واشمأزت من فكرة أن إسهال الطيور ربما نفذ من المناديل إلى أصابعها. كانت آثار القذارة على السويتير والبلوزة، جامدة وجافة، وكارينا لا تريد أن تُقرب أي شيء من هذا، الأصابع أو السويتير أو أي شيء، إلى أنفها، يائسة من التخلص منها، بعيداً عن بشرتها، وبعيداً عن ذكرياتها. أوه يا إلهي — فكرت في هذا وهي تحاول محو البقع وصَبَّ المزيد من المياه عليها — وكان عليها أن تعود لاستضافة هذا الرجل الغريب وتذكر، في وجوده، مدى شعورها بالتلوث. انتابتها رغبة فجائية في التبول لكنها نظرت إلى التواليت بنفور وقررت ألا تخاطر باستخدامه. كانت رائحة المطهّرات في الحمام، تتخيل أنها تختلط ببقايا الطيور التي سقطت عليها، كانت كثيرة جداً، حاولت التوقف عن الأفكار السخيفة، ساهرة من أسنانها الرائعة في المرأة، وتنفست بعمق، بعمق شديد.

في الخارج عند الطاولة، يرشف زوجها وجوان القهوة بالحليب^{١٣} بحرص، وفي انتظارها كوب قهوة يتصاعد منه البخار. يعرف أورلاندو دائماً ما يطلبه لها وفي أي وقت من اليوم، بعد سنوات طويلة قضياها معاً، الكثير من الفناجين والحانات ووجبات العشاء والفظور منذ غادرا تشيلي، والكثير جداً من الطاولات.

^{١٣} القهوة بالحليب: بالإسبانية في الأصل.

بدأ أورلاندو يملأ الصمت، كما كان يفعل دائماً، كارهاً اللحظات الثقيلة الطويلة التي لا يتكلم أحد فيها. حدثت جوان عن زيارته الأولى لبرشلونة، وهو في التاسعة. صعد أورلاندو وأسرته المونتجوك، بالضبط كما حدث اليوم — لكن لم يكن هناك خرا طيور، أضاف، لم يكن هناك خرا على الإطلاق — وأكثر ما يتذكره معرض مبهرج ومتاهة من الشجيرات، وكيف حاول أن يصل إلى مركز التيه ويضرب الجرس، وفعل ذلك قبل أن يعثر أخوه الأكبر على الطريق. استغرق أورلاندو بولع في ذكرياته عن عودته ليلقي تهنئة والديه.

قال جوان: «هل كنتُ دائماً ولداً بارعاً؟» قالها ببلاهة، بحماقة تقريباً، كأنه يسعى إلى تعليق، كأنه لم يستمع إلى القصة. كأنه يريد أن يكون في مكان آخر، ترى كارينا ذلك، لكن بالطبع كان أورلاندو غافلاً تماماً عن كل شيء إلا متعته. ربما كان جوان مملاً. أو ربما، لأنه لم يكن ذكياً جداً، لم يحب جوان بشكل خاص القصص التي تحكي عن تألق الآخرين. أو ربما كان يدفع نفسه ذهنياً لمساعدة هذين الغريبيين اللذين جعلاه يفقد موعداً، لقاءً مهماً، ربما مع فتاة أحلامه التي كانت ستفتح ذراعيها لعناقه في تلك الأمسية. مهما تكن الأسباب، كان جوان عصبياً بوضوح، لم يستطع الانتظار للخروج من هذا الجحيم.

«هل تعتقد أن هذه المتاهة لا تزال هناك؟» سأل أورلاندو، وقاطعته كارينا. قالت: «ينبغي علينا أن ننصرف»، مندهشة مرة أخرى مما يجعل زوجها عاجزاً عن فهم حقيقة ما يشعر به جوان، أو أي شخص آخر، بالنسبة لهذه المسألة.

«حسنًا.» يباركه، التقط أورلاندو إيماءتها، ووضع يده في جيبه، ومطّ شفتيه، وفجأة سأل كما لو كان بعد تفكير متأن: «ماذا بشأن أن تدفعي الحساب، يا حبي؟ كان سويترك رغم كل شيء.»

اندهشت ولم تعترض. لم يكن أورلاندو الشخص الذي يحب دفع حساب هذه الأشياء إطلاقاً، وخاصة الطعام، وخاصة في وجود رجل آخر. ربما كان لا يريد أن يشعر جوان بأنه تحت ضغط، معتقداً أن جوان لن يعرض أن يدفع لنفسه إذا جاء العرض من امرأة، خاصة امرأة حازمة مثل كارينا، من الواضح أنها تعرف طريقها. هكذا وجوان يشاهدها، أخذت الفاتورة وتركت بقشيشاً، ثم بمجرد أن نهضت، وقف واستأذن، وهمهم بأنه أيضاً في حاجة إلى أن ينصرف.

«ربما نلتقي مرة أخرى»، قالت كارينا، لأن أورلاندو لم يتكلم إطلاقاً، لم ينطق بكلمة، كان يتفحص فقط وجه جوان بفضول واضح ورطّ أورلاندو في الكثير من المشاكل في مرات كثيرة من قبل.

قال جوان: «ربما، لكن في المرة القادمة سوف أدفع. دوري.»

كان وداعًا غريبًا، نهاية غريبة لمقابلة غريبة، ولم يأتِ على ذكرها أحد منهما وهما يتوجهان إلى الفندق، لم ينطق أحد بكلمة، حتى قال أورلاندو في غرفتهما، بعد عشر دقائق، بالإنجليزية، بمجرد أن أغلق الباب خلفه: «أحتاج بطاقة الاتصال الخاصة بك، بسرعة.» تطلعت إليه في حيرة.

«علينا أن نتصل بأمريكان إكسبريس والبنوك للحصول على الفيزا والماستر كارد.» وقبل أن تنطق بكلمة، أضاف: «البطاقات. سرقها. جوان أو مهما يكن اسم هذا اللعين. سرقها من جيبي وهو ينظف ملابسي.» انتظرت. جلست على حافة السرير. «متى أدركت ذلك؟»

«على الفور. بمجرد حدوثه.»

«في ذلك المبنى؟»

«بالطبع. بمجرد حدوثه.»

«كم كان المبلغ؟»

«ليس كثيرًا. البطاقات فقط، رخصة القيادة، وبطاقة الانتماء الاجتماعي. لكننا نضيع الوقت يا كارينا.»

«وخرا الطيور؟»

«صبغة. لا بدُّ أنه لطَّخنا بها، أو ربما كان معه زميل فعلها في المنتزه. هنا. شمي.»

لم تقبل السويتر الأسود الذي كان أورلاندو يُقدِّمه لها.

«ودعوته على مشروب؟»

ترك أورلاندو السويتر يسقط على السجادة وجلس جوارها. أخذ يدها. كانت يد أورلاندو دافئة، رقيقة، متوترة.

«لم أود أن أجعله يعرف أنني أدركت أنه نشال. يمكن أن يفعل أي شيء لنا، لك، في ذلك المكان. مثَّلت البراءة. وهو أيضًا مثَّل البراءة. الدور الذي خدعنا. كأنه يستطيع أن يقرأنا أكثر وأكثر. عليك أن تُسلمي بذلك. كان ممتازًا.»

«لا أعتقد أنه هو. ربما فقدت البطاقات في المتحف، حين كنت تدفع حساب الـ ... أنت

دائمًا ...»

«هو، حسنًا. أستاذ حقيقي. أكره أن أقول ذلك، لكنه غالبًا يستحق بطاقتي.»

كانت تعرف أن أورلاندو يكذب. تعرف أنه لم يعرف حينها، في الرحم البشع لتلك الردهة المهجورة، تعرف أنه لم يفعل ذلك ليحميها، لفق هذه القصة ليحافظ على ما يشبه

السيطرة على حَدَثٍ خُدِعَ فيه طوال الوقت، حتى اللحظة التي وضع فيها يده في جيبه في البار ليدفع الفاتورة وفهم أن المحفظة كانت في جيب جوان، بجوار سَكِّين أو ما هو أسوأ، وأن جوان ما كان ليتردد في استخدام ما معه في لمح البصر، ويمزق وجهها، موس في عنقها أو عنقه بين رجال مسنين يلعبون الكوتشينة. حينذاك، حينذاك فقط، أدرك أورلاندو ما حدث. قالت، إنها لا تستطيع منع نفسها من القول: «وحكِيتَ له تلك القصة عن ذكائك وأنت طفل؟ كُنْتَ تلعب معه ...»

قال أورلاندو: «أردتُ أن أجعله يعرف أنها مسألة عُمْر، لا يمكن أن أقع في مثل هذه الخُدع حين كُنْتُ أصغر. أقصد، عشنا ... ماذا؟ عشرين عامًا، خمسة وعشرين عامًا في المنفى؟ ولم يحدث لنا شيء كهذا أبدًا.»

«كل تلك البلاد»، قالت، وكانت تفكر في المكالمات التليفونية اللانهائية والأشياء التي كان جوان يشحنها على حسابهما في تلك اللحظة والاستثمارات التي عليهما أن يملأها والبطاقات البديلة والتأكد من الضمانات والتفسيرات التي لا تنتهي وإفساد الإجازة وابنتهما وبنتهما وزوجها في الولايات يهزؤون رءوسهم دهشة والأصدقاء في نيويورك يستمتعون بالقصة أثناء تناول العشاء والتأسي وزيارة الغد إلى أمريكيان إكسبريس للحصول على نقود ورخصة القيادة الجديدة بمجرد العودة إلى الوطن ورقم الضمان الاجتماعي الجديد و... قطعت تيار أفكارها. «زوجان تشيليان يُخدعان في برشلونة.»

«قرأتُ عن هذه الخدع في دليل «التايم آوت».» قال أورلاندو، وهو يقف ويذهب إلى درجه، يُقَلَّبُ في دفتر العناوين للبحث عن أرقام التليفونات. «قبل بضعة أسابيع، وأنا أُعِدُّ لرحلتنا.»

«قرأتُ عن ذلك؟»

«حذِّروا من حيلة خرا الطيور.»

«هكذا؟»

«نسيْتُ الأمر. نتحدث الإسبانية. إننا على قيد الحياة. لم نكن المقصودين، كما تعرفين،

بهذا النوع من التحذير.»

ابتسمت كارينا، ابتسامة سأم. «نعم. يُفترض أن يحدث ذلك للغرباء.»

«ربما نتحول إلى غرباء.»

وقفت هي الأخرى. وقفت فجأة بطريقة أدهشتها هي نفسها، وقالت: «ماذا أفعل

معك؟»

«معني؟ أنت التي أُصِبتِ بالهلع. إذا لم تُجَنِّي لأنك اعتقدتِ أن هناك عنكبوتًا ...»

«نُضِيع الوقت. ينبغي أن تتصل. من يعرف ما يشتريه هذا اللقيط الآن.»

«أحتاج بطاقة الاتصال الخاصة بك.»

«بطاقة الاتصال الخاصة بي.»

«بطاقة إم سي آي الخاصة بك. تعرفين أنني ...»

قالت: «حسنًا. شيء لم يأخذه جوان الغبي المسكين. لا بد أن شخصًا آخر يستخدمه

الآن، يجرب الرقم السري على الكمبيوتر.» فتحتُ حقيبة يدها، بحثتُ فيها، أخرجتُ البطاقة،

وقدّمتها له. كانت على السرير بينهما، سوداء تلمع على الملاءات. قالت: «فيما بعد تنسى كل

شيء، تعرف.»

قال: «أعرف.»

«فقط في هذه الرحلة. في البداية الأدوية في الطائرة، ثم الجاكت مع بطاقة الاتصال

في المطعم في لندن، ثم رواية جورج إليوت^{١٤} في القطار في ليون. فقدتُ كل شيء في هذه

الرحلة.»

كانت تعرف ما سوف يقوله فيما بعد.

قال: «إلا أنت. لم أفقدك.»

«حسنًا»، قالت، وهي تلتقط البطاقة وتضعها في يده وتُغلق أصابعه عليها واحدًا

واحدًا. «أنا الشيء الوحيد الذي لم تفقده.»

قال أورلاندو: «كبرنا.»

يبدأ الاتصال. استمعت إلى صوت الأزرار برهة قبل أن ترد عليه.

قالت: «نعم. كبرنا.»

تعرف أن ذلك ليس صحيحًا. تعرف أنه كان على هذه الشاكلة دائمًا.

^{١٤} جورج إليوت Eliot (١٨١٩-١٨٨٠م): روائية إنجليزية اسمها الحقيقي ماري آن إيفانز.

عين الماء

تأليف: سوزان ستريت^١

لم يكن حلمًا، لأنه لم يكن في سريره ولم يكن نائمًا. كان في مقعده، أمام المدفأة في الشتاء، أو أمام باب الحاجز في الصيف، وكان دائمًا قرب منتصف الليل.

ينام على رصيف الميناء، أثناء فيضان ١٩٢٧م، بالطريقة التي اعتادوا الالتفاف بها للحفاظ على الدفء في الوحل — حتى الرجال والنساء الكبار، إذا كانوا نحافًا وممرنين. لا تستطيع المرأة الضخمة التي تُدعى نيت النوم بهذه الطريقة. تنام على ظهرها وبطنها باتجاه القمر وثلاثة أطفال تتشبث بهم أصابع قوية في شعورهم أو ذراع على أجسامهم، شاهدهم جوستاف في ضوء القمر، مثل حيوانات رضيعة تبحث عن الطعام.

لكن لم يكن هناك طعام، بعد ثلاثة أيام. كانوا يعملون في القصب حين أتت المياه مثل سجادة تُبسط أمامهم. لا يحملون سوى معاولهم وُصُرر الغداء.

لسع شيء أمه في الحقل في اليوم السابق. عنكبوت؟ تضخم كاحلها وتورم. بقيت في الغرفة لتنام. محت المياه البيوت العشرة كلها القريبة من بايو بيكيس، من الحقول.

^١ سوزان ستريت Susan Straight (١٩٦٠-؟): كاتبة أمريكية. والعنوان الأصلي El Ojo de Agua، بالإسبانية.

انتظروا قاربًا. توقفت المياه عند ارتفاع عشر أقدام من قمة الرصيف تقريبًا. لم يروا في النهار سوى مياه سمراء مصفرة قذرة تندفع قرب الناس، مياه تتلاطم في أمواج صغيرة وتتوقف في دوائر. وكان هناك عالم كامل تحت المياه.

بعيدًا، قرب حافة المشهد، رأى قمتي سقفين، الكنيسة والمدرسة. تلاشت بقية المنازل المتناثرة في سارات وبايو بيكيس. لا يظهر من أشجار البلوط والجوز إلا قممها، وكانت الغصون مثل العروق على قمة المياه. والثعابين تنتظر في الغصون، تقيس المسافة إلى الرصيف.

سمع جوستاف الأصوات: «لن آكل أي ثعابين. لست هنديًا. أريد بعض اللحوم، لا أريد ثعابين.» لم يكن حلمًا، ولم يكن مستيقظًا. نام في مقعده، منتصبًا، أمام باب الحاجز المفتوح.

على رصيف الميناء، التفت حول نفسه بقوة ليقاوم البرد وشعر أن فقراته تنتني مثل صفصاف رطب. غطت الكلاب والقطط وجوهها بذيولها، ولم يكن لديه شيء. لم يكن لديه إلا قميص وبنطلون قذران من القصب. لم يكن معه طعام غداء. يأمل أن يشارك شخصًا ما في طعامه. على الصناديق رجلان يجلسان، يشاهدان. لم يكن يعرفهما. كانا من مكان آخر.

كانا يتطلعان إلى قارب، إلى جنود، إلى شخص ما. أحيانًا يطفو خنزير ميت أو بقرة بجوارنا. الأذن صغيرة جدًا. الحوافر مثل أطباق رمادية.

كان التليفون جُذْجُذًا أسود في المطبخ، وبمرور الوقت أدرك أنه ليس جُذْجُذًا، نهض من مقعده وشق طريقه إلى الخلف، توقف الضجيج. رأى جوستاف قرص التليفون الدائري. كانت ابنته جلوريت تلهو دائمًا بالتليفون وهي صغيرة، وتذهب إلى منازل أصدقاء المدرسة في ريو سيكو، بعيدًا عن مكان سكنهم في سارات، المكان الذي أعده هو وإنريك هنا في كاليفورنيا. قالت إن تليفونات الأميرة وردية وذهبية. كانت تليفونات الحائط مثل شبشب المنزل.

استند جوستاف على طاولة قرب التليفون، إذا رنَّ مرة أخرى. ليست جلوريت. لم تتصل ابنته به أبدًا، خلال خمس سنوات منذ وفاة أمها. لم يُقدِّم لها سوى النقود، وكانت كل ما تريده لشراء مخدرات. لكن ابنه، فيكتور، ربما يتصل. في عملية الانتقال كل ثلاثة شهور من شقة إلى أخرى، طُرِدَ بأمر قضائي، وبالطريقة التي تعيش بها جلوريت مع

للصوص والحمقى، من حين لآخر كان فيكتور يعاني الجوع واليأس. اشترى له جوستاف تليفوناً محمولاً تحسباً للطوارئ.

فتح غطاء إناء الفول الذي أعدّه من قبل. هبّت رائحة الفول حين نفخ فيه ليعرف إن كان طرياً. حبات الفول والأرز القاسية تحوّلت إلى طعام. تطحن الذرة وتتحول إلى دقيق لصناعة الخبز. فكر في أمه، وهي تقف أمام جمرات نار الطبخ، لتصنع خبز الذرة.

اعتاد حفيد جوستاف أن يبقى لأسبوع أو نحو ذلك وتعود زوجته وهو في السادسة أو السابعة، والأمور سيئة. كان جوستاف يظل يقود السيارة، ويقف عند المنزل المستأجر ويجد الولد يجلس في المطبخ مع كتبه المدرسية وأوراقه وعلى وجهه قناع كما يحدث في مهرجان ماردي جراس، لكنه لم يكن قناعاً باسمًا. تتحرك عيناه فقط. أمه في الخارج طوال الليل. يأكل الفشار الجاف في طاسة، والغبار الأصفر ملتصق في شفتيه.

تصنع أنجولي خبز الذرة كل ليلة. الكشكش في الصباح، هريسة الذرة متماسكة بدبس السكر. وفي السبت، لوبيا وأرز. لحم غير متصل بالعظم. لحم الضلع. ظهور دجاج. عظام الرقبة طافية مثل لغز على سطح الماء. يضع حفيده عظام الرقبة في فمه ويقطب حتى يقول جوستاف: «أخرجها بإصبعك، نعم، إنها مجرد مذاق الآن. سقط عنها اللحم.»

اتصل فيكتور قبل ثلاثة شهور. كان مصاباً بنزلة برد، ولم تعد أمه إلى البيت منذ ثلاثة أيام. لديه امتحانات في المدرسة. وجد جوستاف المبنى السكني الذي يدعى لاس بلّماس، وأحضر نقوداً وأدوية. ثرافلو وأدليل. ذلك ما طلبه حفيده. في خزائن الأكواب، هناك أكياس من المكرونة تبدو مثل أربطة سيئة الصنع، وفي الثلجة صودا. قال جوستاف: «تعال واجلس معي. تناول بعض اللحوم والبرتقال. نحصل لك على توصيلة إلى تلك المدرسة، هناك.»

رقد حفيده على الفراش وقال: «أخرج في يونيو. أستطيع المشي الآن. أنا بخير، يا جدي. شكراً.»

سمع جوستاف صوتاً من خلال نافذة المطبخ، كانت مفتوحة، وشخص يتحدث في الطريق قرب منزل إنترك. النافذة مفتوحة لتدخل هواء الليل البارد. كل المنازل باستثناء منزل إنترك مكوّنة من ثلاث غرف، غرف ضيقة مستطيلة، مثل لويزيانا حتى وإن كانت هذه كاليفورنيا. رائحة زهور البرتقال أقوى هنا، قرب الأشجار. حين أحضره إنترك إلى هنا، في شتاء ١٩٥٧م، كانت هناك زهور وثمار على الأشجار في الوقت ذاته، في يناير. التقطوا البرتقال في صباح اليوم التالي وتساقطت الزهور مثل نجوم بيضاء. قال إنترك: «يمكن أن تأخذ هذا المنزل، حين تأتي بأنجولي من لويزيانا، حين تتزوجها.»

تناول جوستاف طَبَقًا من الطعام في الشرفة تلك الليلة، بالطريقة التي تأكل بها أمه في نهاية يوم حار حين لا تحتمل البقاء داخل غرفتين ضيقتين، واحدة فيها موقد يشع حرارة، وواحدة تشغلها الأسرة.

اعتادوا تناول الغداء في حقول القصب، لأن المسافة بينها وبين البيت أبعد من أن يمشوها. كان معهم سندوتشات سحج في خبز أبيض، وأمّه تضع سبع نقاط من لوزيانا جولد^٢ على أقمار اللحوم الوردية بين الخبز المنقوع من الحرارة. تعيد الزجاجة الصغيرة في جيب ثياب الشغل.

سَخَّن جوستاف كعكة الذرة على الموقد. تاج أزرق من اللهب في الظلام. بقع سوداء في دائرة على كعكة الذرة.

هناك أميال من البساتين — برتقال بسرة وبرتقال فالينشيا،^٣ ليمون وجريب فروت — حول مدينة ريو سيكو حين أحضره إنترك إلى هناك. عَرَفَه المكسيكيون على كعك الذرة. حين بدأ العمل في البساتين، أعطاه المكسيكيون كعكًا ملفوفًا بإحكام كأنه أنابيب بيضاء، ساخن من وضعه على لوحة عدادات الشاحنة طول الصباح، وقد حَمَّصه الزجاج الأمامي. أكل الكعكة الجافة الناعمة، متذوِّقًا العلامات المحروقة. فاحت من موقد الغاز القديم رائحة تشبه رائحة الحديد. جلست أمه جواره في حقل القصب قبل لدغها بيوم، قدّمت له قطعة من خبز الذرة عليها عصير قصب. صرخت زوجته حين رأت اللهب الأزرق أول مرة وعرفت أنه ليس عليها أن تعد الحطب للطبخ.

أخذ جوستاف رشفة من الروم من كوب صغيرة على الطاولة. وحمل حفنة من الفستق ووقف عند الحاجز، يكسر البندق، ويحتفظ بالقشر في كفه. يتحدث أولاد إنترك مع آخرين، عند شرفة إنترك الواسعة.

كان الفستق أخضر ورديًا مملحًا. لا شيء آخر يشبه هذا المذاق. رفض جوستاف أكله حين أعطاه شخص كيسًا، رجل يزرعه في البلدة المجاورة.

حين أتى فيكتور ليبقى معه بضعة أيام في السنة الماضية، وجلوريت في المستشفى تعاني من التهاب رئوي، سخر من الطعام على الطاولة وقال: «كيف تعيش على كعك الذرة والبندق والقهوة واللوبيا؟»

^٢ لوزيانا جولد Louisiana Gold: نوع من الصلصة الحامية.

^٣ فالينشيا Valencia: منطقة شرق إسبانيا على ساحل البحر المتوسط جنوب كتالونيا.

وقال جوستاف: «أنا في الثمانين، نعم؟ أكل ما أحب. حين تبلغ الثمانين كل ما تحب. الكشكش في الإناء لفطورك.»

صب حفيده السَّكَّر واللبن على الهريسة الساخنة وأكل في صمت، تطن سماعته كأن داخل الأذن حشرات محبوسة. حين انتهى، قال: «لا أشرب قهوة.»
قال جوستاف: «البرتقال على الطاولة. كل واحدة واعتبرها عصيرًا. وأخذك إلى تلك المدرسة، هناك.»

ألقي قشر الفستق في السلطانية. لم يرَ قط والد الولد. لم يره أحد.
حتى بلغ جوستاف الخامسة كان يعرف أباه، الذي مات في فيضان ١٩٢٧م، أُطْلِقَتْ عليه النار في مشجرة في بار في نيو أيبريا.^٤ قال الرجال إن أباه وضع يده على ردف امرأة وأطلق عليه رجل آخر النار.

حاول تخيُّل ما لدغ أمه في الماء بحيث يورِّم كاحلها بهذا الشكل ويلهبه فلم تستطع مغادرة السرير في الصباح. نحلة أم دبور، عضه الثعبان تترك أثرًا. عنكبوت؟ كل الأشياء في حقول القصب، مختبئة في غابة من سيقان القصب.

كاحل أمه. أقدام الخنازير. قطع من لحم الخنزير. قالت إن قطعة واحدة من لحم خنزير يمكن أن تُضيف نكهة لإناء ضخم من اللوبيا. مملحة ومُجفَّفة ومنكمشة، ثم تطفو منتفخة ومزدهرة على سطح الماء المغلي. كانت تنتزع كل جزء من اللحم من الغضروف والجلد.

حاول تخيُّل مؤخرة المرأة التي كانت في البار. يد والده على اللحم. الرصاصة في صدره. كان والده على بُعد عشرين ميلًا من الرافد، ولا أحد يعرفه. بقي الجسد في المشرحة. ثلاجة اللحم. أخبر رجل أمه بعد أسبوعين، لكنه كان قد دُفِن. هكذا على جوستاف أن يتصور وجه أبيه، متجمدًا في ابتسامة أو صرخة أو تجهم، ويده متجمدة في شكل لحم مستدير، وفي صدره ثقب صغير أو كبير.

أصابع قدميه والأوتار، حين خلع حذاء الجيش واستلقى في الحقل مع الآخرين. ساقا ابنته، حين كبرتا نحيفتان. دُمَاهما. زينة الشعر والخرز والمكياج والغسول وطلاء الأظافر مثل المجوهرات المتناثرة على التسريحة.

^٤ نيو أيبريا New Iberia: مدينة في جنوب لويزيانا.

طفت الأصوات في الطريق القذر باتجاه بابه. وقف اثنان من أولاد إنترك على سلمه الخشبي. «العم جوستاف»، قال أحدهما، اندمجت الكلمتان في واحدة، الاسم الذي نادوه به دائماً رغم أن أباهم لم يكن أخاه في الدم. دماء خنزير على يدي إنترك. «إنها هنا»، قال الابن، لافايت، الأكبر، وعلى ساعديه لصقة جافة. خرج جوستاف على السلم.

قال: «جلوريت؟» لم تكن هناك واحدة أخرى. رفع لافايت ذقنه. «جلوريت. أحضرناها. إنها...» كان جوستاف يعرف. تنفس الغبار الحاد الذي تصاعد من أقدامهما. جاف في يونيو. توغل الغبار في داخله. «وجدتها شخص. هناك قرب المغسلة.» أغلق باب الحاجز القديم خلفه، صوت المزلاج الصغير، وتركاه يذهب أولاً ليرى جسدها.

كانت تستلقي على الكنب في الغرفة الأمامية الكبيرة في منزل إنترك. زوجة إنترك، ماري تيريز، في انتظاره. تسوي الشعر القصير مثل شريط متهدل على جبهة جلوريت. ابنته على ظهرها. فمها مفتوح. عيناها مغلقتان. وشعرها متشابك مثل طحلب أسود على وسائد الكنب. ضلوعها واضحة، تحت السونتيان. وجلدها شاحب مثل الجوز النئى. كانت تنام في النهار وتخرج في الليل. دخنت كمية الكوكايين الصغيرة التي رآها. مثل حبيبة تؤخذ من حلق دجاجة.

لم تكن هناك دماء، أو علامات، أو جروح، أو خدوش. باستثناء ثلاثة أهلة على ترقوتها. كأنها خربشت نفسها.

لس جوستاف ترقوتها. التأمت قطعة من العظام بعد أن انكسرت نتيجة سقوطها من فوق شجرة برتقال. لم يستطع لمس شعرها. وهي في الرابعة عشرة، أعاد لحم جسدها ترتيب نفسه، وكبرت عيناها يقظتين تحت فرو الحاجبين والرموش. كان شعرها يخرج من الجداول والصفائر التي تعملها زوجته كل صباح، وكانت تدهن رموشها بزيت علب الكرنك وتطلي شفثيها، وتحتفي في غرفتها. شقَّ الخوف من جمالها طريقه إلى أحشائه. كان ذلك حيث شعر به، في الأنابيب التي تأخذ الطعام خلال الجسم. أعلنت الترقوة بشكل ما عن جمالها، والتجويف في أسفل حلقها.

قالت زوجته: «أتى إليها رجل في مخزن الفئوس وسأل إن كانت تريد أن تكون عارضة أزياء، يقول إنها نحيفة، ويمكن أن يأخذ صورتها»، ووضعت شفتها بين أسنانها وأبقثها على هذا الوضع حتى تركت عليها أثراً واضحاً. زوجته، ببشرة تشبه كعكة الذرة، وشعر مجدول فوق رأسها على شكل تاج، وجدة فرنسية من بايو بيكيس. اختبأت في منزل أمها من قبل حين أتى رجال في سيارات، أصابعهم مدربة على السحب والمسك، ليروها. سأل زوجته إن كانت تخاف من جمال جلوريت، فأومأت. سألها أين شعرت بالخوف، فقالت داخل عظام فخذيها، حيث تستريح جلوريت فترات طويلة جداً.

حين رحلت جلوريت مع الرجل الذي أنجبت منه فيكتور ثم اختفى، دخل جوستاف إلى غرفة نومها، المرة الأولى بعد العودة من الجبهة. تجلس دُمَاها البربي على حافة النافذة، وأرجلها مُعلّقة في الهواء. اشترى زوجها الدمى لسنوات، تقول: «لكل فتاة دمية. دمية برربي والملابس. في خزانتها. فيها حمالات صغيرة، نعم.»

أمسك بيد ابنته وركع جوار الكنبة. لم تكن البشرة ناعمة. كانت قاسية. بدا مُلطّخاً. قطعت رسغها، أيضاً، وشعر بعظامها. أحضر إلى البيت من كمارت[°] قطعة طويلة من البلاستيك ووصل خرطوماً حتى جرت المياه في جدول. ألقى كل هؤلاء الأطفال — يقف كل هؤلاء الرجال الكبار في الشرفة في انتظاره — بأنفسهم إلى الأخدود الأزرق وصرخوا. العظام صغيرة. «يتجمع الكالسيوم في موضع الكسر»، قال الدكتور، وعيناها تتجنبان النظر إلى يدي جوستاف، الملتختين، السميكتين مع زيت الحمضيات والقذارة والمقشرتين من البرتقال بسرة الذي كان يشحنه طوال اليوم.

قالت ماري تيريز: «أعرفك يا جوستاف. لن أقول ذلك.»

أوماً. كانت أفضل صديقات زوجته. ابنة عمها. لم تقل: بركة أن أنجولي ليست هنا لترى هذا.

لم يكن ذلك صحيحاً. عرفت أنجولي، طوال الوقت، حتى منذ كانت جلوريت لا ترغب في الذهاب إلى المدرسة أو السير إلى ريو سيكو مع الآخرين. كانت جميلة جداً، ولا أحد يتركها في حالها.

هكذا أتت نساء سارات ولويزيانا إلى هنا، على هذه الأرض التي اشتراها إنترك في كاليفورنيا. بعد الفيضان، حين زرع القصب من جديد ونُظّفت المنازل من بقايا المياه

[°] كمارت Kmart: سلسلة محلات تجارية في الولايات المتحدة.

والحيوانات الميتة، وعاد الرجال إلى العمل، كان عندهم بنات. مستر مكوين، الذي كان يمتلك أراضي بايو بيكيس وسارات، غرسهم في الحقول والطرق القذرة والغابات. قال إنترك إنه مثل كلب يتذوق دم الدجاج.

قتله إنترك أنتوين، عرف جوستاف؛ لأن جوستاف علّمه كل شيء. منذ أطعمه لحمًا يُدخن شبه نبيء على رصيف الميناء، في الظلام، كان جوستاف يراعي إنترك. ثم أخذ إنترك يراعي جوستاف.

حينذاك قال إنترك: «دع ماري تيريز تجلس معها»، وأخذ ذراع جوستاف كأنهما زوجان وقاده باتجاه المخزن.

ركن ابنا إنترك، لافايت ورينادو، شاحنتهما تحت شجرة الجميز الكبيرة قرب المخزن. جلس إنترك وجوستاف إلى طاولة خشبية حيث يعملان على أجزاء المحرك. تناول جوستاف فلتر هواء جديد من الدكة. وضعت جلوريت واحدًا حول حنجرتها وهي صغيرة وقالت إنه يبدو مثل عقد ملكة رأتها في حصة التاريخ.

سأل الآن: «كيف أحضرتها؟»

لافايت في السابعة والثلاثين، أكبر من جلوريت بعامين. قال: «الشاحنة.»

«كيف وجدتها؟»

أوماً لافايت للرجل الثالث، شخص لا يعرفه جوستاف. ليس من سارات.

قال الرجل: «وجدتها في الزقاق خلف مطعم، مستر بيكارد. أنا سيدني شابرت. اعتاد

أبي العمل في ثلاجاتكم ومغاسلكم.»

تطلع جوستاف إلى الصدر الأسود العاري، صدر الرجل، ضلوعه، الاسم الموشوم على

قلبه. «من هذه؟»

«ابنتي.»

قال: «من قتل جلوريت؟»

جثم سيدني أمامه، وساعده على ركبتيه، وقال بهدوء، «مستر بيكارد. أعرف جلوريت

من أيام المدرسة. رأيتها حول الزقاق من قبل. تعرف. آسف.» توقف ليستعيد توازنه وقال:

«أعمل في محل الفيديو، وكنتُ عائدًا إلى البيت، كانت في الزقاق. في البداية ... تنتظر شخصًا

متأنقًا، على ما يبدو، قُرب عربة التسوق. ثم جاءت صديقتها.»

«طويلة؟» قال جوستاف. كانت ابنته تجري دائمًا مع امرأة سوداء طويلة بندوب في

وجهها، كانت صديقة دائمًا لهذه المرأة ولم تُصادق قط فتيات أخريات في سارات.

قال سيدني: «نعم. كانتا تسيران في الزقاق. أقصد، كانت تلك المرأة تسير، وجلوريت لا تنطق بكلمة. وهكذا ربما كانت تعرف. حين خرجتُ مرة أخرى إلى الزقاق، لم يكن هناك أحد، وكانت جلوريت في عربة التسوق..»
«من وضعها هناك؟»

هز سيدني رأسه. «لكن أعرف من لم يفعل ذلك. بائعو المخدرات لم يفعلوا ذلك، ربما أطلقوا النار عليها فقط من على بُعد. هكذا يتصرفون. لا يقتربون ولا يلمسون أحدًا. ولا أعتقد أن زبونًا فعلها، كان سيترك أثرًا. ربما سيسيا. صديقتها. ربما تشاجرتا. لكن الشكل الذي بدت عليه جلوريت ... أعتقد أنها دَخنت الكثير جدًّا من الكوكايين وأُصيبت بنوبة قلبية.»

شاهد جوستاف سيدني يقف وينحني كأنه لا يستطيع التنفس. «شابرت. من نيو أورلينز؟»^٦
تنهَّد سيدني. «تعرف ماذا؟ كان أبي من نيو أورلينز. لكني من هنا. ريو سيكو. كلنا من هنا.»

حدَّق جوستاف فيه. ليس ولدًا. رجل. من الصعب رؤية ذلك أحيانًا. «لماذا لم تستدعِ البوليس؟»

طَوَّح سيدني رأسه إلى الخلف كأنه يتفحص النجوم. لكن هؤلاء الشبان لا يعرفون النجوم. ثم قال: «لم أرغب في أن يهينوها. الطريقة التي قد يتكلمون بها عنها، التي يضيعون بها الوقت. لن يبالوا بمن قتلها. هكذا أخذتها إلى لافايت ورينالدو. أخذها إلى البيت.» طوى ذراعيه وانتهى اسم ابنته. «لكن ربما يوقفوننا. أنا بالتأكيد. نقل جثة. اشتباه. أحتاج أن أعود إلى البيت الآن. ولا أعرف حتى ما تفكر فيه.»
«هل لمستها؟ من قبل؟»

قال سيدني: «مستر بيكارد، تطلعت دائمًا إلى جلوريت. لا أكذب. تطلع إليها كل الأخوة في ريو سيكو. لم ألمسها أبدًا. لم أفعل شيئًا لم تكن تريده.»
ثم سار من ساحة المخزن وخرج إلى طريق ضيق قذر خلال البساتين باتجاه القناة، حيث وضع إنترك بوابة طوال كل تلك السنوات. كان جسر القناة الطريق الوحيد للدخول إلى سارات أو الخروج منها، والبوابة مغلقة. والمفتاح مع سكان سارات فقط.

^٦ نيو أورلينز New Orleans: مدينة في جنوب شرق لويزيانا.

قال لافايت: «تسحب خارجًا وسار عائدًا إلى ريو سيكو. رجل، ذلك الأخ تعلّق بجلوريت طوال حياته، وأخبرني بأنه لم يتحدث إليها سوى مرتين.»

«تعلّق؟» قال جوستاف، وهو يشاهد شخصًا صغيرًا يدخل بين أشجار البرتقال.

تكلّم رينالدو أخيرًا: «حب خطير. يشبه المرض.»

شرب جوستاف بعض القهوة من ثُرمس إنترك، الفضي القديم. تعلّق. ذلك ما وصفوا به ابنته. تعلّق بشيء بدا غير مهم مثل قشرة محارة ودخل حلّقها ورثتها ودماعها ليجعل العالم يبدو مثل ... مثل ماذا؟ ماذا فعل هذا الدخان طوال كل تلك السنوات؟ تذوّق القهوة. قاتمة، تُحمّص حتى تسود كل صباح حين تُحرّك ماري تيريز المقلّة على اللهب. كما كانت تفعل زوجته أنجولي، حتى قبل موتها بأسبوع. شم رائحة هذه الحبوب طول حياته. أول ما يتذكر: أمه تُحمّص الحبوب وتضع واحدة في فمها، ويتذوّق جوستاف واحدة ويُصاب بغصة تقريبًا من مرارة الحبة المحروقة.

صَبَّ إنترك كوبًا لنفسه وانتظرًا. كان جوستاف يسمع صوت حَلَق إنترك.

حبوب القهوة والأرز وقصب السكر، ما كانوا يعيشون عليه في لويزيانا.

الخنزير. لحم الخنزير.

وضع جوستاف رأسه على يديه مثل طفل، على طاولة مُشحّمة ملساء. رائحة الخشب.

كان اسم المرأة نيت. يطفو جسدها في الماء مع أشجار وثعابين وبقر وزَبَد.

شرب إنترك قهوته ووضع الكوب برقة وسمع جوستاف نقرة مثل إصبع طفل على

الخشب. انتظر الرجال. رفع جوستاف رأسه وقال: «أعود على الفور. أحاول الاتصال

بابنها.»

سار مترنحًا إلى منزله. شعر أنه يميل إلى اليسار. احتاج سيجار سويشر سويت. ثم

جمع الدخان الدموع على وجهه وتركها حتى جفت مثل شبكة العنكبوت على وجنتيه.

أصدر السيجار الصغير صوت جمرات صغيرة متوهجة. النار. غنت الذئاب ضاحكة

في قاع النهر أغانيها الغريبة، المختلفة تمامًا عن أصوات الليل في لويزيانا.

جلست دمي برّبي على حافة النافذة بأحذية صغيرة، وكعوب مدببة مثل الإبر. لم

يرغب في العيش مع أحد، الزواج من أي واحدة، ستكون هناك جثة ذات يوم. عرف إنترك

ذلك. كان جوستاف على مشارف الأربعين حين كلّمه إنترك عن أنجولي، وذهب إلى لويزيانا

ليراها.

كانت جثة جلوريت ملقاة داخل المنزل. ضحكت الذئاب مرة أخرى، ربما عشرة ذئاب

أو اثنا عشر ذئبًا. ماذا شَمّت؟

ذات ليلة حين قُتِلَ الخنزير. شم رائحة الدم. يموت الرجال المتبقون على رصيف الميناء جوعاً. طفا اللحم بجوارهم لأيام، ولم يلمسه أحد. شاهدت المرأة الضخمة التي تُدعى نيت الأطفال يصرخون ويصرخون حتى صار الصوت مثل منشار ينشر في الخشب الذي تقطّعه لإشعال النار، ثم تلاشى الصراخ وكبرت عيونهم وغرقت في تجاويف جماعهم. لم تظهر الجماع على السطح إلا بعد أشهر حين انتهت المياه. الذكرى عمرها ثمانون سنة، لكنه في الليل يشم رائحة المياه، والحلاوة الشاحبة للأجساد القذرة والموت، والدماء في الدخان بالقرب منه هو وإنترك. كانت عينا إنترك واسعتين وواضحتين ومرهقتين. جاء العساكر. صوبوا بنادقهم إلى الرجال وساقوهم في قواربهم، وأخبروهم بأنهم متجهون إلى نقاط ضعيفة في رصيف ميناء يطل على مزارع مستر مكوين. أخذوا في ملء أكياس الرمل طوال النهار والليل، واستطاعوا العودة لحبوب الصليب الأحمر المغلي مع بعض الزيت والملح. ذلك ما تركوه للزواج. هناك علامات على الصناديق. عرف الجميع ما يشير إليه حقاً حرف «ز».^٧

وقف العساكر في القوارب مثل طيور مالك الحزين الطويلة، وأحدهم يُصَوِّب بندقيته إلى رأس جوستاف. «هذا الشخص في العاشرة أو نحو ذلك. عمل في الحقول، يستطيع العمل الآن.»

جذبت المرأة التي اسمها نيت جوستاف إليها، بجوار ابنها إنترك. قالت: «في السابعة. في السابعة فقط.»

كان الرجل الذي ترك خلفهم عجوزاً، ساقاه نحيلتان باليتان، وجلده مشدود بقوة شديدة على عظام كاحله. كان نائماً دون حركة. حطمت النساء مقاعدهن وأشعلن أرجلها تحت إناء ضخ. انتظرن رجالاً لم يعودوا قط.

جلس الجنديان المتبقيان على الطرف البعيد لرصيف الميناء، يُدخان، ويتبادلان الحديث، وتركنا بندقيتيهما مائلتين. طلبا من النساء والرجال المسنين ألا يلمسوا الخنازير أو أي حيوانات أخرى في المياه.

تلك الأبكار والخنازير والأحصنة، يعرف جوستاف صاحبها، كما يعرفه الجميع. عرف الرجال، قبل أن يأخذهم العساكر. سمعهم يتحدثون على رصيف الميناء، والمقاعد

^٧ حرف «ز»: في الأصل N، الحرف الأول من كلمة Negroes، الزواج.

والبطاطين والأطفال مكومون حولهم في انتظار الزورق لنقلهم إلى أرض جافة لأن شخصاً مرَّ بهم في مركب صغير وقال إن السفن البخارية لا تأخذ إلا الرجال البيض. لم يستطع الرجال إخراج بقرة حيَّة كانت تخور؛ لم يستطيعوا إطلاق النار على خنزير من مجموعة صغيرة احتشدت عند الطرف البعيد من رصيف الميناء، لم يستطيعوا عمل مذبحة لإطعام كل الناس لأنها كانت تعتبر سرقة من مستر مكوين أو مسيو أرمند، وسيقبض البوليس عليهم حتى إذا سبحت الحيوانات خارج أسيجتها وانتهت في الخليج أو ماتت على رصيف الميناء لعدم وجود عشب.

لكن الرجال رحلوا، وأكلت الحبوب وجاع الناس مرة أخرى. بدا الجنديان ضجرين وخائفين، لكنهما أكلا شيئاً من حقيبتيهما. ثم ناما، جالسين، وذقناهما البيضاويان من الحجر في ضوء القمر القاسي على سطح الماء.

سحب جوستاف الدخان بعمق في رثتيه، الرثتين الرقيقتين اللتين امتلأتا بالدخان أو الهواء أو لا شيء. مات العجوز تلك الليلة. حين لفوا جثته في بطانية وتركوها بجوار الصناديق، وجد جوستاف مطرقة. رقد وهي تحت ذراعه، وفي الليلة التالية زحف إلى رصيف الميناء في المكان الذي اجتمعت فيه الخنازير، وبالمطرقة ضرب جمجمة صغيرة يغطيها الطين، جمجمة الخنزير القريب منه. كان الخنزير صغيراً، في حجم كيس أرز، انتفض وتنفس وصرخ صرخة طويلة حادة وتطلع في عينيه. بذور سوداء. ضرب وضرب حتى ذابت الجمجمة في الوحل وتوقَّف التنفس وصرخت الخنازير الأخرى؛ جرَّ الخنزير الصغير خلفه إلى مخبأ من الأعشاب الضارة. عاد بسرعة إلى معسكر الرصيف وهزَّ الكتف الضخم لأنطوانيت.

يناديها الآخرون نيت. كانت ملأها بيضاء ذات يوم ثم رمادية وسمراء وحتى حمراء من الدماء، حيث نزع أحد أطفالها من أنفه من الصراخ وقتاً طويلاً. لم تكن هشة. كان كتفها قوياً مثل فخذ خنزير، الجزء العلوي من الساق.

قال جوستاف: «رأيتُ سكينك. معي خنزير.»

جائمة بين الأعشاب بجواره، شقَّت بطن الخنزير، وأخرجت الأحشاء وألقت بها في المياه المتأرجحة. اندفعت بُقع الزيت مثل جزر قوس قزح. الأغصان وألواح الأسقف وأحياناً جثة، تطفو والوجه إلى أسفل، تطفو على السطح نتيجة الهواء الذي تجمَّع تحت القميص، مثل وسائد خيطة تحت الملابس. لا يظهر إلا الظهر والكتفان والوركين. وقد تمددت الثياب أو المعطف بشدة.

شاهد جوستاف الضلوع. دفعت نيت السكين في لحم الجانب. «عاد الجنود، شُمُوا الدخان. أسرعى.»

قَطَّعت اللحم الطري وتوقفت عند أفخاذ لم تكن أفخاذاً بعد. كان فخذ الخنزير وردياً وخفيفاً ومُملحاً. كان هذا اللحم زلقاً، وبشكل ما رأى العظام من خلال الأجزاء النحيلة. نثرت نيت مزيداً من الدماء على ملاءتها واتجهت إلى رصيف الميناء إلى الجمرات التي لم تتركها تخدم قط منذ أنزلهم المركب هناك، على مرتفع ضيق من الأرض يبدو مثل طريق طويل. حاول جوستاف أن يسير فيها ذات يوم حين رحل العساكر أول مرة، لكنه حين نظر خلفه ولم يرَ شيئاً من الناس — غطاء رأس نيت مثل نفخة من الدخان ترتفع من رأسها، المنديل الأبيض، منديل الرجل العجوز موضوع على جبهته — توقف. لم يكن أمامه سوى رصيف ضيق وأخضر وأشجار غارقة على جانب ومياه سمراء على الجانب الآخر تزحف قرب قدميه.

غسل وجهه، في مطبخه، واستند على الحوض. ثم أخرج قطعة ورق من الدرج العلوي. الأرقام العشرة. طلب الأرقام بدقة، كانت أصابعه توضع بالكاد في الدائرة، يضايق المعدن جلده. رنين يشبه رعشة الجُدُجُد. جاء صوت: «هاي.»

قال جوستاف: «آلو فيكتور. أنا جدك.»

قال الصوت: «جوتشا. إذا سمعتَ هذه الرسالة، فأنا غير موجود. اترك الأرقام وسوف أتصل بك حين أستطيع.»

عاد باتجاه منزل إنترك. لا يزال الرجال عند الطاولة، في انتظاره، تتوهج سجاثرهم حمراء في الظلام.

هل كان جده نائماً؟ جائعاً؟ أين كان؟ في عربة؟ يضع السماعات على أذنيه؟ إذا استيقظ ولم تكن أمه هناك فليست المرة الأولى.

داخل المنزل، لم تتحرك ماري تيريز. فم جلوريت وعيناها مغلقة. «لا محفظة؟ لا شيء؟» سأل، وهزت ماري تيريز رأسها.

لا يعرف جوستاف حتى أين تعيش. لا عنوان، لا رخصة لابنته. تطلع إلى أصابع قدميها الحافيتين، كعبيها المشققين. سارت أميلاً كافية، كأنها كانت تعيش في زمن آخر. اجتمع الرجال حول شاحنة لافايت. إذا لم يصلوا إلى فيكتور، ولم يستدع أحد البوليس، كيف يمكن أن يعرف ما حدث لأمه؟

ربما يعرف سيدني شابرت.

شاهدوه يسير في طريق العودة إلى ريو سيكو، وقال جوستاف: «أين قميصه الآن؟» قال رينالدو: «في الخلف. لَفُّها فيه وهو يحملها.» حين وصلتْ شاحنة لافايت إلى سيدني، وقف وحدَّق أمامه مباشرة، كأنه يُحدِّق في أرنب. كان خائفاً من ألاَّ يصدقوا قصته. يخشى أن يقتلوه. يعرف أهل ريو سيكو أن سارات عالم آخر. يعرف بعضهم كيف وصل جوستاف وإنترك إلى هنا، ويعرفون الرجل الذي قتله في لويزيانا، من القصص التي حكتها بنات سارات لحمقى ريو سيكو الذين اعتقدوا أن الفتيات ريفيات وجماليات وفتاحات البشرة وغبيات. كان جوستاف يجلس في قاع الشاحنة، على قفص، وظَّهره إلى السيارة الأجرة. «أين تعيش الآن؟» قال بصوت أجش لسيدني.

قال سيدني: «حداثك جاكاراندا. هذا ما أخبرني به شخص ما.»

قال جوستاف: «أرني أين. أريد حفيدي.»

تسلَّق سيدني إلى قاع الشاحنة، وألقى له جوستاف قميصه.

كانا صامتين والشاحنة تتحرك على الأسفلت باتجاه المدينة. ميلان اثنان فقط. يمشي كل أطفال سارات إلى المدرسة في ريو سيكو عبر هذا الطريق، ويعودون منه إلى بيوتهم، لسنوات. تزوج لافايت ورينالدو من فتاتين من سارات، كانتا تعيشان في المدينة. انتقل فقط عدد قليل من الناس إلى البنايات العشر في شارع جوستاف.

سأل سيدني: «هل لمستَ أبداً جسداً ميتاً؟»

استمع جوستاف إلى الإطارات تنطلق على سعف النخيل الساقط على الأرض. قال: «نعم. مرة واحدة فقط. وأنا في السابعة، وإنترك في الثالثة. يأتي فيضان ١٩٢٧ م ويقتل الجميع. يأخذ جسد أُمي ومنزلاً، ولا أراها مرة أخرى قط. يبقى بعضنا على رصيف الميناء. أرض مرتفعة. ينتظر حوالي مائة شخص قارباً لأيام. يأتي العساكر ويأخذون الرجال، يطلبون منهم حفر أخدود. تتدفق المياه إلى الحقول. يصوَّبون البندقية إلى الرجال ليركبوا القارب ويقولون إنه وقت العمل، يا زنجي.»

كان سيدني صامتاً.

«نصبح دون طعام. ننتظر الطعام أو المركب. يموت رضيع، ثم رجل عجوز. ألمسه.

نلفه في بطاطين، والطفل، ولا نستطيع دفنهما.»

مال رأس إنترك على زجاج نافذة السيارة المؤجرة. شعره مفرد ورمادي. أدار ابنه العجلة وتحركت الشاحنة على طريق النخيل، الشارع الرئيسي، قرب شركة تعبئة المواد

الغذائية حيث سلموا الحمضيات، ثم إلى منطقة العمل، حيث نوافذ الأسواق والمنظفات الجافة وأماكن التاكو^٨ مظلمة.

وَدَّ جوستاف أن يرى الزقاق. ممر^٩ ممر من الأشجار يؤدي إلى بيتي مستر مكوين ومسيو أرمند، بيتان أبيضان بضلف سوداء، بعد ممر طويل من شجر البلوط.

قال: «أخبر لافايت بالمكان الذي وجدتها فيه»، قال، وقال سيدني كلمات إسبانية للافايت من خلال نافذة السيارة.

«الأوجو دي أوجوا».

سأل جوستاف: «ما معنى ذلك؟»

قال سيدني: «عين الماء. لا أعرف ماذا تعني. ما سموا به المحل. لا بد أنها لغة أهل

المكسيك».

ليست هناك عربة تسوق في الزقاق خلف مكان التاكو. توقفت الشاحنة في مدخل الممر القذر، سياج من السلاسل، أبواب المباني المغلقة، صندوق النفايات. قال سيدني: «أخذت العربة إلى صن داون ليكور لأنني عرفت أنني سأرى لافايت ورينالدو هناك».

جثة ابنته طافية في العربة، مثل زورق معدني، في الزقاق المغبر. جثة أمه، طففت من سريرها إلى الخليج. جثة أبيه، دُفنت قبل أن يتعرف عليها أحد. ابنته، راقدة على الكنبه وماري تيريز تهمهم بجوارها، كأنها في غفوة ليس إلّا. ماتت زوجته، أنجولي، في غيبوبة سكر، راقدة في الجبانة على حافة سارات، داخل البساتين.

تصرّف سيدني بشكل صحيح. الزقاق الخالي، لا بوليس يبالي، والرجال الذين يقودون العربات حول الأزقة ليجتثوا عن نساء مثل جلوريت يمكن أن يجدوا نساء أخريات، ربما لا يعرف إلا صديقها وفيكتور.

قال إنترك: «لا مكان للموت». كانت عيناه حمراوين وقذرتين حين تطلع إلى جوستاف.

قال إنترك لسيدني: «وجدتها هنا؟ ألا تلاعبنا؟ ألم تلمسها؟»

قال سيدني: «لا أكذب. وجدتها هنا بالضبط». أشار إلى بقعة بجوار أعشاب ضارة،

عند السياج. «جاء ابنها إلى محل الفيديو في الشهر الأخير، وقال إنه لا يوجد حتى تليفزيون

^٨ تاكو taco: كعك ذرة ملفوفة أو محشوة باللحم المفروم أو الجبن.

^٩ ممر allée: بالفرنسية في الأصل.

في مكانهم، لكنه يريد مشاهدة بعض الأفلام التاريخية في منزل صديقه. سألتُه إن كان في حالة طيبة، وقال إنك أعطيتَه تليفونًا محمولًا للطوارئ.»
«اتصلتُ. لا أحد يرد.»

تطلع جوستاف إلى النخيل، كهرباء في ضوء القمر. حدَّق سيديني أيضًا. قال: «تعرفون لماذا أخذتُها؟ لأنني رأيتُ فئران تجري على أسلاك التليفونات، لم أتوانَ. لا. أخذتُها دون تفكير.»

قال جوستاف: «تصرفتَ بشكل صحيح. تأخذني إلى حيث كانت تعيش. أقول لابنها إنها اتصلتُ بي، وأُتيتُ لآخذها، وماتت في البيت. على الكنبه. انهارت فقط.»
أومأ إنتريك: «توقف قلبها ببساطة.» ألقى بعُقب سيجارته في القذارة.
يمكن لجوستاف وإنتريك وآخرين أن يُعدُّوا لجلوريت تابوتًا، ويمكنهم حفر حفرة في الجبانة القديمة حيث لا يذهب إلا أهل سارات. قد يأتي فيكتور ويودعها. وقد تكون الكنيسة الوحيدة كلماتهم، كما كان يحدث على رصيف الميناء. وقد ينام فيكتور بعد ذلك في غرفتها.

أخذهم سيديني إلى البناية السكنية في حدائق الجاكاراندا، على بُعد بضعة صفوف. كانت جدران الجص رمادية. وقضبان الحديد المشغول سوداء. والنوافذ بضلف، عليها ملاءات قديمة وظلال مكسورة. وكلمة «بيكارد» مكتوبة بقلم جاف في قائمة البريد رقم ستة عشر.

صعد جوستاف السلالم غير المستوية ببطء. بدا الدرايزين خشنًا ومنقرًا، كأن شخصًا طبخ على الحديد. ولم تكن هناك رائحة طعام.
كان الباب رديئًا حين طرق عليه. نادى بصوت منخفض: «فيكتور. فيكتور.» ولم يرد أحد.

دفع الباب وهو يمسك به ويدخل. كسر القفل عدة مرات. في غرفة المعيشة مفرش ملقى في الركن قرب فتحة التدفئة. طاولة عليها كوب ومقعدان قرب النافذة. طاولة الفورمिका ليس عليها سوى كولا شاستا وكيسًا من الورق. في داخله قشور ذرة خالية مخططة بدهن برتقالي، تامال.^{١٠}

^{١٠} تامال tamales: طبق مكسيكي من اللحم المشوي وفلفل مطحون، يلف في عجينة الذرة، ويُغطى بقشور الذرة، ويطبخ على البخار.

كان باب غرفة النوم مغلقاً. دخلها بهدوء متسائلاً: ماذا كان لدى فيكتور بندقية؟ لكن كان حفيده نائماً. والسماعة على أذنيه، ويداه تضمان شيئاً ما إلى صدره بقوة، تحت البطانية. زوايا حادة. ربما علب شرائط مدمجة. مجموعة كتب قرب رأسه. لا بُدَّ أن التليفون المحمول تحت الوسادة، أو ظهره. ففكر جوستاف وجلس على السجادة.

بجواره إناء على الأرض، حبة مكرونة وحيدة جافة مثل دودة تحاول الزحف على جانب الإناء. سجادة بجداول متشابكة قذرة وكأنها ديدان أخرى. قد يأخذ فيكتور إلى منزله، وقد يكره فيكتور المنزل، ويكره البرتقال والبقول. قد يريد همبورج، فيشتري له جوستاف. لن يقول ما قاله المرة الأخيرة: «أعدّ بعض اللحم في الخريف، حين يأتي لانير بخنزير لثلاجة ماري تيريز. نشترى خنزيراً كاملاً. ليس قطعة من الإسفنج الوردي في بعض البلاستيك. ينبغي أن يكون عندي أنا وإنتريك بعض اللحوم الجيدة.»

حملت نيت اللحم إلى النار، وضعته في طاسة، وحين استيقظ طفلها ربطت الطفل إلى صدرها، داخل قميصها، ليبقى هادئاً. لكن الجنديان شماً الدخان. يرتفع الدهن في السواد. أتيا ببندقيتهما وقالوا: «من أين حصلت على هذا اللحم؟ تلك السكين؟» اتجهت إليهما نيت بالسكين فأطلقا عليها النار. سقطت في الماء وغطست، ولم يظهر إلا ظهرها العريض حين ظهرت على سطح الماء وطففت مبتعدة عن رصيف الميناء.

صرخت النساء الأخريات وصرخن ودفع الجنديان مَنْ تجمعوا حولهما. لم يُطلقا النار مرة أخرى. جذب جوستاف اللحم شبه المحروق من على النار وجثم قرب إنتريك. مزق قطعاً من فخذ الخنزير ودفعها في فم إنتريك، وكان يحميه من الناس. دفع إنتريك يدي جوستاف، ورأى الدماء تومض على مفاصل أصابعه.

حذاء فيكتور، تحت الغطاء، مكوم مثل أرغفة من الخبز. كور جوستاف راحتيه على حاجبيه، محرّكا الجلد المهلهل إلى الأمام والخلف، كما كان يفعل دائماً حين ينتظر، على رصيف الميناء، في الثكنات، في حقول القصب.

كان حفيده نائماً مثل الأموات.

السابعة عشرة. لم يحصل على وظيفة قط. فتّى. هذا ما وصف به العساكر الأولاد على رصيف الميناء. «يأخذون الكبار. لا يريدون أن يأتوا، للفتية الزنوج. كانت لهم أيدٍ صغيرة لكن لكل منهم يدان. الجاروف يحتاج إلى يدين.»

لم يشأ أن يرعب الولد. على الأرضية شيء يشبه القواقع قرب الفراش. مال جوستاف ليلمسه. متى ذهب إلى المحيط؟ لا، قشور فستق. كيس صغير، مثل الذي يمكن أن تحصل

جائزة أو هنري

عليه من محل الخمر. أمسك بالقشور في راحته. سمع محرك شاحنة لافايت في الخارج. رأى سعف النخيل قريباً من نافذة الدور الثاني. تمرات مثل عوالم ذهبية صغيرة، عالية جداً لا يستطيع أحد التقاطها.

المشهد من على صخرة القلعة

تأليف: أليس مونرو^١

في زيارة لأندرو إلى أَدنبره مع أبيه وهو في التاسعة أو العاشرة، وجد نفسه يتسلق سلالم القلعة، سلالم حجرية رطبة غير مستوية. والده أمامه، وخلفه بعض الرجال الآخرين — أدهشه كثرة الأصدقاء الذين وجدهم والده، يقفون في أماكن ضيقة حيث توجد زجاجات على الألواح، في الشارع العمومي — حتى يزحفوا للخارج على حافة صخرة، حيث تنحدر الأرض بشدة. توقّف المطر للتو، الشمس ساطعة على امتداد الماء الفضي على البعد أمامهم، ثم أرض خضراء شاحبة وزرقاء رمادية، أرض خفيفة مثل السديم، غائرة في السماء. «أمريكا»، يخبرهم أبوه، ويقول رجل لا تظن أبدًا أنها قريبة على هذا النحو.

يقول شخص آخر: «نتيجة الارتفاع الذي نحن عليه.»

يقول والد أندرو، ولا يعيرهم أي اهتمام: «هناك يجلس الجميع وسط أملاكهم وربما يدور حولهم متسولون في عربات. أنت هنا، يا ولدي» — يلتفت إلى أندرو — «وبإذن الرب تراها يومًا عن قرب، وأنا نفسي، إذا قُدّر لي أن أعيش.»

^١ أليس مونرو Alice Munro (١٩٣١-٩): كاتبة كندية. والعنوان الأصلي للقصة The View from

.Castle Rock

يشعر أندرو بخطأ فيما يقوله أبوه، لكنه ليس على معرفة كافية بالجغرافيا ليعرف أنهم ينظرون إلى فيف.^٢ لا يعرف إن كان الرجال يسخرون من والده أم أن والده يخدعهم. أم أنها خدعة عموماً.

بعد سنوات، في ميناء ليث،^٣ في الرابع من يونيو ١٨١٨م، أندرو ووالده — الذي لا بُدَّ أن أدعوه جيمس الكبير، لأن هناك جيمس في كل جيل — وأجنيس زوجة أندرو، وهي حامل، وأخوه والتر، وأخته ماري، وابنه جيمس أيضاً، لم يبلغ العامين بعد، يضعون أقدامهم على ظهر سفينة للمرة الأولى في حياتهم.

يعلن جيمس الكبير هذه الحقيقة لضابط السفينة الذي يراجع الأسماء. «المرّة الأولى، يا سير، في حياتي الطويلة كلها. إننا رجال الإتريك.^٤ جزء من العالم محاط باليابسة.»

يقول الضابط كلمة غامضة بالنسبة لهم لكنها واضحة. تحرّكوا. وضع خطأ على أسمائهم. يتحركون أو يندفعون. وجيمس الصغير على فخذ ماري.

«ما هذا؟» يقول جيمس الكبير، مشيراً إلى زحام الناس على ظهر السفينة. «أين ننام؟ من أين أتى كل هؤلاء؟ انظر إلى وجوههم، هل هم زنوج؟»

يقول والتر: «على الأرجح من سود الهضاب». نكتة، غمغم بها حتى إن والده لم يسمعها، سكان الهضاب من الأنواع التي يحترقها الرجل العجوز.

يواصل والده: «هناك كثير جداً من الناس. ستغرق السفينة.»

يقول والتر متحدثاً بوضوح الآن: «لا، لا تغرق السفن غالباً بسبب كثرة الناس. هذا سبب وجود هذا الرفيق، ليُحصي الناس.»

بالكاد على متن السفينة وهذا الفتى في السابعة عشرة من عمره يعرف اتجاه التيار؛ اعتاد أن يعارض أباه. يمنع التعب والذهول ووزن المعطف الذي يرتديه جيمس الكبير، يمنعه من صفعه.

مسألة الحياة على متن سفينة شُرحت بالفعل للأسرة. شرحها العجوز نفسه. كان الشخص الذي يعرف كل شيء عن المؤن، والتكيف، وأنواع الناس الذين يمكن مقابلتهم على متن السفينة. كل الاسكتلنديين والناس المهذبين. لا سكان الهضاب ولا الأيرلنديون.

^٢ فيف fife: منطقة تقع إلى الشرق من اسكتلندا.

^٣ ليث Leith: مقاطعة في أدنبره، اسكتلندا.

^٤ الإتريك Ettrick: منطقة على حدود اسكتلندا.

لكنه الآن يعلن أنها مثل سرب من النحل على جثة الأسد.
«مجموعة شريرة، مجموعة شريرة. أوه، هذا ما جعلنا نترك بلادنا الأصلية.»
يقول أندرو: «لم نتركها بعد. نطل على ليث. من الأفضل أن ننزل ونبحث لأنفسنا عن مكان.»
المزيد من العويل. الأسرة ألواح ضيقة من الخشب بمفارش من شعر الجياد، قاسية وشائكة.

يقول أندرو: «أفضل من لا شيء.»
«أوه، هذا ما أغواني باستمرار بأن نأتي إلى هنا، على هذا الأثر الطافي.»
«ألن يسكته أحد؟» تفكر أنجيس. بهذه الطريقة يواصل ويواصل، مثل واعظ أو مجذوب، حين تصيبه النوبة. لا تتحمل هذا. تعاني من ألم مبرح أقوى مما يتخيل.
تقول: «نستقر هنا أم لا؟»
علق بعض الناس قطعاً من القماش أو الشالات لتحويل المكان إلى مكان شبه خاص لعائلاتهم. تتقدم وتخلع الملابس الخارجية لتفعل الشيء نفسه.
يتقلب الطفل في بطنها. وجهها ساخن مثل قطعة فحم، ترتجف ساقاها، واللحم المتورم بينهما — الشفتان اللتان لا بُدَّ أن الطفل يباع بينهما بسرعة ليخرج — كيس محرق من الألم.

كانت أمها تعرف ما تفعله في تلك الحالة. تعرف الأوراق التي تسحقها لتصنع كمادة تسكين الألم. عند التفكير في أمها يسيطر عليها ذلك البؤس حتى تود لو تركل أحداً.
لماذا لا يتكلم أندرو صراحة مع أبيه، ويُذِّكره بصاحب الفكرة، بمن خطب واستعار واستجدي ليضعهم حيث هم الآن؟ لن يفعل أندرو ذلك، يمزح والتر فقط، كما هو الحال بالنسبة لماري، لا تستطيع إخراج صوتها من حنجرتها في وجود أبيها.
تأتي أنجيس من عائلة من هويك،^٥ عائلة كبيرة من النساجين، يعملون الآن في المطاحن لكنهم عملوا لأجيال في الوطن. وهم يعملون هناك تعلَّموا فن تقطيع أحدهم الآخر، فن إثارة المشاكل والبقاء على قيد الحياة في أحياء مغلقة. لا تزال مندهشة من الأساليب الصارمة، والإذعان والصمت في عائلة زوجها. اعتقدت منذ البداية أنهم نوع غريب، ولا تزال تعتقد ذلك. فقراء مثل أهلها لكن لديهم تصوراً عظيماً عن أنفسهم. ما الذي يعتمدون عليه؟

^٥ هويك Hawick: بلدة جنوب شرق اسكتلندا.

عادت ماري بجيمس الصغير إلى سطح السفينة. قالت إنه كان في حالة رعب هناك فيما يشبه الظلمة. ليس عليها أن تتذمر أو تشكو، تعرف مشاعره من الطريقة التي يحفر بها بركبتيه في ركبتيها.

الأشربة ملتفة بإحكام. تقول ماري: «انظروا هناك، انظروا هناك»، وتُشير إلى بحار مشغول فوق في حبال الأشربة. يصدر الولد على وركها صوتاً يشير به إلى الطائر، فتقول: «بيب، البَحَّار بيب، البَحَّار بيب.» يتواصل هو وهي في لغة نصف ونصف؛ نصف من تعليمها ونصف من ابتكاره. تؤمن بأنه واحد من أمهر الأطفال الذين ولدوا في العالم. باعتبارها الأكبر في عائلتها، والبنت الوحيدة، مالت إلى إختوتها، وكانت تزمو بهم جميعاً في وقت واحد، لكنها لم تعرف أبداً طفلاً مثل هذا. لا أحد آخر لديه فكرة عن أصالته واستقلاله. ليس للرجال اهتمام بالأطفال في مثل هذه السن، وأنجيس أمه ليس لها صبر عليه. «تكلم مثل الناس»، تقول له أنجيس، وإذا لم يفعل تضربه ضربة. تقول: «مَنْ أنت؟ أنت إنس أم عفريت؟»

تخشى ماري أنفعال أنجيس لكن بطريقة لا تُلَام عليها. تعتقد أن النساء من أمثال أنجيس — نساء الرجال، النساء الأمهات — يعشن حياة مروعة. أولاً مع ما يفعله لهن الرجال — حتى لو كانوا طيبين مثل أندرو — ومع ما يفعله الأطفال، في النهاية. لن تنسى أبداً طريقة استلقاء أمها في السرير، غائبة عن الوعي، مصابة بحمى، لا تعرف أحداً، حتى ماتت، بعد ولادة والتر بثلاثة أيام. صرخت في الإناء الأسود المعلق على النار معتقدة أنه ممتلئ بالشياطين.

ماري — ويناديها إختوتها «ماري المسكينة» — طولها أقل من خمسة أقدام ووجهها صغير مشدود بكتلة من الذقن الناتئ، وبشرة معرّضة لطفح متقد يستغرق وقتاً طويلاً ليتلاشى. حين يكلمها أحد، يرتجف فمها كأن الكلمات تمتزج بلعابها وأسنانها الملتوية، ويأتي رد الفعل، الذي تحاول السيطرة عليه، رذاذاً من كلام شاحب جداً ومسلوق بحيث يكون من الصعب ألا يعتقد الناس أنها غبية. تعاني من صعوبة هائلة في النظر في عيني أي شخص، حتى أفراد عائلتها. فقط حين تحمل الطفل على وركها يمكنها النطق ببعض الكلمات المفهومة المترابطة، ويكون معظمها موجهاً إليه.

تسمع حوار البقرة قبل أن تراها. ثم تتطلع وترى بهيمة بُنية تضرب في الهواء، مقيدة بالحبال ترفس وتصرخ بشكل مرعب. تُقَيّد بخطاف في ونش، يسحبها بعيداً عن الأنظار. يصيح الناس من حولها ويصفقون بأيديهم. يصرخ طفل، يريد أن يعرف إذا كانت البقرة ستسقط في البحر. قال لهم رجل لا؛ سوف تكون معهم على السفينة.

«هل سيحلبونها إذن؟»

«نعم. اهدأ. سوف يحلبونها»، قال الرجل باستنكار. ويعلو صوت رجل آخر في صخب

على صوته.

«يحلبونها حتى يأخذوا المطرقة إليها، وحينها ترى فطيرة الدماء لعشائك.»

الآن يتتبعون الدجاج، يتأرجح في الهواء في صناديق الشحن، يصيح ويرفرف في أقفاصه وينقر بعضه البعض حين يستطيع، وهكذا يهرب بعض الريش ويتطاير في الهواء. وبعده يقيد خنزير كما حدث مع البقرة، يصرخ بنبرة إنسانية من الألم والنقل بوحشية وسط الهواء، وأثار صراخ الاثنين البهجة والغضب تحت، ويعتمد ذلك على إن كان يأتي من الذين يُضربون أم من الذين يرون الآخرين يضربون.

يضحك جيمس أيضًا. يعرف الروث، ويصيح بكلمته التي تشير إليه، وهي «جروجن». تعتقد ماري أنه قد يتذكر هذا ذات يوم: رأيتُ بقرة وخنزيرًا يطيران في الهواء. وقد يتساءل إن كان ذلك حلمًا. ولن يكون هناك أحد — من المؤكد أنها لن تكون موجودة — ليقول له إنه لم يكن حلمًا، وإنه حدث على هذه السفينة. من المحتمل ألا يرى أبدًا مرة أخرى في يقظته مثل هذه السفينة. ليس لديها فكرة عن المكان الذي يذهبون إليه حين يصلون إلى الشاطئ الآخر، لكنها تتخيل أنه سيكون مكانًا ما على اليابسة، بين الهضاب، مكانًا ما مثل الإتريك.

لا تعتقد أنها سوف تعيش طويلًا حيث يذهبون. تسعل في الصيف كما تسعل في الشتاء، وحين تسعل تشعر بألم في صدرها. تعاني من التهابات في جفניה، وتقلص في بطنها، ويأتي نزيفها قليلًا وقد يستمر شهرًا حين يأتي. تتمنى، رغم ذلك، ألا تموت وجيمس في حاجة إليها، سيكون في حاجة إليها لبعض الوقت. تعرف أنه سيأتي وقت ينصرف فيه عنها، كما فعل إخوتها، حين يشعر بالخجل من الارتباط بها. على الأقل هذا ما تقول لنفسها إنه سيحدث، لكن مثل أي شخص يحب لا تصدق هذا.

في رحلة إلى بيبلز،^٦ اشترى والتر لنفسه كراسة ليكتب فيها، لكن لعدة أيام وجد الكثير جدًا مما يستحق الانتباه ولم يجد مكانًا أو هدوءًا على ظهر السفينة حتى ليفتحها. في النهاية، بعد بعض البحث، اكتشف بقعة رائعة قرب الكبائن على السطح العلوي للسفينة.

^٦ بيبلز Peebles: بلدة على حدود اسكتلندا، كانت سوقًا تجاريًا.

أتينا على متن سفينة في اليوم الرابع من يونيو ومكثنا الخامس والسادس والسابع والثامن في طرق ليث حيث وصلت السفينة إلى مكان يمكن أن نُبحر منه، وكان ذلك في التاسع. مررنا بزاوية فيفشاير^٧ ولم يحدث شيء يستحق الذكر حتى هذا اليوم الثالث عشر في الصباح على صرخة، منزل جون أوجروات. كانت الرؤية واضحة وكان إبحاراً رائعاً عبر لسان البنتلند^٨ حيث الرياح والحد في صالحنا ولم يكن خطراً بحال من الأحوال كما سمعنا. هناك طفل مات، اسمه أورميستون وألقيت جثته في البحر، خيطت في قطعة من القماش مع كتلة كبيرة من الفحم في قدميه.

يتوقف في كتابته ليفكر في الكيس الثقيل الذي يسقط في المياه. هل تقوم قطعة الفحم بوظيفتها، هل يسقط الكيس مباشرة في أعماق البحر؟ أم أن تيار البحر قوي بما يكفي لحمله ومنعه من السقوط، ودفعه جانباً، وسحبه بعيداً إلى جرينلاند^٩ أو جنوباً إلى المياه القطبية المليئة بالأعشاب الضارة، بحر سرجاسو؟ وربما تأتي سمكة متوحشة وتمزق الكيس وتتناول وجبة من الجثة قبل حتى أن تُترك أعلى المياه ومنطقة النور.

يتصور ذلك الآن؛ يؤكل الطفل. لا يبلغ كاملاً كما في حالة يونس، بل يمزغ قطعاً كما قد يمزغ هو نفسه قطعة طيبة المذاق من خروف مطبوخ. لكن هناك مسألة الروح. تخرج الروح الجسد في لحظة الموت. لكن من أي جزء من الجسد تخرج؟ يبدو أفضل تخمين أنها تخرج مع النفس الأخير، وقد اختبأت في مكان ما من الصدر، حول موضع القلب والرئتين. ومع أن والتر سمع نكتة اعتادوا أن يقولوها عن رفيق عجوز من الإتريك، عن مدى قذارته حتى إنه حين مات خرجت روحه من فتحة الشرج، وسمع أن ذلك حدث في انفجار هائل. هذه هي المعرفة التي قد يتوقع أن يقدمها لك الوعاظ، لا يذكرون شيئاً بالطبع من قبيل فتحة الشرج، بل يشرحون شيئاً عن الموضع الحقيقي والمخرج. لكنهم يخلون منه. لا يستطيعون أيضاً أن يشرحوا — على الأقل، لم يسمع قط أحدهم يشرح — كيف تبقى الأرواح خارج الأجساد حتى يوم القيامة وكيف تجد كل روح في ذلك اليوم جسدها وتتعرف عليه وتتحد معه من جديد، رغم أنه لن يكون مثل الهيكل في ذلك الوقت. رغم أنه رماد.

^٧ فيفشاير Fifeshire: منطقة في اسكتلندا بين لسان تيري ولسان فورث.

^٨ لسان البنتلند Pentland Firth: قناة ضيقة بين شمال شرق اسكتلندا وجزر أوركني Orkney.

^٩ جرينلاند Greenland: جزيرة تابعة للدنمارك، شمال الأطلسي. بحر سرجاسو Sargasso: جزء من شمال المحيط الأطلسي وهو هادئ عادة نتيجة لوجود الكثير من الأعشاب البحرية.

لا بُدَّ أن هناك من درس ما يكفي ليعرف كيف يتم هذا كله. وهناك أيضًا البعض — كما عرف حديثاً — ممن درسوا وقرءوا وفكروا حتى استنتجوا أنه لا توجد أرواح إطلاقاً. لا أحد يبالي بالحديث عن هؤلاء الناس، والتفكير فيهم مرعب في الحقيقة. كيف يعيشون والخوف — الحقيقي، المؤكد — من الجحيم أمامهم؟

في اليوم الثالث من الإبحار على متن السفينة نهض جيمس الكبير وبدأ يتمشى. ثم يتوقف ويتحدث إلى أي شخص يبدو مستعداً لأن يسمع. يقول اسمه، ويقول إنه من إتريك، من وادي إتريك وغابته، حيث اعتاد الملوك القدماء لاسكتلندا الصيد.

يقول: «وفي حقول فولدين،^{١٠} بعد معركة فولدين، قالوا إن الجثث تناثرت في كل مكان واختاروا رجال إتريك، لأنهم أطول رجال الأرض وأقواهم وأجملهم. لي خمسة أبناء كلهم رجال أقوياء، ليس معي منهم سوى اثنين. أحد أبنائي في نونفا سكوشيا.^{١١} آخر مرة سمعت عنه كان في مكان يُدعى إيكونومي،^{١٢} ولم نسمع عنه كلمة من حينها ولا أعرف إن كان حياً أم ميتاً. أكبر أبنائي رحل ليعمل في الهضاب، والابن قبل الأخير صَمَّم على الذهاب إلى هناك أيضاً، ولم أرَ أحداً منهما مرة أخرى. خمسة أبناء، نعمة من الرب، كبروا جميعاً وصاروا رجالاً، لكن شاءت إرادة الرب ألا يكونوا معي. حياة الرجل مليئة بالأسى. عندي ابنة أيضاً، أكبرهم جميعاً، لكنها قزم تقريباً. طارد كبشُ أمِّها وهي حامل فيها.»

بعد ظهيرة الرابع عشر هبَّت رياح من الشمال وبدأت السفينة تهتز وكأن كل لوح فيها سيطير بعيداً عن الآخر. امتلأت الجرادل بقيء مَن أُصيبوا بالدوار وانزلقت محتوياتها في كل موضع على ظهر السفينة. أمر الجميع بالنزول إلى تحت فانكمش الكثير منهم بجوار الحاجز ولم يبالوا بالاغتسال. لا أحد من أسرتنا أُصيب بالدوار رغم ذلك، توقفت الرياح الآن وأشرقت الشمس ومن لم يبالوا بالموت في القذارة منذ لحظات قصيرة نهضوا وانسحبوا ليغتسلوا حيث ينثر البحارة جرادل من المياه على ظهر السفينة. النساء مشغولات أيضاً يغسلن ويشطفن ويعصرن الملابس العفنة. أسوأ بُؤس وأسرع اكتشاف رأيتُه في حياتي.

^{١٠} فلودين Flodden: هضبة في شمال إنجلترا على حدود اسكتلندا، شهدت معركة في ١٥١٣م، هُزم فيها الاسكتلنديون وشهدت مذابح مروعة.

^{١١} نونفا سكوشيا Nova Scotia: مقاطعة في شرق كندا.

^{١٢} إيكونومي Economy: اسم لعدة أماكن في إنديانا وبنسلفانيا في أمريكا ونونفا سكوشيا في كندا.

فتاة صغيرة في العاشرة أو الثانية عشرة تقف وتشاهد ما يكتبه والتر. ترتدي ثوباً رائعاً وبونيه، شعرها بُني خفيف ملتف. ليس وجهها جميلاً جداً بقدر ما هو مُفعم بالحيوية. تقول: «هل أنت من كابينة؟»

يقول والتر: «لا. لستُ من كابينة.»

«عرفتُ أنك لستُ من كابينة. لا توجد إلا أربع كبائن، واحدة لأبي وواحدة للكابتن وواحدة لأمه، وهي لا تخرج أبداً، وواحدة للسيدتين. لا يفترض أن تكون على هذا الجزء من سطح السفينة إلا إذا كنتُ من كابينة.»

«حسناً، لا أعرف ذلك»، يقول والتر، ولا يهم بالابتعاد.

«رأيتُك من قبل تكتب في كراستك.»

«لم أَرَكَ.»

«لا. كنتُ تكتب فلم تلاحظ. لم أخبر أحداً عنك»، تضيف دون اكتراث، كأنها مسألة اختيار وقد تغيّر رأيها.

حين تغادر، يضيف والتر جملة.

وفي هذه الليلة من سنة ١٨١٨م لم نعد نرى اسكتلندا.

تبدو كلمات مهيبية بالنسبة له. يمتلئ بإحساس العظمة، والهدوء، والأهمية الشخصية.

كان اليوم السادس عشر عاصفًا برياح من الجنوب الغربي وحركة الأمواج سريعة، وانكسر مُنْبَتُّ الذراع من عنف الرياح. وأُخِذْتُ أُختنا أجنيس إلى الكابينة.

«أخت»، كتب، كأنها مثل ماري المسكينة بالضبط، لكن الوضع ليس كذلك. أجنيس فتاة طويلة قوية بشعر كثيف أسود وعينين سوداوين. تتحول حُمرة الخجل على إحدى وجنتيها إلى بقعة بنية شاحبة في حجم أثر الكف. وَحْمَةٌ، يقول الناس إنها تدعو للأسف لأن الفتاة قد تبدو رائعة بدونها. لا يحتمل والتر النظر إليها، لكن ليس لأنها بشعة. لأنه يتوق إلى لمسها، ليحْكُها بأطراف أصابعه. لا تبدو مثل الجلد العادي بل مثل قطيفة على أيل. مشاعره تجاهها مزعجة جداً ولا يتكلم معها إلا على مضض، إذا تحدث معها، وتنتقم منه بقدر هائل من الاحتقار.

تعتقد أجنيس أنها في المياه والأمواج تأخذها إلى أعلى وتُلقي بها إلى أسفل. وكلما أَلَقَتْ بها إلى أسفل كانت أسوأ من سابقتها، وهي تغطس أكثر وأعمق، وتمر لحظة ارتياح قبل أن تتمكن من القبض عليها، لأنه الموجة التالية تحشد قوتها بالفعل لتضربها.

ثم تعرف أحياناً أنها في السرير، سرير غريب ناعم جداً، لكن ذلك كله سيئ لأنها حين تغطس لا توجد مقاومة، لا يوجد موضع صلب يتوقف عنده الألم. يندفع الناس ذهاباً وإياباً أمامها. يُشاهدون جميعاً بشكل جانبي وبجلاء تام، يتحدثون بسرعة شديدة فلا تستطيع متابعة ما يقولون، وبغرابة لا يلتفتون إليها. ترى أندرو وسطهم، واثنين أو ثلاثة من إخوتها. هناك فتيات تعرفهن أيضاً، صديقات اعتادت اللهو معهن في هويك. لا يبالين إطلاقاً بمحنتها.

لم تعرف قط أن لها أعداء بهذا العدد. يضحكون ويتظاهرون بأنهم لا يعرفون. تُغيظها حركتهم حتى الموت.

تتحني أمها عليها وتقول بصوت متشدق بارد يفتقر إلى الحيوية: «أنت لا تحاولين يا فتاتي. لا بدّ أن تحاولي أكثر.» ترتدي أمها ثياباً أنيقة وتتحدث بشكل رائع، وكأنها سيدة من أدنبره.

حشد من الشر يصب في فمها. تحاول بصقه، وهي تعرف أنه سام. تفكر: سأنهض وأنتهي من ذلك. تحاول التحرر من جسدها، كأن كوماً من غضب على نار.

تسمع صوت رجل، يُعطي أوامر. «أمسكوا بها»، يقول، وهي تتمزق وتتمدد مفتوحة للعالم وللنار.

«آه ... آه ... آه»، يقول الرجل، وهو يلهث كأنه يجري في سباق. ثم بقرة ثقيلة جداً، تخور مثقلة باللبن، تشبُّ وتجلس على بطن أجنيس. يقول الرجل: «الآن، الآن»، ويئن بأقصى قوته وهو يحاول رفعها. الحمقى. الحمقى، يسمح لهم بالدخول دائماً.

لم تصبح أفضل حتى الثامن عشر حين ولدتُ بنتاً. معنا جرّاح على متن السفينة ولم يحدث شيء. لم يحدث شيء حتى الثاني والعشرين وكان أقسى يوم مررنا به حتى ذلك الوقت. تعافت أجنيس بشكل عادي حتى التاسع والعشرين حين رأينا سرباً من الدلافين وفي الثلاثين (أمس) كان البحر قاسياً والرياح تعصف من الغرب فنندفع إلى الخلف لا إلى الأمام.

يقول جيمس الكبير: «في الإتريك ما يعتبرونه أعلى منزل في اسكتلندا، وكان المنزل الذي عاش جدي فيه أعلى منه. اسم المكان فوهوب، ويسمونه فوب. كان جدي ويل أوفوب،

ومنذ خمسين عامًا كان من الممكن أن تسمع عنه إذا جئت من أي مكان جنوب الفورث^{١٢} وشمال الأراضي المتنازع عليها.»

يلعن أناس حين يرونه قادمًا ويسعد آخرون بأي تسليّة. يسمع أبناؤه صوته وسط فوضى أخرى على متن السفينة، ويشقون طريقهم في الاتجاه المضاد.

ليومين أو ثلاثة، رفض جيمس الصغير مفارقة ورك ماري. أصر بشدة على البقاء هناك. في الليل نام في عباءتها، ملتفًا بجوارها، وكانت تستيقظ من ألم في جانبها الأيسر، لأنها رقدت متصلة طوال الليل حتى لا تزعجه. ثم نزل في صباح أحد الأيام وأخذ يجري ويركلها إذا حاولت رفعه.

يشد انتباهه كل شيء على السفينة. حتى في الليل يحاول الصعود فوقها والجري في الظلام. تنهض متألمة نتيجة الوضع الذي تنام فيه ونتيجة عدم النوم عمومًا. ذات ليلة تسقط وينطلق الولد ولحسن الحظ تعثر في جسم أبيه وهو يحاول الهرب. منذ ذلك الوقت، يصر أندرو على ربطه كل ليلة. يصيح بالطبع، ويهزه أندرو ويصفعه فيبكي حتى ينام. ترقد ماري جواره في هدوء وتشرح له ضرورة ذلك حتى لا يسقط من السفينة في المحيط، يعتبرها في تلك الأوقات عدوّه، وإذا وضعت يدها على وجهه لتداعبه يحاول عضّها بأسنانه الصغيرة. كل ليلة يذهب إلى النوم في حالة غضب، لكن في الليل حين تنضم إليه، وهو لا يزال شبه نائم مفعّمًا بجلّوة الطفولة، يتشبث بها نعان ويغمرها الحب.

ثم يذهب ذات يوم. تلتفت وهي في طابور ماء الغسيل فلا تجده بجانبها. تقول بضع كلمات للمرأة التي أمامها، ترد على سؤال عن أجنيس والرضيعة، لم تقل للمرأة إلا اسمها — إيزابيل — وفي تلك اللحظة ابتعد.

انقلب كل شيء في لحظة. تغيرت طبيعة العالم. تجري ذهابًا وإيابًا، تصيح باسم جيمس. تجري إلى الغرباء، إلى بحّارة يسخرون منها وهي تتوسل إليهم: «هل رأيتم ولدًا صغيرًا؟ هل رأيتم ولدًا صغيرًا بهذا الطول، عيناه زرقاوان؟»

يقول رجل لها: «رأيتُ خمسين أو ستين منهم بهذا الشكل في آخر خمس دقائق.» رجل يحاول أن يكون ودودًا يقول سوف يظهر، لا ينبغي لماري أن تقلق، يلعب مع بعض الأطفال الآخرين. تتطلّع بعض النساء كأنهن يساعدنها في البحث، لكن بالطبع ما كنّ يستطعن، وراءهن مسؤولياتهن.

^{١٢} الفورث Forth: نهر جنوب وسط اسكتلندا يمتد شرقًا إلى لسان الفورث، مدخل إلى بحر الشمال.

هذا ما تراه ماري بوضوح في تلك اللحظات من العذاب: العالم الذي تحول إلى رعب بالنسبة لها لا يزال العالم العادي نفسه بالنسبة لكل الآخرين وسيبقى كذلك إذا تلاشى جيمس حقًا، حتى لو كان قد زحف من خلال سياج السفينة — لاحظت في كل مكان المواضع التي يمكن أن يحدث فيها ذلك — وابتلعه المحيط.

أبشع الأحداث التي لا يمكن أن تتصورها تبدو بالنسبة لمعظم الآخرين مُحزنة لكنها ليست مآسي خارقة. قد لا تكون غير قابلة للتصور بالنسبة لهم.

أو بالنسبة للرب. لأن الرب حين يخلق طفلًا نادرًا يتمتع بجمال استثنائي ألا يكون هو نفسه مغرمًا باستعادة خليقته، كأن العالم ليس جديرًا به؟

لكنها تدعوه طوال الوقت. في البداية تقول باسم الرب. لكن، وبحثها يُصبح أكثر تخصصًا وبيعض الطرق أكثر غرابة، تنحني تحت حبال الغسيل التي وضعها الناس لعزلهم عن الآخرين، لم تفكر في أن شيئًا يمكن أن يُزعج الناس، تندفع على صناديقهم وتحت ملاءاتهم، ولا تسمعهم حتى حين يلعنونها، تصبح دعواتها أيضًا أكثر تعقيدًا وتهورًا. تحاول التفكير في شيء تُضحى به، شيء يساوي قيمة عودة جيمس إليها. لكن ماذا تملك؟ لا شيء، لا صحة أو منظرًا أو اعتبارًا من أي شخص. لا حظ أو حتى أملًا تضحى به. جيمس كل ما لديها.

كيف تضحى بجيمس من أجل جيمس؟

هذا ما يدور في رأسها.

لكن ماذا بشأن حبها لجيمس؟ الحب الهائل وربما الوثني، ربما حب فظيع لكائن آخر. ما سوف تضحى به تضحى به بسعادة فقط إذا لم يضع جيمس. لو أمكن فقط العثور عليه. فقط إذا لم يكن ميتًا.

تستدعي هذا كله بعد ساعة أو ساعتين من مشاهدة شخص للولد يظهر من تحت دلو كبير فارغ، ويستمتع للصبح. وتقلص نذرها على الفور. فهمها للرب سطحي وغير مستقر، والحقيقة أنها، باستثناء وقت هلع كالذي شعرت به، لا تبالي حقًا. شعرت دائمًا أن الرب أو حتى فكرة الرب أبعد عنها من الآخرين. فيها لا مبالاة عنيدة لا يعرف أحد شيئًا عنها. ربما يتخيل الجميع أنها تتشبث سرًا بالدين لأنه لا شيء آخر متاح أمامها. إنهم مخطئون تمامًا، والآن وقد استعادت جيمس لا تُقدّم حتى شكرًا لكنها تفكر في مدى حماقتها وعجزها عن التسليم بحبها له أكثر من ذلك إلا بأن تتوقف ضربات قلبها.

بعد ذلك يُصِرُّ أندرو على ربط جيمس في الليل وفي النهار أيضًا، في عمود السرير أو في حبل غسيل يُعلِّقونه على ظهر السفينة. عاقب أندرو ابنه على الحيلة التي لعبها، لكن النظرة في عيني جيمس تقول إن حيله لا تنتهي.

تلح أجنيس في طلب الملح، خافت مرأتان ترعيانها من مسافري الكبائن، سيدتان من أدنبره، تقومان بالمهمة بدافع الإحسان، خافتا من إصابتها بحمى.

تقولان لها: «اهدئي الآن. ليست لديك أي فكرة عن أي فتاة محظوظة أنت لأن مستر سوتر على متن السفينة.»

تخبرانه بأن الجنين كان في وضع غير طبيعي وخشوا جميعًا أن يضطر مستر سوتر إلى إجراء عملية لها، وربما يكون في نهايتها. لكنه استطاع تعديل وضعه وإخراجه.

تقول أجنيس: «أحتاج ملحًا من أجل اللبن»، ولا تريدان وضعها مكانها ويؤنبانه بلهجة أدنبره التي تتحدثان بها. غبيتان على أي حال. تشرح لهما كيف يجب وضع بعض الملح في أول لبن يرضعه الطفل، بوضع بعض الحبيبات على الإصبع وعصر نقطة أو اثنتين من اللبن عليه وجعل الطفل يبلعه قبل وضعه على صدر أمه. دون هذا الاحتياط تكون هناك فرصة كبيرة لأن يصبح شبه غبي حين يكبر.

«تقول إحدهما للآخرى: «هل هي مسيحية؟»

تقول أجنيس: «أنا مثلكما.» لكن مما يدهشهما ويشعرهما بالعار أنها تبدأ البكاء بصوت مرتفع، والطفل يصبح معها، نتيجة التعاطف أو الجوع. لكنها لا تزال ترفض إطعامه.

يدخل مستر سوتر ليطمئن عليها. يسأل عن سبب هذا الأسى، فتُخبرانه بالمشكلة.

«وَضَع ملح في معدة الطفل حديث الولادة، من أين أتت بهذه الفكرة؟»

يقول: «أعطيها الملح.» ويبقى ليراها تعصر اللبن على إصبعها الملح، وتضع الإصبع على شفتي الوليد، وتتبع ذلك بحلمتها.

يسألها عن السبب وتخبره.

«وهل يفيد ذلك كل مرة؟»

تخبره، اندهشت قليلًا لأنه غبي مثلها، لكنه أكثر رقة، يفيد دائمًا.

«هل كلكم أذكاء؟ وهل كل الفتيات قويات وجماليات مثلك؟»

تقول إنها لا تعرف شيئًا عن ذلك.

اعتاد الشبان الزائرون أحيانًا، شبان متعلمون من البلدة، التعلق بها وبصديقاتها، يمتدحونهن ويحاولون التحدث إليهن، واعتقدت دائمًا أن أي فتاة تسمح بذلك حمقاء

حتى لو كان الرجل وسيماً. مستر سورت بعيد عن الوسامة، نحيف جداً، يمتلئ وجهه ببثور سيئة، عاملته في البداية كرفيق عجوز. صوته رقيق، وحين يضايقها قليلاً لا يُسبب لها أذى. لا يتعامل رجل بشكل طبيعي مع امرأة بعد أن ينظر إليها ممتدة وأجزاءها الحساسة مكشوفة في الهواء.

«هل تتألمين؟» يسأل، وتعتقد أن هناك ظلاً على وجنتيه المصابتين، يظهر تورد بسيط. تقول إنها ليست أسوأ مما يجب، فيوميء، ويمسك برسغها، وينحني عليه، يضغط على نبضها بقوة.

«قوية مثل خيل السبق»، يقول، ويداه لا تزالان عليها، كأنه لا يعرف أين يضعهما بعد ذلك. يُقرر دفع شعرها للخلف وضغط أصابعه على صدغها، وخلف أذنيها أيضاً. تتذكر هذا اللمس، هذا الضغط الغريب الرقيق الخفيف، بمزيج مشوش من الاستهجان والاشتياق، لسنوات طويلة بعد ذلك.

يقول: «حسناً، لا توجد علامات على وجود حمى.»

يشاهد للحظة الطفلة وهي ترضع.

يقول وهو يتنهد: «كل شيء على ما يرام الآن. لك ابنة جميلة، يمكن أن تقول طوال حياتها إنها ولدت في البحر.»

يصل أندرو بعد ذلك ويقف عند طرف السرير. لم يرها قط في مثل هذا السرير (سرير منسق، ربما مثبت إلى الحائط). يحمر خجلاً أمام السيدتين اللتين أحضرتا طسّاً لتنظيفها.

«ذلك، هل هذا؟» يقول بإيماءة — ليست نظرة — إلى الحزمة التي بجوارها. تضحك بطريقة مثيرة وتسأل ماذا يظن أن تكون. ذلك كله يوقعه من مقعده غير الثابت، ليؤكد ادعاءه بأنه هادئ. يتصلب الآن، ربما يصبح أكثر احمراراً، يغرق في النار. أليس كما قالت بالضبط. المشهد كله، رائحة الرضیعة واللبن والدم، ورائحة الطست، والملابس، والمراأتان اللتان تقفان بجواره، بنظراتهما الحقيقية التي قد تبدو لرجل نظرات لوم مليئة بالسخرية في الوقت ذاته.

يبدو وكأنه لا يستطيع التفكير في كلمة أخرى يقولها، وهكذا عليها أن تطلب منه، برحمة خشنة، أن ينصرف، ثمة عمل يُعمل هنا.

اعادت بعض الفتيات أن يقلن حين تستسلمين في النهاية وتراهنين على رجل — حتى إذا سلّمت لم يكن الاختيار الأول بالنسبة لك — فإن ذلك يُقدّم لك شعوراً يائساً لكنه

هادئ ولذيذ. لا تقول أجنيس إن هذا ما شعرتُ به تجاه أندرو. كل ما شعرت به هو أنه أشرف رجل والرجل المناسب لها في ظروفها، ولم يحدث قط أن تركها وتخلّى عنها. واصل والتر الذهاب إلى المكان الخاص نفسه ليكتب في كراسته ولم يره أحد هناك، إلا الفتاة بالطبع. ذات يوم يصل إلى المكان وتكون هناك قبله، تنط بحبل أحمر مزخرف. تتوقف حين تراه، مقطوعة النفس. وعلى الفور تحبس نفسها قبل أن تبدأ في السعال، ويستغرق الأمر عدة دقائق قبل أن تتمكن من الكلام. تغطس بجوار كوم من القماش يوارى البقعة، محمرة خجلًا، وعيناها ممتلئتان بدموع صافية من السعال. يقف ببساطة ويشاهدها، حذرًا من هذه النوبة ولا يعرف ماذا يفعل.

«هل تريدين مني أن أنادي إحدى السيدتين؟»

إنه على اتصال بسيدتي أدنبره الآن، بسبب أجنيس. تهتمان بشكل طيب بالأُم والطفلة وماري وجيمس الصغير، وتعتقدان أن الأب الكبير مضحك. وهما معجبتان أيضًا بأندرو، ووالتر الذي يبدو لهما خجولًا.

تهز الفتاة التي انتابتها نوبة سعال رأسها المجعد الشعر بعنف.

«لا أريدهما»، تقول، حين تستطيع النطق. «لم أخبر أحدًا قط بأنك تأتي إلى هنا. ومن ثم يجب ألا تخبر أحدًا عني.»

«حسنًا، من حَق أن تكوني هنا.»

تهز رأسها مرة أخرى وتُشير له بالانتظار حتى تستطيع التحدث بشكل أسهل.

«أقصد أنك رأيتني أففز. خبأ والذي حبل النط لكنني عرفتُ أين خبأه.»

يقول والتر بتعقل: «ليس السبب، ما الخطأ إذن في أن تنطي الحبل.»

تقول مستعيدة نبرتها الجريئة: «كيف أعرف؟ ربما يعتقد أنني أكبر من أن أفعل ذلك. هل تقسم ألا تخبر أحدًا؟»

يفكر والتر: يا لها من كائن صغير غريب متغطرس. تتحدث فقط عن والدها، فيعتقد على الأرجح أنها ليس لها إخوة أو أخوات أو — مثله — أم. هذه الحالة ربما جعلته مدللًا ومنعزلًا في الوقت ذاته.

تصبح الفتاة — اسمها نيتي — زائرة تتردد على المكان حين يحاول والتر الكتابة في كراسته. تقول دائمًا إنها لا تريد إزعاجه، لكن بعد أن تبقى هادئة بشكل مدهش لخمس دقائق تقريبًا تقاطعه بسؤال عن حياته أو بمعلومات عن حياتها. صحيح أنها دون أم ووحيدة. لم تذهب إلى المدرسة قط. تتحدث أكثر ما تتحدث عن حيواناتها الأليفة — التي

ماتت وتلك التي تعيش في منزلهم في أدنبره — وامرأة اسمها مس أندرسون، اعتادت السفر معها وتعليمها. يبدو أنها سعدت برحيل هذه المرأة، ومن المؤكد أن مس أندرسون، أيضًا، سعدت بالرحيل، بعد كل الخدع التي مورست معها؛ ضفدعة حية في حذاءها وفأر من رداؤها الصوف لكنه يبدو مثل فأر حي في سريرها.

زارت نيتي أمريكا ثلاث مرات. والدها تاجر نبيذ تأخذه تجارته إلى مونتريال. تريد أن تعرف كل شيء عن طريقة حياة والتر وأهله. أسألتها بالمعايير الريفية وقحة تمامًا. لكن والتر لا يبالي حقًا. في أسرته لم يكن قط في وضع يسمح له بأن يخبر أحدًا أصغر منه أو يُعلمه أو يزعجه، وهذا يسعده.

ماذا تتعشى عائلة والتر في البيت؟ كيف ينامون؟ هل يحتفظون بحيوانات في المنزل؟ هل للأغنام أسماء، وما أسماء الكلاب التي تصاحب الأغنام، وهل يمكن أن تتخذ منها حيوانات أليفة؟ ما نظام المعلمين في فصول المدرسة؟ هل المدرسون قُساء؟ ماذا تعني بعض كلماته التي لا تفهمها، وهل كل الناس في المكان الذي أتى منه يتحدثون مثله؟ يقول والتر: «أوه، نعم. حتى جلالة الدوق يتحدث بهذه الطريقة. دوق بكلوتش».

تضحك وتخطب بتلقائية بقبضتها الصغيرة على كتفه. «الآن أنت تضايقني. أعرف ذلك. أعرف أن الدوق لا يُقال له جلالة. لا يُقال له.» ذات يوم تأتي بورقة وأقلام رسم. تقول إنها اشترتها لتشغل نفسها، فلا تزعجه. تعرض أن تُعلمه الرسم إذا أراد. لكن محاولاته تضحكها، وبتعمد يرسم أسوأ وأسوأ، حتى ضحكت بشدة وأصيبت بإحدى نوبات السعال التي تصيبها. ثم تقول إنها سترسم بعض الرسوم في ظهر كراسته، لتذكّره بالرحلة. ترسم أشرعة مرتفعة ودجاجة هربت بطريقة ما من قفصها تحاول السفر مثل طيور البحر على الماء. ترسم من ذاكرتها كلبها الذي مات. وترسم صورة لجبال الجليد التي رأتها، أعلى من المنازل، في إحدى رحلاتها السابقة مع والدها. الشمس الغاربة تسطع خلال هذه الجبال الجليدية وتجعلها تبدو — كما تقول — مثل قلاع من الذهب. وريدية وزهبية.

كل ما رسمت، بما في ذلك جبال الجليد، يبدو ساذجًا ومضحكًا، كان مُعبرًا بشكل خاص بالنسبة لها.

«في يوم سابق كنتُ أحدثك عن ويل أوفوب، جدِّي، وهناك عنه أكثر مما أخبرتك. لم أخبرك بأنه كان آخر شخص في اسكتلندا يتحدث إلى الجنّيات. من المؤكد أنني لم أسمع قط عن شخص آخر، في زمنه أو بعد ذلك.»

يجلس والتر في ركن، بجوار بخّارة يصلحون الأشرعة الممزقة، ومن الأصوات الصادرة خلال القصة يخمن أن معظم الجمهور الذي لا يراه من النساء.

هناك رجل طويل في ملابس أنيقة — مسافر في كابينة بالتأكيد — توقّف ليسمع على مرأى من والتر. ثمة شخصية قريبة على الجانب الآخر لهذا الرجل، وفي لحظة من الحكاية تندفع هذه الشخصية لتتطلع إلى والتر فيرى أنها نيتي. يبدو أنها على وشك أن تضحك، لكنها تضع إصبعًا على شفثيها وكأنها تحذّر نفسها — والتر — للحفاظ على الصمت.

لا بد أن الرجل والدها بالطبع. يقف الاثنان يستمعان بهدوء حتى تنتهي الحكاية. ثم يلتفت الرجل ويتكلم مباشرة، بطريقة مألوفة ودمثة، مخاطبًا والتر: «هل تدوّن ما يمكن أن تصنعه من هذا؟» يسأل الرجل ويشير إلى كراسة والتر.

والتر حذّر، لا يعرف ما يقول. لكن نيتي تنظر إليه تطمئن بهدوء، ثم تبعد عينيها وتنتظر جوار أبيها كما ينبغي أن تتصرف أنسة صغيرة محتشمة.

يقول والتر بصرامة: «أكتب مذكرات عن هذه الرحلة.»

«ممتع. حقيقة ممتعة، لأنني أيضًا، أحتفظ بمذكرات عن هذه الرحلة. أتساءل إن كنا نجد الأشياء نفسها جديرة بالكتابة عنها.»

«أكتب ما يحدث فقط»، يقول والتر، راغبًا في توضيح أنها وظيفة وليست متعة تافهة. لا يزال يشعر بأن بعض التوضيح يستحق القول: «أكتب لأحفظ مسار كل يوم بحيث أستطيع في نهاية الرحلة أن أكتب رسالة إلى الوطن.»

يصبح صوت الرجل أرق وأسلوبه ألطف من أي مخاطبة اعتاد والتر أن يسمعها. يتساءل إن كان يسخر منه بطريقة ما. أم أن والد نيتي من النوع الذي يبدأ التعارف على أمل أن يحصل على نقودك من أجل استثمارات تافهة.

لا يدل منظر والتر أو ملابسه على أنه هدف محتمل.

«هكذا لا تصف ما تراه؟ ما يحدث فقط، كما تقول؟»

والتر على وشك أن يقول لا، ثم يقول نعم. لأنه فكّر للتو إذا كان يكتب أن هناك رباحًا عنيفة، أفلا يكون ذلك وصفًا؟ لا تعرف أين تكون مع هذا النوع من الناس.

«لا تكتب عما سمعت؟»

«لا أكتب.»

«قد يكون جديرًا بالكتابة. ثمة أناس حولنا الآن يتطفلون في كل جزء من اسكتلندا ويسجلون كل ما يقوله هؤلاء القرويون المسنون. يعتقدون أن الأغاني والقصص القديمة

تختفي وأنها جديرة بالتسجيل. لا أعرف ما يتعلق بهذا، ليس من شأني. لا أندھش إذا كان الذين كتبوا ذلك يجدون أنه يستحق ما تعرضوا له، أقصد أن أقول: سوف يكون هناك كسب مادي من وراء ذلك.»

تتحدث نيتي بشكل غير متوقع.

«أوه، اسكُتْ يا أبي. يبدأ الرفيق العجوز مرة أخرى.»

هذا ما لا تقوله، بخبرة والتر، أي ابنة لأبيها، لكن الرجل يبدو على استعداد لأن يضحك، متطلعًا إليها بإعجاب.

ينطلق صوت جيمس الكبير في هذه اللحظة متكسرًا بتصميم وتأنيب على صوت جمهوره الذين ربما اعتقدوا أنه كان الوقت المناسب لأحاديثهم الخاصة.

«ولا يزال هناك وقت آخر، لكن في الأيام الطويلة في الصيف، على الهضاب في وقت متأخر من اليوم لكن قبل أن يحل الظلام...»

سمع والتر القصص التي ينطلق والده في روايتها، وآخرون مثله، طوال حياته، والغريب أنه لم يسمعها قط من أبيه حتى جاءوا على متن هذه السفينة. كان يعرف أن أباه لوقت قريب، وهو متأكد من ذلك، لا يجد فائدة من ورائها.

اعتاد أبوه أن يقول: هذا المكان الذي نعيش فيه رهيب. يتمسك الناس جميعًا بالثقافة والعادات السيئة، وحتى صوف خرافنا خشن جدًا لا تستطيع بيعه. الطرق سيئة جدًا ولا يستطيع حضان السير أكثر من أربعة أميال في الساعة. وللحرج هنا يستخدمون المعاول أو المحراث الاسكتلندي القديم، بينما توجد محاريث أفضل في أماكن أخرى منذ خمسين سنة. «أوه، نعم، نعم»، يقولون حين تسألهم. «أوه، نعم، لكن هذا المكان القريب شديد الانحدار، الأرض ثقيلة جدًا.»

قد يقول: «الولادة في الإتريك تعني الولادة في مكان متخلف، حيث يؤمن الجميع بالقصص القديمة ويشاهدون الأشباح، وأقول لعنة أن تولد في الإتريك.»

ومن المرجح تمامًا أن ذلك قد يقوده إلى موضوع أمريكي، حيث تستخدم كل بركات الاختراعات الحديثة بلهفة ولا يتوقف الناس عن تطوير عالمهم.

لكنه يصغي إليه الآن.

«يجب أن تأتي وتحدث إلينا على ظهر السفينة من فوق»، يقول والد نيتي لوالتر حين انتهى جيمس الكبير من قصته. «ورائي عمل أفكر فيه ولا أكون في صحبة ابنتي كثيرًا. ممنوع عليها التنقل؛ لأنها لم تُشَفَ تمامًا من البرد الذي أصيبت به في الشتاء، لكنها مغرمة بالجلوس والحديث.»

«لا أعتقد أنني معتاد على الذهاب إلى هناك»، يقول والتر ويعاني من بعض الارتباك. «لا، لا، لا يهتم. ابنتي وحيدة. تحب القراءة والرسم، وتحب الصحبة أيضًا. تستطيع أن تريك كيف ترسم إذا أُحِبَّت. يمكن إضافة ذلك إلى مذكراتك.»

هكذا يجلسان في الهواء ويرسمان ويكتبان. أو تقرأ له بصوت عالٍ من كتابها المفضل، وهو «رؤساء اسكتلندا».^{١٤} يعرف القصة — من لا يعرف وليم والاس؟ — تقرأ بسلاسة وبسرعة مناسبة تمامًا وتجعل بعض الأمور رزينة وبعضها مرعبًا وبعضها مضحكًا، وهكذا يغرم بسرعة بالكتاب مثلها. حتى مع أنها، وهي تقرأ، تكون قد قرأت اثنتي عشرة مرة بالفعل.

يفهم الآن بشكل أفضل لماذا تطرح عليه الكثير من الأسئلة. يُدْكَرُها هو وشعبه بالناس في كتابها، مثل هؤلاء الناس كانوا على الهضاب وفي الوديان في العصور الغابرة. ماذا تعتقد إذا عرفت أن الرفيق العجوز، نسّاج الحكايات القديمة الذي ينطلق على السفينة كلها ويدفع الناس إلى الاستماع كأنهم أغنام — ماذا تعتقد إذا عرفت أنه والد والتر؟

ربما تبتهج وربما يزداد فضولها بشأن أسرة والتر أكثر من قبل. قد لا تزدريهم، إلا بالطريقة التي لا حيلة لها فيها أو لا تعرفها.

وصلنا إلى شاطئ الصيد في نيوفاوندلند^{١٥} في الثاني عشر من يوليو وفي التاسع عشر رأينا الأرض وكانت مشهدًا ممتعًا لنا. أبحرنا بين نيوفاوندلند وجزيرة سانت بول وتعرّضنا لرياح معتدلة في الثامن عشر والتاسع عشر ووجدنا أنفسنا في النهر صباح العشرين على مرمى البصر من أرض أمريكا الشمالية. استيقظنا في الواحدة صباحًا، وأعتقد أن كل المسافرين كانوا خارج الأسرّة في الساعة الرابعة يُحدّقون في الأرض، مغطاة تمامًا بالغابات، والمشهد جديد تمامًا بالنسبة لنا. جزء من نونفا سكوشيا، بلاد جميلة كثيرة التلال.

هذا يوم العجائب. الأرض مغطاة بأشجار مثل رأس مشعرة وخلف السفينة تشرق شمس ساطعة على قمم الأشجار. السماء صافية ومتألقة مثل طبق صيني والمياه تضطرب بشكل جميل بتأثير الرياح. انتهى أثر الضباب، والهواء مفعم برائحة راتنج تفوح من

^{١٤} رؤساء اسكتلندا The Scottish Chiefs: رواية تاريخية تأليف جان بوتر (١٨٠٩م). وليم والاس Wallace (١٢٧٢-١٣٠٥م): وطني اسكتلندي قاد المقاومة ضد الإنجليز وسيطر على اسكتلندا سنة ١٢٩٨م.

^{١٥} نيوفاوندلند Newfoundland: مقاطعة شرق كندا.

الأشجار. تومض طيور البحر فوق الأشرعة وكلها ذهبية مثل كائنات الجنة، يطلق البَحَّارة بضعة أعيرة نارية ليبعدوها عن الحبال.

تحمل ماري جيمس الصغير ليتذكر دائماً هذا المشهد الأول للقارة التي ستكون وطناً له. تخبره باسم هذه الأرض؛ نوفا سكوشيا.

تقول: «تعني اسكتلندا الجديدة.»

تسمعها أجنيس وتساءل: «لماذا إذن لا تُسمَّى بهذا الاسم؟»

تقول: «إنه اسم لاتيني على ما أظن.»

تُعبّر أجنيس عن سخطها بنفاد صبر. استيقظت الطفلة مبكراً نتيجة الصخب والاحتفال، وهي الآن في حالة مزرية، تريد أن تكون على ثدي أمها طوال الوقت، تنوح كلما حاولت أجنيس إبعادها. يحاول جيمس الصغير، وهو يشاهد هذا كله عن قرب، أن يكون على الثدي الآخر، وتضربه أجنيس بقوة حتى يترنح.

«رضاعة يا سيدتي»، تقول أجنيس. يبكي قليلاً، ثم يزحف خلفها ويقرص أصابع قدم الطفلة.

ضربة أخرى.

«أنت بيضة فاسدة، أنت. أفسدك شخص ما فظننت أنك دبر اللورد.»^{١٦}

تشعر ماري حين ترفع أجنيس صوتها كأنها على وشك أن تتلقَّى صفعاً أيضاً.

يجلس جيمس الكبير معهم على ظهر السفينة، لا يلتفت لهذا الإزعاج العائلي.

تقول ماري: «تأتي وتُلقي نظرة على البلاد يا أبي؟ يمكن أن تشاهد منظراً أجمل من

عند الحاجز.»

يقول جيمس الكبير: «أرى بما يكفي»، لا شيء في صوته يوحي بأن الرؤى من حوله

تبهجه.

يقول: «كانت إترك مكسوة بالأشجار في سالف الأيام. سكنها الرهبان في البداية وبعد

ذلك كانت الغابة الملكية. كانت غابة الملك. أشجار الزان، أشجار البلوط، أشجار السمن.»^{١٧}

«أشجار بهذا العدد؟» تقول ماري، وقد صارت أكثر جرأة من المعتاد نتيجة روعة

اليوم الجديد.

^{١٦} دبر اللورد: في الأصل Laird كلمة اسكتلندية تعني صاحب العزبة، عن كلمة lord الإنجليزية.

^{١٧} أشجار السمن rowan: أشجار أوروبية صغيرة زهورها بيضاء وثمارها حمراء كالتوت.

«أشجار أفضل. أقدم. اشتهرت الغابة الملكية في إترك في كل أرجاء اسكتلندا.»
تواصل ماري: «ونوفا سكوشيا حيث يوجد أخونا جيمس.»
«قد يوجد وقد لا يوجد. من السهل أن يموت المرء هنا ولا يعرف أحد أنه مات. ربما أكلته الحيوانات البرية.»

تتساءل ماري كيف لأبيها أن يتكلم بهذه الطريقة، عن أن الحيوانات البرية قد تكون أكلت ابنه. هل هكذا تسيطر أحزان السنين على المرء، تحوّل قلبه وكان من لحم إلى قلب من الحجارة، كما يقال في الأغنية القديمة. وإذا كان الحال كذلك، بأي قدر من اللامبالاة والازدراء يمكن أن يتحدث عنها، هي التي لم تعن له قط جزءاً مما كان يعنيه له الأولاد؟
أحضر شخص كمنجة على ظهر السفينة وأخذ يضبطها ليعزف عليها، تشتتته أصوات الناس المتعلقين بالحاجز، وكل منهم يشير للآخر بما يمكن أن يراه من نفسه — مثل تكرار الاسم الذي يعرفه الجميع الآن، نوفا سكوشيا — ويبدأ الدعوة للرقص. الرقص في السابعة صباحاً.

تقول أجنيس على الفور: «من يرعى الولد؟ لن أنهض وأطارده.» كانت مغرمة بالرقص، لكنها ممنوعة الآن ليس فقط بسبب الطفلة الرضيعة بل أيضاً نتيجة آلام في أجزاء من جسمها كانت ممزقة في الولادة.

ترفض ماري وتقول إنها لا تستطيع الذهاب، لكن أندرو يقول: «نُقِيده بالحبل.»
تقول ماري: «لا، لا. لست في حاجة إلى الرقص.» تعتقد أن أندرو أخذته الشفقة بها، متذكراً كيف اعتادت أن تُهمل في الألعاب المدرسية وفي الرقص، برغم قدرتها على الجري والرقص بشكل جيد. أندرو الأخ الوحيد من إخوتها الذي يفكر في مثل هذه الأمور، لكنها تعتقد أنه تصرف غالباً مثل الآخرين وتركها مهملة كما كانت دائماً. تثير الشفقة سخطها.

يبدأ جيمس الصغير الشكوى بصوت مرتفع، وقد عرف كلمة «حبل».

يقول أبوه: «اهداً. اهداً وإلا ضربتك.»

يدهشهم جيمس الكبير بالانتباه إلى حفيده.

«أنت أيها الغلام الصغير. أنت اجلس بجانبى.»

تقول ماري: «أوه، لن يجلس. سيجري ولن تستطيع مطاردته يا أبي. سأبقى.»

يقول جيمس الكبير: «سيجلس.»

تقول أجنيس لماري: «حسناً، استقري. اذهبي أو ابقى.»

يتطلع جيمس الصغير من شخص لآخر، متنفساً بحذر.

يقول جده: «ألا يعرف حتى أبسط كلمة. اجلس يا غلام هنا.»

ينزل جيمس الصغير، على مضض، إلى البقعة المحددة.
«الآن اذهبي»، يقول جيمس الكبير لماري. والكل في حالة ارتباك، على وشك البكاء، تذهب.

لا يرقص الناس في إطار الريل^{١٨} فقط بل يتجاوزونه تمامًا، على سطح السفينة. يمسون بأي شخص ويلفون. يمسون حتى ببعض البحارة، إذا استطاعوا. يرقص رجال مع نساء، يرقص رجال مع رجال، ترقص نساء مع نساء، يرقص أطفال مع آخرين أو وحدهم أو دون أي فكرة عن الخطوات، يقفون في الطريق، لكن الجميع في طريق الجميع ولا يهم.

أمسكت ماري بيد أندرو وكان يجعلها تلف، مرّت بآخرين انحنوا لها مندفعين نحو جسمها الضئيل. ترقص على مستوى الأطفال، رغم أنها أقل جرأة وابتهاجًا. لا حيلة لها مع كثافة الأجسام الكثيرة، لا تستطيع التوقف، عليها أن تتحرك وتلف مع الموسيقى وإلا وقعت أرضًا.

يقول جيمس الكبير: «الآن، استمع لأحكي لك. كان الرجل العجوز، ويل أوفوب، جدي — كان جدي مثلما أنا جدك — ويل أوفوب يجلس خارج منزله في المساء، يستريح. المناخ صيفي معتدل. وحده تمامًا. جاء ثلاثة أولاد لم يكونوا أكبر منك، إلى زاوية منزل ويل. قالوا له مساء الخير. يقولون: «مساء الخير يا ويل أوفوب». «حسنًا، مساء الخير يا أولاد. ماذا أقدم لكم؟» يقولون: «هل يمكن أن تمنحنا سريًا الليلة أو مكانًا ننام فيه؟» فيقول: «نعم، نعم، أعتقد أنه ليس من الصعب على ثلاثة أولاد صغار مثلكم أن يجدوا مكانًا لهم.» يدخل المنزل وهم يتبعونه ويقولون: «بالمناسبة، هل يمكن أن تعطينا المفتاح أيضًا، المفتاح الفضّي الكبير الذي لنا عندك؟» حسنًا، يتطلع ويل حوله، ويبحث عن المفتاح، حتى يقول لنفسه، أي مفتاح هذا؟ لأنه كان يعرف أنه لم يكن لديه هذا الشيء في حياته. لم يكن لديه قط مفتاح كبير أو مفتاح فضّي. «عن أي مفتاح تتحدثون؟» ويلتفت فلا يجدهم. يخرج من المنزل، يلف حول المنزل كله، يتطلع إلى الطريق. لا أثر لهم. يتطلع إلى التلال. لا أثر. وعرف ويل الأمر. لم يكونوا أولادًا إطلاقًا. آه، لا. لم يكونوا أولادًا إطلاقًا.»

^{١٨} الريل reel: رقصة سريعة من أصل اسكتلندي.

لم يصدر جيمس صوتًا. خلفه جدار سميك صاخب من الراقصين، وعلى جانبه أمه، وبهيمية صغيرة متشبثة تعض في جسمها. وأمامه العجوز بصوته المدمدم، صوت ملح بعيد، وهبة نفسه المر.

أول مواجهة واعية للطفل مع شخص أناني مثله.

يركز انتباهه بالكاد ليعرف أنه لم يُهزَم تمامًا. يقول: «مفتاح، مفتاح؟»

ترى أجنيس، وهي تشاهد الرقص، أندرو، أحمر الوجه وقدماه ثقيلتان، يمسك يدًا بيد نساء مرحات مختلفات. ليست هناك فتاة يقلق شكلها أو رقصها أجنيس. لم يقلقها أندرو قط، على أي حال. ترى ماري تتمايل، وحمرة الخجل في وجنتيها، رغم شدة الخجل، والقصر الشديد، لتتنظر لأي شخص في وجهه. ترى ساحرة بلا أسنان تقريبًا، أنجبت طفلًا بعدها بأسبوع، ترقص مع رجلها ممصوص الوجه. لا ألم في جسمها. لا بد أنها ولدت الطفل ببراعة كأنه فأر، ثم أعطته لواحدة من بناتها اللائي يشبهن الأعشاب الضارة لتهتم به.

ترى مستر سوتر، الجراح، مقطوع النفس، يبتعد عن امرأة تشده، يتملص من الرقص ويأتي ليحييها.

تتمنى ألا يفعل. يرى حماها؛ ربما يكون عليه الاستماع إلى ثرثرة الأحمق العجوز. يرى ملابسهم الريفية القذرة، لم تعد نظيفة. يراها على حقيقتها.

يقول: «أنت هنا إذن. أنت هنا مع ثروتك.»

كلمة لم تسمعها أجنيس قط في الإشارة إلى طفل. يبدو كأنه يتحدث إليها كما يتحدث إلى شخص من معارفه، ليدي، لا كما يتحدث طبيب مع مريضة. يُربكها هذا السلوك ولا تعرف كيف ترد.

«طفلتك بخير؟» يقول، بشكل أكثر واقعية. يحبس أنفاسه من الرقص، والعرق يغطي

وجهه.

«نعم.»

«وأنت نفسك؟ هل استعدت عافيتك؟»

تهز كتفيها قليلًا، حتى لا تبعد الطفلة عن الحلمة.

«لونك رائع على أي حال، وهي علامة طيبة.»

يسأل بعد ذلك إن كانت تسمح له بالجلوس والتحدث معها بضع لحظات، ومرة أخرى ترتبك أكثر من تصرفه وتقول له إنه يمكن أن يفعل ما يحلو له.

ينظر حموها للجراح — ولها أيضًا — نظرة احتقار، لكن مستر سوتر لا يلاحظها، ربما حتى لا يدرك أن العجوز والولد ذا الشعر الأشقر الذي يجلس منتصب الظهر في مواجهة العجوز لهما علاقة بها.

يسأل: «ماذا ستفعلين في غرب كندا؟»

يبدو لها أسخف الأسئلة. تهز رأسها؛ ماذا تقول؟ تغسل وتخطط وتطبخ ومن المؤكد غالبًا أن ترضع المزيد من الأطفال. حيث لا يهم ذلك كثيرًا. سيكون ذلك في منزل، ولن يكون منزلًا رائعًا.

تعرف الآن أن هذا الرجل يحبها وبأي طريقة. تتذكر أصابعه على جلدها. أي أذى يمكن أن يحدث رغم ذلك، لامرأة معها طفلة على صدرها؟ تشعر بارتباك من أن تُظهر له قدرًا ضئيلاً من المودة.

تقول: «ماذا تفعل؟»

يبتسم ويقول يفترض أن يواصل العمل الذي تدرَّب عليه، وأن الناس في أمريكا — هكذا سمع — في حاجة لأطباء وجراحين، مثل أي شعب آخر في العالم.

«لكنني لا أنوي أن أمكث في مدينة، أحب أن أذهب بعيدًا حتى نهر الميسيسيبي على الأقل. كل ما وراء الميسيسيبي كان تابعًا لفرنسا كما تعرفين، لكنه تابع الآن لأمريكا وهي منطقة واسعة جدًا، أي شخص يستطيع الذهاب إلى هناك، بشرط أن يمر بالهنود. لا أبالي بذلك أيضًا. وحيث يدور قتال مع الهنود تزداد الحاجة للجراح.»

لا تعرف شيئًا عن نهر الميسيسيبي، وتعرف أن مستر سوتر لا يبدو رجلًا محاربًا، لا يبدو أنه يحتل مشاجرة مع غلمان في هويك، ناهيك عن الهنود الحمر.

يدور راقصان قريبًا جدًا منهما فيهب الهواء في وجهيهما. فتاة صغيرة، طفلة، تطير جيبتها، ترقص مع والتر، أخي زوج أجنيس. يقوم والتر ببعض الانحناءات السخيفة لأجنيس والجراح وأبيه، والفتاة تدفعه ليلف وهو يضحك لها. ترتدي مثل سيدة صغيرة، تضع عقدًا في شعرها. يسطح وجهها بالبهجة، وجنتاها متألقتان مثل مشكاتين، تعامل والتر بألفة شديدة، كأنها تمسك بدمية كبيرة.

يقول مستر سوتر: «هذا الفتى صديقك؟»

«لا، أخو زوجي.»

تضحك الفتاة بتلقائية شديدة، وهي والتر — من خلال تهورها — أسقطا تقريبًا اثنين آخرين في الرقص. لا تحتمل الضحك، وعلى والتر أن يسندها. ويتبين أنها لا تضحك بل تسعل. يضمها والتر إليه، ويحملها تقريبًا إلى الحاجز.

«هناك فتاة لن تضم طفلاً أبداً إلى صدرها»، يقول مستر سوتر وعيناها تطيران إلى الطفلة الرضيعة قبل أن تستقر مرة أخرى على الفتاة. «لا أعتقد أنها ستُعمر طويلاً لترى الكثير من أمريكا. أليس هناك أحد يهتم بها؟ لا ينبغي أن يُسمح لها بالرقص.»

يقف ليرى الفتاة والتر يمسك بها قرب الحاجز.

يقول: «هناك، توقفتُ. لا يوجد نزييف. هذه المرة على الأقل.»

ترى أجنيس أنه يشعر بالرضا إذا مرَّ بهذه الفتاة. ويخطر لها أن ذلك يرجع لحالته بالضرورة، لا بد أنه يعتقد أنه ليس سيئاً جداً بالمقارنة.

صرخة عند الحاجز، شيء لا علاقة له بالفتاة والتر. صرخة أخرى، ويتوقف كثير من الناس عن الرقص ويندفعون للنظر في الماء. ينهض مستر سوتر ويخطو بضع خطوات في ذلك الاتجاه، متتبّعاً الحشد، ثم يعود.

يقول: «تمساح. يقولون هناك تمساح يمكن رؤيته من الجانب.»

«ابقَ هنا!» تصيح أجنيس بصوت غاضب، فيلتفت إليها في دهشة، ويرى أن كلماتها موجّهة إلى جيمس الصغير، الذي على قدميها.

«هذا ولدك إذن؟» يتعجب مستر سوتر، كأنه اكتشف اكتشافاً خطيراً. «هل أحمله

ليُلقى نظرة؟»

وها هي ماري — يتصادف أن ترفع وجهها والمسافرون يتدافعون — ترى جيمس الصغير، وتزداد دهشتها، لأنه محمول عبر ظهر السفينة في ذراعي غريب مسرع، رجل شاحب أسود الشعر يسير بتصميم، من المؤكد أنه غريب. لص أطفال، أو قاتل أطفال، يتجه إلى الحاجز.

تصرخ صرخة مدوية ليعتقد أي شخص أنها وقعت في براثن الشيطان، ويفسح الناس لها كما يفسحون لكلب مجنون.

تصرخ: «توقف يا لص! توقف يا لص! خذوا الولد منه. أمسكوه. جيمس! جيمس!

اقفز!»

تندفع إلى الأمام وتتشبث بكاحلي الطفل، تصرخ فيه فيبكي من الخوف والهجوم. يكاد الرجل الذي يحمله يسقط لكنه لا يتخلّى عنه. يمسك به ويدفع ماري بقدمه.

«أمسكوا بيديها»، يصيح فيمن حولهم. انقطع نفسه: «إنها في نوبة.»

شقّ أندرو طريقه، بين مَنْ لا يزالون يرقصون ومن توقفوا لمشاهدة الدراما. يحاول بشكل ما أن يمسك بماري وجيمس الصغير ويوضح أن أحدهما ابنه والأخرى أخته وأنها ليست مسألة نوبات.

يتم شرح كل شيء بإيجاز مع انحناءات واعتذارات من مستر سوتر.
يقول الجرّاح: «توقفت لأتحدث بضع دقائق مع زوجتك، لأسألك إن كانت بخير. لم يتّح لي وقت لأودعها، وعليك أن تفعل ذلك نيابة عني.»
تبقى ماري غير مقتنعة بقصة الجراح. بالطبع ربما قال لأجنيس إنه يأخذ الولد ليُلقي نظرة على التماسح. لكن ذلك لا يجعل الأمر حقيقة. حين تومض في عقلها صورة الرجل الشرير وهو يحمل جيمس، تشعر في صدرها بقوة صرختها، إنها مندهشة وسعيدة. لا تزال تؤمن بأنها أنقذته.

توقفنا لضعف الرياح في الحادي والعشرين والثاني والعشرين وهبّت رياح أقوى إلى حد ما في الثالث والعشرين، لكننا جميعاً انتبهنا بعد الظهرية على هبة من الرياح مصحوبة برعد وبرق والجو مرعب جداً وتمزق شراع رئيسي في السفينة إلى أشلاء بفعل الرياح، وأُصلِح قبل قليل. بقيت الهبة من ثماني دقائق إلى عشر تقريباً ولدة أربع وعشرين ساعة هبّت رياح معتدلة جعلتنا نقطع مسافة كبيرة في النهر، حيث أصبح أكثر استقامة فرأينا الأرض على ضفتي النهر. لكننا توقفنا لضعف الرياح مرة أخرى حتى الحادي والثلاثين حين هبّت نسمة لساعتين فقط.

والد نيتي اسمه مستر كربت. يجلس أحياناً ويستمتع إلى نيتي تقرأ أو تتحدث إلى والتر. اليوم التالي للرقص، والكثير من الناس في حالة مزاجية سيئة نتيجة الإنهاك والبعض من شرب الويسكي، ولا أحد يبالي بالنظر إلى الشاطئ، يبحث عن والتر ليتحدث إليه.
يقول: «نيتي معجبة بك بشدة، فكرت في ضرورة مجيئك معنا إلى مونتريال.»
يضحك ضحكة اعتذار، ويضحك والتر أيضاً.

يقول والتر: «إذن لا بد أنها تعتقد أن مونتريال في غرب كندا.»
«لا. لا. أنا لا أمزح. بحثتُ عنك لهذا الغرض وهي ليست معي. أنت رفيق رائع لها ويسعدها أن تكون معك. وأرى أنك فتى ذكي ومتعقل يمكن أن تعمل بشكل جيد في مكتبي.»

«أنا مع أبي وأخي»، يقول والتر، وتلعثم وكان في صوته ما يشبه العواء: «نحن ذاهبون للحصول على أرض.»

«حسناً، إذن. لسّت الابن الوحيد لأبيك. ربما لا تتوفر مساحة كافية من الأرض الخصبة لكم جميعاً. وقد لا ترغب دائماً في أن تكون فلاحاً.»
يقول والتر لنفسه صحيح.

«ابنتي، الآن، كم تظن عمرها؟»

لا يستطيع والتر أن يفكر. يهز رأسه.

يقول والد نيتي: «في الرابعة عشرة، في الخامسة عشرة تقريباً. ربما لا تظن ذلك، أليس كذلك؟ لكن لا يهم، ليس هذا ما أتحدث عنه. ليس عنك وعن نيتي، أي شيء في السنوات القادمة. تفهم ذلك؟ ليس هناك ما يتعلق بالسنوات القادمة. لكن أود أن تأتي معنا ولنتركها طفلة كما هي ونسعدنا الآن بصحبتك. ثم من الطبيعي أنني أرغب في أن أكافئك، وسيكون هناك أيضاً عمل لك في المكتب، وإذا سارت الأمور على ما يرام يمكنك أن تتقاضى مبلغاً مقدماً.»

يلحظان نيتي قادمة باتجاههما، تخرج لسانها لوالتر بسرعة حتى يبدو أن أباهما لا يلاحظ.

يقول الأب: «كفى الآن. فكر واختر الوقت المناسب لتخبرني. لكن من الأفضل أن تُسرّع.»

لا يحتاج والتر وقتاً طويلاً ليستقر على رأي. يعرف ما يكفي ليشكر مستر كربت، لكنه يقول إنه لم يفكر في العمل في مكتب أو أي وظيفة في مكان مغلق. يقصد أن يعمل مع أسرته حتى يستقروا في الأرض ليزرعوها وحين لا يكونون في حاجة إلى مساعدته يفكر كثيراً في أن يتاجر مع الهنود، أن يكون مصدراً من نوع ما. أو يعمل في تعدين الذهب. «كما تشاء»، يقول مستر كربت. يسيران بضع خطوات معاً جنباً إلى جنب. «يجب أن أقول إنني اعتقدت أنك أكثر جدية من ذلك. لحسن الحظ، لم أقل شيئاً لنيتي.» لكن نيتي لم تكن غافلة عن حديثهما معاً. تضايق أباهما لتعرف كيف سارت الأمور ثم بحثت عن والتر.

«لن أكلمك من الآن»، تقول، بصوت أكثر نضجاً من أي صوت سمعه منها من قبل. «ليس لأنني غضبانه لكن فقط لأنني إذا واصلت الكلام معك فسيكون عليّ أن أفكر طوال الوقت كيف أودعك بسرعة، هكذا ينتهي كل شيء بسرعة.»

تقضي الوقت المتبقي في المشي بهدوء مع أبيها، في أجمل ثيابها.

يشعر والتر بالأسف لرؤيتها — في هذه العباءات والبونيهات الجميلة تبدو طفلة أكثر من ذي قبل، وتبدو غطرسها مؤثرة — لكن ليس أمامه الكثير للانتباه إلى ذلك ويندر أن يفكر فيها حين لا تكون أمام عينيه.

تمر السنوات قبل أن تظهر من جديد في عقله. لكنها حين تمر في عقله يجدها مصدر سعادة، متاحاً له حتى يوم مماته. يتسلّى أحياناً بالتفكير في أن ما حدث جعله يقبل

العرض. يتخيل التحسن المشع، اكتساب نيتي طولاً وجسمًا عذريًا، حياتهما معًا. ربما تبقى هذه الأفكار الحمقاء بالنسبة لرجل سراً.

جاءت حولنا عدة مراكب من الأرض بالسّمك والروم والخراف الحية والتبغ ... إلخ، باعوها بأسعار مرتفعة جدًّا للمسافرين. في الأول من أغسطس هبّت نسمة خفيفة وفي صباح الثاني من أغسطس مررنا بجزيرة أورلينز وفي حوالي السادسة صباحًا كنا على مرأى من كوبيك^{١٩} وكانت مزدهرة جدًّا كما اعتقد منذ غادرنا اسكتلندا. نبحر إلى مونتريال غدًا في سفينة بخارية.

كتب أخي والتر في الجزء السابق من هذه الرسالة مذكرات طويلة أنوي اختصارها في إيجاز. قطعنا رحلة ناجحة جدًّا بقيت مزدهرة بصورة مدهشة. ولا يمكن أن نقول شيئًا عن حالة البلاد. ثمة أعداد هائلة من الناس يقيمون هنا والأجور جيدة. لا أستطيع أن أنصح الناس أو أثبط عزيمتهم عن القدوم إلى هنا. الأرض واسعة جدًّا والكثافة السكانية قليلة جدًّا. أعتقد أننا رأينا أرضًا، ربما تكفي كل سكان بريطانيا، غير مزروعة ومكسوة بالغابات. سوف نكتب لك ثانية بمجرد أن نستقر.

حين أضاف أندرو هذه الفقرة، تشجع جيمس الكبير ليضيف توقيعه إلى توقيع ولديه قبل غلق الرسالة وإرسالها بالبريد من كوبيك إلى اسكتلندا. لن يكتب شيئًا آخر، يقول: «ماذا يعني الأمر لي؟ لا يمكن أن يكون وطني، لا يمكن أن يكون بالنسبة لي سوى أرض أموت فيها.»

يقول أندرو: «ستكون كذلك بالنسبة لنا جميعًا. لكن في الوقت المناسب سنفكر فيها باعتبارها وطنًا.»

«لن يُتاح لي الوقت لأعتبرها كذلك.»

«ألسْتُ بخير يا أبي؟»

«أنا بخير ولستُ بخير.»

ينتبه جيمس الصغير من وقت لآخر إلى العجوز، يتوقف أحيانًا أمامه وينظر في وجهه مباشرة بإصرار شديد.

يقول جيمس الكبير: «يزعجني. لا أحب وقاحته. يواصل ويواصل ولن يتذكر شيئًا عن اسكتلندا، حيث وُلِد، أو عن السفينة التي سافر عليها. سيعتاد على التحدث بلغة أخرى

^{١٩} كوبيك Quebec: مقاطعة في شرق كندا.

كما يحدث حين يذهبون إلى إنجلترا، لكن وضعه أسوأ من وضعهم. يتطلع إليّ بنظرة تقول إنه يعرف أنني انتهيت أنا وزمني.»

تقول ماري: «سوف يتذكر أشياء كثيرة.» صارت منذ الرقص وحادث مستر سوتر أكثر صراحة مع الأسرة. تقول: «وهو لا يقصد أن تكون نظرتة وقحة. هكذا يُعبّر عن اهتمامه بكل شيء. يفهم ما تقول، بأكثر مما تظن بكثير. يتأمل كل شيء ويفكر فيه.» تمتلئ عيناها بدموع الحماس، وينتقص الآخرون من شأن الطفل بتحفظات مفهومة. يقف جيمس الصغير وسطهم؛ بعينين ساطعتين ورائعتين ومباشرتين. نظيفاً بعض الشيء، حذراً إلى حد ما، رزيناً بشكل غير طبيعي، كأنه شعر أن عبء المستقبل يقع على كاهله.

يشعر الكبار أيضاً بغرابة اللحظة. يبدو كأنهم ولدوا لهذه الأسابيع الستة الأخيرة ليس على سفينة بل على موجة هائلة، جعلتهم يرسون على بقعة هائلة من هذا الشاطئ المذهل. تغزو الأفكار رءوسهم، تتحرك مع صرخات النوارس، فوضاهم الملحدة. تعتقد ماري أنها يمكن أن تنتزع جيمس الصغير وتهرب إلى جزء من مدينة كويبك الغربية وتعمل خياطة (عرفت من الكلام على السفينة أن هذا العمل مطلوب)، وتربيته بنفسها وكأنها أمه.

يفكر أندرو بما يكون عليه الحال هنا بالنسبة لرجل حر، دون زوجة أو أب أو أخت أو أطفال، دون أي عبء على ظهره. ماذا يفعل عندئذٍ؟ يقول لنفسه لا ضرر، بالتأكيد، لا ضرر في التفكير في ذلك.

سمعتُ أجنيس نساءً على السفينة يقولون إن الضباط الذين يراهم المرء في الشارع هنا هم بالتأكيد أجمل رجال العالم، وإنهم أكثر عشر مرات أو عشرين مرة من النساء. مما يعني أنه يمكن للمرأة الحصول على ما تريد منهم؛ أي الزواج. الزواج من رجل لديه ما يكفي من المال بحيث يمكن لها أن تركب عربة وتُرسل هدايا إلى أمها. إذا لم تكن متزوجة ولديها طفلان.

يعتقد والتر أن أخاه قوي وأجنيس قوية، يمكنها أن تساعد في الأرض وترعى ماري الطفلين. من قال إن عليه أن يصبح فلّاحاً؟ حين يصلون إلى مونتريال يذهب ويلتحق بشركة خليج هدسون^{٢٠} ويرسلونه إلى التخوم، حيث يعثر على الثراء إضافة إلى المغامرة.

^{٢٠} خليج هدسون Hudson: بحر داخلي شرق وسط كندا يتصل بالمحيط الأطلنطي.

شعر جيمس الكبير بردة وبدأ النواح صراحة: «كيف نغني أغاني الرب في أرض غريبة؟»

هؤلاء المسافرون مدفونون — كلهم إلا واحدًا — في مقبرة كنيسة بوسطن، في إسكسنتج، في بلدة هلتون، أونتاريو،^{٢١} على مرأى البصر غالبًا، والسمع، من الطريق السريع ٤٠١، للوهلة الأولى على بُعد بضعة أميال من تورنتو، ربما يكون أكثر الطرق ازدحامًا في كندا.

جيمس الكبير هنا، وأندرو وأجنيس. بالقرب منهم قبر ماري، وقد تزوجت رغم كل شيء من روبرت موري ودُفنت بجواره. كانت هناك ندرة في النساء ومن ثم كوفئن في البلاد الجديدة. لم تنجب هي وروبرت أي أطفال، لكنه تزوج بعد موتها المبكر من امرأة أخرى وأنجب منها أربعة أولاد يرقدون هنا، موتى في الثانية وفي الثالثة وفي الرابعة وفي الثلاثين. الزوجة الثانية هنا أيضًا. شاهد قبرها عليه كلمة «أم»، وشاهد قبر ماري عليه كلمة «زوجة».

أجنيس هنا، وقد بقيت على قيد الحياة حتى أنجبت الكثير من الأطفال. في رسالة إلى اسكتلندا، تعلن موت جيمس الكبير في ١٨٢٩ (سرطان، لم يكن هناك الكثير من الألم حتى قرب النهاية «دمر جزءًا كبيرًا من وجنته وفكه»)، ويذكر أندرو أن زوجته شعرت بتوعل في السنوات الثلاث الأخيرة. ربما تكون هذه طريقة ملتفة للقول إنها أنجبت في تلك السنوات الطفل السادس والسابع والثامن. ربما استعادت صحتها، عاشت حتى الثمانين. يبدو أن أندرو حقق نجاحًا، رغم أنه حقق انتشارًا أقل من والتر، الذي تزوج فتاة أمريكية من بلدة مونتجمري، في ولاية نيويورك. كانت في الثامنة عشرة حين تزوجته، وماتت في الثالثة والثلاثين بعد ولادة طفلها التاسع. لم يتزوج والتر مرة أخرى، لكنه نجح في الزراعة وعلم أبنائه، وضارب في الأراضي، وكتب رسائل إلى الحكومة يشكو من الضرائب. استطاع، قبل موته، العودة إلى اسكتلندا، حيث صور نفسه يرتدي ملابس منقوشة ويمسك بباقة من الأشواك.

على الحجر الذي يخلد ذكرى أندرو وأجنيس يظهر أيضًا اسم ابنتهما إيزابيل، وقد ماتت عجوزًا مثل أمها. ولدت في البحر.

^{٢١} أونتاريو Ontario: مقاطعة شرق وسط كندا. تورنتو Toronto: عاصمة أونتاريو وأكبر مدنها.

هنا أيضًا اسم المولود الأول لأندرو وأجنيس، الأخ الأكبر لإيزابيل. مات جيمس الصغير خلال شهر من نزولهم إلى كويبك. اسمه هنا، لكن من المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هنا. لم يكونوا قد حصلوا بعد على الأرض حين مات؛ لم يكونوا حتى قد رأوا هذا المكان. ربما دُفن في مكان ما على الطريق من مونتريال إلى يورك أو في تلك البلدة الجديدة المحمومة ذاتها. ربما في مقبرة مؤقتة تم الرصف فوقها الآن، ربما دون شاهد في ساحة كنيسة، حيث وُضعت جثث أخرى ذات يوم فوق جثته. مات نتيجة حادث مؤسف في الشوارع المزدحمة، أو من حمى، أو دوسنتاريا أو أي علّة، وكانت من الحوادث المدمّرة الشائعة بالنسبة للأطفال في زمنه.

